الدكتور يوسف محمد عبد الله

أوراق في تاريخ اليمن وآثاره

بحوث ومقالات



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أوراق
في تاريخ اليمن وآثاره
بحوث ومقالات

أوراق في تاريخ اليمن وآثاره

بحوث ومقالات

تأليف

الدكتور يوسف محمد عبد الله

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ١٦
الطبعة الثانية ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م
ط ١ ١٩٨٥

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

الجزء الأول

مقدمة

هذه أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، أشار علي بجمعها في كتاب من لا مندوحة لي في مخالفة مشورته ، بعد أن ظلت متناثرة زمناً . ولقد أضفت إليها ما جدَّ من أوراق مماثلة . ورغم أن هذه الأوراق في الأصل هي دراسات وبحوث متفرقة أعدّت في فترات مختلفة ، إلا أنني أزعم أنها تكاد أن تنتظم في سلك ملف واحد. وهناك أكثر من مسوّغ لجمعها بين دفتي كتاب واحد .

فهي أولاً تُعنى بتاريخ اليمن القديم وآثاره بصفة خاصة ، وهي ثانياً تغطي وعلى تفاوت كثيراً من مسائل التاريخ اليمني والآثار اليمنية على امتداد الحقب ضمن تصوّر عام يحاول رسم صورة تاريخية ممكنة تربط الماضي بالحاضر والأمة بالوطن والثقافة بالإنسان ، ولكي تتضح هذه الصورة التاريخية الممكنة فقد ضمَّت هذه الأوراق مطالعات في اللغات الأجنبية لخيرة المشتغلين بهذا المجال من أهل العلم وخاصة ما كتب باللغة الألمانية ، ونقلته مهذَّباً إلى اللغة العربية .

المؤلف

في صفة بلاد اليمن

تقع جزيرة العرب بين القارة الآسيوية ـ الأوروبية والقارة الأفريقية . ويفصلها عن القارة الآسيوية الأوروبية من جهة الشرق الخليج العربي ، ومن جهة الشمـال نهر الفـرات. ويـفصلها عن القارة الأفريقية البحـر الأحـمر من جهة الغرب. أما من جهة الجنوب فيحدّها المحيط الهندي ـ ولـذلك سميت جزيرة العرب فالمـاء يحيط بها من جـميع الجهات تقريباً.

وتقع جزيرة العرب على خط العرض الصحراوي ، فوسطها أمتداد للحزام الصحراوي المقابل للبحر الأحمر ونهر النيل في القارة الأفريقية . وفي جزيرة العرب يوجد الربع الخالي أكبر صحراء رملية على وجه الأرض[١] .

---

(١) راجـع - Wissman, H. von: Zur Geschichte und Landeskunde von Altsüdarabien . (SEG III). (SBAWW 246). Wien (1964).

Grohmann, A.: Arabien (Kulturgeschichte des alten Orients. III . Abschnitt. IV Unterabsehnitt, in Handbuch der Altertum swissenschaft. München (1963).

وتمتد من شمال الجزيرة على امتداد البحر الأحمر غرباً وامتداد الساحل العربي جنوباً سلسلة من الجبال متفاوتة الارتفاع . وبين هذه السلسلة الجبلية الطويلة والساحل أرض منبسطة أكثرها رمال . كما تمتد السلسلة الجبلية عرضاً باتجاه الداخل مكونة الهضاب الواسعة والقمم العالية وبينها القيعان الفسيحة ، ثم تنحدر تدريجياً شرقاً حتى تختفي في الصحراء . في الأطراف الشمالية لهذه الجزيرة قامت حضارة ما بين النهرين (دجلة والفرات) وحضارة مصر على ضفاف وادي النيل .

وبين هاتين الحضارتين القديمتين وحيث تنزل الأمطار في الشتاء تحملها الرياح القادمة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، قامت حضارات بلاد الشام (بلاد الشمال) . وفي جنوب هذه الجزيرة يزداد ارتفاع السلسلة الجبلية وتهطل الأمطار التي تحملها الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي ، بغزارة في الصيف على الجبال العالية والهضاب والقيعان . وتنحدر مياه هذه الأمطار وتسيل في أودية كثيرة على جانبي السلسلة الجبلية ، تمر عبر الأرض المنبسطة غرباً ثم تصب في البحر الأحمر أو جنوباً ثم تصب في المحيط الهندي . أو تجري شرقاً وشمالاً باتجاه الصحراء وتبتلعها الرمال . أن نزول الأمطار بغزارة في الصيف على مرتفعات جنوب الجزيرة العربية يسقي الجبال والهضاب والقيعان وأن جريان السيول في الأودية يسقي المنحدرات والسهول والسهوب . وأن غور المياه في مشارف الصحراء وترسبها في جوفها يوفران العيون والآبار .

إن معظم من سكن هذه الجزيرة هم العرب الشعب العظيم الذي ننتمي اليه وبهم سميت الجزيرة . وقد فرضت عليهم ظروف الجزيرة الطبيعية أن يحيوا حياتين : حياة الصحراء وهي حياة الرعي والتنقل بحثاً عن الماء والعشب ويتخذ أصحابها من الخيام بيوتاً لهم لسهولة نقلها من مكان إلى آخر وحياة أخرى هي حياة الاستقرار في الواحات وعلى ضفاف الوديان وفي سفوح الجبال العالية الممطرة ويبنون بيوتهم من الطين والحجارة ويعيشون على الفلاحة .

وفي جنوب الجزيرة العربية تتوفر الشروط الطبيعية اللازمة لحياة الاستقرار

فعلى ضفاف ـ الوديان وسفوح القمم الجبلية العالية في الضيعان ، أستقر قوم من ذلك الشعب العربي منذ دهر طويل ، فبنواالبيوت وتعاونوا على حرث الأرض الخصبة وأنبتت لهم الحب والفاكهة والخضرة وجنوا من خيرها الكثير . فأحبوا هذه الأرض وعمروها أحسن مما عمروها فارتقت معيشتهم وزاد خيرهم وأقاموا حضارة راقية تشبه تلك الحضارات التي قامت في شمال الجزيرة العربية وأطرافها : حضارات بلاد الشام وما بين النهرين ووادي النيل : تلك هي الحضارة اليمنية القديمة والأرض الطيبة التي قامت عليها هي اليمن ، وبناة تلك الحضارة هم اليمنيون القدماء .

وقد سماها الجغرافيون القدماء (العربية السعيدة)[1] لما عرفت به من خير عميم وثراء تجاري وفير بحكم تحكمها بطرق البان التجاري البري بين سواحل البحر العربي وسواحل البحر المتوسط.ولم تكن اليمن في باديء الأمر لدى أقوام العالم المتوسط القديم واضحة الحدود والمعالم لربما كانت هي الهند عندهم ، أو الحبشة ، أو بلاد « البُنت » أو جزيرة العرب كلها أو جنوبها . وكان اليمنيون أنفسهم يحرصون على الاحتفاظ بأسرار تجارتهم وعلى حصر المشتغلين بها قدر الإمكان فيما بينهم . فكان القدماء في حوض البحر المتوسط يسمعون عن وفرة ثراء اليمن ، وطيب بضاعتها ولكنهم يجهلون الكثير عن موقعها وربما كان جل علمهم أنها تقع الى الجنوب وهي آخر اليابسة أو آخر الأرض المعمورة وحيث يوجد الكاسيا والقرفة وأشجار اللبان التي لا تُسَّوق في مكان غيرها وتحرسها الثعابين .

وتبدأ حدود العربية السعيدة عند بطليموس حوالي عشرة كيلو مترات جنوب العقبة ويمتد خط حدودها شرقاً عبر صحراء النفوذ حتى يصاقب الخليج وجنوباً تمتد حتى البحر العربي . فهي تشمل معظم جزيرة العرب أما ما تبقى من الجزيرة فهي العربية الصخرية والعربية الصحراوية ، وكلاهما تقع في شمال

---

(١) Sprenger. A. Alte Geographie Arabiens, Amesterdam, (1875) . S. (1-10).

العربية السعيدة[1] .

واختلف الإخباريون العرب في تسميتها فقالوا[2] : اليمن اسم لولد قحطان بن الهميسع بن تيمن بن ثابت بن اسماعيل بن إبراهيم وبهم سميت الناحية التي سكنوها كما سمي كثير من البلدان بأسماء من سكنها ، أو أن نسبته إلى أيمن بن يعرب بن قحطان . وقالوا سُمِّي اليمن يمنا لِيمنِه كما سُمِي الشام شاماً لشؤمه ، وقالوا سُمي اليمن يمناً لأنه يمين الكعبة وسمي الشام شاماً لانه شمال الكعبة ، وسُمِّي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين الشام واليمن . وسماها أهل اليمن كالهمداني وغيرهم اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وزروعها خاصة اذا ماقورنت بالفلوات التي تجاوزها في جزيرة العرب .

قال الشاعر : ـ

هي الخضراء فاسأل عن رباها يخبرك اليقين المخبرونا

وحدودها عند الحسن بن أحمد الهمداني تبدأ مما خلف تثليث وفيها التهائم والنجد ، واليمن تجمع بِعَكّ كله ، وتأييد ذلك عنده أي في جمع اليمن لهذه المواضع كتب العهود من الخلائف لولاة صنعاء اليمن ومخاليفها وعَك وعمان وحضر موت ويريد بِعُكّ (أي عك) أرض تهامة . قال الهمداني :ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويَبْرين الى حد ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جَرَش وكتنة ، منحدراً في السراة على شعف عنز الى تهامة على أم جْجِدم الى البحر حذاء جبل يقال له كُدُمُّل بالقرب من حَمِضَة ، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة . . . » (الصفة ص ٦٥) [3] .

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) راجع مخطوطة العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ،ابو الحسن علي بن الحسن الخزرجي ، طبعة مصورة ١٩٨١ ، وزراة الأعلام والثقافة مشروع الكتاب ١/٦ ، صنعاء، ص (٢ ـ ٥).

(٣) صفة جزيرة العرب ، ابو محمد الحسن بن احمد الهمداني ، تحقيق القاضي محمد ابن علي الأكوع ، دار اليمامة ، الرياض (١٩٧٤) .

أما عند ابن المجاور في كتابه صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، فإن اليمن هي : المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن . فما كان من حد السُّرين فهي تنتهي الى ناحية يَلَملم حتى تنتهي الى ظهر الطائف ممتداً الى بحر اليمن الى بحر فارس شرقاً من اليمن ، فيكون من ذلك نَحْو من ثلثي بلاد العرب (ص ٣٩ - ٤٠)[١] . وفي دراسات بعض المستشرقين المتحدثين قد يطلق على اليمن اسم جنوب الجزيرة بدلاً من اليمن فيقولون مثلاً علم نقوش جنوب جزيرة العرب وتاريخ جنوب جزيرة العرب وهكذا .

وإذا ما أخذ بالقول السابق في صفة جزيرة العرب وحدودها أي أن الجزيرة تمتد من الفُرات الى البحر العربي على هيئة مستطيل فانه من اليسير أن يُفهم تصور العرب قديماً لشمال جزيرتهم وجنوبها على وجه الإجمال ، فينعتون شمالها بالشأم وجنوبها باليمن . ولكنهم قد يختلفون في تثبيت حدود الشمال والجنوب وذلك لعدم وجود حاجز طبيعي يفصلها بصورة واضحة ويصلح أن يتخذ حداً . وفي نظر بعضهم أن الحجاز سُمّي بذلك لأنه حجز بين اليمن والشأم . كما أنَّ شقة الخلاف حول هذه الحدود توسعت بسبب الأقوال التي حرصت قديماً وحديثاً على اعتبار سوريا وفلسطين ولبنان وغيرها ليست ضمن الجزيرة العربية بحكم تفردها بخصائص حضارات مستقرة تختلف عن النمط المعيشي البدوي الغالب على الجزيرة العربية . وفاتهم أن اليمن بالنسبة للجزيرة العربية لها أيضاً سماتها الحضارية وحياتها المستقرة الخاصة ، ومع ذلك لا يعني أنها لا تدخل ضمن الجزيرة العربية . ولما كانت لفظتا الشام واليمن بمعنى الشمال والجنوب واسعتي المدلول ، وهما في الأصل تدلان على الجهة ، فإن استعمالها للدلالة على تسمية ذات معنى محدد لم يكن شائعاً في التاريخ العربي القديم .

---

(١) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز لابن المجاور ، تحقيق لوفجرن ، ليدن (١٩٥١/١٩٥٤) .

وفي نقش ابرهة المشهور في النقوش اليمنية القديمة[1] يرد لفظ «زبيمن» (بالزاي) و « الزاي » هنا اسم الموصول بالحبشية ويقابل الذال اسم الموصول باللغة اليمنية القديمة أي الذي ينتمي الى اليمن أو الذي باليمن فقط واذا ما صحت قراءة هذه الكلمة في النقش المذكور فإنها ربما كانت أقدم ذكر لليمن في النقوش اليمنية بهذا المعنى الخاص الذي أصبح بعد ذلك مصطلحاً تعرف به بلاد اليمن ، أي منذ حوالي منتصف القرن السادس الميلادي. ويقابل هذه المصطلحات في لغات شمال الجزيرة مثلاً ما ورد في النص السرياني للتوراة بصدد الحديث على ملكة سبأ فذكرت باسم ملكة (تيمنا) أي الجنوب .

ومن هنا فلم تكن دول شمال الجزيرة تطلق على نفسها دول بلاد الشام . وكذلك لم تطلق دول جنوب الجزيرة على نفسها دول بلاد اليمن. وإنما كانت التسميات تتبع مناطق عديدة وتحمل الدولة اسمها الأصلي في منطقتها الصغيرة حتى وإن اتسعت الدولة لتشمل شمال الجزيرة كله أو جنوبه كله ، كدولة تدمر التي حكمت شمال الجزيرة كله في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. وخاصة أيام الملكة زنوبيا وتجاوزت دولتها شمال الجزيرة الى امبراطورية قصيرة الأجل بلغت مصر وآسيا الصغرى . وليس في مبلغ العلم أن زنوبيا دعت نفسها بملكة بلاد الشام . كما أن شمر يهرعش الذي حكم جنوب الجزيرة العربية كلها في آخر القرن نفسه كان يسمي نفسه ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة وليس ملك بلاد اليمن. والأمر نفسه بالنسبة لأبي كرب اسعد التبع اليماني المشهور والذي حكم في آخر القرن الرابع الميلادي ومطلع القرن الخامس وكان يلقب في النقوش بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة وأعرابهم طوداً وتهامة . وهو اللقب نفسه الذي حمله ابرهة (زبيمن) كما ورد سلفاً .

ويبدو أن انتشار لفظي الشمال والجنوب مع انتشار اللغة العربية المحضة وذلك قبل الاسلام بزمن ليس ببعيد هو الذي اعطى لفظتي الشأم واليمن

---

(١) مدونة النقوش السامية (CIH 541) .

تدريجياً والى اليوم دلالات معنوية محددة.فكان الشمال والجنوب اصبحتا لفظتين عامتين والشأم واليمن لفظتين خاصتين ضاقت دلالتاهما تدريجياً حتى صارتا تسميتين محددتين وهما بلاد الشأم (سوريا) وبلاد اليمن ، حيث تشمل سوريا بمعناها الخاص كل مناطق الحضارة الآرامية (السريانية) قديماً بما فيها لبنان وفلسطين .

وخلاصة القول أن اليمن هي جنوب الجزيرة والشأم هي شمال الجزيرة وربما فُصِّلا فقيل الحجاز ونجد فيما بينهما.وعرب الشمال يسمون أهل الشام وعرب الجنوب يسمون أهل اليمن . ويقال بلاد اليمن وأرض اليمن أو اليمن فقط .

ومنذ فجر التاريخ عرفت هذه الأرض نشاطاً بشرياً ملحوظاً وقامت فيه مستقرات عديدة شملت معظم أجزائها.وقد دل المسح الأثري الذي توفر في اليمن حتى الآن على أن هذا البلد مرُّ بفترات ما قبل التاريخ وقيام الحضارات الأولى التي أدت الى قيام الحضارة المزدهرة والتي عرفت منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد . وفي مراحل الأزدهار تركزت أولاً الحضارة اليمنية في مناطق الوديان التي تسيل من الجبال باتجاه الصحراء فلاة اليمن.وتسمى هذه الصحراء قديماً مفازة صيهد» وهي من جُـرز اليمن الشرقي والتي بمنزلة تهامة في الغربي منه[1] . وأهم الأودية التي تسيل باتجاه مفازة صيهد هي وادي ذنة ووادي بيحان ووادي عرمة ووادي مذاب.وعلى وادي ذنة كانت مدينة مأرب عاصمة السبأيين وعلى وادي بيحان كانت مدينة تمنع عاصمة القتبانيين وعلى وادي عرمة كانت مدينة شبوة ـ عاصمة الحضرميين وعلى وادي مذاب كانت مدينة قرناو عاصمة المعينيين . وهناك واديان مهمان يجريان باتجاه المحيط الهندي ويصبان فيه هما وادي حضر موت وكان يقع عليه كثير من مدن الحضرميين الشهيرة ، ووادي بنا وفيه نشأ تجمع الحميريين . وإلى الشمال يقع وادي نجران الذي يصب وفروعه

---

(١) الصفة ص ١٤٦، ١٦٦ ـ ١٦٧ .

في صَيْهَد ، أي على حد تعبير الهمداني في فلاة اليمن وغائطه . وكانت نجران ملتقى الطرق التجارة اليمنية ، ومركزاً هاماً لانطلاق النشاط التجاري اليمني باتجاه شمال الجزيرة وشرقها. ولا ريب أنه على ضفاف الأودية من مغرب اليمن قد قامت عدة مستقرات يمنية لعبت دوراً هاماً في تاريخ اليمن ابان ازدهار تجارة البحر الأحمر في العصرين القديم والاسلامي . وقد ورد ذكر بعض هذه الأودية في النقوش اليمنية القديمة مثل وادي عتود وضمد وخلب وليَّة وحيران وسردد وسهام[1] . ويعتقد أيضاً أن (موزا) الميناء اليمني الشهير على البحر والذي ذكرته المصادر الكلاسيكية كان يقع في مصيب وادي موزع . أما وادي مَوْد فهو مِيزاب اليمن الغربي بلا شك و بحكم اتساعه وغزارات مياهه كان من أهم الأودية التي هيأت ظروف حياة الاستقرار في المناطق الغربية الساحلية باليمن . ونحن نعلم أيضاً أنه على بعض هذه الوديان ازدهرت مدن وقرى اسلامية مثل الكدراء على وادي سهام والمهجم على وادي سردد وزبيد على وادي زبيد وهجر ضمد على وادي ضمد وغيرها .

وقد تركزت الزراعة قديماً في تلك المناطق الشرقية من اليمن حيث تلتقي سفوح الجبال بالصحراء وتكثر الواحات على الأودية . وكان من أسباب تركز الزراعة في هذه المناطق وازدهارها مرور الطريق التجاري الشهير عبرها . ولما تحول طريق التجارة البري الى الطريق البحري وبدأت القبائل البدوية المغيرة تهدد المناطق الشرقية المستقرة الهانئة ، اتجه الناس نحو سُكْنى المرتفعات بكثافة أكثر ، حيث الأمن والأرض الصالحة البديلة فازدهرت المدن اليمنية على سفوح قمم الجبال ، وفي القِيعان ذات التربة الخصبة والمياه الجوفية الغزيرة والأمطار الموسمية . فكانت مثلاً مدينة ظفار على سبح جبل ريدان وقرب حقل قتاب (قاع الحقل) . وصنعاء على سفح جبل نقم ، وقرب حقل صنعاء ، وشبام أقيان على سفح جبل كوكبان وقرب سهل شبام . وقرب قاع البون قامت مدن ريدة وعمران وناعط وغيرهما .

(١) راجع : . Les HAUTES - Terres du nord yemen ,tomm 1 , Chrestian Robin
.Nederlands Historisch - Archaeologiseh imstituut Te istanbul (1982) pp. (29 - 32).

وهكذا ازدهرت أيضاً حقول البون وجهران وذمار ورداع والسحول وماوية وغيرها . كما استمر النشاط الزراعي مزدهراً في وديان اليمن الكبيرة التي تصب في المحيط الهندي والبحر الأحمر كوادي حضرموت ووادي بنا برافديه حطيب ويهر ووادي تبن ووادي موزع ووادي رمع ووادي سردد ووادي مور ووادي عِتْودَ . وقد ادرك اليمنيون القدماء أن وديانهم ليست أنهاراً تجري فيها المياه العام كله وأن القيعان لا تستقى إلا موسمياً فكان لا بد من مواجهة هذه الظروف الطبيعية القاسية بذكاء ومهارة ، وأن يحسنوا استغلال التربة المحدودة بعزم ونشاط ، فكان لهم ما أرادوا . ورووا أرضهم بوسائل عدة منها[1] .

إنهم كانوا يقيمون حواجز ترابية (تسمى اليوم أعباراً أو عوارض) فتعمل على رفع مستوى مياه السيل لكي يمكن توزيع جزء منه على الأراضي المحيطة بمجرى السيل بواسطة قنوات جانبية . وبذلك يستيفدون من الأمطار حين هطولها بأسرع ما يمكن .

ومنها أنهم كانوا يبنون بالحجارة سدوداً في الممرات الضيقة من الوديان ويعملون لها مقاسم في كل طرف تصرف المياه الى الأراضي على جانب الوادي ، وبذلك يرفعون مستوى مياه السيل ليسهل توزيعها ، كما يحفظون كميات منه للري بين موسم وآخر . واشهر هذه السدود هو سد مأرب العظيم في وادي ذنة ، ومن سدود اليمن القديمة سد الخانق بصعدة وسد ريعان في وادي ضهر وسد العرائس في لحج وسدود أودية بيحان وجردان ووادي عمد وحقل يحضب .

ومنها أنه قد يساعد حجز المياه وخزنه على ارتفاع منسوب المياه الجوفية في الوديان والقيعان ويسهل بذلك الحصول على الماء بواسطة حفر الآبار وتكثر به الآبار في القيعان .

---

(١) تاريخ اليمن القديم ، محمد عبد القادر بـافقيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣، راجع ص ١٩٥ وما بعده .

كما اعتنوا بصناعة الأدوات الزراعية فقد عثر على صورة بارزة للمحراث وهو لا يختلف كثيرا عن محراث اليوم ، وهكذا استعملوا الفأس المشبر والمفرس والمجرفة والشريم وغيرها من أدوات الحرث الخفيفة النافعة .

وأنبتت أرضهم الحبوب مثل البر والذرة والشعير والفواكه كالأعناب واللوز والرمان والبلح وزرعوا الخضروات المتنوعة والأشجار النادرة مثل اشجار الورس واللبان والمر والقرفة .

وكان اللبان مادة اساسية لدى تقديم النذور للآلهة. والمر يستعمل في التحنيط وفي تحضير مواد التحميل . ويدخل كلاهما في تحضير بعض الأدوية المركبة . وكان عليهما اقبال كبير في العالم القديم - في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط ووادي النيل . او كما قيل كان يستهلك في كل المعابد ما بين نينوى والكرنك . فاهتم أهل اليمن بانتاج تلك السلع النادرة وحرصوا على كتمان اسرار انتاجها مما ساعد على قيام تجارة رابحة . وطوروا تلك التجارة حين عرفوا حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي فبنوا السفن وبدأوا يستغلون موقع بلادهم الجغرافي الممتاز. وقاموا بدور الوسيط التجاري بين سواحل الهند وشرق افريقيا وحوض البحر المتوسط. ونقلوا عبر طريق اللبان الشهير بضاعة أخرى لم يكونوا ينتجونها كالعطور والطيوب والبهارات والذهب والأحجار الكريمة وغيرها . كانوا يجلبونها بحرا الى ميناء قنا على ساحل البحر العربي (في مصب وادي ميفعة) ثم يهيئون لها القوافل الكبيرة التي تقطع الطريق التجاري عبر حواضر الدول اليمنية القديمة مثل شبوة ومأرب ومعين ونجران وددان حتى غزة ميناء فلسطين[1] . وعندما ضعفت الطريق البري حوالي الميلاد اقاموا الموانيء في مدخل البحر الأحمر وعلى سواحله مثل عدن وموزا. وهكذا ساهمت التجارة ايضا والموقع الجغرافي بقسط وافر في ازدهار الحياة العامة لليمن القديمة .

---

(١) راجع بهذا الخصوص عدة مقالات للدكتور والترمولّر ومنها : Müller, W.W.: Weihrauch. Ein arabisches Product und seine Bedeutung in der Antike, pre-caw, supplementband 15 (1978), Sp. 701 - 777.

ان الخصائص الجغرافية كالمناخ والتضاريس والموقع لا بد وأن تؤثر تأثيراً قويا في نشوء حضارات الأمم وفي تركيب مجتمعاتها سياسياواقتصاديا. وينطبق هذا القول على اليمن وحضارته القديمة . كما أن توفير الماء والغذاء للمحافظة على بقاء السكان الذين يستقرون بكثافة في الوادي أو القاع يتطلب أسلوبا منظما ومنتظما من العمل وذلك لانعدام الأنهار الدائمة الجريان ولهطول الأمطار في الصيف فقط ولطبيعة الأرض الصخرية والصحراوية التي تحتل قسما كبيرا من سطح اليمن . فيحتاج العمل ضمن هذه الشروط القاسية الى توفير الأيدي العاملة لإقامة الحواجز وبناء السدود والمدرجات وحرث الأرض وصيانتها ولا تنجز هذه المهمات إلا بإرادة جماعية وقوى متحدة واساليب عمل منظمة ومنتظمة تتحدى قسوة الطبيعة وتستغل مزاياها ، وتنفض غبار الكسل عن المواطن وتردع الأنانية لَدَيْه[١] .

---

(١) بعض هذه المادة في الجغرافيا التاريخية كنت قد كتبتها ضمن النص العلمي المقترح ليكون اساساً لكتاب التاريخ اليمني الموحد . وهذُب النص وصدر بما يناسب مقتضى الحال عام ١٩٧٧ . وبالنسبة لحضارة صيهد أو حضارة مشرق اليمن راجع ايضاً عدة دراسات بهذا الخصوص للبروفسور بيستن. ومنه هذه الدراسة : Beeston, A.F.L.: Warfare in Ancient South Arabia (2 nd - 3 rd) Centuries A.D. , London (1976), Qahtan Studies...3.

في سبيل معجم جغرافي تاريخي لليمن

منذ أن اشتغل علماء الدراسات القديمة بالنقوش والآثار اليمنية ، وهم ينشدون فيها ينشدونه دليلا يهيىء لهم مادة علمية رصينة وأداة عمل معتمدة ، يرجعون اليها متى ما صادفوا في النقوش التي يدرسونها علما او اسم قبيلة او اسم مكان جديد . . . ويوفرون بذلك جهداً مكرراً في ضبط الاسم بالشكل ومعرفة هويته او تحديد مكانه . . وعندما أصدر (لانكستر هارنج) معجمه الكبير والذي أسماه (فهرست الأسماء العربية القديمة وثبت نقوشها) وذلك عام ١٩٧١، استقبله الباحثون بشغف واستعانوا به كثيرا في أبحاثهم ، بل انه دفع عجلة البحث العلمي في مجال الدراسات العربية القديمة وحث على تسارعها . . وكان ذلك التسارع نفسه سببا من الأسباب التي أبانت قصور الكتاب بعد عقد واحد من الزمن ، وعززت الحاجة الى تنقيحه وتصحيح الأخطاء الواردة فيه واستكمال ما قد تجاوزه فيه البحث العلمي . .

وليست دراسة الأسماء القديمة ترفا علميا وانما هي في صميم مقاصد الدراسات اللغوية والتأريخية والأثرية فالتسميات علامات واضحة تسعف على تبين الأحداث التأريخية بدقة وعلى معرفة البيئة التي دارت فيها تلك الأحداث . . بل ان طرائق التسميات واشتقاقها ودلالاتها تعتبر من البنى الأساسية في تكوين

الأمم ونشؤها ، وهي حقائق مضيئة تبرز سمات المجتمعات وتعكس سبل معاشها ومناهج تفكيرها وضوابط معالم ابداعها إنَّ الأسماء في الدرسات اللغوية والتأريخية من الأدلة اليقينية في تواريخ الشعوب سواء أكانت أسماء اماكن أو أسماء قبائل وشعوب أو أسماء ابطال تأريخيين أو اسطوريين . . لأن هذه الأسماء لها قدرة على البقاء آلاف السنين وقد تتعاقب الحضارات وتتعاقب الديانات والثقافات وتتعاقب التنظيمات السياسية والاجتماعية وتتعاقب اللغات دون أن تتغير هذه الأسماء تغيراً حقيقياً رغم ما قد يصيبها من تحريفات عبر القرون وما يطرأ عليها من تبدل . . (راجع مقدمة في فقه اللغة ص ١٩) . . .

والأسماء من بعض الأوابد في حياة الشعوب ، ان جاز التعبير ، فهي مما يرسخ استمراريتها ويعزز ذاتيتها ، ولهذا عني العلماء بدراسة الأسماء وحرصوا على ضبطها وتحقيق مبانيها وصيغها ، وتحديد معانيها ، وتبيان دلالاتها ، وتتبع اشتقاقاتها . . وان خطأ في قراءة اسم قديم قد يجر الى خطأ تاريخي كبير . . والأمثلة على ذلك كثيرة . . فعندما قرأ الحسن بن احمد الهمداني (عاش في القرن الرابع الهجري) اسم اله القمر ومعبود السبئيتين الأكبر في مأرب ظنه خطأ اسم ملكة سبأ . . ولما رأى كثرة انتشار الاسم في معبد اله القمر اعتقد ان المكان هو عرش الملكة .

وعندما قرأ ابن دريد هذا الاسم ويرسم هكذا (المقه) ظن ان الألف معدولا عن الياء كقولهم مثلا (أسماء) بدلا من (وسماء) ثم انطلق يفسر معنى (اليلمق) وان الكلمة مأخوذة من الفارسية ومعناها القباء المحشو الى آخره . . والى اليوم نقرأ في كتب الأخبار والتأريخ ان (المقه) اسم لبلقيس ملكة سبأ بينما نعرف اليوم علم اليقين ان (المقه) هو اسم لأله القمر عند السبئيين وان كان المعبود المفضل لديهم وان ما يسمى عرش بلقيس ليس سوى معبد من معابد ذلك الاله . . .

وفي العصر الحديث ظن بعض الدارسين ان لفظة (مجن) الواردة في النقوش المسمارية هي نفسها التسمية (معين) الواردة في النقوش اليمنية القديمة ، فكان

ان تعزز القول لدى بعضهم ان معين هي أقدم الدول اليمنية القديمة وان تاريخها الحضاري المزدهر يعود الى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد بقرون . . وجر هذا القول الى توكيد هذا الرأي عند بعض الدارسين التابعين مما وطد هذا الظن عند غير المختصين الى اليوم . . ورغم ان القول هو ظن تأكد خطأه وليس بين علماء الدارسات اليمنية القديمة من يقول به ، الا انه ليس من اليسير ازالة اثر ذلك الخطأ ا و اقناع الناس بعدم صحة خطأ شائع . .

ولما كانت الأسماء تمر عبر لهجات مختلفة وربما لغات مختلفة ايضا او أنها تصحف خلال النقل والتدوين وفي الحالين يلحقها التحريف ـ فإن أية محاولة لإعادة ضبطها وتقويمها استنادا الى قواعد علوم اللغة وعن طريق مقارنتها بنظيراتها التي وردت في مصادر اخرى من نقوش وكتابات ثم عرضها على ما تبقى من موروث الماضي في الحاضر بغرض تحديدها وتعريفها ، لا شك أنها جهود مفيدة تسعف جميعها على حسن الاستفادة من تلك الأسماء وتوظيفها في خدمة اللغة والتأريخ والثقافة بوجه عام . .

وكما ان لمفردات اللغة معاجم مرتبة ومنسقة ذات منافع جلى في تعلم اللغات ودراستها وسبل تطوير اساليب تلك الدراسات، فإن التسميات كالمفردات اجزاء من تلك اللغات وعناصر هامة فيها . . وتدرج كثير من المعاجم التسميات في صلب مادتها ، بل وتحاول أن تفرد بين طياتها مساحة كافية لدراسة أصولها وتطور استعمالها وتنوع مشتقاتها . . ولا تشذ عن هذا المنحى المعاجم العربية المشهورة مثل لسان العرب لابن منظور (وتاج العروس) للمرتضى الزبيدي . . . .

على ان المعاجم الحديثة وخاصة تلك التي وضعت لتخدم اغراضا تعليمية قد تكتفي بإيراد الألفاظ واستعمالاتها المتعددة دون ايراد التسميات التي لا شك انها ستثقل تلك المعاجم ، ان هي أدرجت، وقد تخرجها عن مسارها وغاياتها .

وكان هذا هو النهج الذي اتبعه مؤلفو معجم اللغة اليمنية القديمة (المعجم

السبئي) والذي صدر في العام الماضي. . فالأسماء لا تدخل في مادة المعاجم كما قال أحد مؤلفي المعجم ـ اذ أن المعجم هو إطار تنقل فيه معاني الألفاظ من لغة الى أخرى، اما الاسم فهو ما دل على شخص او على شيء مطابق له . . بالاضافة الى ان وضع فهرست بالأسماء امر قد انجزه فهرست الأسماء العربية قبل الاسلام وهو الكتاب الذي سبقت الاشارة اليه . . ومع ذلك فالكتاب المشار اليه قد عراه ايضا بعض القصور بحكم توسع دراسات النقوش اليمنية القديمة ، كما ان مادته لا تُعنى اصلا بتحقيق الأعلام لغويا وتاريخيا ولا بتخريج اسماء الأماكن وتحديد مواقعها . . .

ولقد حاولت في كتابي المنشور بالألمانية بعنوان (الأعلام في كتاب الأكليل للهمداني ونظائرها في النقوش اليمنية القديمة ، جامعة توبنجن ١٩٧٥، ان أغطي جانبا من تلك الحاجة العلمية الى مدونات موثقة للأعلام وأسماء الأماكن واسماء البطون والقبائل واسماء المدن وغيرها مما يحفل به التاريخ اليمني القديم. . وقد ركزت اهتمامي في هذا الكتاب على اسماء الأشخاص والبطون والقبائل التي وردت في النقوش اليمينية القديمة وعرضتها على نظائرها في كتب الأنساب اليمنية عند الحسن بن أحمد الهمداني وأثبت اصحها وعنيت عناية خاصة بضبطها بالشكل وفق قواعد اللغة اليمنية القديمة ثم تحقيقها قدر الامكان ضمن اطارها التأريخي . . وتبدت في الدراسة بجلاء ضرورة الاستفادة من المصادر العربية المكتوبة لدى محاولة قراءة الأسماء التي ترد في النقوش. . وهي اسماء يلجأ علماء النقوش عادة الى تجنب ضبطها ضبطا محكما ويوردونها كما هي في النقوش بخط المسند وبحروفها المصوتة الخالية من رسم اصوات اللين وعلامات الشد والمد والوصل وحركات الضبط القصيرة . ولا يبعد كثيرا بالنسبة لما ورد في كتب الأخبار والأنساب من اسماء لحقها التصحيف واعتراها التشويه من خلال ما تعاقبت عليه من سلاسل الرواية والنقل والنسخ . . والقاريء لهذه الكتب وخاصة تلك التي تعني بتاريخ اليمن القديم وسجل أنسابه ، لا ريب انه سيجد اسماء كثيرة غريبة الشكل ومختلفة الرسم وغير ثابتة الضبط وسبب ذلك ان تلك الأسماء ترد في النقوش بخط المسند وهو رسم يقوم على الحروف الصحيحة وعار

من علامات اصوات اللين والشد والمد وهمزة الوصل والحركات القصيرة مثل الفتحة والضمة والكسرة.

وللتدليل على ذلك أورد هذين المثالين .. المثال الأول الاسم (لحيعثت) المكون من إسمين مركبين (لحي) مثل عمرو بن لحي و(عثت) وهو اسم لحقه حذف الأخر وأصله (عثتر) وعثتر هو اسم اله الزهرة عند السبئيين ويجري مجرى (حار) في محل (حارث) أو (فاطم) ترخيم (فاطمة) في موروث اللغة العربية .. غير ان هذا العلم (لحيعثت) يرد مصحفا في المصادر العربية المكتوبة وبصيغ مختلفة منها (لخيعة) ، (لخنيعة) ، (لختيعة) ، (لهيعة) وهكذا ..

المثال الثاني هو الاسم المشهور (معدي كرب) ويرد هذا الاسم في المصادر العربية وحتى في كتب المؤرخين المحدثين بصيغة (معد يكرب) .. وبدراسة هذه التسمية تبين انها مركبة من (معد) وكرب ومعد مثل معد بن عدنان وكرب لازمة في كثير من الأعلام اليمنية القديمة مثل (ملكي كرب) و (أبي كرب) و(إلى كرب) و (عمي كرب) و(اسمي كرب) .. والياء في الوسط للوصل والأشباع . وتصحيح قراءة هذا الاسم تطرد على كثير من الأسماء التي نقلت عن اليمن القديم رواية أو نسخا .. فلا يقال (عميانس) وانما عمي أنس ، وهو اسم احد الأصنام الذين ذكرهم ابن الكلبي في كتاب الأصنام ...

ولا ينبغي أن تعرب (أب) في أبي كرب أسعد التبع اليماني المشهور اذ ليست هنا من الأسماء الخمسة وانما تلحقها الياء الواصلة مثل (عمي كرب) وفق القاعدة ..

وما زالت الحاجة ماسة الى استكمال هذا الجانب في معجم واف يشمل كل الأعلام وأسماء البطون والقبائل في النقوش اليمنية القديمة ومقارنة ذلك بما ورد في كتب الانساب الأخرى مثل جمهرة النسب لابن الكلبي وغيرها من كتب الموروث ذات الصلة..

على ان الحاجة الى معجم بأسماء الأماكن والمدن بقيت أشد الحاحاً وهاجساً يراود العلماء.. فعندما أصدر (البرت جام) مجموعة النقوش السبئية في عام

١٩٦٢، وهي جماع ما عثرت عليه البعثة الأثرية الأميركية لدى تنقيبها في معبد (المقه) بمأرب عام ١٩٥٢، إعتبر العلماء تلك المجموعة كنزاً ثميناً حوى من المعلومات التاريخية الجديدة ما أسعف على جلاء الصورة التاريخية لدولة سبأ في فترات معينة وأزاحت الستار عن أسماء كثير من الحكام والمدن ذات شأن كبير في تأريخ اليمن القديم الا ان الاستفادة من ذلك الكنز ظلت محدودة نظراً لغياب المعاجم المتخصصة التي تعني بالمفردات والأعلام والأسماء ولأن الدراسات في مجال الجغرافية التأريخية لليمن والجزيرة العربية ما زالت محدودة وقاصرة ولا تفي بغرض الباحث المتخصص.. وهكذا بقيت مواقع بعض المدن الهامة المذكورة في نقوش تلك المجموعة وغيرها في علم الغيب.

وقد تكرر في نقوش هذه المجموعة ذكر (قرية ذات كهل) وارتبط ذكرها بحكام سبئيين مشهورين مثل شعراو تربن علهان نهفان والذي عاش في اواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلاديين.، ولم يتمكن البرت جام رغم سعة اطلاعه ودقة بحثه من تحديد ذلك الموقع..

وقال في كتابه مجموعة النقوش السبئية (ص ٣٠٤): تقع مدينة قرية في مكان ما من تلك البلاد [أي شمال جيزان وصبيا] ولم يتنبه (البرت جام). وغيره من الباحثين نظرا لغياب معجم جغرافي تاريخي ايضا، الى ان الهمداني كان قد ذكر هذا الموقع في كتابه صفةجزيرةالعرب عرضا وفي موضع واحد فقط من الكتاب. ووصفه بأنه قديم وفيه آثار على الطريق بين نجران وشرق الجزيرة.. فبعد أن يذكر الفلج والعقيق والمقترب على هذا الطريق يقول (ثم رجعت الى الطريق من المقترب تريد اليمن قصد نجران فتشرب بحسي كباب.. فإن تيامنت شربت ماء عاديا (أي قديما) يسمى (قرية) الى جنبه آبار عادية و كنيسة منحوتة في الصخر.. الصفة (ص ٢٩٧). كما ان بعض موظفي شركة (أرامكو) كانوا قد نبهوا اليه في الأربعينات من هذا القرن وكذلك الرحالة فيلبي في عام ١٩٥٢.

اما اليوم فالموقع معروف ويسمّى (قرية الفاو) ويقع في وادي الدواسر على

سفح جبل طويق ، وهو محل تنقيب أثري منذ مطلع السبعينات من قبل قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود . . وقد دلت آثار (قرية) على مدينة هامة تقع على طريق التجارة القديم بين اليمن وشرق الجزيرة. . وكانت حاضرة لاتحاد قبلي على رأسه قبيلة كندة اليمنية المشهورة .

وإذا ما رجع المرء الى رسالة الدكتور عبد الله الشيبه في أسماء الأماكن اليمنية القديمة الدراسة التي هي محل المراجعة ، لعرف شيئاً مفيداً ومحققاً عن (قرية ذات كهل) (الغامضة) ، ولتحقق من موقعها ومواضع ورودها في النقوش اليمنية القديمة وفي صفة جزيرة العرب للهمداني . . وينطبق الأمر نفسه على عشرات المدن اليمنية القديمة التي عنيت بها هذه الدراسة فوفرت بذلك مادة جاهزة ودقيقة وسهلة المتناول يفيد منها علماء الآثار والتأريخ والجغرافيا على السواء . .

صدرت هذه الدراسة بالألمانية وفي نسخ محدودة عن جامعة ماربورج بألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٢ . . ومبلغ العلم أنها ستصدر أيضاً هذا العام وبخرائط موسعة ضمن سلسلة منشورات معهد الآثار الألماني بصنعاء* . .

وتهدف هذه الدراسة في مجملها إلى تقديم عرض منظم لاسماء الأماكن التي وردت في النقوش اليمنية القديمة ، والى محاولة تحقيق تلك الأسماء وتحديد مواقعها ، وذلك ضمن تصور بعيد المدى يهدف الى رسم الاطار الجغرافي التأريخي لليمن وتحديد مراكز الثقل الحضاري فيه . .

وقد استقى الباحث مادة الدراسة من مصدرين أساسيين، أولهما النقوش اليمنية القديمة ، وثانيهما كتب الموروث التأريخي والجغرافي التي عنيت باليمن أو تناولت طرفا منه . . كما استعان الباحث بالدراسات المحدثة والمعارف المعاصرة التي تتصل بتأريخ اليمن وجغرافيته .

ويعتمد الباحث في تقديم هذا العمل على نهج قويم قوامه العمل العلمي المعجمي الذي يقتضي الجمع والاستيفاء لكل ما جاء من أسماء الأماكن في

* لم تصدر الى الآن .

النقوش ثم التحقيق والمقارنة والانتقاء لكل ما يلائم خطة البحث الصارمة استناداً الى ما ورد في الموروث الكلاسيكي والعربي واستعانة بالمعارف والأدوات المعاصرة . . وقد اقتضت خطة البحث تنسيق المادة وتبويبها وإثبات ما هو دال ومفيد من الشواهد والاحالات متجاوزا في معظم الحالات تكرار المصادر ان قطع بالحجة احدها او بعضها، فكان أن خرج البحث في شكله النهائي على هيئة معجم محكم مملوء بالمادة العلمية وفي الوقت نفسه موجز في العرض والتناول ، متخذا من الاختصارات وسيلة مجدية ، وليكون البحث في حدود ما تقتضيه شروط الرسائل الجامعية في المعاهد والجامعات الألمانية . . .

وليس في نية مراجع هذه الرسالة تناولها تناولا مسهبا ، بحيث يناقش كل ما ورد فيها مؤيداً ومعارضاً ، اذ ان ذلك يقتضي تأليف كتاب آخر ربما لن يكون اكثر افادة وأحسن احكاما من الكتاب المراجع ، مهما نشد صاحبه الاجادة والاحسان . .

كما أن مناقشة مسهبة لمحتويات أية دراسة معجمية كهذه لا تصلح بطبيعتها لتكون مادة علمية سهلة التناول والاستفادة من قبل الباحثين بمقدار الدراسة الأصل ، بل إنها قد تشتت الباحث اكثر مما تنفعه . . فالدراسات المعجمية الرائدة تترك عادة لتنقح عبر الزمن وليزاد عليها أو ليصبح بعض ما فيها متجاوزا . . ولكنها تبقى مع ذلك لتمثل مرحلة ضرورية في مسار العلم ولا تغني عنها كتب المراجعة والنقد والتجريح وكما قلت ، مهما بلغت شأوا في الاجادة . .

على أن أية مطالعة موضوعية لأية دراسة جادة قد تفتح مداخلاتها آفاقاً رحبة أمام الدارسين وتسهم في التعريف والتبصير بما اضافته من علم مفيد . .

وفيما يلي ملحوظات مقتضبة حول محتوى هذه الرسالة القيمة ومصادرها ومادتها ، نوردها إتماماً لما سلف ذكره ، وفي إطار ما أوضحناه من أهمية الرسالة وتبيان مقاصدها :

تحتوي الدراسة على ما يزيد عن (٦٥٠) اسما لاماكن وردت في النقوش اليمنية القديمة المتوفرة والتي يربو عددها عن (٨٠٠٠ نقش) وتتفاوت هذه

الأسماء بين إسم لقطعة أرض مزروعة بالنخيل (ذات بران) ، واسم ارض لدولة مثل (أوسان) . . . وبين هاتين التسميتين تقع تسميات القرى والمدن والحواضر ، وتسميات النقل والطرق والوديان والمناطق . . كما تضم أسماء اماكن خارج الأرض اليمنية مثل مصر وقطيسفون (المدائن في العراق) و (مؤاب) في بلاد الشام . وتشمل أيضاً أسماء اماكن في اليمن لم تتمكن الدراسة من تحديد مواقعها نظراً لغموض المعلومات عنها وقلة القرائن الدالة عليها . .

وفي صميم الدراسة تتبع الباحث اكثر من (٧٣) مدينة يمنية قديمة وردت في النقوش تحت اسم (هجر) وأستطاع الباحث تحديد مواقعها عموماً ووضعها على خارطة ملحقة ، وان كانت الخارطة مصغرة بحيث يصعب تبين الأسماء فيها ومحدودة بخارطة اليمن الحديث فقط . . وقد خرج الباحث من دراسته لتلك المدن بتصور جديدة ومفيد . . . فهو يدمج في هذا التصور ما ذكره بليني عن المدينة اليمنية القديمة (أوبدوم) وتصور صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري(متروبوليس)ونعت الهمداني لها بالقصر مع ما يصاحب ذلك من أسوار وأبواب ومعبد رئيسي وسوق عام ، وقلعة حامية . وهو امر قل أن عني به الدارسون وما زال بحاجة الى دراسة وافية على ضوء تنقيب علمي منظم في احدى المدن اليمنية التاريخية مثل مأرب وبراقش . . .

ولقد حرص الباحث على ان يدرج في دراسته كل الأسماء التي وردت في النقوش المنشورة حتى عام ١٩٨٢ أي عام اكمال الدراسة . . وبذل جهدا طيبا في تتبع تلك الأسماء في مظانها من مدونات النقوش ومصادرها ، محددا قدر الامكان المواضع التي عثر فيها عليها كعنصر مساعد في تحديد موقع المكان . . كما ضبط بالشكل (ما يقابل ذلك بالرسم اللاتيني ووفق نظام متعارف عليه) تسميات تلك الأماكن وفق أصح الأقوال والروايات . . . .

ورغم ذلك لا بد من القول إنه من الصعب ان يفترض المرء ان الدراسة قد شملت كل أسماء الأماكن الواردة في النقوش اليمنية القديمة المعروفة أو انها بلغت حد الاستقصاء والكمال . . .

وهو امر معهود في مثل هذه الدراسات التي لا تتوفر مادتها بسهولة ويسر ،

وحيث لا تكون المعارف جاهزة ومبوبة في ثنايا الكتب والمدونات والمعاجم .
أجل!! هناك مدونات للنقوش اليمنية القديمة مثل المدونة اللاتينية (كوربوس) والمدونة الفرنسية (ريبوراتوار) ، والمدونة الألمانية (افيمريس) والمدونة الايطالية للنقوش المعينية (جاربيني) ومجموعة (جام) ثم بعض المجلات المتخصصة والمعنية بوجه عام بالدراسات العربية واليمنية القديمة (راجع المختصرات والارشارات السابقة مفصلة في ختام هذه المراجعة) ولا شك ان الباحث قد افاد منها افادة كبيرة الا ان هناك أيضا قطعاً وشذرات من هذه النقوش في مقالات متفرقة واحيانا مكررة. وقد تختلف في قراءة الاسم عن ما هو في تلك المدونات . .
وهناك أيضا نقوش معروفة لدى بعض العلماء والمهتمين ولكنها غير منشورة أو غير سهلة المنال. وفي غياب مدونة شاملة وجامعة تضم كل هذه المدونات الصغيرة والشذرات المتفرقة وتثبت اوجه الخلاف او اصح القرارات وأحدثها عهدا ، ينبغي ان نوميء الى امكان القصور والاشارة الى مثل تلك الفجوات . . وذلك ليس قصورا صدر عن الباحث بقدر ما هو قصور عام في مجال الدراسات اليمنية عموما . . بالاضافة الى ان الاشتغال بهذه الدراسات يقتضي جهدا مخلصا وصبرا حسنا وربما فترة زمنية كافية . . .

وقد اطلعت المؤلف شخصياً على بعض ما لدي من اضافات بسيطة ، وأنا أعلم ان زملاءه الآخرين لا شك انهم سيرفدونه بما لديهم . . وكما قيل : هناك دائما مسالك غير مطروقة . .

والى جانب استقاء المؤلف مادة ، بحثة من المصادر النقشية كان اتكاؤه على المصادر المكتوبة ، الكتب الكلاسيكية كالتاريخ الطبيعي (لبليني) ، وكتاب الطواف حول البحر الأريتري وهو مجهول المؤلف ، ثم الكتب العربية القديمة ، وخاصة كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني، وكتاب الأكليل باجزائه الأربعة المنشورة منه ، ثم كتاب صفة بلاد اليمن والحجاز لابن المجاور ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي . واستند المؤلف ايضا الى الدراسات الأجنبية الحديثة مثل جغرافية بلاد العرب (لشبرنجر) ، وكتاب «فون فيسمن» : في سبيل جغرافية تاريخية

لليمن . كما لم يغفل المؤلف بعض الدراسات العربية الحديثة ذات الصلة الوثيقة .

ويحمد للباحث في هذا المنحى ، عنايته بأسماء الأماكن اليمنية التي وردت في المصادر الكلاسيكية ، على الرغم من الصعوبة التي يجابهها الباحثون في نقل ابنية الأسماء ورسمها من اللغة اليونانية خاصة. ان كثيرا من تلك التسميات قد طرأ عليها الحذف واعتراها التحريف والتصحيف. وفي اعتقادي انه قد غلب على مقارنة تلك التسميات ومطابقتها بالتسميات العربية نزعة الاجتهاد، وهو امر محمود ، ودون أن تقطع تلك الاجتهادات بالحجة والوصول بها الى مرتبة اليقين .

وقد أحسن الباحث صنعا عندما تجنب بعض تلك الاجتهادات فأورد (مخون) أي المخا بمصادرها النقشية والعربية وحدد مكانها على الخارطة دون أن يتبنى بعض الاجتهادات حول (موزا) اسم الميناء اليمني على البحر الأحمر في العصر الحميري ، في المصادر الكلاسيكية ، وهل هو المخا نفسه أم موشج شمال المخا أو موزع جنوبه . وإن كان يؤخذ على الباحث أنه أثبت اسم (سوم) في النقوش اليمنية ونظيره (سوى) عند بليني ، ثم يعتمد شبر نجر وغيره في تحديد موقع المكان تحديدا عاما: « جنوب غرب تعز في ناحية جبل حبشي » دون أن يستنطق الشواهد اليمنية المعاصرة في توكيد موقعه وكيف ينطق أهله اسمه ، أي (السَّواء) دون تشديد الواو . وتذكر بيانات التوزيع السكاني التي نشرها الجهاز المركزي للتخطيط صنعاء ١٩٧٨ م أن السَّواء في قضاء الحجرية ناحية المواسط ويطلق على عزلة سكانها لا يعلون عن ألفين وثلثمائة نسمة . وأضيف أن في السواء موقع أثري ربما كان بعض اطلال تلك المدينة القديمة التي كانت أهم محطة تجارية تربط ميناء موزا؟ على البحر الأحمر بأرض المعافر. [ملحوظة : يذكر التقرير السويسري عن أرقام السكان في بعض مناطق اليمن ان سكان عزلة السواء يزيدون عن تسعة آلاف وخمسمائة نسمة (ص ١٧٨)] .

وما زال باب دراسة الأسماء التاريخية اليمنية ، والتي ذكرت في المصادر الكلاسيكية ، مفتوحا أمام الباحثين وخاصة من يعنى منهم بدراسات التسميات

(أونومستيكون) ، وممن يلمون بأسرار العربية واليونانية معا . ولنضرب مثالا واحدا فقط على تباين العلماء في قراءة تلك التسميات واختلافهم في تحديد هوية اصحابها . ولتكن (جرها) ، المدينة التجارية الهامة في شرق الجزيرة ذات العلاقة القوية بطريق اللبان القادم من اليمن ابان ازدهاره . يقول نايجل جروم في مقال بعنوان « الجرهاء مدينة مفقودة بالجزيرة العربية» نشر في حولية الآثار السعودية «أطلال» ص٩٧: « إنه من المسائل المحيرة للدراسين لتاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام محاولة التعرف على موقع مدينة جرهاء الأثرية . وهناك عدد من الأفكار المطروحة لتحديد موقع هذه المدينة . فقد ذكرها كل من استرابو وبليني وصاحب كتاب الطواف ، وظهرت ايضا على خريطة بطليموس للجزيرة العربية، ولا يزال موقعها مجهولا الى اليوم » . والواقع أن هناك اجتهادات لغوية وطوبوغرافية فيما يتعلق باسم تلك المدينة وموقعها فمنهم من يعتقد أنها (الجرعاء) التي ذكرها الهمداني هي الاسم العربي لها. ومنهم من يظن أن مكانها هو ما يدعى بالعقير اليوم أو واحة القطيف في الاحساء، ومنهم من يقول أنها كانت في موقع ثاج الى الشمال من البحرين على مسافة تزيد عن مائة ميل . ومنهم من يعتقد أن (جرها) هو تحوير لاسم مدينة الأحساء المشهورة قبل الاسلام وبعده (هجر) . وانها المدينة الوحيدة في تلك المنطقة التي ازدهرت قديما واكتسبت شهرة تستحق ان تذكرها المصادر الكلاسيكية باعجاب . وهذا الرأي الأخير يلاقي اليوم استحساناً لدى الدارسين.وكنت أود تفصيله لولا أن ذلك يخرج بنا عن نطاق مراجعتنا هذه من حيث أنها لم ترد في دراسة الدكتور الشيبة مقترنة بجرهاء، وانما ورد ذكرها مرة واحدة في نقش معيني باسم هجر ، ورجح بأنها هي نفسها المدينة القديمة المعروفة والتي كانت في محل ما يسمى اليوم «مدينة الهفوف » ، مرة أخرى دون أن يلزم نفسه بواحد من الاجتهادات المختلفة .

واذا كان الباحث في دراسته قد أغفل من المراجع الحديثة بيانات التوزيع السكاني وقوائم الاحصاء التي صدرت في شمال اليمن كما أشرنا الى ذلك في الحديث عن (السواء) ، رغم أهميتها ، الا انه يحمد له أنه اعتمد بالنسبة للمواقع التاريخية الواقعة في الشطر الجنوبي على دليل حديث ودقيق لأسماء

الأماكن المستعملة هناك ، بحيث تمكن من ضبط الأسماء ضبطا جيدا ، وتحديد مواقعها على الخارطة تحديدا دقيقا . وكانت وزارة الدفاع الأميركية في واشنطن هي التي اصدرت هذا الدليل الرسمي والعملي عام ١٩٧٦ .

وقد يعذر الباحث بعض الشيء لاغفاله بيانات التعداد السكاني التي نشرها الجهاز المركزي للتخطيط لصعوبة الاستفادة منها عمليا ، أولاً لصعوبة تبويبها واعتمادها على الاجمال لتسميات قبلية وليست مكانية ، وثانيا لخلوها من الخرائط المفصلة الدالة وثالثا لحاجتها الى الضبط بالشكل وهو امر ضروري في قراءة التسميات الواردة فيها وبالتالي مقارنتها بالأسماء القديمة التي تخلو هي نفسها من علامات الضبط . ومع ذلك كنت اتمنى على الدكتور الشيبة لو لم يهمل هذا المرجع كأداة رسمية نسقت وفق نظام الادارة المحلية اليوم وتقسيماتها للأقضية والنواحي والعزل . ولا شك أن الاطلاع عليها قد يضيف شيئا مفيدا .

على أن الرسالة على الاجمال توفقت في رصد كثير من أسماء الأماكن التي وردت في النقوش اليمنية القديمة وتتبعتها في مصادرها قبل الاسلام وبعده ، واثبتت استمراريتها اسما وموضعا الى اليوم . واستمرارية التسميات في الأسماء بوجه عام لفتت أنظار الباحثين في الدراسات اليمنية ، مما دعاهم الى توكيد هذه الاستمرارية في تسمية القبائل والبطون والأماكن كخصوصية يمنية ، قلّ أن تجد لها مثيلا في تاريخ الشرق القديم . ولقد استفاد الباحث استفادة جلّى من هذه الخصوصية، وأحسن توظيفها ، ونبه الى بعض التجاوزات في قراءة تلك التسميات من قبل بعض علماء النقوش، وممن هم من أهل البعد عن اليمن ، رغم تواترها (وبقائها متواترة) وربما في المكان نفسه الى اليوم . وفي رأيي أن رصد هذه الخصوصية وتوكيد استمرارية بنية اساسية من البُنى الثقافية اليمنية القديمة ثم ربطها بالحاضر ضمن نهج سليم وتواصل علمي موثّق ، لسمة بارزة في هذه الرسالة المراجعة ، مما يعزز ما ذهبنا اليه من تقرير أهمية مثل هذه الدراسات الجادة الهادفة .

وبعد ـ فانه ربما كان من المفيد ايضا أن نسجل بعض الملحوظات التفصيلية

وبسرعة على هذه الرسالة ثم نختم الحديث باستطراد مفصل حول مادتين أو لنقل تسميتين من التسميات التي وردت فيها استكمالاً للمسائل التي تناولتها الرسالة وانطلاقا من الآفاق العلمية الجديدة التي أومأت اليها .

تضح : يجوز قراءتها تنضح، وادغام النون شائع في اللغة اليمنية القديمة ومثال ذلك يكفً وينكف .

سبل: يجوز قراءتها اسبيل ايضا لخلو خط المسند من الف الوصل وأصوات اللين.

لحيان: يمكن تحديد مكانها تحديدا أكثر دقة فبدلا من أن يقال في شمال مكة يمكن ان يقال في وادي القرى شمال المدينة .

مأسل جمحن : هي فعلا مأسل الجمح في نجد ولكن بالامكان فعلا تحديد موضعها على الخارطة بدقة ويحدده كتاب «مقدمة عن آثار السعودية» في صفحتي ١٧ و١٨ بأن موقعه في نجد، ويبعد عن الدوادمي مسافة ٥٠ كيلومترا الى الجنوب الشرقي. ويضيف وهو من أهم الأماكن الأثرية التي اشتهرت بوجود نقوش قديمة أهمها ثلاثة نقوش سبئية . . ولعله كان من المفيد ايضا لو رجع المؤلف الى المعجم الجغرافي للبلاد السعودية الذي صدر منه الى الآن عدد من الأجزاء.

سهرتم : تعذر تحديد هذا المكان بدقة. ولعل ما ذكره أخي الأستاذ عبد الله هاشم الكبسي قول في محله ، أي أن التسمية لا تعني مكانا مجهولاً الى الآن أو جبل السراة على رأي بعضهم بحذف الهاء وانما تطابق التسمية اسم الزهرة المدينة والناحية المعروفة في لواء الحديدة . والتحديد التقريبي الذي استقاه المؤلف من النقوش لا يتعارض مع هذا الرأي الجديد . ويقول الأخ الكبسي أن أهل المنطقة ما زالوا ينطقون الزاي وسطا بين السين والصاد، ومثل ذلك لا يجانب الصواب لدى المعنيين بأصوات اللغة اليمنية القديمة وتحولاتها . ومما يؤيد ذلك ان التسمية وردت معرفة ايضا كما هي عليه الآن .

يكلى : يرى المؤلف أن (يكلي) هي النخلة الحمراء الموقع الأثري الذي

عثر فيه على تمثالي ذمار علي وابنه . ومصدره في ذلك هامش الأكليل(ج - ٨ ص ١٧٤) تحقيق القاضي محمد علي الأكوع . ومبلغ العلم انه ليس هناك دليل قاطع على ذلك . كما لم يورد المؤلف شيئاً من ذلك .

وانا أعلم أن مثل هذا الافتراض متداول بين العلماء ، ولكن ذلك لا يكفي ، ما دام لم يرد نقش يؤكد ذلك أو لقية أثرية أخرى، أو ما شابه ذلك من قرائن . واذكر انني عندما زرت نجد المجانح في ناحية السوادية ، لواء البيضاء، ذكر لي موقع أثري قريب منه اسمه يكلى، ولم أتمكن الى الآن ، مع الأسف ، من زيارته الى الآن للتحقق من ذلك ، وهو موقع لا يبعد في الواقع كثيرا من الزيلة أو النخلة الحمراء الموقعين المقترحين لمكان (يكلى) المدينة القديمة التي ذكرتها النقوش، وذكرها الهمداني ضمن القصور القديمة التي تحوي آثار عظيمة .

طيب : أيضا ليس هناك دليل قاطع على انها طيبة في ناحية الطفة من لواء البيضاء. على الرغم ان الباحث قد حاول حصر المنطقة قدر الامكان ، وان مكانها ينبغي أن يقع ضمن تلك المنطقة.

ضاف : تنطق الى اليوم حسب علمي دون تشديد الفاء كما ورد في الرسالة .

رمضة: هي بالتأكيد بفتح الميم وليس بتسكينه كما هو معروف لدى أهل قانية الى اليوم .

واختتم هذه المطالعة لرسالة الدكتور الشيبة بتناول تسميتين وردتا فيها ، وبطريقة تخالف نهج الرسالة الصارم وتعرض لبعض الدلالات اللغوية والاجتماعية التي تتضمنها هاتان التسميتان كدليل آخر على ما تومىء اليه الرسالة من آفاق جديدة تتجاوز اطارها . والتسميتان هما ضهر وهجر :

الشائع اليوم ان الناس ينطقون اسم الوادي الجميل الواقع في شمال غرب صنعاء وعلى بعد ١٦ كم تقريبا (وادي ظهر) بالظاء . ولكن المعلوم لدى ثقات المؤرخين ان اسم الوادي هو بالضاد. والخلط في النطق وربما الكتابة ايضا بين الحرفين أمر معروف لدى علماء اللغة ، مثل ابن جني في كتابه الخصائص وابن

سيدة في كتابه المخصص والصاحبي في فقه اللغة. وقد اطلقوا على هذه التحولات الصوتية (الفونطيقية) والتي جرت على الأصوات الساكنة تسميات معروفة مثل كشكشة ربيعة وشنشنة اليمن وكسكسة هوزان وهكذا. ومن الطريف أن لويس عوض في كتابه «مقدمة في فقه اللغة» وضع تسمية شخصية لقلب الضاد الظاء، على النسق السابق نفسه وهي (الظوظوة). ويضع الخليل ابن احمد حرف الضاد حسب اقسام مخارجها مع الحروف الشجرية مثل الجيم والشين لأن مبدأها من شجر الفم. ووضع حرف الظاء مع الحروف اللثوية مثل الذال والثاء لأن مبدأها من ذلق اللسان. ولدارسي الأصوات العربية المحدثين اجتهاداتهم ايضا ويختلفون في تقسيم بعضها وفق المخارج. فيقولون مثلا، ان الضاد مخرجه من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، وأن الظاء مخرجه ما بين طرف اللسان، بينه وبين ما فوق الثنايا. وقديما قيل أن العربية تختص بالحاء والظاء وقيل ايضا أن الضاد مقصورة على العربية دون سائر اللغات.

أما علماء اللغات السامية المقارنة فيرون أن الضاد اشتركت في الأصل يوما ما مع غيرها من اللغات السامية (أي اللغات العربية الأرومة) في عدد من الأصوات منها الظاء وهو صوت مهموس، والضاد وهو صوت مجهور يتكون كسابقه بين الأسنان مع رفع مؤخرة اللسان نحو اللثة. وبمرور الزمن اندمج الحرفان في اللغات غير العربية الفصحى، وبموت اللغة اليمنية القديمة لم يتبق حرف الضاد في أي من تلك اللغات القديمة سوى في اللغة العربية الفصحى. ولذلك ميزت به فسميت لغة الضاد.

والحقيقة أن للغة العربية النزعات التطورية نفسها التي تحكم اللغات الأخرى الشقيقة. وبقي حرف الضاد في لغتنا بسبب تلاوة القرآن الكريم وحفظه والاقتداء بنطقه وتجويده. ولهذا نجد في بعض اللهجات المحلية أن حرف الضاد قد أفلت منها، وليس فيها ما يميزه عن حرف الظاء. ومن هذه اللهجات، لهجة أهل اليمن. ونحن نعلم انه في فترات الضعف اللغوي وقلة العناية بالفصحى وانتشار الأمية تطغى العامية ونزعات تطورها طغيانا بينا، ويكون من نتيجته هذا الخلط، وهو طبيعي في الواقع، بين صوت الضاد

وصوت الظاء. ولا يقتصر هذا الخلط أو قل الاندماج في حرف واحد على النطق، وانما يسري على الكتابة ايضا. ويلمس هذا مثلا في املاء الطلاب والصحف المحلية، حيث تكتب على سبيل المثال كلمة ضرف بالضاد بدلا من ظرف بالظاء وهو الأصح. ويكتب وادي ضلاع بالظاء بدلا من الضاد وكذلك وادي ضهر تكتب بالظاء وفق النطق الشائع وهو اصلا بالضاد.وليس بالمغبون عقلا ان ينبري احدهم ليسجل نقدا لاذعا ولوما لجامعة صنعاء وعلى صفحات الجرائد، لأن احد مسؤوليها نشر اعلانا ذكر فيه وادي ضهر وكتبه بالضاد واعتبر هذا الخطأ حسب قوله خطيرا جدا في جوهره ، اذ كيف تخطيء قلعة العلم . ولا تفرق بين الضاد والظاء، واعتبر الأمر اجحافا بحق لغة الضاد ، مؤكداً أن اسم الوادي هو فعلا بالظاء المهموس . وصاحب النقد معذور في ما ذهب اليه إذ أن الخطأ الشائع ألهاه عن جوهر المسألة وأصلها واصبح النطق الشائع دليله والسماع قاعدة لديه مما دفعه الى توجيه ذلك النقد الشديد بحسن نية وغيرة على لغة الضاد. ومن عجيب المصادفة أن لقب الناقد قد رسم وفق قواعد الكتابة الصحيحة فوقع باسم الظرافي بالظاء، خلافا لما هو معهود من كتابة ظرف ومشتقاتها خطأ بالضاد .

وليعذرني القاريء ، فقد استحسنت هذا الاستطراد اللغوي واستظرفته (بالظاء) لأدلل على أن أصل تسمية وادي ضهر هي بالضاد وان كنت في واقع الأمر لا استهجن النطق الحالي بل أقبله كتطور صوتي مسوغ . مع العلم ان هناك أدلة قاطعة فعلا على أن اسم الوادي منذ القدم هو بالضاد . وخير دليل على ذلك هي تلك الاستشهادات التي أوردها الدكتور الشيبة في رسالته عن تسمية هذا الوادي في النقوش اليمنية القديمة والمصادر التاريخية الأخرى.فبجانب الوادي كانت هناك مدينة مزدهرة بهذا الاسم . والاخباريون ينسبونها الى ضهر بن سعد كما جاء في الاكليل الجزء الثامن وصفة جزيرة العرب للهمداني . ويؤكد محقق الكتابين القاضي محمد علي الأكوع ان اسم الوادي بالضاد ويستشهد بقول الشاعر :

يا حبذا انت يا صنعاء من بلد وحبذا واديها الضهر والضلع

وفي النقوش اليمنية القديمة يختلف حرف الضاد عن حرف الظاء اختلافا بينا في الرسم هكذا ▭ ض و ꟸ ظ بحيث يستحيل الخلط بينهما في الرسم . وورد اسم المكان ضهر بالضاد مراراً في النقوش. وعند الهمداني وادي ضهر بالضاد اسم وادي ومصنعة في مخلاف مأذن . راجع ايضا القصيدة الحميرية لنشوان ومعالم الأثر اليمنية للقاضي السياغي . ومع ذلك فان الرسالة تذكر بعض المصادر التي أوردت التسمية بالظاء مثل كتاب ابن المجاور «صفة بلاد اليمن والحجاز».

خلاصة القول ان الأصح في التسمية وفق المصادر المعتبرة هو أن يقال وادي ضهر بالضاد وليس بالظاء كما هو شائع اليوم . ولكنه من الصحيح أيضا أن نسجل ما ينطقه العرب اليوم وما تجري عليه السنتهم من تحولات صوتية ومن الصعب أن ننفيه من لغة العرب . على أن لصوت الضاد بالذات قداسة مكتسبة في تراثنا قد توهم البعض أحيانا ان من يخطيء في نطقها يدخل في عداد من يحوم حول الحمى حتى يوشك أن يقع فيه. ومع ذلك فاني اجد الحديث المسهب في هذه القضية مما يتنطع به عادة رجال اللغة ، ولربما شابهتهم هذه المرة في ذلك ، ولكن لا تثريب عليهم ، فكما توجد مدارس الفن للفن هناك ايضا في حقول المعرفة اللغوية من يدرس اللغة للغة والنحو للنحو . وفي العلم كما هو معهود متعة وفائدة ، وللناس فيها يعشقون مذاهب. ويتندر بعضهم فيروون أن أحدهم قضى شطراً كبيراً من عمره وهو يبحث في (حتى) وأوجه « اعرابها » أو قل محلها من الأعراب وعملها . ويضيفون أنه مات ولما يزل في نفسه شيء منها .

وانتقل بعد مناقشة التسمية (ضهر) الى التسمية واللفظة (هجر) وهي في اعتقادي من صميم موضوع الرسالة العلمية التي هي محل المطالعة ، بل إن تلك التسمية كأنها واسطة العقد فيها ، وفي السطور السابقة كنت قد نوهت بذلك وعرضت لخطة الرسالة ونهجها في دراسة الهجر (أي المدن) اليمنية القديمة . . وأرجو أن أتناول فيما يلي لفظ (هجر) متجاوزا خطة الرسالة المعجمية الصارمة

الى مناقشة اللفظة ضمن دلالاتها واشتقاقاتها المتعددة واستعمالاتها التأريخية والمعاصرة . ودون أن يغلب على الحديث المنحى اللغوي الذي اعتمدت في مناقشة التسمية (ضهر).

المدلول الديني للفظة (هجرة) كما هو معلوم ، انتقال المؤمن من بلد الفتنة والخوف على دينه الى حيث يأمن على دينه ، وأغلب هذا يذكر بازاء لقب الأنصار ، وهم أصحاب المدينة من المؤمنين . قال تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم باحسان » . وقال تعالى : ﴿ إن الذين امنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ . ويدخل في هذا المدلول المعني الكبير للهجرة النبوية كحدث فاصل ونقطة تحول في تاريخ المسلمين . وقد اكتسى لفظ الهجرة بذلك ثوبا اسلاميا زاهيا وصارت كلمة الهجرة ثرية المعنى نتيجة ذلك الحدث الهام الذي نقل المسلمين من دار الشرك الى دار الايمان ومن دار الاستضعاف الى دار القوة والمنعة ، ومن مرحلة الشتات القبلي الى مرحلة الأمة الموحدة ، ومن مرحلة البداوة الى مرحلة الحضارة.فكان ان سميت يثرب دار الهجرة بالمدينة . . والمدينة هي الحاضرة وعكس البادية . ودار الهجرة تبعا ذلك هي دار الاستقرار والأمان والحضارة ، وفي الموروث لا تعرب بعد الهجرة، أي لا تبدي بعد التحضر ، كما قد يفهم من السياق.

أما المعنى اللغوي للفظ (الهجرة) فيأتي من صيغة الفعل الماضي المجرد بمعنى صرم وترك . كأن يقال تركت فلانا او صرمته أو هجرته أي تركت وصله وقربه . ومن الجذر نفسه اشتقت صيغة فاعل ، هاجر وصيغة فعلة المصدر بمعنى انتقل من بلد الى آخر . واختص المعنى في الهجرة من مكة الى المدينة في حياة الرسول ، حين كانت مكة بلد كفر وشرك قبل الفتح ، ومن ذلك جاء لقب المهاجرين .

ويستفاد من كتب للغة أن الأصل في معنى الهجرة هو أن يخرج البدوي من باديته الى المدن كأن يقال هاجر البدوي ، ثم توسع المدلول ليشمل معاني عدة وظلال معان أخرى . وفي المدلول الديني للهجرة نجد مثل هذا المعنى الخاص

حيث اعتبر كل من أقام في البوادي ولم يلحقوا بالنبي ولم يتحولوا الى امصار المسلمين أي المدن التي أحدثت في الاسلام غير مهاجرين ، حتى وان كانوا مسلمين . كما نهي عن العودة الى البوادي بعد الهجرة .

ومما يؤيد هذا الأصل اللغوي للفظ الهجرة بمعنى الاقامة في الحضر بدلاً من البوادي تلك التسمية التي اطلقت على واحة الهفوف قديما ومنذ فجر التاريخ . . فقد عرفت تلك الواحة المستوطنة والتي اضحت محطة هامة على طريق القوافل باسم هجر ، وورد اسمها في النقوش الأكدية وفي النقوش اليمنية القديمة بهذا الاسم، وعرفت بعد الاسلام بهذا الاسم ايضا. وفي المثل: « كحامل التمر الى هجر » ، اشارة الى زراعة النخيل فيها وكثرة محاصيلها منه بحيث لا يحمل اليها ما تشتهر بانتاجه . وبالاسم (هجر) نعتت ايضا عشرات المدن اليمنية القديمة، ففي النقوش اليمنية القديمة يقال (هجرن صنعو) ، أي المدينة صنعاء و(هجرن مأرب) أي المدينة مأرب و (هجرن تمنع) أي المدينة تمنع و(هجرن ظفار) و(هجرن شبوه) . . . وهكذا والى اليوم تعرف اطلال بعض المدن اليمنية القديمة باسم الهجر ، مثل هجر أم ناب وهجر بن حميد . فالمدينة اليمنية القديمة هي فعلاً (كالأوبيدوم والميتروبوليس) في المصادر الكلاسيكية وحاضرة الدولة ، والمدينة التي تحاط بالأسوار وتقام فيها القصور والمعابد والأسواق والدور ، وهي المستوطنة البشرية المحصنة المحمية ضد الأعداء الآمنة بما تحويه من مؤسسات وأنظمة . وهكذا كانت الهجر اليمنية القديمة ، وهكذا كانت المدينة المنورة دار هجرة ، وفيها اقيم المسجد، واتخذت شكل المدينة المحصنة . . وقريب من ذلك مصطلح (الهجرة) في اليمن اليوم . ويطلق في الغالب على القرية أو المدينة التي تخلو من الحروب ويصطلح على أن تكون حمى وملاذا وتتخذ حرما آمنا بل ومركز علم وتعليم يفد اليه الطلاب، مثل هجرة صنعاء وهجرة ظفار ذيبين وهجرة الكبس وهجرة دبر وغيرها ، وهي اماكن معينة بعيدة عن خلافات القبائل ولا تخضع لتقاليد القبيلة وأعرافها وتجري فيها حل الخصومات والاصلاح بين أهل المناطق المطيفة بها وفق احكام الشريعة . . ومنها اشتق لفظ تهجير بمعنى الموافقة على الصلح والاعتراف بالذنب وذبح شاة أو

بقرة أمام منزل صاحب الحق واقرار بذنب انتهاك الحرمة والحمى الذي تمثله الهجرة .

(وقد فصل ذلك زميلي الدكتور سيد سالم في كتابه الجديد وثائق يمنية) .
ويقابل مصطلح الهجرة مصطلح آخر هو الحوطة. . والحوطة هي القرية أو المدينة المحاطة أو المحمية وتؤدي تقريبا وظيفة الهجرة ، ومثال ذلك الحوطة في لحج والحوطة في وادي حضرموت وغيرهما .

على ان للمدلولات السالفة الذكر ظلال معان معاصرة، مثل التهجير بمعنى اتخاذ مكان ما هجرة بحقوقها وواجباتها ودلالاتها الاجتماعية والتهجير بمعنى تقديم ما يدل على الموافقة على التوجه الى الصلح من أجل حل المشكلات والخلافات الشخصية والقبلية والتهجير بمعنى نقل البدو (الرحل) الى مواطن مستقرة . واسم المشروع الذي اتخذ في السعودية لاسكان البدو في مواطن مستقرة هو مشروع التهجير ، وهكذا فلفظ تهجير في جملة ما يعنيه قد لا يعني مجرد النقل من مكان الى آخر كما قد يتبادر الى الذهن وانما يكمن في دلالة اللفظ معنى آخر هو الارتباط بسكن الحواضر والمدن أي سكنى (الهجر) بالمصطلح القديم .

ويشبه ذلك معنى مصطلح الهجرة عند علماء الاجتماع الذي لا يعني مجرد الانتقال من بلد الى بلد سعيا للرزق والبحث عن الأفضل، وانما يعني أيضا الانتقال من الريف الى المدينة . وقد تكون الهجرة من ريف البلد الى المدينة خارج البلد وتلك هي الهجرة الخارجية كانتقال أهل اليمن من الريف الى مدن الجزيرة أو غيرها ، أي أن الهجرة وان كانت في الأصل تعني الانتقال الا انها وبمدلول اجتماعي تعني في الوقت نفسه الاقامة في المدن والسعي فيها لطلب الرزق كما هو شأن أهل الحواضر .

ولقد كانت الهجرة النبوية في الواقع نقلة حضارية وحضرية . والهجرة في اليمن القديم كانت مركز الحضارة وهجرة أهل الريف الى المدينة في عالم اليوم من عوامل أزدهار المدن وتحضرها . وهكذا فالهجرة قد تحمل فيما تحمل من

دلالات معنى الانتقال وفي الوقت نفسه معنى مضاد وهو الاستقرار إذ انه من قبيل التحضر ايضا عملية التحول نحو نحلة أرقى في المعاش والنزوع الى تأمين موارد الاستقرار. ويبقى في هذا كله غرض الهجرة ، فهو المؤشر الحاسم في تحديد الدلالة ومستواها .

ويحضرني في هذا المقام قول مفيد سمعته للدكتور محمد علي الغول رحمه الله منذ أن كنت تلميذه ،وكان من كبار علماء الدراسات اليمنية القديمة . وكان قد نشر هذا القول في أكثر من مكان ضمن بحثه بعنوان «مكانة لغة نقوش اليمن القديمة في تراث اللغة العربية الفصحى »، ما مؤداه : الهجرة في حقيقتها مأخوذة من (الهجر) وهي بلغة النقوش ولغة حمير القرية أو المدينة التي فيها سلطان أو من ينوب عنه . . ومعنى هاجر وفق ذلك هو اتخاذ الهجر دارا للاقامة والتقيد بطاعة صاحب الأمر فيها . . ومن هنا نفهم القول أو الحكم الذي يقول من تعرب بعد الهجرة فقد كفر أو ما في معناه . . فالمقصود من ذلك ان من خرج عن سلطان ولي الأمر وكان مقره الأمصار والقرى وارتد بدويا فقد خلع الطاعة وكفر . . ومن هنا كان اسكان البدو في الهجر زمن الملك عبد العزيز بن سعود ، في المملكة العربية السعودية . أ . هـ .

وبعد ـ فان لكل امرىء هجرته . . وهجرته هي الى ما هاجر اليه ولا ريب ان للدكتور عبد الله الشيبه في رسالته عن الهجر اليمنية القديمة هجرة ايضا ، ارجو ان أكون قد وفقت في الايماء اليها والى حسن غايتها من خلال هذه المطالعة . وحسبي أنني شاركت الدكتور عبد الله في همه . وأشركتك يا عزيزي القاريء هذا الهم : الحاجة الى « معجم بلاد اليمن التاريخي الجغرافي » فهل يا ترى نحن في سبيله ؟

---

* توفي في ديسمبر ١٩٨٣ .

عم تتحدث النقوش اليمنية القديمة؟

ذكر أهل الأخبار ان يعرب بن قحطان كان أول من نطق بالعربية ابيه نخرج عن نمط العرب المبلبلة ، والناس حينئذ مختلطو الألسن قد تبلبلوا وقال :

أنـا الغـلام ذو النـصيب الأجـزل	الأيمـن المعـروف بـالـتـجـمـل
أنـا ابن قحـطان الهـمـام الأقبـل	أعـربـت والأمـة في تـبـلـبـل
بـالمنـطق الأبـين غـير المشـكـل	ومنـطق الأمـلاك بعـدي الكمـل
يـا قـوم سيـروا في الـرعيـل الأول	فـحـظنـا الأوفـر غـير الأرذل

وينقل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في (مزهره)[1] في جملة ما ينقله عن متقدميه ان لغة العرب نوعان : إحداهما ـ عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبله وبقي بعضها الى وقته . . والثانية العربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بها اسماعيل .

(١) عبد الرحمن السيوطي ، المزهر من علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد احمد جاد المولى وآخرين ج ١ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة: (بدون تاريخ) ص ٢٨ .

كما يُروى ان رجلا من أهل دومة الجندل من كندة قال يمن على قريش تعلمهم الكتابة عن طريق بشر أخي صاحب دومة الجندل : -

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم	فقد كان ميمون النقيبة ازهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو	من المال ما قد كان شتى مبعثرا
واتقنتمو ما كان بالمال مهملا	وطامنتمو ما كان منه منضرا
فاجريتم الأقلام عودا وبداة	وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا
واغنيتمو عن مسند الحي حمير	وما زبرت في الصحف اقيال حميرا

ويذكر ابو عمرو بن العلاء من قول مشهور : ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، من دخل ظفار حمّر (وظفار هي عاصمة حمير) .

بمثل تلك الأقوال تحدث الاخباريون العرب عن عربية اهل اليمن قبل الاسلام وعن خطهم المسند . ويشاركهم مثل هذا الرأي العلامة اليمني الحسن بن احمد الهمداني ، حيث يذكر في كتابه المعروف (صفة جزيرة العرب) لغة اهل صنعاء في زمانه في القرن الرابع الهجري فيقول : صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير[1]. وفي الجزء الثامن من كتابه الأكليل يفرد الهمداني بابا لحروف المسند ويعتبره «كتاب حمير» ثم يرسم صورته ، ويمثل على ذلك بمسند عثر عليه في ناعط وهي مدينة اثرية معروفة الى اليوم . اما الباب الذي يليه فقد سماه (القبوريات) ويبدأه بقوله : عن الكلبي (أي فيما روي عن الكلبي) وغيره مما وجد بالعربية ومما ترجم ونقل اليها من الحميرية . واكثر ما وجد في المساند القبورية بكلام الحميرية . وانا لما جعلنا الجزء التاسع مقصورا على الكلام بالحميرية (وهو جزء ما زال مفقودا) رأينا ذكر ما لم يختلف فيما كان من القبور بالحميري ونضمنه إياه ونقدم منه ما كان عربيا من جنس هذا الجزء.

ذلك كان صدى الماضي البعيد للغة عرب اليمن وخطهم المندثرين قبل

---

(١) صفة جزيرة اليمن ص ٢٧٨ .

الاسلام . ظل يتردد عبر مسامع الزمن الى العصر الحديث. وعندما تعرف العلماء على خط المسند في مطلع القرن التاسع عشر وجدوا انفسهم امام كلام حميري وليس بالعربية المحضة. ففي عام ١٨١٠ وصل الى اوربا عن طريق تاجر كان يتردد على ميناء بن اليمن الشهير ، حجر صغير مكسور وكله منقوش كان قد عثر عليه باحث الماني في قرية ظفار الحالية عاصمة حمير القديمة سابقا اسمه «اورليش جاسبر فون ستزن » وذلك خلال رحلته الى اليمن التي اودت بحياته . وحاول حينئذ قراءة النقش عالم ايطالي واعتبر تلك الكتابة المنقوشة على الحجر كتابة كوفية ، وظنه اخر انه يشبه الخط المسماري . على ان تلك المحاولات غير المقنعة دفعت العلماء الأوربيون ، الذين كانوا في سبيلهم الى تنشيط الدراسات الشرقية انذاك ولاسباب عدة ، الى محاولات جادة ومضنية لحل رموز تلك الكتابات التي كان قد تجمع لديهم نماذج اخر منها . وفي عام ١٨٤١ تمكن العلماء الألمان من حل تلك النقوش ونعتوها بالكتابة الحميرية .

وما أن حل القرن العشرين حتى كانت الجامعات والمعاهد الأوروبية قد جمعت عددا وفيرا من تلك النقوش اليمنية القديمة عن طريق ارسال بعض الرحالة المهتمين الى اليمن وصدرت أول محاولة لوضع مختارات وبعض القواعد اللغوية الخاصة بتلك النقوش. .

وفي عام ١٩٢٦ اصدر الايطالي اغناطيوس جويدي الاستاذ بالجامعة المصرية ، المختصر في قواعد اللغة اليمنية القديمة ، وفي عام ١٩٢٧ صدر في كوبنهاجن كتاب التاريخ العربي القديم بتحرير (ديتلف نيلسن) وتأليف مجموعة من علماء هذا الفن كأول دراسة لتاريخ اليمن القديم استنادا الى ما تحصل لديهم من قطع اصلية أو لدائن أو نسخ من النقوش اليمنية القديمة . أما اليوم وبعد ما يقارب القرنين من اكتشاف الأوروبيين لتلك النقوش فان المعروف منها ربما لا يقل عن عشرة آلاف نقش وما كتب عنها من مقالات وبحوث وكتب يكاد يبلغ فهرسها مجلدا كاملا نشره قبل سنوات في (لوفان) ببلجيكا العالم الفرنسي (كريستيان روبان) . وقد صار لهذه النقوش اليمنية مدونات جمعت ما تيسر من

نقوش وضمت ما تم من محاولات لقراءتها وفهرستها ، مثل الجزء الخاص من مدونة النقوش السامية باللاتينية وقد صدرت ما بين ١٨٩٨ - ١٩٢٩ ومدونة النقوش السامية بالألمانية ، بدأت من جديد عام ١٩٧٢ واستمرت حتى اليوم . وأخيراً صدر أول اجزاء مدونة النقوش اليمنية الفرنسية عام ١٩٧٨ التي صنفت ودونت وفق نظام جديد اعتمد في اعداده على (الكمبيوتر) ، فضلاً عن سجل النقوش المعينية الذي جمع في ايطاليا عام ١٩٧٤ والمشروع ما زال قائما وفي سبيل استكماله .

وفي ندوة الحضارة اليمنية عام ١٩٧٤ اتخذت توصية بوضع مدونة للنقوش اليمنية القديمة باللغة العربية تجمع فيها كل النقوش المعروفة والمنشورة باللغات الأجنبية وتقوم على منهج علمي واف بالمصادر والمعلومات الأساسية وتترجم الى اللغة العربية وفق الأسس العلمية الصحيحة المتعارف عليها في ميدان دراسة تلك النقوش ويلحق بها ملاحظات وهوامش تفي بالغرض. وقد تولت اليونسكو متابعة هذه التوصية من خلال لجنتها الاستشارية للثقافة العربية في دوراتها الثلاث بما فيها الأخيرة التي انعقدت بصنعاء في منتصف العام ١٩٧٩ وكذلك أوصي بها المؤتمر العربي التاسع لآثار البلاد العربية المنعقد بصنعاء في فبراير ١٩٨٠ . غير أن مشروعا كهذا يحتاج الى علماء عرب ممن يعنون بهذا الفن وامعنوا في التخصص فيه ، وندرة هم اولئك العلماء. فكان أن تأخر المشروع وما زال ينتظر المبادرة اللازمة اذ هو ضروري ليكون مادة علمية وافية تستند اليه الجامعات العربية في تدريس لغة من اقدم لغات الأمة العربية أو قل أقدم لغات العرب واقدم كتابة لديهم وفق ما هو شائع في الموروث ومتعارف عليه .

ما هو هذا الكلام الحميري اذن ، وما هو خط المسند الذي كتب به أو قل ما هي لغة تلك النقوش اليمنية القديمة ؟

النقوش اليمنية القديمة هي كتابات عرب جنوب الجزيرة العربية اي عرب اليمن،دونت قبل الاسلام بعربيتهم التي هي غير العربية المحضة. . وكتبت تلك

النقوش بخط المسند ، وهو خط يتألف من ٢٩ حرفا ابجديا أي بزيادة حرف على الأبجدية العربية وينمي في مجمله الى الخط الفينيقي حسب اشهر الأقوال ، ويشبه الخط الأثيوبي الحديث الذي تفرع في الأصل عن خط المسند. وتنمى هذه اللغة اصطلاحا الى عائلة اللغات السامية (وهو مصطلح لم تثبت صحته لدى العلماء) وتصنًف ضمن لغات العرب في جنوب جزيرتهم ، وترتبطها بطبيعة الحال وشائج وثيقة باللغة العربية الفصحى وكذلك بلغات الحبشة التي تفرعت عنها وتطورت بعد ذلك الى اشكال منفردة بحكم ارتباطها بالأرض الأفريقية .

وتأتي معرفتنا بهذه اللغة عن طريق قراءة النقوش ودراستها ولذلك فان معرفتنا بها تظل قاصرة . ولا تتعدى امكانات هذه المعرفة اطار الالمام بما يسمى باللغات الميتة حتى ولو تكاثرت الشواهد النقشية منها . ورغم قصور هذه اللغة بسبب محدودية المادة المتوفرة وكون هذه اللغة ميتة الا اننا في الواقع امام لغة اثرية هامة قد تفيدنا في معرفة بعض ملامح التطور اللغوي لعائلة «اللغات السامية» افادة قد تفوق تلك التي نفيدها من معظم اللغات السامية الأخرى في ذلك المجال.

وتتفاوت هذه النقوش في حجمها ، فقد تكون نقوشا قصيرة تتألف من بضع كلمات أو نقوشا طويلة تحتوي على مادة كبيرة كنقش صرواح الذي يبلغ عشرين سطرا وكلماته تصل الى الف. وبين هذين الحجمين نقوش تمثل تقريبا كل الأحجام . ان النقوش الطويلة والسليمة تقدم لنا ولا ريب معلومات أغنى الا ان بعض كسور النقوش الصغيرة قد لا تقل فائدة عنها . وكذلك المخربشات أو الرسوم الصخرية .

اما أسلوب النقوش فصارم ومتجانس قد يبلغ حد الجمود ، وهو مكتوب بصيغة ضمير الغائب حتى في حالة تحدث صاحب النقش عن نفسه ، ولهذا فان ضمائر المتكلم والمخاطب تكاد تكون غير معروفة الى اليوم . ويمثل مبنى النقوش اليمنية القديمة الصرامة والدقة والمحاكاة ومحتواها يرسو بقوة في مجال الدين والعقائد ، وقد يشمل ذلك كل ما وصلنا من النقوش. واسلوبها تقريري رسمي

يتحدث بضمير الغائب وبلغة ايجاز شديد وبخط جميل دقيق ومعنى محدود الغرض تحوطه هالة عالم روحاني عجيب قد يوحي ذلك كله للقارىء بأنه امام لغة فريدة تتسم بالمهابة والجلال وتترك في نفسه انطباعا عاما بأن امامه اقدم لغات العرب أو قل من أقدمها . ولغة النقوش هذه قد تفتح له آفاقاً جديدة في مجال دراسة اصول لغات العرب في جزيرتهم وتسعف على اعادة كتابة تاريخ العرب القديم وفق دلائل تاريخية موثقة ، مخلصة من كثير مما شابها من نفس ملحمي وغشاوة اسطورية وغسق تاريخي .

فما الذي ترويه النقوش اليمنية القديمة إذن ؟ .

تروي النقوش اليمنية معالم حضارة عرب أهل اليمن القدماء: تجارة نشطة بين الشرق والغرب جلبت ازدهارا فائقا وزراعة مغدقة اتكأت على وسائل من الري راقية بمقاييس العصر أنذاك ، ومعمار فذ قائم على استخدام الحجر وفنون الزخرف لا يبزه في تاريخ الشرق القديم الا معمار وادي النيل وتقدم في استعمال المعدن ونحت الحجر يشيد بكفاءة الصناع ومهارة فنهم ، ومبلغ راق من القدرة على القراءة والكتابة تمثلت بلغة تتسم بجلال مهيب وخط بديع ينقش بتؤدة وجمال ، ربما كان انموذجا بين كل الخطوط العالمية القديمة .

ويصعب حصر مضامين النقوش اليمنية القديمة وتصنيفها وفق موضوعات محددة فالمحتوى العام يدور حول مجالين ، الحياة العامة والحياة الخاصة.ويكتنف ذلك اطار عام هو اطار الحياة الدينية وعالم الآلهة، اذ لا يكـاد يخـلو نقـش مهما تنوع محتواه من الصيغة الدينية ، سواء كان سياسياً أو شخصياً . وكل المنجزات والممارسات التي تشير اليها النقوش ينبغي ان تشملها رعاية الآلهة وبركاتها . ومن هنا فان أية محاولة لتصنيف محتوى النقوش اليمنية القديمة لا بد وان تضع في اعتبارها امرين .

أولاً: الأسلوب الذي يكاد يكون ثابتا او قل صيغة جاهزة لكل غرض يراد تدوينه .

ثانيا : الصيغة الدينية التي تشمل كل نص سواء كان نذراً أو وفاء بالوعد أو توسلاً لتحقيق رغبة أو حمداً على اتمام نعمة . وبعد مراعاة الملحوظات السابقة يمكن تصنيف النقوش اليمنية القديمة الى خمسة اصناف : -

١ - نقوش العبادات .
٢ - نقوش المعاملات .
٣ - نقوش المنشآت العامة والخاصة.
٤ - نقوش الحروب.
٥ - نقوش القبور.

وفي حدود متطلبات مقال كهذا يمكن عرض كل صنف على حدة بايجاز مع ضرب مثال دال على ذلك . ونورد بعد ذلك بعض اللقى الجديدة التي قد تمهد السبيل الى اكتشافات مهمة قد تلقي الضوء على ملامح أدبية في النقوش اليمنية القديمة .

ليس لدى الباحث نصوص مثيولوجية تروي بوضوح تصورات اليمنيين القدماء الدينية وتلقى الضوء على طبيعة آلهتهم وطقوس عبادتهم . وهكذا يصبح لزاما على الباحث أن يلجأ الى دراسة اشتقاق أسماء الآلهة المذكورة وأسماء معابدها التي تقدس فيها . فمثلا عثر المنقبون في مدخل معبد مأرب (محرم بلقيس حاليا) على مئات النقوش التي كانت قد نذرت الى الاله (المقه) أهم آلهة سبأ في مناسبات مختلفة وذلك في فترة الصراع الرهيب حول اللقب الملكي الشهير (سبأ وذو ريدان) بين اقيال سبأ وأعيان حمير في القرون الثلاثة بعد الميلاد . ويختلف العلماء كثيرا حول اشتقاق اسم (المقه) ، ولم يستقروا الى الآن على تفسير له . فمنهم من ينطقها (الم قه) أو (المقاه) ، ومنهم العلماء الأول كالهمداني حيث يورد الاسم « يلمقه » وتشتق من اليلمق أو قد يصحفها بعضهم عنه فتكون (بلقمة) وتكون دلالة على الملكة بلقيس . أو قد ترد في كتب الإخباريين محرفة بلقمة وبلعمة .

وفي غمرة هذا الغموض قد يتبادر الى الذهن اشتقاق ممكن، فوقه في اللغة

اليمنية القديمة فعل ماض مجرد بمعنى امر وهو كثير في النقوش. ويؤيد ذلك ما ورد في كتاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى أهل نجران[1] « على ان لا يغير اسقفا من سقيفاه ولا واقها من وقيهاه ولا راهبا من رهبانيته » وربما قرأت خطا واقفا من وقيفاه كما وردت في كتاب القاضي الأكوع الوثائق السياسية اليمنية ، والمقصود هو آمرا في امره . وذكر الأكوع في حاشية النص نقلا عن أبي عبيد : الواقه هو ولي العهد بلغتهم . . وفي اللغة اليمنية القديمة أداة التعريف هي النون وتلحق الاسم . وأصوات اللين وهمزة الوصل لا ترسم في خط المسند ، وعليه فان الهمزة واللام في المقه هي (إل) التي ترد في الأعلام اليمينة القديمة المركبة كقولهم إل شرح وإل يحضب، وتعنى الأله كما هو معلوم فيما يسمى باللغات السامية . اما بقية الاسم (مقه) فهي اسم فاعل من الفعل المزيد بالتعدية اوقه أي موقه والواو صوت لين لا يكتب في خط المسند ، ويكون معنى الاسم اله آمر او بالتعريف الاله الآمر ، أو صاحب الأمر أي الاله الذي يرتقبون أوامره لينفذوها . ويستدل بعد ذلك من الرسوم البارزة الكثيرة ان (إل موقه) هو اله القمر أول الهة سبأ واكبرها بين الثالوث المعروف في تاريخ الشرق القديم (الشمس والقمر والزهرة) مع اختلاف الترتيب وربما كان ذلك الترتيب وفق الشروط الطبيعية والاجتماعية .

ومثل ذلك نُعِت هذا الاله بكونه بعل (أو ام) ، أي بعل المعبد أو أم أو رب المعبد المسمى أو ام وهو اشهر آثار مأرب اليوم بعد مقاسم السد. واذا ما أعتبر الميم في آخر الكلمة اداة التنكير في اللغة اليمنية القديمة فان (أو) هو اسم فاعل للفعل آوى بمعنى ملجيء الى مكان معين او المعيذ ، ومنه الايواء والمأوى .

على أن طبيعة الاله قد تبين دون ذلك العناء الاشتقاقي (فعثتر شرقن) هو عشتار الشرق أو عشتروت الشرق ، نجمة الصباح أوالزهرة .وذات حميم على

---

(۱) محمد بن علي الأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية ، ط ۱ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد (١٩٧٦) ص ٩٦.

التنكير هي الشمس ذات حمى او الشمس الحارة ، أو نسبة الى جبل حميم كما قيل قرب بعدان أو مرة اخرى، الاله الصنم (ود) عند قوم معين هو اله القمر المذكور في القرآن الكريم ضمن الأصنام المعبودة في قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا ﴾. وقد يكون مادة الآثار الباقية كالمعابد مصدرا مفيدا في معرفة المعتقدات فقد كان لهذه الآلهة معابد تقدم فيها القرابين وتنذر النذور وتؤدى الصلوات والأدعية .

وقد تتخذ بعض هذه المعابد صفة المزار أو التنسك الذي يحج اليه الناس وهو حج يختلف في جوهره عن حج العرب الى البيت المعمور في مكة على ملة ابراهيم الخليل رغم تعدد الأصنام إذ أن الأمر يرتبط بالحنيفيه وبالتالي بعبادة الله ودين التوحيد .

اما « الحج »بصفة عامة كما يقصد به في اليمن القديم مثلا هو زيارة مكان معين في زمان معين من اجل اله معين . ويذكر الهمداني ان محفد ريام من رأس جبل ذبيان . . كان يحج الى بيت فيه في الجاهلية الجهلاء وبه أثار عجيبة (وما زالت آثار ذلك البيت الى اليوم قائمة) . وهو المعبد المعروف في النقوش بمعبد تألب ريام ويقع اليوم في أرحب شمال شرق صنعاء، ولا ريب أن معبد القمر البيضاوي (محرم المقه ثهوان بعل اوام) كان من أعظم المعابد الرئيسية في اليمن القديم التي كان يحج الناس اليها . ولا أدل على ذلك من كثرة النقوش النذرية وقرابين التماثيل التي عثر عليها في مدخل المعبد خلال تنقيب البعثة الأمريكية ، في مطلع الخمسينات . وكان لتلك الزيارات الموسمية الى الأماكن المقدسة شعائر كثيرة لا تعرف تفاصيلها ولكن الأدلة المتوفرة تشير إلى انها كانت شعائر يكتنفها نظام دقيق متعارف عليه . ويذكر أحد النقوش مثلا أنه اذا حدث أن جرح أحدهم أخر خلال زيارة معبد (حلفان) معبد الاله عثتر نجمة الصباح) فينبغي أن يدفع أرشا بعد القسامة فاذا سال الدم على الملبس في جرح في اليد فعليه ان يدفع مبلغا معينا لسدنة المعبد ومبلغا آخر للكهان ، واذا لم يسل الدم فعليه أن يدفع مبلغا أقل من ذلك . ويسمى اله مدينة شبوة (سيان ذو اليم) أي الاله الذي

يؤلم في وقت زيارته ، وهو امر يشبه الرفادة . وتجمع اموال الوليمة من ضرائب محددة على قوافل اللبان التي تمر بالمدينة وتنفق هذه الأموال على طعام الحجيج في مواقيت معينة . (راجع مثلا نقش جلازر ١٢١٠) .

هذه الأمثلة تشير الى وجود نظام ديني بالغ التعقيد يتميز في جملته بطابع حضارة مستقرة بالغة الشأن لها شخصيتها البارزة واستقلالها في نطاق بيئتها ربما تختلف عن تلك الحياة الدينية البسيطة في شمال الجزيرة اختلافا كبيرا من عدة وجوه . وكانت الصلوات الخاصة التي لا ترتبط بوظائف دينية أو بأوقات محددة منتشرة انتشارا واسعا.وكان الغرض منها قبل كل شيء طلب حماية الالهة من الأعداء والحساد ورجاء الخلاص من الفقر والمرض وطلب الرزق من الغلال الوفيرة والولد الصالح . على ان هناك نقوشا قد تشير الى قضية محددة بنوعها تتعلق بالعبادات كانتهاك شرط الطهارة والتكفير عنه واعلان التوبة . يذكر نقش من منطقة مأرب أن امرأة قربت قربانا لالهها (ذي سماوي) وهي حائض ولما تغتسل ، فكان ان لزمتها كفارة . وان اخرى تضرعت الى الاله نفسه ان يغفر لها خطيئتها ويتوب عليها حيث اخطأت بحق معبده فذهبت اليه وهي غير طاهرة .

وليس سهلا على المرء ان يتحدث عن العبادات في اليمن القديم اذ تكاد تنعدم تلك النقوش التي يمكن ان تلقي الضوء على عالم الالهة والأساطير في ذلك الزمن، ولا تتوفر نصوص عبادة كتلك التي عثر عليها ضمن اثار بلاد ما بين النهرين او في (اوجاريت) . أما وفرة اسماء الآلهة ومحاولة الاستناد الى اشتقاقاتها فقد تزيد من الغموض، وربما لا تسعف على التبيان . وينطبق هذا الحكم على تلك الصور المرسومة او العلامات الرمزية التي عثر عليها غالبا في اماكن النقوش، فهي تقصر عن رسم مناظر اسطورية دالة يمكن ان يتخذ منها سنادا راسخا لدراسة الديانة في اليمن القديم . . وتظل معنا ناحية ايجابية يستفاد منها وهي ان لدينا نقوش لا يتطرق الشك الى صحتها وتعتبر بحق تدوينا للعصر الذي كتبت فيه ولم يطرأ عليها أي نسخ أو مسخ . وتوحي في مجملها الى ان الديانة كانت محور حياة اليمنيين القدماء خاصة وعامة ولا تكاد تخلو من ذكر

الآلهة في خاتمتها . وهذا بحد ذاته مدخل ملائم مفيد في دراسة هذا المجال . إن معظم الآلهة وإن تعددت تمثل الثلاثي المعروف الشمس والقمر والزهرة وترتيبها في اليمن القديم على الأغلب القمر والزهرة والشمس . وفي كل منطقة أو دولة تكتسب الآلهة نعوتا خاصة وألقابا جديدة . وتستقي معظم تلك التسميات من أسماء الأماكن التي تقام المعابد فيها . ولما كان اليمن أرضا زراعية تعتمد على وفرة الأمطار وسقي الحرث فان اشهر آلهتها ترتبط بالسقي والحرث ويرمز اليها برموز ملائمة كالثور والوعل والثعبان .

واذا كانت علاقة الناس بعالم الآلهة هي الاطار العام لمحتوى النقوش اليمنية القديمة فان جزءاً كبيراً من تفاصيلها تعنى بالعلاقات البشرية ، وذلك يشمل مدى واسعا يتراوح بين علاقات الأسرة وعلاقات الملكية والعلاقات السياسية ونعرض هنا نماذج مختارة لأنماط من تلك العلاقات ربما تغني في هذا المقام عن الاستفاضة والحصر ونكتفي بضرب أمثلة ثلاثة :

أولاً : مثال يتعلق بنوع غريب من أنواع النكاح في جاهلية اليمن القديم .

الثاني : مثال يعنى بشركة الأرض .

الثالث : مثال يشير الى تعاون اليمنيين بكل فئاتهم في اقامة منشآتهم العامة .

في نقش عثر عليه في مأرب[1] ذكر ان رجلين احدهما يدعى (مشنوم) أي مشنوء والآخر (ربيبم) أي ربيب من قبيلة راسم او رسام ومن موالي بني عثكلان قدما للاله (المقه) بعل المعبد (أوام) خمسة تماثيل ذكورا وواحدا أنثى حمدا على ان رزقا خمسة صبيان وصبية من انثاهما (امرأتهما) شاف نسر. وهناك بضع

---

(1) Müller, W.W.: in Neue Ephemeris Für Semitische Epigraphi c, B and ı, Wies-baden (1972) S. 87 - 95.

نقوش اخرى دالة على مثل هذا النوع من النكاح ، أي وجود زواج المرأة الواحدة بأكثر من رجل في اليمن القديم . وهو خبر ذكر مثله احد المؤرخين الكلاسيكيين وهو (استرابو) في كتابه الجغرافيا . وأشار الى امكانية وجود هذا النوع من الزواج أيضا بعض العلماء المحدثين مثل (روبرتسن سميث) في كتابه (النسب والزواج لدى قدماء العرب). وشبهه بنمط الزواج الذي عرف بالتبت ، واعتبره حلقة في سلسلة تطور علاقات الزواج في العالم القديم ، وفي الموروث ان السائد في جاهلية العرب ان يختص المرء بزوجة واحدة ولكنهم عرفوا نوعا من الزواج يدعى زواج المشاركة او الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجة واحدة . وقد روى البخاري في كتاب النكاح من صحيحه عن عائشة رضي الله عنها انها ذكرت أربعة انواع من الزواج احدهما هو نكاح الرهط، وهو ان يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها . . ويسمى نمط هذه العلاقة الغريبة باللغات الافرنجية « بوليندري » . ان هذه العلاقة التي تعتبر كما ذكر بعضهم مرحلة من مراحل العلاقات الشخصية او الزواج عند بعض الأمم (بما فيها المجتمع اليمني القديم) . . وحيث قد يشترك الأقرباء في زوجة واحدة . ربما كانت تعكس بعض مشكلات المجتمع آنذاك كشظف العيش وغلاء المهور وذاك طبعا في حين من الدهر انعدم فيه الوازع والشرع . ولا ريب ان هذا النوع من الزواج كان شاذا ويمارس وفق الضرورة وكان مما حرمه الاسلام في حينه لصعوبة تطبيقه وتجافيه المثل والعواطف الانسانية .

ومن الأدلة التي يمكن ان نذكر في هذا المقام توضيحا لما سلف. حديث زيد بن أرقم في قضاء علي في نسب الولد ، رواه احمد في مسنده وابو داوود والنسائي وغيرهم قال : كنت جالسا عند النبي فجاء رجل من أهل اليمن فقال : ان ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا عليا يختصمون اليه في نفر قد وقعوا على امرأة في طهر واحد فقال: لاثنين طيبا بالولد لهذا . فقالا : لا . ثم لاثنين : طيبا للولد لهذا فقالا : لا . فقال انتم شركاء متشاكسون اني مقرع بينكم فمن قرع له فله الولد. وعليه لصاحبه ثلثا الدية ، فأقرع بينهم فجعل لمن قرع له . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت أضراسه ونواجذه.ولم يرو

جواب النبي صلى الله عليه وسلم كتابة .

على ان هناك شركة لم تكن تقتضي المشاكسة كما هو الحال في تلك الشركة التي قضى بها علي كرم الله وجهه ، وانما كانت تخضع لأنظمة مرعية معهودة . تلك هي شركة الأراضي فيما بين كبار الملاك والمستأجرين . ومثل هذا يسطره نقش (ذي لبخ) القتباني[1] . فالأرض ارض الاله (عم) وعلى كل الرعايا ان يعتصموا بحبله . وملك قتبان «شهر يجل» يشرع باسمه ويعين رجال (أرباي) ملاكا على أراضي عم وفق صحيفة دثينة سواء أكانت الأرض عامرة أم غامرة . ثم يأتي بعده الملك (شهر غيلان) ملك قتبان ليضع سجل قبيلة «كحد» في دثينة عبر كبيرها وقيمها المكلف بتحقيق رابطة الولاء للملك والمعبد ثم جباية عشر المحصول من الأرض المسقية والبعلية .

فالأرض ملك الإله والملك خليفته في الأرض ويقطع الأراضي لملاك معينين ثم يعين عليهم واليا يجبي خراجها وما ينتج عن ذلك من ضرائب ترتبت على نقل المال بالارث او الشركة .

ولقد كان مصدر مثل تلك التشريعات سلطة تشريعية شوروية وان كانت تصدر باسم الملك الذي يأخذ زمام المبادرة فيها ويتولى غاية تطبيقها ومعاقبة مخالفيها . فالملك لا ينفرد باتخاذ القرارات ، ويؤكد ذلك ما عرف من مجالس حكومية في دول اليمن القديم ، اذ ان تلك الدول هي في الأصل تجمعات اجتماعية سياسية أو اتحادات قبلية وفق مفهوم القبيلة المستقرة الزراعية وليس القبيلة البدوية المتنقلة . والقبيلة بلغة النقوش « شعب » وهذا يذكرنا بقوله تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾. وبتمييز الجاحظ بين عشائر العرب وشعوب العجم ، ويعني بشعوب العجم المجتمعات الزراعية . وكانت الشروط الطبيعية القاسية في بلد كاليمن تقتضي من السكان جهدا فائقا على مستوى التحدي . اذ ان اليمن بلد تنعدم فيه الأنهار الدائمة الجريان وأمطاره

---

(١) راجع : R 3688, R3689 (مدونة النقوش الفرنسية ، ريبرتوار) .

موسمية وطبيعة ارضه صخرية وذلك يقلل من الانتفاع بحيز واسع من التربة الصالحة . فكان ان احتاج اهل اليمن الى اسلوب من العمل في معاشهم يقوم على سلطة قوية ورشيدة توحد قبائلهم وتشرك اعيانها واقيالها في الحكم من خلال هيئة تشريعية ، كذلك الملأ الذي افتى الملكة بلقيس بشأن كتاب النبي سليمان . أو كذكر الاخباريين للمثامنة، وكانت ثمانية أبيات من حمير لا يصلح ملك حمير الا بها وان اجتمعوا على عزل ملك عزلوه ، كما ان توفير الغذاء والماء للمحافظة على بقاء السكان في ظروف طبيعية قاسية كما سلف ذكره يتطلب اسلوبا من العمل المنظم المنتظم ولا يتحقق ذلك الا بارادة جماعية قوية وتكاتف قوى متحدة تنفض عن الانسان غبار الكسل وتردع الأنانية لديه في سبيل تحدي قوة الطبيعة واستغلال مزاياها في الوقت نفسه . ولهذا كان اليمنيون القدامى باختلاف فئاتهم وتفاوت حصصهم من المال حريصين على اقامة المنشآت العامة التي ينتفع بها كالسدود والمدرجات وطرق الري والآبار والكرواف والبرك . وفي نقش عثر عليه في قرية مدر من أرحب شمال شرق صنعاء ونشر بالفرنسية في مجلة ريدان ١٩٧٨ م . (بتحقيق وشرح كرستيان روبان وجاك رايكمنز) يرد ذكر تعاون قبيلة بني غضبان وذو رمة وسكان مدينة مدر (وهو اسم القرية الى اليوم) بما فيهم الفلاحون والمقاتلون والموالي ، وذلك في اقامة بركة لخزن المياه للماشية من بقر وضأن وحمير ، وفرضت غرامة محددة على من يلزمه دوره في الصيانة ويهمله . وقريب الشبه بذلك ما ورد في نقش عثرت عليه في جبل قرن خرفان بجبال مراد قبل ثلاثة أعوام ونشرته في العدد الثاني من مجلة دراسات يمنية حيث تعاون رجال قبيلتي خبزان وذي رفة على تجديد كل المدرجات والسواقي والنقوب وتوسيعها الكائنة في واديهم ومنحدر جبلهم وتم ذلك العمل برعاية الآلهة وتوجيه ملكهم (عمدان يهقبض) الحميري (حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي) واقيالهم وساداتهم وتعاون قبيلهم وملأهم واتباعهم .

ان تلك الأساليب المحددة التي نظمت حياة اهل اليمن قديما (اذ ما اخذت في اطارها الزمني) كالشركة في الأرض (مؤجر ومستأجر) وكالشورى في نظام الحكم او كالتعاون في اقامة المنشآت العامة وصيانتها وقت الحاجة وابان

الكوارث هي التي صاغت لليمن تلك الحضارة الراقية التي ما زالت آثارها الباقية تدل عليها لتكون سندا راسخا لصياغة حضارة الحاضر وامل المستقبل .

نقوش البناء : -

دون اهل اليمن قديما منجزاتهم في نقوش بديعة وباحتفاء وفخر ، حتى صارت ذلك التدوين ملمحا اساسيا من ملامح ثقافتهم ، ويتجلى خير ذلك في نقوش البناء سواء كان عاما ام خاصا. فبعد ان يتم البناء يؤتي بحجر مهندم (موقص) وينقش عليه اسم صاحب البناء ومن عاونه فيه ، ثم يودع في حماية الاله الخاص وبقية الآلهة العامة ، وذلك وفق صيغة معلومة ونسق دقيق . وترد فيه مصطلحات بناء فنية ، عادة ما تكون متتالية ، حتى يخالها القاريء مترادفة ، وربما تعذر عليه معرفة تفاصيل اجزاء البناء منها وذلك لفقر قاموس اللغة اليمنية القديمة الذي وصل الينا حتى الآن ، وايضا بسبب غياب محاولات هندسية أثرية جادة وكاملة لاعادة تخطيط بقايا منشآت اليمن القديم من قصور ومعابد ومدن وغيرها .

وفي نقش لدي غير منشور تسجل - مثلا - عائلة بكير وتنمى الى قبيلة ذي بلس (ذو بلسم ، وعثرت على النقش في وادي ثاه قرب رداع) انها بنت دارها المسمى (بلسم) وأسسته واستحدثته وذلك باسم الآلهة وعونها. (ولما كان الميم علامة التنكير فان اللفظ يعني بلس أي تين، وهو كذلك بلغة اهل اليمن الى اليوم) . والمعروف الى اليوم ان نقشا مثل هذا يتخذ مردما في اعلى الباب مقابل المعقم ليكون وثيقة تملك وقطعة زخرف معا .

ولا يبعد نقش صخرة المعسال (في مدينة وعلان قديما) عن النقش السابق كثيرا ، والذي يدون منشآت القيل لحي عثت يرخم من بني معاهر ، وكان قيلا على مناطق ردمان وخولان (خولان رداع وليست خولان الطيال او خولان الشام) في حوالي القرن الثاني بعد الميلاد ، حيث يذكر النقش في جملة ما يذكر ان القيل المذكور قد استحدث وشق وانجز بناء نصب (مقاف) الالهة شمس العالية وذلك على صخرة المعسال (عر شحرار) وما رافقه من تشييد مذاقن

(اماكن للسجود والعبادة) ومباخر ومحافد (ابراج ضمن السور) ودرج ومدرجات (زراعية) ومعاين (موارد مياه مفردة معين بفتح الياء) ومناقل (جمع منقل وهو النقيل) ، ثم يذكر غيرها من المنشآت كالأسوار والسدود ضمن مدينة وعلان (هجر وعلان) . ويدون قيل آخر من العائلة نفسها نقشا في مدينة قانئة (هجر قانية) ، وهي لا تبعد كثيرا عن وعلان ، وتقع اطلالها اليوم ضمن وادي قانية وتدخل في مراد . وقد زرتها مرارا ونشرت النقش المذكور في مجلة دراسات يمنية العدد الثالث. ويذكر هذا القيل واسمه نبط عم بن زادن أنه بنى القصر المسمى شبعان ، وحفر أساسه وزين أعلاه وذلك داخل سور المدينة قانية ، بناه من أصله حتى فرعه بما فيه كل المباخر والأبراج والدرج والصرحات وغيرها من المرافق . ثم يختم النقش بذكر الالهة وفق ما أمر به الإله عشتار الشرق والإلهة شمس العالية « وهي إلهة سرو مذجح الأولى اذا ما أخذنا بتسميات الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب) .

وهذا القصر نفسه هدمه ملك حضرموت إلعزيلط : ايل عزيلط (من ولط وباب ود) أبن عم ذخر ، وذلك عندما غزا سرو مذجج في القرن الأول الميلادي ، استنادا الى تاريخ نقش آخر من المكان نفسه نص على ان القيل ناصر يهحمد من بني معاهر ايضا قد قام بعد ذلك بترميم القصر واصلاحه .

ان الملك الحضرمي المذكور ربما كان هو نفسه الذي يشير اليه كتاب الطواف حول البحر الاريتيري والذي تذكره نقوش خورروري (المنشورة في مجلة دراسات عمانية عام ١٩٧٥) باسم العزيلط. وتذكر هذه النقوش ان احد قواد العزيلط وأصله من شبوة عاصمة حضرموت هو الذي تولى مهمة تخطيط مدينة سمرم (قرب خورروري حاليا في ظفار) وبنائها تحت امرة حاكم ظفار « سأكلن » العسكري من لدن ملك حضرموت المذكور ، وكان بناء المدينة (سمرم) بعد ان غزا ملك حضرموت منطقة ظفار ودحر مستعمريها من الفرثيين . وهو امر معروف عن الغزاة من حكام اليمن حيث يعيدون بناء ما دمروه او يشيدون منشآت جديدة بعد انتهاء فترة حروبهم ، تماما كما فعل كرب ال وتار الذي دمر جزءاً كبيرا من منشآت البناء في اليمن ثم أعاد ترميمها وسجل

نقش النصر مفتخراً بالهدم والبناء معاً .

نقوش الحروب : -

وكان اليمنيون كغيرهم يلجأون الى الحروب لأسباب عديدة منها حب التوسع والغزو أو الرغبة في كسب أمجاد او لأسباب دفاعية أو شخصية وانتقامية . ويسجلون بعد عودتهم من تلك الحروب نقوشا نذرية تقدم الى الآلهة يحمدونها فيها على ان عادوا سالمين غانمين ويشيرون فيها الى وقائع الحرب ودوافعها ونتائجها . وتعتبر النقوش الكثيرة التي عثر عليها في مدخل معبد أوام (محرم بلقيس) في مأرب مادة خصبة لمعرفة فن الحرب في اليمن القديم حيث يمكن ان يعرف منها تشكيلات الجيش وفيالقه وأسلحته . وتساعد في وضع تصور عن خسائر تلك الحروب ونمط عملياتها وسبل تحركها ومصادر تموينها وتقدم بعض المعلومات التاريخية عن فترة الصراع العسكري الطويل والذي امتـدّ حوالي قرنين ، الثاني والثالث بعد الميلاد حول اللقب (ملك سبأ وذي ريدان) بين ما يمكن تسميته بملوك الطوائف في اليمن القديم وفي مقدمتهم ملوك سبأ في مأرب وملوك حمير في ظفار .

ومن الفترة التي استقر الأمر فيها لحمير في نهاية القرن الثالث الميلادي وصارت تحكم اليمن من أقصاه الى أقصاه ، عثر على نقوش تسجل بعض وقائع مشاهير حكامهم داخل اليمن وخارجه . وهي تلك الحروب والغزوات التي بقي صداها يتردد في مسامع اليمنيين بعد الاسلام . وبرزت في صورة موروث تاريخي ملحمي يمجد الماضي ويفتخر به إبان تفاقم الصراع حول قضايا الخلافة وشؤون الحكم في القرنين السابع والثامن للهجرة فكان ما عرف من أخبار عبيد بن شرية وأحاديث كعب الأجبار ووهب بن منبه وشعر ابن مفرغ وعلقمة بن ذي جدن .

وتنسب تلك الأخبار مثلا الى شمر يهرعش أعمالا بطولية خارقة منها انه غزا من اليمن في جنود كثيرة حتى دخل ارض بابل وأتى بملك فارس الى مأرب مقيدا وافتتح سمرقند وسميت باسمه ثم توجه غازيا الى الصين .

ومن المعلوم تاريخيا ان شمر يهرعش كان من ابرز الحكام اليمنيين قبل الاسلام وفي عهده كان اليمن كله ضمن دولة واحدة وكان يلقب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة. وقام بغزوات عديدة في اليمن وخاصة غزوته الكبرى التي أنهت دولة حضرموت. وقد عثر على عدة نقوش من عهده بعضها مؤرخ وفق التقويم الحميري بين (٢٧٠ ـ ٣٠٠) للميلاد).

ولدينا نقش من عهد شمر يهر عش (شرف الدين ٣١) دونه ريمان ذوحزفر قائد مدينة صعدة (عاقب) يذكر فيه ان ملكه المذكور بعثه الى وسط الجزيرة لغزو مالك بن كعب ملك الأزد (أزد السراة) مرتين. ثم واصل سيره بعد ذلك (ولا يعلم من النقش تماما ان كان غازيا او سفارة) الى قطوسف وكوك أي قطيسفون وسلوقية (المدائن) مدينتي فارس والى أرض تنوخ (في جزيرة العراق) وعاد من مهماته كلها بسلام.

ان وصول القائد ريمان ذي حزفر الى المدائن في بلاد ما بين النهرين وعاصمة الفرس وفق ما ذكر النقش ربما كان النواة التاريخية لمثل ذلك القصص الملحمي الذي ورد في الأخبار بعد ذلك. وسواء كانت تلك حملة عسكرية او سفارة دبلوماسية فانها تشير بوضوح الى العلاقات السياسية بين جنوب الجزيرة وشمالها ومدى نفوذ الدولة اليمنية في جزيرة العرب آنذاك.

ويذكر لنا نقش (عنان ٧٥) سفارة اخرى بعثها إلشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان (حوالي ٢٠٠ م) الى ملوك قبائل غسان والأزد ونزار ومذحج. وهي اشارة تاريخية قديمة لأسماء تلك القبائل واتحاداتها ربما تجاوزت في قدمها كل ما هو معهود في النقوش والكتب، وقبل ملك غسان في الشام واتحاد قبائل معد في وسط الجزيرة بزمن طويل. ويلمس اثر هذه العلاقات القديمة بعد ذلك في عهد أبي كرب اسعد (حوالي ٤٠٠ م) والذي حمل اطول لقب في تاريخ اليمن القديم وهو ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة واعرابهم في نجد وتهامة.

ففي عهده أمتدت رقعت الدولة اليمنية فشملت قلب جزيرة العرب وحكمته حكما مباشرا ثم اقامت بعد ذلك حكم كندة على اتحاد قبائل معد في

مطلع القرن الخامس . وعندما كان ابو كرب اسعد في وادي ماسل الجمح جنوب شرق الدوادمي ، في وسط الجزيرة وخلال غزوته لأخضاع اتحاد قبائل معد حفر على صخرة هناك نقشا سجل فيه تلك الوقعة ومدى ما وصل اليه آنذاك . وهي عادة تذكر بما نقله الاخباريون عن بعض ملوك اليمن الفاتحين . فقد روى ان (ناشر النعم) أي ياسر ينعم أي ياسر يهنعم وابو شمر يهر عش بلغ (في غزواته) وادي الرمل ولم يبلغه أحد من الملوك غيره ، فأمر بصنم فصنع ونصب على صخرة ثم كتب على صدر ذلك الصنم كتابا بالمسند . . . أنا الملك الحميري ياسر ينعم اليعفري ، ليس وراء ما بلغته مذهب فلا يجاوزه احد فيعطب . ويتكرر في النقوش ذكر مثل هذه الغزوات لحكام اليمن الى وسط الجزيرة حتى قبل عهد ابي كرب اسعد وشمر يهرعش ، كما في ذلك النقش الذي عثر عليه في مأرب ويعود تاريخه الى عهد شعر أوتر ملك سبأ وذي ريدان (القرن الثاني بعد الميلاد) . وفيه ان احد قادته حارب ربيعة من آل ثور ملك كندة وقحطان في قرية (ذات كاهل) أي قرية الفاو حاليا وفي منطقة وادي الدواسر من السعودية حاليا .

ومن قرية الفاو نفسها عثر خلال التنقيبات التي تمت أخيرا بعناية الدكتور عبد الرحمن الأنصاري من جامعة الرياض على نقش قبر ذكر اسم ملك آخر ربما من آل ثور وهو معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج . وهو شاهد قبر مفيد يؤكد ذكر القبائل السالفة الذكر ويشير ايضا الى نمط آخر من التكوينات السياسية في جزيرة العرب وهي اتحادات القبائل اليدوية مثل غسان والأزد او قحطان ومذحج او كندة ومعد بجانب دول مدن القوافل الحضرية كالبتراء وتدمر والحضر وذلك قبل دول لخم وغسان وكندة المعروفة بزمن ليس بالقصير .

وشواهد القبور كالنقش السابق تعتبر جزءاً لا يستهان به من مادة النقوش اليمنية القديمة . وقد دونت تلك النقوش على شواهد قبورهم المبنية او على الخروق التي حفروها او نقروها في الصخر بعناية واتخذوا منها نواويس تقبر بها موتاهم كتلك التي ما زالت ماثلة للعيان في ظفار وشبام الغراس وبيت الأحرق ووادي ضهر . ونقوش شواهد القبور كثيرة وقد سماها العلامة الهمداني في كتابه

الأكليل الجزء الثامن « القبوريات » وذكر طرفا منها ناقلا اياها عن الحميرية كما سلف الذكر كان يذكر انه وجد مُسْنَداً بحقل قتاب في قبر نصه : انا شمعة بنت ذي مراثد كنك اذا وحمك اول بالقشم من أرض الهند بطلة زاهدا ، وتفسيره ما معناه : انا شمعة بنت ذي مراثد كنت اذا وحمت أتي لي بثمار الخريف (في غير الموسم) من ارض الهند طرية ثم يضيف الهمداني : ومن يرى هذا منهم يرى أن الجن كانت تخدمهم . ورغم ان قبوريات الهمداني تغلب عليها سمة المبالغة والنفس القصصي الممتع ، الا انها مدخل حسن لمعرفة اسلوب نقوش القبور التي عثر عليها حديثا ، ونقش مثل هذا الذي نحن بصدده يورد ضمير المتكلم كافا بدلا من التاء وهي دلالة مفيدة لدارسي اللغة اليمنية القديمة فالى وقت قريب جدا لم يكن لديهم شاهد واحد مؤكد على ضمير المتكلم إذ ان النقوش كما سلف تتحدث بلغة الغائب فقط وقد عثر أخيراً على شواهد نقشية تؤكد ضمير الكاف وفق ما ذكره الهمداني علما بأن هذاالضمير يتكلم به في لواء اب الى اليوم .

اما القبوريات النقشية كما عثر عليها حديثا منقوشة على قبور علية القومة ايضا وتذكر اسم صاحب القبر وربما ترسم ايضا صورا لبعض القرابين المقدمة كالبخور وغيره ومثال ذلك ما دون على صخرة بجانب مقبرة منحوتة في الصخر نفسه في قرية بيت الأحرق من جبال مراد وصيغته ان احدهم ويدعى ذرحان ابن أبي ذخر من آل خبزان وينتمي إلى قبيلة رفة قد وقف وسوى وأنشأ مقبرته المسمى صنعان وكذلك كل مباخر المقبرة ومدخليها وجيرها ومبناها ليقتبر بها كل احرار بيت غيلان وحراته . وقد تكون نقوش القبور بالنسبة للعلماء دالة وممتعة كذلك النقش الذي عثر عليه في قرية الفاو ايضا ، واسم واضعه هو عجل بن هفعم . وورد فيه : عجل بن هوف عم بنى لأخيه ربيب آل بن هوف عم قبرا (مقبرة) لتكون له ولولده ولامرأته وأحفاده ولنسائهم حرائر ذي آل غلوان. وأعاذه « بالاله » « كاهل » ربه « والاله » عثر أشرق من « كل » تملك وتخريب وشراء ورهن ابدا ، ومن كل نقصان حتى تمطر السماء دما والأرض سعيرا[1] .

---

(١) عبد الرحمن الانصاري : أضواء جديدة على دولة كندة . . . مجلة العرب ، ج ١١ و ١٢ س .=

ان هذا الضرب من الكلام المجاز والذي يرى في آخر النقش جديد على لغة النقوش ويمكن ان يعتبر ملمح دال على وجود كتابة ادبية قديمة راقية سواء كانت شمالية أم جنوبية ، ويذكرنا هذا القول بما ورد في نقش النمارة (٣٢٨ م) ، وهو شاهد قبر امرىء القيس بن عمرو بن عدي من آل نصر ملوك الحيرة . ويعد من أقدم الوثائق المكتوبة بلغتنا العربية وأهمها معنى ومبنى وخطا، حيث ترد في هذا النقش عبارة عربية واضحة وبأسلوب جميل كذلك الذي عهدنا ، في أدب العرب المدون بعد الاسلام والعبارة هي «فلم يبلغ ملك مبلغه» وتبرز اهمية هذه العبارة اذا ما قرئت ضمن نص نقش النمارة كله الذي تشوبه كثير من الألفاظ السريانية والنبطية . وفي نقش آخر نشره زيد عنان (وقد اهمل تفسيره ولم يعثر له على صورة دقيقة حتى الآن . ولكن أعيد نشره رغم اضطراب نصه في مجلة ريدان العدد الأول) ـ كلام جديد لم يعهد من قبل في النقوش اليمنية وتعذر على قراءة ادراك كهنه . وقد حاول (بافقية وروبان) اعادة تركيبه استناداً الى نسخة زيد عنان، على أساس أنه انشودة دينية واقترحا تقسيما محتملا لمقاطع النقش وقافية لأواخر الكلمات التي اعتبرت رويّا . ولما كانت كتابة النقوش تهمل أصوات اللين وعلامات الاعراب والوصل والمد والتشديد ـ ونحن نجهل حقا كيف كان يتكلم بلغة النقوش قديما وانما يمكن الاجتهاد في ذلك استناد الى اللغة العربية الفصيحة وما قاربها من اللغات ـ فان قراءة النص تكاد تكون متعذرة وان ظهر في مبناه ما يشبه في بعض مقاطعة شعراً عمودياً على بحر الرجز. ونقتطف هنا بعضا منه [1]:

= ١١ (١٩٧٧) ص ٨٦٤ ـ ٨٧٥ . وفي نوفمبر ١٩٨٣ زرت متحف الأثار بقسم الأثار والمتاحف بجامعة الملك سعود وتبيّن لي بعد التدقيق أن الأصح ان يقرأ آخر النقش هكذا : (عدة ما تمطر السماء ديما أي مزنا و(وتنبت) الأرض شعيرا) . وحرف الشين واضح في النقش . ولكن ذلك لا يغير شيئاً فيما نومىء اليه من نفس ادبي في هذه النصوص الجديدة بخلاف ما عهدناه من اساليب تقريرية .

(١) راجع مجلة ريدان ، العدد الأول ، تصدر من مركز الابحاث الثقافية بعدن وتطبع في لوفان ، وراجع أيضاً كتاب زيد عنان : حضارة اليمن القديم .

وسم متن
بكهل ذلب صلل
وس كوم هلك عضل
ولمحر من دا كمثل
دا قرم لكسعل
بكهل كبهى ال
ذذ برك لجبأ شرقلك و. .
يدك ضرك تعرب . . كهل
كبلو ثون كهل
وكل اضررن حسل
همسك مرأن بلل
كل ذ علي وسفل
كهل بخت ذ وهن ذرح

هردا ذ ملوب رزح
المقه ذ بسكر ارمح
تحتك اخمس رضح

ما معنى هذا القول ؟ يقول الناشران انه يصعب التعرض لكل العبارات والمقاطع ولهذا فاننا سنكتفي بمعالجة البعض منها وهذا ما أورداه كنقل لمحتوى الأنشودة الى العربية الفصيحة .

وكل الأعداء اذل وارعب
قوتك ايها المولى تنال
كل الذي من على وسفل
اعن من من العطش هزل
المقه ذا بسكر ادفع
تحتك جيوش تخضع

وهذه محاولة جزئية ناقصة التفسير لنص مثير ومهم . لقد بذل الشارحان جهدا كبيرا في اعادة تركيب النص وتفسير مفرداته . ولكن يبدو ان تفسير نص كهذا يكتب بلغة ادبية تغاير اللغة الرسمية المعهودة في النقوش امر ليس باليسير في هذه المرحلة من تاريخ علم النقوش : اذ اننا بحاجة الى عدد من النصوص الموثقة بصورها والسليمة في مجملها لعمل دراسة جادة يبنى عليها حكم مفيد في تاريخ أدب اليمن المكتوب بلغة النقوش قبل الاسلام.ومما لفت نظري في النص السابق ثلاثة مقاطع هي :

همسك مرأن بلل

كل ذ على وسفل

هردأذ ملوب رزح

وقد فسرت بمعنى : قوتك أيها المولى (مولانا) تنال

كل الذي من علا وسفل

اعن من من العطش هزل

وحاولت ان اعيد قراءتها وفق اصول اللغة اليمنية القديمة ثم نقلتها الى الفصيحة فكان ما يلي :

امسكت يا مولانا البلل (اي الماء)اي همسكَ ، بادغام الكاف ضمير الرفع في اللغة اليمنية القديمة وبالتالي تشديد الكاف (وهذا دليل آخر على كون ضمير الكاف هو ضمير الرفع في اللغة اليمنية القديمة بدلاً من التاء) : في كل ما علا وسفل .

اعن من من العطش هزل

واحسب ان هذه القراءة الجديدة ربما كانت مفتاح موضوع النص كله . اجل قد يكون النص انشودة دينية على طريقة اناشيد بابل الدينية وتراتيلها الى الالهة ، كمثل تلك التي نشرها (زمرن) في ليبزج بين عام ١٩٠٥ و ١٩١١ ، بعنوان : « اناشيد بابل الدينية وأدعياتها ».

اما القبوريات النقشية كما عثر عليها حديثا منقوشة على قبور علية القوم

ايضا وتذكر اسم صاحب القبر وربما ترسم ايضا صورا لبعض القرابين المقدمة كالبخور وغيره ومثال ذلك ما دون على صخر بجانب مقبرة منحوتة في الصخر نفسه في قرية بيت الأحرق من جبال مراد وصيغته ان احدهم ويدعى ذرحان ابن أبي ذخر من ال خبزان وينتمي الى قبيلة رفة قد وقف وسوى وأنشأ مقبرته المسمى صنعان وكذلك كل مباخر المقبرة ومدخليها وجيرها ومبناها ليقتبر بها كل احرار بيت غيلان وحراته) .

أو كتلك التي يشرها (لامبرت) في اكسفورد عام ١٩٦٥ ضمن كتاب «أدب الحكمة البابلي». وتحتوي تلك على مجموعة من المصطلحات التي يخاطب بها الآلهة ومتضمنة بعض الأدعية والصلوات تتعلق بأحوال القوم ونشاطهم . وفق تقليد متوارث ومتراكم مما يجعل نسبته الى شخص معين او زمان محدد أمراً صعبا . ومثال ذلك ترنيمة الشمس او الترتيلة الموجهة الى الإلهة الشمس . وتعتبر تلك من ذخائر الأدب البابلي شكلا ومضمونا .

اما موضوع الترتيلية اليمنية القديمة المذكورة آنفا يبدو كأنه دعاء استسقاء الى الإله (كهل) طلبا للماء بعد اشتداد ازمة القحط، حيث شحت الأمطار وجفت الأبار والوديان : «منعت يا رب الغيث فانحبس القطر وشحت الأرض» فالنص يمثل نمطا من الأدب الديني الذي يتوقع ابداعه في بلد كاليمن ، يعتمد على الأمطار الموسمية ، حيث يتلكأ نزول الغيث زمنا ، فيلجأ الناس الى الاستسقاء، وقد يستسقون بأمور كثيرة وهي عادة معلومة بين الناس وقديمة قدم الانسان نفسه . ويدخل دعاء الاستسقاء ضمن واجبات الصلاة في الاسلام . وفي بعض القرى يشمل الاستسقاء تقديم الأضاحي والقيام بطقوس متعددة ، كأن يكتبون سورة الواقعة على ثمرة اليقطين الجافة ثم يعلق استسقاء للمطر عند الشدة. وفي احدى رحلاتي عامي ١٩٧٨/٧٧ عثرت على كتابة دقيقة وجميلة منقوشة بخط المسند و« معلقة » على صخرة عاتية في مساقط سيول وادي قانية ، ناحية السوادية في لواء البيضاء وتتألف من ٢٧ سطرا خاتمة كل منها حرفان مكرران هما الحاء والكاف . وبعد دراسة استمرت زمنا اهتديت الى أنها

أيضا ترتيلة من الأدب الديني وموضوعها هو الاستسقاء. ورغم التلف البادي على الكلمات الأولى من كل سطر الى ان النص قد يوحي بما يمكن تسميته اصطلاحا بقصيدة حميرية*.

وبعد ان قرأت هذه الأسطر ودرستها رغم تلفها تبين لي أنّه رغم نقشها بخط المسند كغيرها ـ من النقوش المنتشرة في شتى انحاء اليس الا ان معظم مفرداتها وتراكيبها غير معهودة لدي. وعرضتها على اصدقاء مختصين من علماء لغة اليمن القديم في اليمن وخارجة، ولم يسعفوني بشيء يقدمني خطوة واحدة في حل لغز تلك الكتابة. ومرد ذلك الى غرابة المفرادات والتراكيب والتلف البادي عليها. واستعنت بمنهجية لغوية صارمة فجمعت جزءاً من لهجات تلك المنطقة في زيارة اخرى لها وبما علمته من لغات جزيرة العرب ونقوشها. فاهتديت الى بصيص نور، وهو أن تلك الكتابة دعاء استسقاء. ولما تسلمت العدد الأول من مجلة ريدان التي أشرت اليها آنفا تأكد الأمر لدى. لقد عرفت موضوع الكتابة ولكن أنى لي بحل رموز كل ما فيها. إن أبرز شيء في هذا النقش هو خاتمة كل سطر فيه حيث يتكرر حرفان هما الحاء والكاف في كل سطر وأن عدد حروف كل سطر تتراوح بين أربعة عشر حرفاً وسبعة عشر، وأن انعدام اصوات اللين والحركات يقتل اية محاولة مثمرة لدراسة التفاعيل. ولكن لزوم الحاء والكاف في آخر كل سطر يغرى باعتبار ذلك قافية.وتبين لي أن الكلمة الأخيرة ينبغي ان تكون فعلا وان الكاف لا بد وان يكون ضميرا متصلا وأعلم ان الكاف ضمير متصل في اللغة الحبشية والأكدية وانه الأصل في ضمير الرفع المتصل، ويقابل ذلك التاء في عربيتنا كقولك(قمت وقمتَ وقمتِ) .ولم نكن نعرف من قبل في اللغة اليمنية القديمة ضمير الرفع المتصل وان كنا نعرفه في بعض لهجات اليمن اليوم. ودرست نقوش المنطقة التي جمعتها بنفسي ولأول

(*) للمؤلف دراسة جديدة حول الموضوع ستظهر ضمن المجموعة الجديدة من مدونة النقوش اليمنية.
بعض هذا البحث كان في الأصل محاضرة القاها المؤلف في جامعة الكويت إبان الأسبوع الثقافي في اليمن عام ١٩٧٩.

مرة وعرفت أن الشمس هي أهم الآله لديهم بخلاف كثير من مناطق اليمن ولها معبد كبير في سوق الليل ومعبد آخر في جبل شحرار في المعسال (وعلان قديما) . وانهم كانوا يسمونها (عالية) . وقرأت السطر قبل الأخير في النقش فاذا هو يكرر الاسم شمس مرتين ؟ وتتبعت بعض المفردات الواردة في نقوش صغيرة ومجاورة فوجدتها تشير الى الأضاحي التي قدمت استسقاء . وعلمت في معنى النقش بعض امور وغابت عني اشياء كثيرة وحاولت أن اطبق اوزان العرب وقارنت ذلك ببعض الموروث واللغات الافريقية المجاورة . فتبين لي ان الكلام ربما كان قائما على أوزان « كيفية » وليس « كمية » تنبر نبرا، كقولك في بحر المتقارب فعلن فعلن فعلن الى آخره . او بحر الرجز مستفعلن مستفعلن وليس كقولك في بحر الطويل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن .

وبعد ـ هل نحن أمام نص يقوم شكله ومضمونه على أسس فنية معلومة كأي نص أدبي ؟ كل الدلائل تشير الى ذلك ولكنها لا تقطع بالحجة . هل نحن أمام انشودة دينية موزونة مقفاة ؟ هل نحن أمام سجع يمني قديم على طريقة سجع الكهان في الجاهلية ؟ هل نحن أمام أول نموذج للشعر اليمني قبل الاسلام ، أو قل هل نحن أمام بداية الشعر العربي كافة ؟ مبلغ علمنا استنادا الى الدليل الخطى انى النص ربما عاد على أقل تقدير الى الثلاثة القرون الأولى بعد الميلاد ، وأنه يقع على مقربة من النقش واحد من اهم قصور أقيال بني معاهر وهو قصر قانية أو هجر قانية . وآثار تلك المنطقة من خرائب ولقى أثرية ونقوش تدل على حضارة وديان راقية . ان ما يمكن توكيده هو أن هذا النمط من العمل الأدبي مألوف في الشرق القديم وانه ولا شك جزء من ثقافة اليمن القديم ولكنه يخرج عن اطار ما نعرفه من الاف النقوش اليمنية الى اليوم. بل هو توكيد لنقش زيد عنان السابق الذي يتخذ شكل انشودة تستسقي الإله،وهو في ماضي اليمن ، وضمن اطارها الديني الوثني « أنشودة المطر » (حسب تعبير الشاعر العراقي بدر شاكر السياب) في عصرنا . ولكن نقش زيد عنان يتعذر التأكد منه لغياب صورته الأصلية ، ونقش قانية تلف معظم صدره لتنتظر اذن نصوصا

جديدة اخرى تكشف عنها التنقيبات الأثرية التي لم تتم الى اليوم في اليمن .
ومتى تجمعت القرائن وتوالدت سنعلم ان شاء الله علم اليقين عمّ تتحدث النقوش اليمنية القديمة وهل تتحدث ايضا عن فنون من الأدب؟

سد مارب... وأمر إعادة بنائه

لم يتمكن الانسان من الخروج من حلقة العصور الحجرية الرتيبة والتي لم يكن فيها الانسان شيئا مذكورا ، الا عندما بدأ يصطنع الحضارة . . والحضارة لا يصنعها الا المستقرون من بني الانسان . . وكان أساس التحول الى مرحلة الاستقرار هو الزراعة . ولم يستطع الانسان ان يطور أمور الزراعة الا عندما استقر على ضفاف الأنهار والوديان ، حيث الماء الوفير والتربة الغرينية الخصبة . . ولم يكن ليتسنى له ذلك دون اقامة نظام للريّ يمكّنه من الاستفادة الحسنى من الماء الغزير والتربة الطيبة ويكفل بذلك انتاج الغذاء الجيد والفائض . . وهو امر لا يتم الا في اطار نحلة أرقى من المعاش . . هي حياة التحضر ومجتمع المدينة . . ويعتقد العلماء ان المنطقة الرئيسية التي توفرت فيها الشروط اللازمة لنشوء تلك الحضارة الزراعية هي منطقة غرب آسيا وخاصة بلاد ما بين النهرين ووادي النيل وحوض نهر السند ، واصطلحوا على اعتبار تلك البقاع مهد الحضارات القديمة . .

وتقع جزيرة العرب بما في ذلك بلاد الشام وبلاد اليمن ضمن منطقة غرب آسيا وهي مجاورة بل ملامسة لبقاع مهد الحضارات القديمة ، وتتوفر فيها الشروط اللازمة لنشوء الحضارة الزراعية . . ولذلك فانه من الممكن ان تكون بلاد اليمن

(جنوب الجزيرة العربية) قد شهدت ايضا مراحل التحول الحضاري الزراعي الذي عهد في الحضارات الأولى المجاورة ، وربما في الأزمنة نفسها وانها في حقيقة الأمر ينبغي أن تكون جزءاً من بقاع مهد الحضارات وامتداداً لها . . ولا بد من البحث والتنقيب عن تلك الحضارات التي أهملت ولم تدخل ضمن بقعة الضوء الأثري بل انها لم تنل حظها من الجهود الأثرية كما نالته بقاع وادي النيل ووادي الرافدين وغيرها . . وان ما يعرفه العلماء عن سد مأرب ونظام الري التابع له من خلال ما توفرت من معلومات ينبيء عن دراية عميقة بشؤون الزراعة وانظمة الري. وان السد ، كما يعهد في شكله المتطور الذي يعود تاريخه حسب المعلومات المتوفرة الى الألف الأولى قبل الميلاد، ليس سوى محصلة لتجربة حضارية طويلة ورائدة . . اذ ان نظام الري في ضفاف الأنهار ، وهي دائمة الجريان ، يقوم على قاعدة شق الترع من الأنهار وحسن التعامل مع مواسم الفيضانات ، بينما يقوم نظام الري في الغالب في ضفاف الوديان وهي موسمية الجريان ، على قاعدة اقامة سدود تحويلية عبر مجاري الوديان بحيث تحسن تصريف السيول بسرعة ومرونة ابان مجيئها الى الحقول على جوانب الوديان. كما ان السدود تقتضي اقامتها حاجة موجبة وظروف خاصة بالوديان الجافة ، وهي حاجة لا تستدعيها ظروف الأنهار الجارية والكبيرة ولهذا فان السدود في حقيقة الأمر هي من نتاج حضارة الوديان الجافة بل هي في الواقع من اختراع اهل تلك الحضارة . .

وتوميء الدلائل الى ان حضارة وادي سبأ في مشرق اليمن لعبت دورا كبيراً في نشوء فكرة السدود وتطوير أنظمة الري في الوديان الجافة ولقد اقترن ذكر سد مأرب عبر التاريخ بسبأ والواقع انه ليس في تاريخ اليمن القديم ما يضاهي تاريخها ، فسبأ الأرض والشعب والدولة هي عمود التأريخ اليمني القديم وتكوينه السياسي الكبير . . وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن . . فسبأ هو عند النسابة ابو حمير وكهلان ومنهما تسلسلت انساب اهل اليمن جميعا (وبلقيس) . وان اختلف الناس في اسمها وحقيقتها وتفاصيل قصتها ، في عندهم في جميع الأحوال ملكة سبأ ، وهجرة اهل اليمن الى بقاع

الجزيرة وخارجها وما نتج عن ذلك من ملاحم قد ارتبطت بشكل أو بآخر بسبأ. وقيل في الأمثال (تفرقوا ايدي سبأ) ، وآخر دولة في اليمن قبل الاسلام عرفت عند الاخباريين بدولة حمير ، ولكن ملوكها كانوا يحرصون على ان يتصدر القابهم الملكية لقب سبأ . . فكانوا يلقبون بملوك سبأ وذوي ريدان (وذو ريدان هم حمير) . والبلدة الطيبة التي اشار اليها القرآن الكريم هي في الأصل ارض سبأ فتاريخ سبأ في حقيقة الأمر هو تاريخ الحضارة اليمنية في فجرها وازدهارها وافولها . . وسد مأرب في ارض سبأ هو رمز تلك الحضارة نشأ معها وصاحب أوج نفوذها وواكب فترات ضعفها وقوتها ، وشهد لحظات انهيارها وانهار على اثرها ، بل ان صدى تاريخ تلك الحضارة ظل يتردد وعلى مسامع الزمن مرتبطا بسد مأرب آية تلك الحضارة (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) . .

وليس بوسع المرء أن يقرر بثبات وبدقة متى نشأت حضارة سبأ ، فالإخباريون العرب يذكرون أن تلك الحضارة موغلة في القدم . ولكنهم لا يتفقون في تحديد الأزمنة بل يتجاهل معظمهم تقدير مدى ذلك الأيغال في القدم . ومجمل قولهم في هذا الصدد أن قحطان هو أول من ملك ارض اليمن وأول من تتوج بها ، وهو جد عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان الذي تسمى بسبأ ، وهو الذي بنى سد مأرب وكان العقب والذكر والملك لولديه حمير وكهلان . أما العلماء المحدثون فيجمعون على أنه كان لسبأ حضارة راقية في أرض سبأ نشأت قبل الميلاد بقرون . . ولكنهم يختلفون في مبدأ نشوء تلك ، الحضارة ، ومرد ذلك الاختلاف الى كون الدلائل الأثرية المتوفرة على كثرتها ، ما زالت ناقصة وقاصرة ، وأن الشواهد الكتابية التي عثر عليها لا تزال غير كافية ، ولا تفي تماما بحاجة الباحث ، ان هو أراد اعادة رسم الصورة التأريخية الجلية لتلك الحضارة العربية العريقة.

وللانصاف فان اليمن لم تنل من حظ الدراسات الأثرية والاكتشافات التأريخية ما نالته مواقع الحضارات القديمة الأخرى ، بل انها لم تنل ما تستحقه فعلا ، اذْ لم تكن اليمن في العصر الحديث في منقطة الضوء كمصر او العراق أو بلاد الشام أو الهند ، وقد اعتاد الناس في العصر الحديث ان يتحدثوا عن

حضارات الشرق القديمة مثل مصر وبلاد الرافدين ، وعن حضارات اليونان والرومان ، وقل ان يلتفت الباحث منهم الى ذكر حضارة قامت في اليمن . ولم تكن بالنسبة لهم تلك الأخبار المبثوثة في المؤلفات العربية عن اليمن القديمة والمعلومات المتفرقة في المصادر الكلاسيكية والكتب الدينية سوى بضع رموز تاريخية باهتة ، تستجر شبح الماضي وتضفي عليه شيئاً من سحر الشرق ومكنونات أسراره ، أكثر من كونها عندهم قرائن وأدلة بينة تومىء الى تلك الحضارة وتستشرف آفاقها التأريخية البعيدة .

ومع ذلك فقد أثمرت الجهود العلمية القليلة التي بدأت في اليمن منذ القرن الماضي ، واستمرت على تقطع في هذا القرن ، وخاصة تلك الجهود التي بذلت منذ مطلع العقد الثامن ، وبامكان المرء أن يزعم انه رغم ذلك القصور واعتبارا لما توفر من شواهد أثرية وقرائن دالة ، أن الحضارة السبئية كانت موجودة في مطلع الألف الاول قبل الميلاد على الأقل ، وأن هذه الحضارة قد تركزت أولا في المناطق الشرقية من اليمن ، حيث تلتقي سفوح الجبال والصحراء وعلى ضفاف الوديان التي تسيل من الجبال باتجاه الصحراء وتسمى تلك الصحراء بمفازة صيهد ، وهي في الواقع جزء من فلاة اليمن او جُرُزها الشرقي والتي هي بمنزلة تهامة في غرب اليمن . وأهم الأودية التي تسيل باتجاه الصحراء هي وادي أذنه ووادي بيحان ووادي مرخة ووادي مذاب . وعلى وادي أذنه قامت مدينة مأرب عاصمة السبئيين . [وعلى وادي بيحان كانت تقع مدينة تمنع عاصمة القتبانيين ، وعلى وادي مذاب كانت مدينة قرنا وعاصمة المعينيين . وكان هناك ايضا واديان مهمان ويجريان باتجاه البحر العربي في المحيط الهندي ، ويصبان فيه ، وعلى صلة متينة بمراكز الحضارة في مشرق اليمن وهما وادي حضرموت وكان يقع عليه كثير من مدن دولة حضرموت الشهيرة ، باستثناء شبوة العاصمة ، مثل سيئون وتريم ، ووادي بنا وفيه نشأ تجمع الحميريين الذين استقروا في نهاية المطاف في أعلى الوادي ، وبنوا عاصمتهم ظفار هنالك . أما الى الشمال من وادي الجوف فكان يقع وادي نجران وتصب فروعه في فلاة اليمن ، ايضا وعلى هذا الوادي قامت مدينة نجران ، وكانت ملتقى طرق

التجارة السبئية ، ومركز انطلاق تلك التجارة نحو شمال الجزيرة وشرقها . ولا ريب أنه على الهضبة اليمنية وعلى ضفاف الأودية من مغرب اليمن قد قامت مستقرات هامة ايضا ، وقد لعبت دورا كبيرا في تاريخ اليمن في فترات لاحقة ، ولكن تناول ذلك يخرج عن اطار هذا الحديث]. وكان من أسباب ازدهار الحضارة على ضفاف الوديان في المشرق هو مرور الطريق التجاري البري المشهور بطريق اللبان عبرها ، ويرجع العلماء ان استئناس الجمل في الألف الثانية قبل الميلاد هو الذي أحدث ثورة النقل البري ووسع النشاط التجاري في الجزيرة العربية ، فالجمل بما له من صفات جسمية يصلح للركوب وحمل الأثقال لمسافات طويلة وبلاد بعيدة لا تبلغ الا بشق الأنفس ، وخاصة عبر الصحراء ، ولهذا ازدهرت التجارة البرية وحركة القوافل بين ارجاء الجزيرة . وكان انسب طريق هو ذلك الذي يمر على موارد المياه في المناطق الخالية من الأوبئة حيث تلتقي الجبال بالصحراء وخاصة مشرق بلاد اليمن حيث كانت قد نشأت تدريجيا حضارة الوديان ومنها حضارة السبئيين .

وكان اللبان مادة اساسية لدى تقديم النذور للآلهة ، كما كان المر يستعمل في التحنيط، وفي تحضير مواد التجميل ، ويدخل كلاهما في تحضير الأدوية المركبة . وكان لهاتين السلعتين ، على وجه الخصوص ، اقبال كبير في العالم القديم ، وكان يستهلكان في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط وغيرها . فكان أن أهتم اهل اليمن بانتاجهما وانتاج وتسويق غيرهما من السلع النادرة ، وحرصوا على كتمان أسرارها في سبيل احتكار تجارتها ثم طوروها حين عرفوا حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي وحذقوا الملاحة وبناء السفن .وبذلك بدأوا يحسنون استغلال موقع بلادهم الجغرافي الممتاز ويقومون بدور الوسيط التجاري بين سواحل الهند وشرق افريقيا من ناحية وشمال الجزيرة وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى .

وهكذا اسهمت التجارة وموردها المالي الوفير بقسط وافر في انعاش الحياة العامة وازدهارها بمراكز الحضارة القديمة من مشرق اليمن وخاصة قلب تلك الحضارة في ارض سبأ وعاصمتها مأرب ، والتي شيد على مقربة منها وفي مضيق

وادي أذنة سد مأرب العظيم ، آية ما وصل اليه السبئيون من رقيّ حضاري وكفاية اقتصادية ومهارة فنية في مجال السيطرة على المياه ، ودراية وخبرة في مواجهة ألظروف الطبيعية القاسية وحسن نظر وتدبير في استغلال تربة الأرض الطيبة .

تعتبر بقايا سد مأرب أهم شاهد أثري ودليل مادي على أن اليمن شهدت حضارة زراعية راقية وتكاد أن تقطع الدراسات المختصة والعديدة أن السد في شكله الأخير والذي تنبيء عنه الآثار والنقوش الباقية ليس سوى محصلة تجربة طويلة من الحياة الزراعية المتقدمة والمكثفة . كما تشير الى انه كان موجودا بهذا الشكل الراقي في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. بل ان آخر الدراسات التي أجريت في منطقة السد ، وهي دراسة علمية جادة صدرت عام ١٩٨٣ م ، اثبتت أن أسس سد مأرب يعود تاريخها الى مطلع الألف الأول قبل الميلاد على الأقل[1] .

ومن المعلوم ان تفجر سد مأرب قد ترك صدى كبيراً وشاع ذكره في كتب التراث والأخبار خاصة وأنه كرم بالذكر في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم** . . ﴾ والعرم هو السد . وبمقدار ما كان تعميره رمزا لازدهار حضارة اليمن القديم ، صار تفجره ذكرى انهيار تلك الحضارة . . وكانت حادثة تفجره الأخير قريبة العهد من فجر الاسلام ، وتناقل الناس أخبار الحادثة الكبيرة ، وبقيت عالقة في اذهانهم . كما ارتبطت بهجرة أهل اليمن وتفرقهم في الأمصار ، قبل الاسلام وبعده حتى صارت جزءاً من موروثهم وذكريات ماضيهم ، وتتجدد دوما بالحنين وتعزز بالفخار . فكان أن تضخمت أخبار السد عبر تواترها وغلب عليها روح المبالغة ونفس الملاحم ، وامتزجت الحقيقة بالخيال واختلط مع تقادم العهد صوت التاريخ بصداه . فقالوا

---

(١) Archaeologishe Berichte aus dem Jemen, Bd II, Von Ueli Brunner Die Erforschung des antiken Oase Von Màrib mit Hilfe geomorpho logischer Untersuchung methoden. Verlag Philipp Van Zaberm. Mainz am Rhein,(1983).

مثلا ، ان بناة السد هم العمالقة من قوم عاد . وقالوا ان بانيه هو سبأ بن يشجب وجعل مياه سبعين نهرا تصب فيه ولكنه مات قبل ان يتم تشييده . . فأتمه ملوك حمير . . وقالوا ما مجمله ان فأراً كبيرا ذا اسنان ومخالب حديدية قرضت حوائط السد الحجرية حتى تداعت كل المباني ، وأهلكت الزرع . . وكان أهل سبأ قد علموا من كتبهم ونبوءاتهم ان سدهم كان قدره الهدم بواسطة فأر اسمه الخلد، ولذلك وضعوا قطة على كل فتحة بين حجرين، وعندما حان القضاء أتى فأر لونه أحمر الى احدى هذه القطط وهاجمها . . وعندما تراجعت القطة دخل الفأر في الفتحة وحفر فيها ، ولما نزلت السيول وجدت شرخا تسربت منه المياه ، فتداعى السد وغمرت المياه الأراضي وملأت مساكن القوم بالتراب . . (١) .

ولا ريب أن القاريء لتلك الأخبار سيجد في تفاصيلها شيئاً من الحقيقة ، كوصف الأجزاء الباقية من السد ، وذكر المصارف والقنوات ، وتبيان دور السد في حياة الناس ، وفضل الله عليهم في أرضهم الطيبة . . ولكن احدا من هؤلاء المؤرخين والاخباريين لم ير السد أو آثاره ـ باستثناء الهمداني كما سيأتي ـ وقد دونوا ما سمعوه وما تواتر عندهم دون التثبت من الحقيقة ، أو حتى التساؤل عما اذا كان بعض ذلك القصص معقولاً أم لا ، كعادتهم في ذكر اخبار الأولين ممن تقادم عهدهم ، وبعدت الشقة بين عصرهم وعصور تلك الأمم التي سبقتهم في حين من الدهر .

ومن المعلوم أن سد مأرب قد عاصر عهود التاريخ اليمني القديم أكثر من ألف وخمسمائة عام وقد شغل الناس ذكره في الجزيرة وملأ الأسماع إبان كان قائما ، وبعد تفجره صار ذكره من الموضوعات المفضلة لدى الاخباريين. وقد ساعد على ذيوع صيته عندهم ذكره في القرآن الكريم واتخاذه من حادثة السد

---

(١) راجع تلك الأخبار مثلاً في كتب التاريخ العامة كالطبري والمسعودي وكتب الأخبار مثل التيجان ومادة الخلد في حياة الحيوان للدميري وغيرها .

عبرة تعتبر لمن أعرض عن الله وجحد نعمائه .

ومع ذلك فان تلك الأخبار الطريفة والحكايا الشيقة الموشاة بضروب من الخيال العجيب ، قد اضافت بحق الى ملحمة التاريخ اليمني وأدبه الشعبي القديم صفحة رائعة من القصص الممتع الجميل . .

على ان الاستفادة عموما من تلك الأخبار قليلة خاصة حينما يكون المراد هو معرفة تاريخ السد وتطور بنائه ونمط تشييده وطريقة عمله ، ونظام الري وشبكة القنوات التي كانت تنتظم ذلك والجدوى الاقتصادية والحاجة الزراعية من ذلك كله .

كما ان طبيعة الرواية القصصية وكونها تهدف للمتعة والفائدة معا ، وكذلك منهج العصر في التدوين وتناول أخبار اليمن ، قبل الاسلام، وبحكم تقادم العهد والبعد عن اليمن - فان تلك الأخبار قد لا تسعف في معظمها على تبين الامكانات الفنية والشروط الطبيعية والظروف الجغرافية والمناخية التي اكتنفت عملية بناء السد ، وأملت نظام الري التابع لها . اذ ان الوصول الى بعض هذه المعارف يتطلب توفر دراسات حديثة ميدانية مفصلة لمنطقة السد ، وابحاثا متخصصةتنتهج اساليب علمية ، يقوم بها ذوو الشأن مثل علماء الجغرافيا ومهندسي الري وعلماء الانثروبولوجيا ، وعلماء الآثار القديمة والنقوش اليمنية وغيرهم .

وللانصاف فان شيئا من ذلك قد تم فعلا وأزعم أن طرفا من تلك الأبحاث المتخصصة قد تحقق وأن معارف مفيدة بهذا الخصوص قد توفرت ، علما بأن لسان الحال في هذا الأمر ما زال ماثلا وهو : أن الطريق الى مأرب شاق وطويل . . إذْ لا بد من حشد الجهود لاستكمال تلك الدراسات حتى يتسنى لنا اعادة رسم الصورة التاريخية الممكنة والمعقولة لذلك السد العظيم ، وفق اصح المعلومات المتوفرة ، وأسلم النتائج التي توصلت اليها الجهود العلمية[١] .

---

(١) Glaser, Eduard: Reise nach Màrib hrsg. Van D.H. Muller und Rhodokanakis.

سبق وأن ذكر ان ارض اليمن تقع في جنوب جزيرة العرب، أي في جنوب غرب آسيا ، وضمن البقاع التي شهدت فجر الحضارة الانسانية ، وانها كغيرها من مواطن الحضارات القديمة في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، تتوفر فيها الشروط الطبيعية اللازمة لحياة الاستقرار . وهي وان كانت خالية من الأنهار الكبيرة الدائمة الجريان ، الا ان فيها الوديان التي تجري فيها المياه موسميا على جانبي النطاق الجبلي الذي يمتد عبرها . . وفيها القيعان الفسيحة التي تقع في ما بين القمم الجبلية التي تعلو الهضبة اليمنية . تلك الهضبة التي تشكل امتدادا لسلسلة حبال السراة الطويلة الممتدة عبر الجزيرة العربية ، بموازاة البحر الاحمر غرباً والصحراء العربية شرقا . وتزداد تلك المرتفعات الجنوبية ارتفاعا ملحوظا عن غيرها بحيث يجعل منها مساقط حسنة للأمطار التي تحملها الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي . . فتهطل عليها الأمطار بغزارة في الربيع والصيف . وتنحدر مياه تلك الأمطار وتسيل في أودية كثيرة على جانبي السلسلة الجبلية . ثم تمر عبر الأرض المنبسطة غربا ، أي ساحل تهامة ، وتصب في البحر الأحمر . ومنها ما يجري جنوبا عبر المنحدرات الجنوبية ويصب في السهول الجنوبية ، وقد يصل الى البحر العربي ، أو يجري شرقا باتجاه الصحراء (الربع الخالي) فتبتلعه الرمال .

وفي هذا المكان الجغرافي من الجزيرة العربية ، وبكل ما حباه الله من خصائص ومواصفات جغرافية تشهد الأرض الانتصار البشري الذي يصطنع الاستقرار ، ويستوجب العيش والتعايش. والاستقرار الذي يعتمد على الزراعة وحسن الاستفادة من الشروط الطبيعية المواتية ، فنشأت ضمن هذا الاطار مدنية قديمة وحضارة عريقة .

Sammlung E.Glases vi,Wien(1913). =

Fakhry, Ahmad: Ahmad: An Archaeological journey to yemen, Part I, Services des Anticuitès de l'Egypte, Cairo, 1951 - 52.

Archàologisches Berichte aus dem Jemen,Bd,I,II.

ان العمل ضمن هذا الاطار الجغرافي وضمن الظروف القاسية فيه يحتاج الى توفير الأيدي العاملة التي تقيم الحواجز ، وتبني السدود ، وتحرث الأرض، وتصون مرافقها وتحتاج الى نظام من الري يعتمد اسلوب العمل المنظم والمنتظم، ولا تنجز هذه الأمور الا بارادة جماعية وقوى متحدة وفي اطار سلطة مركزية قوية ، تكفل سير هذه الأمور وتنفض غبار الكسل عن الناس وتردع الأنانية لديهم ، بما يحقق الاستفادة القصوى من الموارد الطبيعية ، حتى يتوفر الماء والغذاء اللازمين للمحافظة على بقاء السكان المستقرين في الوادي[١].

وكانت أنظمة الري التي أقامها أهل اليمن قديما في الوديان تختلف باختلاف الشروط المكانية والمناخية للمنطقة والشروط الطوبوغرافية الخاصة بالوادي . . .

ويعتقد العلماء المختصون ان مناخ بقاع مهد الحضارات القديمة مثل بلاد الرافدين ووادي النيل وكذلك مناخ اليمن في جنوب جزيرة العرب لم يطرأ عليه تغيير كبير منذ فجر التاريخ ، أي منذ الفترة المبكرة من التاريخ التي تلت العصور الحجرية السحيقة ، وهي الفترة التي تميزت بقيام حضارات راقية ، ودلت عليها شواهد كتابية ، (راجع سيتون لويد في كتابه آثار الرافدين ص ١٤)[٢]. وان الظروف المناخية التي كانت تكتنف الحضارات القديمة في الشرق قبل اربعة آلاف عام هي نفسها تقريبا هذه الأيام . والشواهد الأثرية والتاريخية من تلك الفترات تومىء الى ذلك كما ان نظريات اختلاف المناخ لم تقدم أدلة قاطعة على دعواها وهي لا تزال موضع خلاف كبير[٣]. اذ كيف يقيم

---

(١) Grohmann, Adolf: Arabien, kulturgeschichte des alten Orient, in Handbuch der Altertumswissenschaften, München (1963) ,S.121.

(٢) سيتون لويد ، آثار بلاد الرافدين ، ت سامي سعيد الأحمد ، منشورات وزارة الأعلام والثقافة، الجمهورية العراقية (١٩٨٠).

(٣) Einführung in die Alte Geschichte, München , (1975) S.44. Siehe auch: Archaeological Discovries, pp. 82 - 83.

سكان وادي مأرب سدا مكلفا للسيطرة على المياه ، ان كانوا حينئذ يحيون في فترة الرطوبة التي تلت انحسار الجليد . والواقع ان الحاجة ام الاختراع كما قيل . . فالمطر يتنزل في اليمن اجمالا في موسمين ربيعي (مارس ـ مايو) وصيفي خريفي (يوليو ـ سبتمبر) ، وذلك بفعل تيار موسمي جنوبي يكون على شكل كتلة هوائية رطبة تتحرك شمالا في الجانب الافريقي ولا تلبث ان تبرد عندما تصل الى منطقة الساحل اليمني . . ثم تتجه هذه الكتلة الهوائية نحو الجبال حيث يصدر عنها عواصف رعدية قوية متقطعة لا تلبث أن تسقط الأمطار على الهضبة اليمنية . .

ويتفاوت معدل سقوطها السنوي على المناطق تفاوتا كبيرا قد يصل في اقصاه الى (١٢٠٠ مم) في المناطق الجنوبية الغربية وفي أدناه (١٠٠ مم) ، كما هي الحال عليه في منطقة مأرب [١] وينتج عن هذه الأمطار المفاجئة والغزيرة سيول قد تملأ الوديان في ساعات قليلة . . وللاستفادة من تلك السيول ، وبحكم الحاجة تمكن اليمنيون القدماء من تطوير أنظمة للري تتلاءم مع تلك الظروف ، بحيث تتمكن من السيطرة على المياه وتحتوي اندفاع السيول ، وتتحكم في مجراها وتسهل تحويلها وتوزيعها للحقول بأسرع وقت ممكن ، وقبل ان تصب في البحر أو تغور في الصحراء . وكان لا بد وان يختلف نظام الري ومنشآته في اليمن عنه في وادي النيل وبلاد ما بين النهرين ، حيث تعتمد الزراعة هنالك على أنهار يجري فيها الماء الغزيز طول العام ، دون توقف ، ويقتصر جهد الانسان فيها على شق الترع وضبط فيضان الأنهار في مواسمها ، بحيث لا تغمر الأراضي المزروعة أو تخربها . . أما في اليمن فالوديان جافة ولا يسيل الماء فيها الا في فترات قصيرة من السنة ، ويأتي احيانا من مساقط شتى وبعيدة ، متجمعا على شكل سيول جارفة تندفع الى الامام ، وتغمر السهول على غير هدى . واذا لم

---

(١) Final Reportof the Airphoto interpretation project of the Swiss Technical Co - Operation Service, Berne, Carried out for the Central planning Organisation,. Sana a , YAR.- Zurich 1978(Swiss final Report) P. I/10.

يسيطر عليها فان سيول الوديان الشرقية تضيع في رمال الصحراء أو في مياه البحر في حالة الوديان الغربية والجنوبية ، ولا يستفاد منها في مجال الزراعة الا بمقدار يسير.

ويعتقد العلماء ان الانسان بدأ يزرع الأرض زراعة بدائية وسهلة . وكان ينتظر حتى يجف بعض الأرض في أسفل الوادي بعد أن يغمره السيل في مواسم المطر. ثم يبذر الحب في تلك الأرض التي اخصبها الغرين الذي تأتي به السيول . ثم كانت الخطوة المنطقية التالية ان يكتشف الانسان ان السيول قد تجرف تلك التربة الغرينية ، وان الحفاظ على تلك التربة والسيطرة على كمية اكبر من المياه يوفر ان له ارضا أوسع وفائضا زراعيا . فكان أن بنى سدا ليحجز التربة ، حتى اذا ارتفع السد ارتفاع بيّنا عن بطن الوادي قام بعمل مصارف جانبية لتحويل المياه الى الحقول على جانبي الوادي . . واقتضى ذلك انشاء شبكة منظمة من قوات الري الرئيسية والفرعية[١].

شيد سد مأرب على وادي (أذنة) بين مأزمي الجبلين ، البلق الشمالي والبلق الأوسط، وجبال البلق هي سلسلة من الجبال تؤلف الحاجز الأخير للمرتفعات الشرقية، قبل ان تلتقي بالصحراء. والصحراء المعنية هي ذلك الجزء من فلاة اليمن (أو جرز اليمن الشرقي) الذي يمتد بين مأرب وشبوة ، وتصب فيه معظم أودية المشرق ، ويسميه الجغرافيون العرب بمفازة صيهد ، ويطلق عليه حاليا اسم رملة السبعتين .

وبين مأزمي الجبلين المذكورين يضيق وادي أذنة بحيث يكوّن موقعا طبيعيا يصلح لاقامة سد . وتتسع منطقة التجمع في أعلى المضيق بحيث تبدو وكأنها حوض مثالي لاحتواء المياه[٢]. ووادي أذنه (وهو أذنت في النقوش اليمنية

---

(١) Bowen, Richord Le Baron.. Archaelogical Discoveries in South Arobia. Publications of the Ameican Foundation for the Study of Man, Vol. III, Baltimore the John Hopkins press,1958. (Arebaological Discoveries)pp. 8.

(٢) Marib Dam and Imigration projeetyemen Arab Republic, Main Report, Electro- =

القديمة أيضا) هو أعظم أودية اليمن وميزابه الشرقي . وتشمل مساقطه اكبر مساحة بين مساقط أودية اليمن الأخرى (ويقصد بالمساقط هنا منطقة تجميع أمطار الوادي او الحوض الذي تسيل فيه المياه التي تفضي الى الوادي) . وتقع مساقط أودية اليمن عموما في النطاق الجبلي الضخم الذي يمتد من الجنوب الى الشمال مكونا الهضبة اليمنية ، والى الغرب والشرق والجنوب ، وابتداء من خط تقسيم المياه والذي يفصل بين مناطق التجميع ، تنحدر وديان كثيرة تسيل بمياه الأمطار التي تنزّل في مواسم معلومة . وتتفاوت كمية ما تجري به تلك الوديان من مياه حسب كمية الأمطار الهاطلة ، وحسب مساحة مساقط تلك الوديان . وتؤلف مآتي تلك المساقط ومسيلاتها ، في الغالب ، روافد فرعية ، تُفضى جميعها في وديان رئيسية مثل وادي أذنة . . ومن باب المقارنة فان مساحة مَساقط وادي مور ، وهو من جهة أخرى ميزاب اليمن الغربي ، تقدر بحوالي (٧٥٠٠) كيلومتر مربع ، ومساحة مساقط وادي بنا (٥٩٠٠) كيلومتر مربع ، ومساحة وادي مذاب في الجوف ، (٢٧٠٠) كيلومتر مربع ، بينما تقدر مساحة مساقط وادي اذنة بحوالي عشرة آلاف كيلومتر مربع ، وهي مساحة شاسعة تعادل مساحة لبنان تقريبا [١] .

وتشغل مساقط وادي أذنة حيزا كبيرا من المرتفعات الشرقية ومنحدراتها . . وترسم الخرائط وخطوط تقسيم المياه الجغرافية اطارا عاما لحوض الوادي (مساقط الوادي) يبدأ شرق رداع ويمر شرق يريم وشرق ذمار، ثم شرق صنعاء. أي أنه يشمل في أدناه ناحية رداع وناحية ذمار وناحية الحدا وناحية جحانة وناحية صرواح وفي اقصاه يشمل ايضا بعضا من نواحي العبدية والسوادية وبلاد الروس وبني بهلول وسنحان وبعضا من ناحيتي الجوبة وبني ضبيان ومأرب نفسها . والواقع انه ليس في المتناول خرائط مفصلة تحمل اسماء الأودية والروافد

= watt Engineering Services Ltd. Zurich, Swiss, in association with Hunting technical Services Ltd. Herts. England. June 1978 Electrowatt Main Report p.7.

(١) Swiss Final Report. P. I/ 18.

الفرعية والرئيسية داخل ذلك الاطار.ومبلغ العلم أن (جلازر) قد حاول قبل قرن من الزمن ان يرسم خارطة لمساقط وادي أذنة تحمل اسماء روافده الرئيسية . . ولكن هذه الخريطة لا تفي بالغرض ، خاصة وانها رسم تقريبي وفي حدود امكاناته حينذاك [١] .

وفي حوزتي خارطة دقيقة ومكبرة تشمل فيما تشمل « حوض » وادي اذنه كله ولكنها مع الأسف تخلو من ذكر أسماء الأودية والأمكنة التي قد تيسر للباحث تتبع تلك الأودية والتي تفضى الى وادي أذنة ، وتحديدها بوضوح ودقة[٢] . وفي دراسة (د. مجريه) عضو البعثة الايطالية الأثرية التي قامت في ١٩٨٠ م بمسح أولى لمنطقة (الوديان) في (حوض) وادي أذنة خارطة مرفقة لميدان العمل ولكن المرء لا يجد فيها سوى ذكر لثلاثة وديان هي وادي مسور الآتي من خولان الطيال وامتداده وادي النبعة . ثم وادي حيكان القادم من ناحية الحدا وزراجة . (ريدان ٤/١٩٨١ م ، ص ٢٠٤)[٣] .

ومبلغ العلم ان الحسن بن احمد الهمداني هو خير من حاول أن يفصّل ذكر أهم الأودية التي تفضى سيولها الى وادي أذنة . . وتبقى مادته التي ضمنها كتابه صفة جزيرة العرب رغم قدم بعض التسميات واندثارها دليلا حسنا بهذا الشأن ، كما لا تخرج تلك المادة ، في مجملها عن الاطار العام الذي ترسمه الخرائط الحديثة[٤] .

وتذكر بعض كتب الأخبار ان عدد الوديان التي تصب في وادي أذنة هي

---

(١) Glaser, Reise.. Blatt I..

(٢) Producod for the use by the Directer of military Survey, Ministery of Defense, UK 1974.

(٣) Raydàn, journal for ancient yemeni Antiquities and Epigraphy Vol. 4 1981. p. 204.

(٤) صفة جزيرة العرب ، الحسن بن احمد الهمداني ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، منشورات دار اليمامة ، الرياض (١٩٧٤) [الصفة] ١٤٧ - ١٥٠ .

سبعون واديا والواقع انه ليس في المتناول اليوم أي احصاء دقيق لها ، وقد اكتفى الهمداني بالقول أن شعابه وفروعه كثيرة ولم يذكر عددا محددا لها[1] .

الا انه من المعلوم ان مساقط وادي أذنة تشمل شعابا ومآتي ومسيلات وروافد وديان كثيرة تشكل شبكة معقدة ومتداخلة وليس كل مياه المساقط المذكورة تنزل الى مأرب كما أن ليس كل مياه الوديان النازلة تصل دوما الى وادي أذنة .

يقول الهمداني في الصفة (ص ١٤٧ ـ ١٤٩)[2] : ثم ميزاب اليمن ، وهو اعظم أودية المشرق كما مَوْر أعظم أودية المغرب ، وشعابه وفروعه كثيرة ، فاما من ناحية رداع فالعرش والمواضع التي قد ذكرها الرداعي في قصيدته ، بالقرب من رداع (والاحالة هنا الى ارجوزة الحج لاحمد بن عيسى الرداعي والتي أوردها الهمداني في آخر كتاب الصفة . . ومن الأمكنة التي ذكرها الرداعي قرب رداع « السليل والأغوال وأحرم والقهر » راجع الصفة ص (٤٠١ ـ ٤٠٣)[3] « وردمان وقرن » (وردمان) أرض تحمل اسمها الى اليوم . . وكانت مقاطعة كبيرة تمتد الى السوادية والمعسال وسارع ونجد الجاح) . « وقرن سبعة أودية كبار منها المأذنة والغولة والحجلة » (وقد زرت بعض هذه المناطق في ناحيتي السوداية والعبدية . والى قرن ينسب التابعي المشهور أويس القرني) . . « ومن جانب ذمار وبلد عنس جميعا ، وهو مخلاف واسع ، وسُمع به بينون وهكر وجميع ما ذكرنا في كتاب الأكليل من المحافد العنسية ، وبلد كومان وبلد الحدا وجبل اسبيل ورخمة (وكلها مواضع معروفة باسمائها الى اليوم) . . وجبال بني وابش من مراد وجبال كداد وبلد قائفة من مراد ، والد قرار جبل بني مالك من مراد وفجاءة (وقائفة هي قيفة ، وجبل بني مالك وفجاءة يدخل في مخلاف مأرب) ، ومخلاف ذي جرة ويكلى وجيرة (ومخلاف ذي جرة اليوم تقريبا

---

(١) المصدر نفسه ص : ١٤٧

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه

بلاد سنحان وبلاد الروس وبعض ناحية جحانة وبعض ناحية الحدا ، وكلها الى الجنوب من صنعاء) ، وجهران وهران بسواد ذمار ، ومساقط بلد خولان من جنوبيه وما تيامن من القحف ورملك وموضح[1] .(ومن أهم أودية خولان من ناحية جحانة ، وادى مسور ويأتي من اسناف من غرب جحانة ويمر بجحانة ثم يذهب الى السهمان ويصب في وادي حبابض ثم يذهب الى مأرب ، وينضم اليه وادي هروب ووادي الكبس وهما بالجنوب من جحانة ، كما ينضم اليه وادي قروي ووادي الأعروش وبني شداد (راجع الويسي ص ٦٩ - ٧٠٠)[2] .

ويصنف مناخ مساقط وادي أذنه بأنه مناخ شبه مدارى ، وأمطارها موسمية ، ويقدر معدل نزول المطر فيها سنويا بحوالي (٣٠٠ سم) ويتفاوت المعدل في المنحدرات الشرقية عموما بين (١٠٠ و٤٠٠ مم) . ومنطقة مأرب نفسها تدخل ضمن المناطق الجافة حيث يقل فيها المطر ويأتي دون انتظام وهو اجمالا لا يكفي لسد الحاجة.ومعدل نزول المطر فيها منخفض ويتراوح بين (٥٠ و ١٠٠ سم). وربما تتضح الصورة أكثر أن علم المرء ان الحد الأقصى في اليمن عموما قد يبلغ (١٨٠٠مم) في المرتفعات الغربية ، وان معدلات بعض المناطق المتاخمة لمساقط وادي اذنه متفاوتة وتكون كالتالي : صنعاء (١٩٥ مم) ، يريم (٤٦٩ مم) ، سمارة (٨٦٥ مم)، إب (٣٩٢ مم)[3] (راجع بهذا الخصوص برونرص ١١ ، التقرير السويسري ص ١/ ١٠) . وتذكر هذه المصادر استنادا الى دراسات أولية واحصاءات تقريبية ان السيول التي تجري في وادي أذنة موسميا لا تبقى على حال واحدة ، وتستمر في الجريان لمدة ١٥ يوما خلال فترة نزول الأمطار في الربيع (ابريل /مايو) ولمدة قد تصل الى ٤٥ يوما في فترة الصيف/الخريف (يوليو/سبتمبر) . ويستفاد من

---

(١) الصدر نفسه. ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) اليمن الكبرى، حسين بن علي الويسي ، مطبعة النهضة العربية القاهرة (١٩٦٢) .

(٣) Archäologische Berichte aus dem Jemen II . s. Swiss Final Report. p. I/ 17.

الدراسات التي اجريت لظروف المكان الطبيعية والجغرافية ضمن اطار وادي أذنه ومساقطه، أن كمية المياه المنحدرة من تلك المساقط متغيرة ومتفاوتة . وقد قدرت اجمالا بمتوسط (٢٠٠ مليون) متر مكعب . كما تختلف قوة اندفاع السيول المتدفقة الى الوادي بين الفترة والأخرى، ويقدر متوسط قوة اندفاعها في عامين حوالي (٩٥٠) متر مكعب في الثانية[١] .

اقام السبئيون القدماء سد مأرب لاحتواء تلك السيول والسيطرة عليها مع تحمله من طمى وأحجار وأشجار ثم ليصمد أمام قوة اندفاعها دون ان يتصدع، مؤدياً الغرض من اقامته ، وهو تحويل السيول الى قنوات الري التي تسقى الحقول على جانبي وادي اذنه اطول فترة ممكنة . . ولا ريب انهم كانوا يدركون ان ذلك يقتضي تشييد سد قوي ومحكم يفوق طاقته امكانات سد عادي . ولا بد ان يكون للسد مصرفان كبيران على جانبيه لا يقل بناؤهما عن السد نفسه ثباتاً واحكاماً . فكان أن درسوا طوبوغرافية المكان دراسة جيدة واستفادوا استفادة قصوى من الامكانات الطبيعية والجيولوجية الملائمة بحيث شيدوا السد على قاعدة صخرية في الوادي وفي مضيق ملائم يتيح شق مخارج جانبية واسعة عبر صخور الجبلين . ويرى العلماء أن اختيار المكان مثالي، اذ انه من الصعب اقامة منشأة سد متين كسد مأرب على قاعدة ترابية وبدون ربط جداره وصدفية ربطا محكما بالصخر في اسفلي جبلي البلق[٢] . اذ ان مياه السيول رغم تقطعها وندرتها الا انها عندما تأتي قد تأتي بقوة وعلى غير نظام وتحمل معها مفاجآت كبيرة قد تصيب السد ومرافقه بالضرر البالغ .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) Grohmann, Adolf, Südarabien als Wirtsschaftsgebiet, Verlag Rudolf M.Rohrer, Brun - prag - Leipzig - Wien, (1933), Zweit Teile, S. 23ff.

Irrigation and Land use in the Màrb Region Ueli Brunner, A paper presented to the Symposium in Exeter on modern yemen, (1983) Exeter paper. p. 2.

وتفيد الدراسات الأثرية لبقايا منشآت سد مأرب وكذلك الدراسات التي اعتمدت طرائق البحث الجيومورفولوجية كتحليل ترسبات التربة في منطقة السد والدراسات التي عنيت بوضع تخطيط لمنطقة السد القديمة استنادا الى الطرق القديمة او بتخطيط الأوضاع الزراعية الحاضرة ان المنشآت الأساسية التي قام عليها نظام الري القديم في منطقة سد مأرب تتألف مما يلي، (راجع على الأخص، احمد فخري اشميدت ، برونر ، التقرير السويسري)[1] :

- سد مأرب نفسه او جدار السد الذي يحجز الوادي .

- المصرفان الكبيران اللذان تخرج بواسطتهما المياه من جانبي السد او الصدفان ، او الهويسان .

- القناتان الرئيسيتان اللتان تربطان المصرفين بالجنتين .

- مقاسم المياه في الجنتين وهي سدود تحويلية صغيرة تقسم المياه التي تصلها من القناتين الرئيستين .

- شبكة الري المؤلفة من القنوات الفرعية والتي تسقى الضياع والحقول .

- حقول الجنتين بأشكالها المستطيلة والمربعة والتي تكون في مجملها ارض الجنتين في وادي سبأ (وادي عبيدة حاليا) .

ورغم ان دراسة هذه المنشآت لم تكتمل، ان لم تكن بالفعل في أول الطريق، الا انه من الممكن ان يصف المرء آثارها في حدود ما تيسر من امكانات بل ربما من المفيد ان يحاول المرء رسم صورة تقريبية وفي حدود ما توفر من بيانات لأهم تلك المنشآت وهي منشأة جسم السد نفسه أي الحاجز بمصرفيه .

سبق وان ذكر أن إنشاء سد مأرب كان استجابة لظروف طبيعية واجتماعية

---

(١) أنظر النقوش : J 671,CIH540 CIH541

أنظر أيضاً : Fakhry , Archaeological Journey

Jurgen Schmidt, Archaologischee Berichte, Brunner, Uli, Ariaologische Berichte II..

معينة ، وحاجة ملحة اقتضتها ضرورة السيطرة على المياه في ظل تلك الظروف . وكان لا بد وان يصمم السد ويفصل بناؤه بما يلائم تلك الظروف ويلبي تلك الحاجة وفي شروط الواقع المادية وحسب امكانات العصر الفنية . . وقد أدى ذلك كله الى اقامة سد ثنائي الوظيفة . يقوم برفع منسوب سيول وادي اذنه الى مستوى معين بحيث يسهل منه سقي الحقول الممتدة على جانبيه والتي ترتفع بطبيعة الحال بضعة أمتار عن بطن الوادي ، وفي الوقت نفسه يقوم السد بحجز وادي أذنه كله وتحويل ما فيه من سيول الى تلك الحقول عبر مصرفين جانبين وطيدي البناء . أي ان السد قد صمم بحيث يتعامل مع السيل مباشرة ، يحتويه اولا ثم يسرع في تصريفه . فهو في حقيقة الأمر حاجز لتحويل مجرى الوادي اكثر منه صهريج لخزن المياه ثم توزيعها عند الحاجة . اذ لو كان السد قد اقيم بغرض الخزن لتناقصت سعة الخزن تناقصا مطردا نظرا لحجم الطمي الذي تحمله السيول سنويا وما يصاحب ذلك من مواد اخرى كالحجارة والأخشاب . ويقدر حجم الطمى الذي تحمله السيول سنويا الى بطن السد بمليونين ونصف مليون متر مكعب [١] .

وتقدر سعة السد في بداية امره بحوالي (٥٥) مليون متر مكعب وهذا يعني ان السد سيمتلىء بالطمى من أقل من قرن من الزمان . على ان الدلائل المتوفرة تشير الى أن السد بقي قائما أكثر من ألف عام ،واملاؤه بالطمى لم يلغ وظيفته ، بل أنه من المنتظر ان يمتلىء بطن السد تدريجيا بالتراب والحجارة وما شابه ذلك حتى في حالة كونه سد تحويل وليس خزانا . ولا يفيد حينئذ إعلاء جدار السد لمواجهة ضغط رواسب الطمي وسرعة تدفق السيول . اذ لا بد من انكسار جدار السد يوما ما نتيجة ضغط الترسبات في بطن السد عبر السنين . وعندما ينكسر السد تجرف المياه المتدفقة الى الوادي بعض ما في السد من ترسبات « فيتنفس » . ولهذا يعتقد أنّ السبئيين قد اهتدوا الى حل عملي وسليم وهو ان

---

(١) Brunner, Exeter paper p. 1 -- 3.

يتركوا السد زمنا حتى يمتلىء بالرواسب . ويقدر العلماء الذين عنوا بدراسة التراسبات في باطن السد ان انكسار «العزم» بسبب الترسبات الخشنة يمكن ان يحدث كل قرن مرة واحدة . ومما قد يؤ يد مثل هذا الاستنتاج ما ورد في النقوش اليمنية القديمة . حيث تذكر تصدع سد مأرب في الفترات المتأخرة ثلاث مرات وتؤرخ لذلك مباشرة او بطريقة غير مباشرة بالتقويم الحميري[١] . وربما ليس من باب الصدفة ان يكون الفرق بين كل تصدع وآخر حوالي قرن . ويرى (برونر) انه اذا كان سعة سد مأرب الكبير في بداية امره حوالي ٥٥ مليون متر مكعب وكان حجم الطمى النازل سنويا الى داخل « بحيرة السد » حوالي اثنين ونصف مليون متر مكعب . واذا كان بالتالي متوسط قوة اندفاع السيول في السد لمدة عامين حوالي (٩٥٠) متر مكعب في الثانية ومتوسط ١٠ سنوات ٣٧٥٠ متر مكعب في الثانية ومتوسط ١٠٠ عام حوالي (٧٢٥٠) متر مكعب في الثانية فان طاقة أي سد عادي حينئذ لا تقدر على استيعاب تلك السيول وطميها وقوة اندفاعها بل أن جسم اي سد عادي لا يمكن ان يصمد امامها لفترة اكثر من قرن[٢] . . ولهذا فان سد مأرب العظيم قد صمم وشيد بدقة ومتانة وإحكام بحيث يخدم الغرض منه قرونا طويلة وبحيث لا يتهدم السد ومرافقة جميعها ان انكسر جداره مرة في كل قرن . . وانما يكون الانكسار بمثابة (تنفيس) لباطن السد الممتلىء بالطمي . . أي ان الانكسار حينئذ قدر محتوم وكارثة لا بد منها ولكنها كارثة محدودة الأثر على الغالب بل ربما جاز أن يقال انه يسهل بفضلها حينئذ استخراج بعض الترسبات من بطن السد الى بطن الوادي بالاضافة الى ما جرفته السيول فعلا باستعمال الامكانات المتاحة لحرّ (جرف) بعض التراب الى الوادي[٣] . تماما كما هي عادة الناس اليوم حيث « يحرّون » جربهم بين الفينة والأخرى تنظيفا للجربة ودعما (للأعرام) وفي حالة سد مأرب كان لا بد من

---

(١) راجع ايضاً CIH 540 CIH541, J 671.

(٢) Archäologisele Berichte II.

(٣) حرَّ التراب بمعنى جرفه معروف في اللهجة اليمنية .

مشاركة الأيدي العاملة والسواعد الفتية في تنظيف باطن السد ، قدر الامكان واستخراج الحجارة والأخشاب وغيرها ، مما قد ينفع الناس في سد حاجتهم من مواد البناء والوقود وما شابه ذلك . . وبذلك يُهيأ السد للعمل من جديد لفترة طويلة اخرى. واصلاح السد عملية غير سهلة ولا ريب ولكنها تحدث في كل قرن مرة واحدة . . وقد جرت العادة قديما وتواتر العرف على ان تتوفر لذلك الارادة الجماعية المتحدة والسلطة المركزية القوية والامكانات اللازمة . . ويهب حينها عدد هائل من الناس الى مكان السد بغية العمل والاشتراك في اصلاح الأجزاء المتصدعة منه وفي سبيل اعادته الى سابق عهده سويا كما كان .

ولا ريب ان السد قد تصدع مرات عديدة لأسباب أخرى مثل السيول الكبيرة التي تنتج عن أمطار غزيرة وفيضانات نادرة مما يدخل عموما في الكوارث الطبيعية ، ومثل تصدع السد بسبب الزلازل . . وقد يحدث التصدع بسبب الاهمال وضعف السلطة، وحينئذ تكون الكارثة أدهى وأمر . . ومما هو جدير بالذكر ان تحول طرق التجارة من البر الى البحر ، وتحول مراكز الحضارة من الوديان في مشرق اليمن الى القيعان في الهضبة اليمنية وانتقال العاصمة من مأرب الى ظفار ، وبالتالي بعد السد عن مراكز الثقل الحضاري ، تعتبر من الأسباب الرئيسية لازدياد مرات انكسار السد في العصور المتأخرة من تاريخ اليمن القديم على ان تفصيل هذه الأسباب لا يدخل في نطاق هذا الحديث[١].

واذا كان اصلاح سد مأرب عندما ينكسر أمراً غير عادي ولا بد من توفر امكانات ، وحشد جهود غير عادية ، خاصة وانه لا يحدث إلّاكل قرن او نحوه فإن تنظيف السد بحد ذاته واستخراج ما فيه من ترسبات بين العام والآخر امر ليس باليسير ، بل يحتاج الى طاقات هائلة وامكانات مادية وفنية كبيرة ، تفوق واقع الناس وتتجاوز جدوى السد الاقتصادية آنذاك . لقد صمم السد وشيدت منشآته بحيث يعمل لسنوات دون أن يصاب في الظروف المعتادة بعطب كبير اذا

---

(١) انظر نقش Cih 540 ويذكر فيه اشتراك ٢٠,٠٠٠ في اصلاح السد.

ما تعهد بين الفينة والأخرى بالصيانة اللازمة والتي لا تكلف الكثير ولا تستنزف الموارد والأرزاق . .

ويروى أن الاستفادة من بقايا منشآت السد ظلت ممكنة وفي نطاق ضيق ومحدود حتى القرن العاشر الميلادي . . غير ان تفجر السد الأكبر والأخير كان تفجرا خارقا للعادة كانت كارثة كبيرة أتت على معظم بنيان السد وجرفت اكثر منشآت الري في الجنتين ، وقضت على أسس تشغيل السد وقوضت أركان بنيانه ، فكان ان شل نظام الري بأجمعه ، وبدلت صورة الحياة في تلك الأرض تماما قال تعالى : ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾[1].

والعرم هو السد، والسد هنا بمعنى الحاجز الذي يعترض الوادي ويحوله . . والعرم (أو العريم) هو السد بلغة النقوش اليمنية القديمة والجمع أعرام . . ويطلق في النقوش لفظ العرم على سد مأرب ويكتفي بأداة التعريف التي تلحق الكلمة في الآخر ودون اضافة (عرمن).

ومثال ذلك ما جاء في نقش (جام ٦٧١) بكن /ثبرت/ عرمن/ أي عندما تصدع العرم[2]. والنقش في مجمله يتحدث عن اصلاح سد مأرب في عهد الملكين ثأران يهنعم وابنه ملكي كرب يأمن ، في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي . . والعرم والعريم هو الحاجز في لهجة اهل اليمن اليوم واستعمالات اللفظ معروفة . .

وتدل آثار السد الباقية ، فيما بين الصدفين ان الحاجز كان في الغالب من التراب ثم يغطى بالحجارة . . ويمتد حوالي (٦٨٠) مترا عبر الوادي ما بين الصدف الجنوبي القائم على سفح جبل البلق الأوسط والصدف الشمالي والمبنى على الصخور المقابلة ، على سفح جبل البلق القبلي . . وكان ارتفاعه حوالي

---

(١) راجع نقوش تفجر سد مارب ، مقال في الميثاق الأسبوعية عدد ٩٩ ص ٨ . وسورة سبأ ، آية ١٦ .

(٢) نقش J 671

(١٦) مترا ويقدر سمكه بحوالي عشرين مترا .. على انه ينبغي ان يلاحظ ان هناك اختلافات بسيطة لدى مصادر هذه القياسات .. ويذكر العالم الأثري احمد فخري وكان قد قام بقياس بعض أبنية السد ، انه اثناء وجوده في موقع السد لم تكن لديه أية ادوات للقياس باستثناء متر معدني طوله متران[١] . وقد يكون الاختلاف نتيجة لاختلاف الطريق التي تتبع ، او لاعتماد حسن التقدير الذي يتبارى فيه الأثريون خاصة في حال قياس سد اندثر ولم تعد في مكانه الا بقاياه .

ومبلغ العلم فان الحاجز (السد) (العرم) (الجدار) كان قد حفر له أساس في الوادي بلغ حد الصخر ثم بنيت له قاعدة راسخة من الحجارة . وكان جدار السد يعلى تدريجيا بحسب الظروف التي تستجد بسبب ترسبات الطمى في باطن (بحيرة) السد، عبر القرون . وكان الهمداني قد سبق فأشار الى وجود قاعدة صخرية ثابتة للسد حيث يقول في الجزء الثامن من كتاب الأكليل (ص ٩٦)[٢] وانما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعا .. وفي (ص ٤٤) يقول : وكان العرم مسندا الى حائط واثر ما بين عضاد المذاخر بمعازب من الصخر عظام ملحمة الأساس بالقطر ..[٣] وعبارة الهمداني هذه تفسر على غير وجه واحد ولكني ارجح ان الهمداني يقصد ان جسم السد (الترابي والمغطى بالحجارة) كان قائما على قاعدة ثابتة الأساس مبنية بالحجارة الضخمة وتمتد ما بين بوابتي الصدفين (المصرفين) وعبر الوادي على امتداد الحاجز كله .

ويوافق هذا الوصف ما قرر سلفا من ان السد وبتلك الضخامة ، لم يكن ليقم على قاعدة ترابية وانما كان في حقيقة الأمر /واثرا/ بمعارب من الصخر عظام ..

---

(١) Fakhry Archaeological Journey.. pp 63.

(٢) الأكليل ، الجزء الثامن للحسن بن احمد الهمدان ، تحقيق نبيه فارس ، تصوير دار العودة. بيروت ـ ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه، والأصح معارب بالراء المهملة جمع « معراب » وهو الحجر المهندم الذي يعد ليزاوج حجراً آخر. واللفظة حية الاستعمال في بني ظبيان من مشرق اليمن .

أما الصدفان (المصرفان الجانبيان للسد) فهما عبارة عن مخرجين (هويسين) كبيرين قد نحتا أصلاً في الصخر ثم استكملا بناءا على صخور جبلي البلق » بحيث يكونا قناتي توصيل كبيرتين شق اسفلهما من الصخر وشيد اعلاهما بواجهات سميكة من الحجارة الكبيرة مربعة الاضلاع قد وقصت (هندمت) أحسن توقيص وثبت بعضها فوق بعض بتلاحم وترابط. ووظيفة هاتين القناتين هي تصريف المياه المتدفقة من السد عبر حوضين صغيرين يكبحان شدة تدفقها ويتصلان بالقناتين الرئيسيتين اللتين تمدان كل أراضي الجنتين بالمياه على جانبي الوادي[١] .وآثار بناء الصدفين لا تزال قائمة وهي في الواقع ابرز اثار السد ومنشآت الري في مارب اليوم. وكان الهمداني قد رأى احدهما قبل اكثر من الف عام فذكر في الاكليل ذلك وقال : ورأيت بناء احد الصدفين باقيا ، وهو الذي يخرج منه الماء قائما بحاله على أوثق ما كان ، ولا يتغير الى ان يشاء الله عز وجل (الإكليل ج ٨) / ٤٣/[٢] .والمقاسم عبارة عن سدود صغيرة وظيفتها أن تحتوي ما يصلها من القناة الرئيسية ثم تتولى تقسيمه عبر فتحات عدة تؤدي الى شبكة معقدة من القنوات الفرعية .ومن هذه القنوات الفرعية تسقى الحقول والضياع . . على ان الحقول قد تسقى بعضها بعضا عن طريق مناسح مثبتة في (اعرامها) كما هو معروف في أنظمة الري في اليمن الى اليوم . . وكانت تلك القنوات في معظمها ترابية ليسهل تحويلها واغلاقها عند الحاجة . . كما ان سعة كل قناة قد صممت لتنقل الحد الأقصى من المياه الواردة اليها أي انها تتسع لكميات المياه الفائضة التي قد تتدفق من القنوات أو السدود الموصلة اليها في حالة مجيء سيول مفاجئة يزيد حجمها وضغطها عما هو متوقع كل موسم . . وهذا يدل على ان نظام الري في الجنتين اليسرى واليمنى كان مرنا وبسيطا بحيث يستطيع ان يستوعب المياه الآتية من السد وتصريفها وتوزيعها بسرعة وانسياب . .[٣] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) Jurgen Schmidt, Archaologische Berichte I, 9.

(٣) Ueli Brunner: Archaeologische Berichte II, 3.

كما كان قادراً على التحكم بقوة اندفاع المياه سواء المتصرف من السد الى القناتين الرئيستين او من المقاسم الى القنوات الفرعية . ان مثل هذا النظام البسيط والمحكم في الوقت نفسه هو الذي ضمن بقاء السد وصمود شبكة الري التابعة له قرونا طويلة . .

وتفيد دراسة /برونر) و (ايلكتروات) عن منطقةالسد أن ما يسيل من الماء في وادي اذنه كل عام يقدر بحوالي (٢٠٠) مليون متر مكعب من ذلك حوالي (٦٠) مليون متر مكعب تأتي (في الربيع) و (١٤٠) مليون متر مكعب في الصيف) وان قوة اندفاع السيول تبلغ حوالي (١٠٠٠) متر مكعب في الثانية وان زمن جريان الماء في الوادي يكون حوالي شهرين . .

وتقدر مساحة (بحيرة) السد قديما بحوالي (٨) كيلومترات مربعة وسعتها الاجمالية حوالي (٥٥) مليون متر مكعب . . وتقدر طاقة القناتين الرئيسيتين معا بحوالي (٦٠) متر مكعب في الثانية وتقدر مساحة الأراضي التي كان يسقيها السد قديما لا تتجاوز (١٠ , ٠٠٠) هكتار . . وكانت مساحة الأراضي الواقعة على يمين الوادي (الجنة اليمنى) اكبر من مساحة اراضي الجنة اليسرى . . واذا ما قارن المرء واقع الحاضر بالماضي فان الأراضي المزروعة انذاك كانت تكفي لاطعام حوالي (٣٠,٠٠٠) الى ٥٠,٠٠٠) نسمة تعيش في منطقة مأرب[١] . وما هو جدير بالذكر أن آثار سور مدينة مأرب تبين ان مساحة المدينة نفسها كانت لا تزيد عن كيلومتر مربع واحد . . وقد اجريت بعض التحاليل العلمية على بعض المواد العالقة بكسر الفخار القديمة التي عثر عليها في المنطقة، فدلت على نماذج من المحاصيل الزراعية القديمة مثل الذرة والدخن والشعير والطهف والسمسم وكذلك الكتان والعنب والنخيل[٢] .

وقبل اكثر من ألف عام يذكر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب ان

---

(١) Brunner, Archäologische Berichte II, S.122.

(٢) Archoeological Discoveries, pp. 60 - 61.

(الحرجة) بمأرب هي من الجرب الكبار باليمن وتأتي بعشرين الف (ذهب) فذاك ثلاثون ألف قفيز (راجع ٣٦١) .وفي صفحة (٣٥٩) يذكر ما مؤداه ان الجربة في مأرب والجوف تمتلىء من السيل فاذا امتلأت بذر فيها الطهف والدخن ومتى نضب الماء فيها ثار نبتها . . وربما طرح في الجربة مع بذرة الذرة السمسم واللوبياء والعتر والقثاء والبطيخ والقرع . . ويعتبر الهمداني الطهف من غرائب الحبوب في اليمن . . ويذكر ان السمسم الذي يزرع في مارب والجوف لا يلحق به لاحق وهو كثير الضياء وصاف طيب[١] والطهف حب اصغر من الدخن لونه ابيض وهو معروف في اليمن واكثر منه معروف في بلاد الحبشة ويحمل الاسم نفسه هناك ولكن ينطق به (طف) بكسر الطاء واخفاء الهاء وهـو المفضل لديهم في عمل اللحوح . .

وفي مأرب اليوم ما زال الناس يزرعون الذرة والشعير والبطيخ والعنب واللوبيا وما شابه ذلك . . كما ان بعض المحاصيل القديمة قد وردت اسماؤ ها في النقوش اليمنية القديمـة وهي معـارف مفيـدة وتسعـف بوجه عـام على توضيح الصورة الزراعية في اليمن القديم . . [٢].

ومن المعلـوم ان معجم اللغة اليمنية القديمة يزخر بالكثير من المفردات والتسميات المتعلقة بالتقنية الزراعية وقد تمكن أحد الباحثين من الاستفادة من هذه المادة في إعداد أطروحة جامعية[٣] مما يدل على ان بامكان النقوش اليمنية القديمة ان توفر للباحثين مادة طيبة تتعلق بنظم الري في اليمن بما في ذلك نظام الري في مأرب علما بأن كثير من تلك المصطلحات التي ترد في النقوش المعلومة تعنى بنواح فنية صرفة . . وتحديد معانيها بدقة يحتاج الى جهد متكامل يبذله كل

---

(١) الصفة ، ص ٣٦١ ـ م . ن ٣٥٨.

(٢) راجـع : Sabaic Dictionary. Beeston, Ghul, Müller, Ryckmans. Editions Peeters, Louvain - La - Neune, Librairie Liban, Beyrout , 1982.

(٣) انـظر IRVINE, A.K. A Survey of old South Arabian Lexical Materials Connected with IrrigationTechnicues, Dissertation, University of Oxford 1982.

من المهندسين الأثريين وعلماء النقوش بغية تطابق الأثر مع مصطلحة الخاص انذاك . . ومهما كان الأمر فان هذه المادة اللغوية بحد ذاتها دليل على خصوبة التجربة الزراعية وشاهد هام على المستوى التقني الذي وصلت اليه الحضارة الزراعية في اليمن القديم . .

وبعد تفجر سد مأرب نهائيا بقي رمزا تاريخيا لأهل اليمن وآية حضارة اليمن القديمة ونبأها اليقين الذي كرم في القرآن وتردد صداه عبر العصور . الا أن هذا الرمز ما لبث ان اتخذ في العهد القريب بعدا جديدا بحيث صار رمز الماضي وعبرته يستلهم ليثرى طموح الحاضر ويراود أحلامه . ومنذ قيام الثورة اليمنية في عام ١٩٦٢ كانت هناك دوما نية لتحسين الأحوال الزراعية في منطقة مأرب . وفي العقد الماضي قرنت النية بالعمل ووضعت خطط عملية لتطوير المنطقة. وكان في مقدمة تلك الخطط دراسة فكرة اعادة بناء سد مأرب القديم . ومن المعلوم أن المناخ والتضاريس وأحوال التربة هي العوامل الرئيسية التي تحدد الامكانات الزراعية في تلك الأرض. ويعتبر الماء بطبيعة الحال ، في صميم تلك العوامل . ورغم أن أرض اليمن تعتمد على الأمطار الموسمية فان معظم مناطقها لا تسقى مباشرة بمياه الأمطار وانما تحتاج الى سبل ري مناسبة لتحسن الاستفادة من تلك الأمطار . وقد اثبتت سبل الري تلك فعاليتها واكتسبت عبر الزمن قدرا كبيرا من الكفاية في الأداء والبساطة في التقنية بحيث مكنت أهل اليمن من الاستفادة القصوى من خيرات بلادهم الطبيعية . وحيثما تتوفر الشروط الطبيعية اللازمة يجد المرء الأرض مزروعة وحسن الاستفادة الممكنة حاصل.

ويعتقد أن تلك العوامل الطبيعية التي صاغت نمط الحضارة الزراعية في اليمن قديما ، هي نفسها التي تملي الامكانات الزراعية اليوم وخاصة عامل المطر. وان التفاوت الملحوظ في كمية المطر بين موسم وآخر أو التغير الذي يطرأ على ملامح الطقس بين عهد وآخر هو آمر يحدث عادة ضمن الدورة المناخية نفسها التي تشهدها جزيرة العرب منذ الفترة التاريخية القديمة التي ازدهرت فيها الحضارة الزراعية في اليمن ، وشهدت حينها أرقى ما وصلت اليه قديما من تقنية سبل الري وخاصة كما عهد في منطقة مأرب بشكلها المتطور.

ورغم الهجرة والتبدي فقد بقي في مأرب شيء من النشاط الزراعي . ومنذ العقد الماضي شهد سهل الوادي ازديادا ملحوظا في هذا المجال نظرا لإدخال مضخات الديزل والتي تعمل ليل نهار لاستخراج المياه الغزيرة من الآبار ، والتي تفيض بفعل السيول الكبيرة التي تغمر السهل كل موسم .

وفي يوليو ١٩٨٤ م أعلن نبأ اعادة بناء سد مأرب . وكان النبأ مفاجأة لكثير من الناس داخل اليمن وخارجه . الا انه مما ينبغي الاشارة اليه انه كان منذ زمن توجه فعلي واهتمام خاص من الدولة في سبيل تطوير منطقة مأرب . ويذكر على سبيل المثال تشييد طريق صنعاء ـ مأرب وتنفيذ عدد من المشروعات الخدمية والتنموية في محافظة مأرب ، واعطاء الأولوية للمسح الآثاري في منطقة السد ، ثم متابعة عدد من الدراسات الأولية المتنوعة كالدراسات السكانية والهيدرولوجية والزراعية والجيولوجية، ومن ضمن هذه الدراسات تلك التي تعنى بالبحث عن البترول في حوض مأرب ـ الجوف والتي مهدت للتنقيب عن البترول ثم اكتشاف أولى آباره هذا العام ١٩٨٤. ومن ضمن تلك الدراسات ايضا تلك التي تعنى بامكان اعادة بناء سد مأرب .

وكان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة قد عهد الى شركة (بولنج للهندسة)[١] بتقديم مقترحات لإنشاء سد يحل محل سد مأرب القديم ، حتى يعيد الخصب الى أرض الجنتين المذكورة في القرآن الكريم ، وليكون عاملا حيويا في اعادة الرخاء الى بقعة كانت يوما ما ، مهدا للحضارة في جنوب جزيرة العرب[٢]. وقد أعد الاقتراح وقدم الى الجهات المختصة في مايو ١٩٨٤. وفي ١٩٧٦/٩/١١ تم توقيع اتفاقية بين صندوق أبو

---

(١) راجع مثلاً : CIH 540; CIH 541 وقول الأستاذ بيستن في تلخيصه للنقشين السابقين في :
Outline Proposal for Marib Dam. Project by Pauling and Company, London. May. (1974), pp. 25 - 26.

(٢) IBID : Intruoduction , no page numbers.

لبي وشركة (الكتروات السويسرية) لدراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع الجنتين الذي يهدف الى بناء سد جديد لتنظيم استغلال مياه السيول في وادي عبيدة (وادي اذنة)[١] .

وفي يونيو ١٩٧٨ قدمت (شركة ايلكتروات للخدمات الهندسية) بالتعاون مع (شركة هنتنج للخدمات التقنية) تقريرا مفصلا الى حكومة الجمهورية العربية اليمنية بهذا الشأن . ويشمل التقرير توصية بمشروع متكامل لبناء سد مأرب الجديد وتفاصيل خطة البناء والجدوى الاقتصادية والتكاليف اللازمة [٢] . وتلا التقرير تقرير هندسي عام ١٩٨١ ، ثم وثائق أخرى متعلقة بالمشروع تتجمع تباعا الى اليوم .

وفي ١٢ يوليو ١٩٨٤ من عام التمنية الزراعية في الجمهورية العربية اليمنية والذي أعلنه الرئيس علي عبد الله صالح في اطار الجهود الرامية لانجاح الخطة الخمسية الثانية والتي تولى القطاع الزراعي عناية خاصة ـ وقعت في صنعاء اتفاقية بين حكومة الجمهورية العربية اليمنية وشركة دوغوش التركية لبناء وتنفيذ مشروع السد الجديد في مأرب وبتمويل عن طريق صندوق ابو ظبي وبمنحة من الشيخ زايد بن سلطان قدرها ٧٥ مليون دولارا[٣] .

وفي ٢ اكتوبر ١٩٨٤ اشترك العقيد علي عبد الله صالح والشيخ زايد بن سلطان في وضع حجر الأساس لبناء سد مأرب الجديد في منطقة السد . ومن المنتظر ان يتم انشاء السد قريبا وخلال فترة محددة تمتد ٣٨ شهرا .

ويهدف مشروع بناء السد الجديد بالدرجة الأولى الى تطوير منطقة مأرب عن طريق توسيع الرقعة الزراعية فيها وتنمية امكاناتها . اذ يتوقع أن تزيد

---

(١) معلومات مستقاة من نشرات وزارة الزراعة اليمنية (١٩٨٤) .

(٢) Electrowatt Main Report

(٣) معلومات مستقاة من نشرات وزارة الزراعة اليمنية (١٩٨٤) .

مساحة الأراضي المزروعة بعد بناء السد من حوالي (٣٣٠٠) هكتار وهي المزروعة حاليا ، الى (٩٣٠٠) هكتار في المرحلة اللأولى من انشاء السد . ويمكن أن تزيد المساحة في المرحلة التالية الى حوالي (٢٠,٠٠٠) هكتار ، وذلك بعد استصلاح اراضي جديدة ، وادخال نظم الري الحديثة كالري بالرش والتنقيط والري المحوري ، والاستفادة من المياه الجوفية (باستعمال المصخات) والتي تزداد بفعل تواجد المياه في خزان السد وداخل قنوات الري طوال العام [١] .

ولقد كان واضحا منذ البداية ان فكرة المشروع لا تهدف الى إعادة بناء سد مارب القديم نفسه وفي المكان نفسه (خلافا لما هو شائع) ، وانما بناء سد جديد على مقربة من موقع القديم . ويستند هذا التصور الى أسباب عدة منها أن بقايا السد القديم تمثل موقعا آثاريا هاما ينبغي المحافظة عليه ، لكي يبقى مع غيره من المعالم الأثرية الباقية أو الدفينة شاهدا رائعا على حضارة سبأ القديمة في وادي سبأ [٢] .

ويقع السد الجديد في مجرى وادي أذنة على الطرف الأعلى لمضيق جبلي البلق وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من موقع السد القديم . ويبلغ عرض المضيق في موقع السد الجديد حوالي (٦٠٠) متر . ومن مميزات هذا الموقع انه ييسر للسد (مفيضا) طبيعيا مما يوفر من قيمة تكاليف منشآت السد الاجمالية[٣] . واذا كان الموقع الجديد يحمل الشيء الكثير من خصائص الموقع القديم الا انه يتجاوز كثيراً من الصعوبات الفنية التي اعترضت بناء السد القديم . ويعتمد على فكرة انشاء سد لتخزين المياه طوال العام ، وليس بغرض تحويل السيول بالدرجة الأولى كما كانت وظيفة السد القديم . ويبدو أن المشروع الجديد يستند في ذلك الى تصور هندسي محكم يقوم على حسابات تمهيدية تحد من ازدياد كمية التبخر

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) Pauling, Main Report, Synopois With out numbers.

(٣) Electrowatt, Main Report, p.38.

بفعل الحرارة والجفاف وتقلل من كمية المياه المتسربة من قاع السد وتنقص من تراكم الغرين الذي يحد بدوره من سعة الخزان [1] .

وبما أن كمية المياه السطحية السنوية التي تنتج عن الأمطار والسيول تقدر بمئتي مليون متر مكعب عند مدخل السد فان مساحة سطح الخزان قد قدرت بحوالي ٣,٥ كم^{2}) وطول السد قد قدر بحوالي (٧٦٠) مترا وعلو السد يبلغ ٣٩ مترا، وتكون السعة التخزينية حينئذ (٣٩٠) مليون متر مكعب [2] .

ولن يكون للسد الجديد مصرفان على جانبيه ، كما هو الحال في السد القديم وانما ستكون له فتحة واحدة ومحلها الطرف الأيـمن من السد قطرها (٢,٥) متر وسعتها التصريفية تقدر بـ (٢٥) متر مكعب في الثانية حداً أدنى ، و (٣٥) متر مكعب في الثانية حداً أقصى. وستحفر هذه الفتحة في الصخر في اسفل السد بطول يبلغ (١٩٥) مترا ، ثم تبطن بألواح حديدية ، وتزود ببوابات أصلية واحتياطية . وستتدفق المياه من هذه الفتحة على الدوام عبر قناة توصيل عرضها (٢٠ مترا) ، ومنها تسيل المياه الى مجرى الوادي ، باتجاه المساحات الزراعية التي يراد سقيها على الضفتين . ويتم ذلك بانشاء ثلاثة سدود تحويلية أو أكثر تشبه في عملها العوارض (الأعبار) التي تقوم حاليا بتحويل مياه الوادي الى الحقول . وسيقع السد التحويلي الأخير في أسفل وادي عبيدة وعلى بعد حوالي (٢٠) كيلو مترا من موقع السد الجديد. وستنشأ الى جانب السدود التحويلية شبكة من القنوات الرئيسية والفرعية تتولى توزيع المياه وسط المساحات الزراعية يزيد اجمالي أطوالها عن خمسين كيلومترا . ويمكن استكمال هذه الشبكة وربما بطريقة سهلة ومرنة حسب الحاجة [3] .

ويتألف جسم السد من أحجار ومواد بناء مختلفة تبلغ (٣,٨) مليون متر

---

(١) Ibid. e.g. p. 9 - 10.

(٢) Ibid. e. g. p. 38.

(٣) Ibid. p. 41.

مكعب بحيث يبلغ عرضه من اسفل (١٩٥) مترا وعرضه من أعلى (٦) امتار . ويتكون وسطه (لُبه) من طبقة غير نفاذة . وهي عبارة عن مواد رسوبية توضع في قاع الوادي ثم تغطى بالأحجار على جانبي السد بغرض حمايته من اندفاع الماء وتأثير المطر . ويضاف الى لب جسم السد طبقات من الفلترات والمسارب بغرض تخليصه من أية مياه تتسرب الى داخله . ويتضمن السد في اسفله بناء قاطع خرساني بعمق (٤٠) مترا لمنع تسرب المياه من الخزان [١] .

ولما كانت وظيفة السد الجديد بالدرجة الأولى هي تخزين مياه السيول وتنظيم تصريفها فانه بطبيعة الحال سيحد من الفيضانات المفاجئة في منطقة السد . وللسد (مفيض) يقع على بعد ٦ كيلومترات جنوب الموقع طوله (١٠٠) متر ، يتولى تصريف السيول الزائدة، ويعمل هذا المفيض عند وصول مناسيب المياه في خزان السد الى ارتفاع ٣٢ مترا [٢]. كما انه من ضمن منشآت مشروع السد اقامة ثلاثة حواجز اجمالي طولها (١١) كيلو مترا لتحد من الفيضانات المفاجئة التي قد تنشأ عن وادي السائلة في الناحية الشمالية ووادي المسيل في الناحية الجنوبية [٣] .

ان مفتاح أي جهد تنموي لتوسيع الرقعة الزراعية في مأرب هو بلا ريب توفير المياه اللازمة . ومشروع السد الجديد ينتظر أن يوفر مصدرا مائيا للري يكون اكثر ثباتا وأشد انتظاما . على أن الاستفادة المرجوة من هذا المشروع لا تتوقف على إحكام خطة المشروع وحسن تنفيذ منشآته فحسب وانما تتوقف ايضا على بعض الأمور التي تقع خارج اطار المشروع الهندسي نفسه وتفرض نفسها عليه بقوة منذ الوهلة الأولى ، بحيث يصبح الاهتمام بها وحسن التعامل معها من صميم المشروع ككل :

---

(١) معلومات مستقاة من نشرات وزارة الزراعة اليمنية (١٩٨٤) .

(٢) المصدر نفسه

(٣) Electrowatt, Main Report, p. 42.

- على الرغم من الاهتمام الكبير الذي توليه الدولة اليوم لهذه المنطقة الا انه من الضروري أن يعد العدة من الآن في سبيل وضع تصور يواكب التطور ويعني بتحقيق النقلة « الحضارية » في تلك المنطقة. فما الذي يراد ان تكون عليه بعد سنوات أو عقد من الزمان مثلا ، هل ستبنى مدينة حديثة ؟ أم يراد أن يحول وادي مأرب الى ضياع زراعية أو مزارع تعاونية أو استثمارية أو ما شابه ذلك ؟. إن تلك المنطقة من مشرق اليمن كانت يوما من بقاع الحضارة المزدهرة ، ضمن شروط تاريخية واجتماعية معلومة . وهي اليوم من أقل بلاد اليمن سكانا وأكثرها بداوة . وهي بحكم نمط معاشها واحوالها الاجتماعية ذات تقاليد واعراف معروفة واوضاع سكنية ومصالح معينة . فهل يا ترى من اليسير استيعاب هذه النقلة التحديثية السريعة دون تصور واضح لما يجري . ان بناء سد حديث وادخال المكننة على نطاق واسع في تلك البقاع خطوتان هامتان وفق مقاييس العصر. ولكن كيف ستعالج أمور التسكين و« التهجير » وانظمة الري وحقوق الحيازة والملكية وغيرها ؟ ان القلة من سكان منطقة مارب تعنى بالفلاحة اليوم واستصلاح الأراضي الجديدة يحتاج الى وفرة من الفلاحين . إنَّ مثل هذه القضايا قد لا تخفى على أهل الشأن ، ولكن دراستها وانتظامها جميعها في تصور واضح ، وخطط مبرمجة على المدى البعيد قد تسعف على انجاح التجربة الزراعية والجديدة وتتيح لأهل مأرب مستقبلاً أفضل ونحلة معاش أرقى تتجاوز حياة البداوية .

- واذا كان السد الجديد سيحد من انجراف التربة الذي تسببه الفيضانات فانه من الضروري ايضا معالجة مشكلة التصحر ، فزحف رمال الصحراء اللؤوب قد يسبب نقصا كبيرا في الأراضي الصالحة للزراعة .

- تدل النتائج الأولية للتنقيب عن البترول في حوض مارب - الجوف على وجود البترول بكميات تجارية واذا ما تحقق الأمر وادركت مارب حضارة البترول فما هو محل السد الجديد ومنطقة مارب في هذا الخضم الجديد ؟

- وأخيرا وليس آخراً ما الذي يمكن ان يحدث للآثار اليمنية المنتشرة في

منطقة مأرب ؟ اذا أن تنفيذ مشروع السد قد يعود بالضرر على الآثار اذا لم يحسب للأمر حسابه . ويكفي ان يذكر مثلا : ان استثمار اراضي الجنتين جميعها واعادة صياغة شبكات الري ستقضي على كل الشواهد واللقى الأثرية هناك . كما أن اقامة مخيمات الشغل والتنقل الى مكان السد واكتظاظ المنطقة بالناس والأشغال العامة يعرض المناطق الأثرية للانكشاف والتحريب . ولا ريب ان هيئة الآثار اليمنية قد قامت بجهود طيبة بالتعاون مع البعثة الألمانية واعدت خارطة مؤقتة للمواقع الأثرية في المنطقة في سبيل العمل على حمايتها . ولكن الخطوة الجديدة ربما كانت وضع تصور جديد لمستقبل العمل الأثري في مأرب . بل ان الوقت قد حان لإنقاذ آثار تلك المنطقة من الزحف العمراني الهائل الذي يتوقع أن يدرك المنطقة. وينبغي ان تشهد المنطقة بفضل بناء السد الجديد نهضة أثرية تواكب الأشغال الجارية ، تسهم فيها جهود أثرية محلية وعربية واجنبية ضمن برامج عملية متكاملة وعلى الأمد الطويل . ان سد مأرب الجديد رغم اختلافه عن السد القديم من حيث الموقع والتصميم الا انه من حيث الجوهر والأثر يكاد أن يطابق سلفه ، آية جديدة جنتان عن يمين وشمال . وإحياء الأرض الطيبة خطوة هامة في طريق التنمية الزراعية والأمن الغذائي ، ولكن لا بد أن يحيا الماضي في الحاضر وان نضمن بقاء آثار الماضي شامخة وشاهدة . هناك اكثر من مؤشر على ان التاريخ قد يعيد شيئا من نفسه في مارب وأن تلك الأرض ربما تشهد في القريب العاجل ازدهارا ملحوظا. ألا يكفي ذلك مسوغا لأن يدعو المرء الى استباق الزمن وإنقاذ آثار مأرب وسدها قبل ان تتفرق أيدي سبأ ؟

صنعاء ماضيها وحاضرها

روي في قديم الخبر أنها لن تنقضي الليالي والأيام حتى تملأ صنعاء ما بين جبليها نقم وعيبان ويكون سوقها في بطن واديها[1]. ومن يرى مدينة صنعاء العاصمة اليمنية ويلحظ نماءها السكاني وزحفها العمراني فكأنما يشهد مصداق ذلك الخبر وتحقيق تلك النبوءة القديمة ، والتي رواها لسان اليمن الحسن بن احمد الهمداني الصنعاني مولدا ، في كتابه « الأكليل » قبل ما ينيف عن ألف عام ، ورواها أيضا من بعده أحمد بن عبد الله الرازي في كتابه « تاريخ مدينة صنعاء ».

تقع مدينة صنعاء وسط الهضبة اليمنية على ارتفاع ٢٢٠٠ متر ، بسند السفح الغربي من جبل نقم . وقديماً كانت دورها وبساتينها وأسوارها لا تحتل سوى مساحة صغيرة من قاع صنعاء الفسيح الذي يمتد بين جبل نقم شرقا وجبل عيبان غربا ، ولكنها تزايدت في العهود الاسلامية واتسعت دائرة سورها . وفي القرون الأخيرة استحدثت في غربها مدينة « بير العزب » التي تلاصقها وربما تفوقها مساحة ولكنها لا تضاهيها جمالاً وحلالا ، وكان للوجود العثماني اليد الطولى في انشائها . وكان بها مساكن موظفي الدولة العثمانية وحدائقهم ، وفي

(١) الاكليل ج ٨ ، ص : ٣٦ ـ ٣٧ ؛ الرازي ص : ١٠٠ ـ ١٠٢ .

هذه المدينة المستحدثة أقام يهود صنعاء حيهم وكذلك بنى فيها بعض الأئمة قصوراً لهم وألحقوا بها بساتين لتكون متنزهاً لهم ولعائلاتهم .

ومنذ قيام الثورة اليمنية في عام ١٩٦٢ م بدأت مدينة « بير العزب » تشهد تغييرات هائلة واتساعاً سريعاً ،وامتدت صنعاء القديمةخارج أسوارها،وتكثف زحفها المعماري والعمراني في جميع الاتجاهات ، وتجاوزت سبل التخطيط . . وتفاوتت أنماط عمارتها بين محاولة الحفاظ على فن المعمار اليمني الصنعاني القديم والملامح التركية المستحدثة والأنماط الأوروبية الطارئة . وصار القادم من مطار صنعاء الدولي في الرحبة شمالاً يلمح شوامخ دور صنعاء القديمة ومآذنها السامقة في الأفق ، مارا بأبنية اللبن التي تكتنفها دوالي العنب في الروضة والجراف وضواحي المدينة وهي تكاد تتصل بعضها بالبعض الآخر حتى مشارف صنعاء الحديثة ، حيث يستقر نظر القادم على مبنى شركة الطيران اليمنية العالي بنمطه الحديث الغريب فيرسم بذلك فارقاً بيناً بين أصالة المعمار اليمني الاسلامي القديم وحداثة المعمار النمطي الدخيل الزاحف . .

علي ان التوسع الذي تشهده مدينة صنعاء اليوم هو جزء من النهضة اليمنية في شتى مجالات الحياة وامتداد المدن في اليمن جزء من مشروعات التنمية التي تهدف إلى توفير سبل العيش الفضلى للانسان ، بل ان شروط الحياة الجديدة تقتضي تعبيد الطرق الواسعة وتشييد المباني اللازمة للمدارس والجامعات والمستشفيات ودور الحكومة والمصانع والمحلات التجارية وغيرها . . ثم ادخال التسهيلات الضرورية كتوفير المياه النقية وتوصيل الكهرباء وتخطيط شبكة المجاري . فالتوسع أمر ملح وحاصل بالضرورة وخاصة في العاصمة . كما أنه يصعب منع إدخال الأنماط البنائية الجديدة خلال عملية النمو السريع وفي حال تقل فيها المهارات المحلية ومواد البناء القديمة ، فلا بد اذا من التخلي عن بعض شروط العمارة التقليدية لدى تشييد الأبنية المستحدثة في سبيل تهيئة ضرورات الحياة الحديثة بإيقاعها السريع وميلها الى الحلول العملية .

من هنا كاد أن يكون متعذراً أن يخطط المرء لتكون صنعاء الحديثة صورة

طبق الأصل لصنعاء القديمة ومعمارها الفذ الأصيل .

ولكن الذي يشغل بال علماء الآثار الاسلامية والمهتمين بالتراث اليوم ـ ويخشون وقوعه هو أن تصدق على مدينة صنعاء تتمة النبوءة القديمة السالفة الذكر. وتقول هذه التتمة « اذا بلغت صنعاء بين جبليها . . فلا خير في سكناها لأهلها »[1] . ولعلماء الآثار والمهتمين بتراث صنعاء تفسير طريف لذلك الخبر ومؤداه : انه اذا اتسعت مدينة صنعاء وبلغت بين جبليها فلا خير حينئذ في سكناها لأهلها أي سكنى المدينة القديمة منها ، حيث يتعذر عليهم سكناها لانعدام شروط الحياة الحديثة فيها والتي ينعم بوفرها سكان صنعاء الحديثة كالكهرباء والمياه النقية والمجاري وطرق السيارات المعبدة . . وكذلك يصعب صون الدور القديمة لندرة المهارات التي تحذق فن المعمار وتتقن صيانته . فيرغب أهل المدينة حينئذ عن العيش في المدينة القديمة ويهجرونها الى أحياء صنعاء الجديدة حيث يسر الحياة ودعتها وبهرجها وطيب المقام فيها ، وذلك هو مصداق تتمة الخبر ، وهو أن أهل صنعاء القديمة لن يجدوا خيراً في سكناها فيهرعون الى خارجها حيث المساكن الحديثة ويتركون وراءهم الدور القديمة تتداعى وتخرب أو تغير وتعدل أو تستبدل الأنماط الحديثة بالأنماط القديمة . وهذا هو مصدر قلق علماء الآثار الاسلامية وانصار التراث ، ان يستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير ونفقد بذلك معالم مركز ثقافي هام عاش فيه مجتمع عربي اسلامي مبدع ، وترك لنا مخلفات حضارية رائعة ، امتزجت بالمدينة ككل بما فيها عمائرها المدنية والدينية والحربية وبسمتها الفنية الخاصة بتخطيطها ومعمارها وفنونها . نفقد بذلك ملامح مدينة عربية اسلامية تاريخية احتفظت عبر القرون بأصالتها وفنها وعمارتها ليرثها الخلف عن السلف راسمة بذلك خطا بارزاً في ديمومة الحياة الانسانية والاستمرارية الثقافية للأمة العربية والاسلامية جمعاء . . .

أليس من الأولى اذا ، أن تصان هذه المدينة لتبقى معلما عربياً اسلامياً ،

---

(١) راجع المصدرين نفسيهما .

حياً بسكانه ، شامخا بدوره نابضا بمساجده ، عاجا بأسواقه ، فخورا بأسواره ، أليس من الخير أن توضع خطة محلية وعربية ودولية، تكفل حسن صيانتها وتيسر بعلم ودراية وفن ادخال وسائل الحياة الحديثة اليها ، ليتصل حاضرها بماضيها وحديثها بقديمها وعيبانها بنقمها ، ويعم في الوقت نفسه الخير ساكنيها ؟ .

هل يمكن حقا ان نحول دون تحقيق تتمة النبوءة ليصبح الخبر انه اذا بلغت صنعاء بين جبليها فالخير كل الخير في سكناها لأهلها ؟ ذلك هو الأمل الكبير الذي يراود علماء الآثار الاسلامية وأهل الشأن .

ما هو تاريخ هذه المدينة التي نخصها بمثل هذا الاهتمام ؟ فيما يلي اسمحوا لي أن اعرض عليكم نبذة قصيرة وقاصرة من تاريخها التليد . وصدقوني انني لست خير من يتحدث في هذا المجال ففي اليمن علماء أجلاء ممن ورثوا تراث هذه المدينة ويعرفون ماضيها وكذلك حاضرها معرفة مستفيضة كما أني لست من علماء الآثار الاسلامية وحسبي في هذا المجال أنني من الهواة المحبين لتراث تلك المدينة ورغبت في مشاركتكم ما لدي .

طبعت الأسطورة الاخبار الأولى عن مدينة صنعاء بطابعها ، كما طبعت الأسطورة مطالع التاريخ عموما ، بحيث يبدو تاريخها خياليا او ضبابياً كأنه غسق التاريخ وليس فجره أو صداه وليس صوته ، فيضطرب فيه الزمن وتغلف فيه الحقيقة-كما أن اللقى الأثرية والنقوش اليمنية القديمة المتوفرة والأخبار الموثوقة لا تسعف على اعادة بناء الماضي وترميمه الا بمقدار ضئيل.ولهذا كان لا مندوحة من أن نبدأ تاريخ مدينة صنعاء بتلك الأخبار الأولى التي قد تصلنا نهايتها بالشواهد التاريخية التي نستقي منها محاولتنا هذه وعليها كان معولنا في رسم الصورة التاريخية الممكنة لتلك المدينة العتيقة .

تروى تلك الأخبار أن « سام بن نوح اجتوى السكنى في ارض الشمال فأقبل طالعا في الجنوب يرتاد أطيب البلاد حتى صار الى الاقليم الأول فوجد اليمن أطيبه مسكنا ، وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيبها . . فوضع مقرانة ـ وهو الخيط الذي يقدر به البناء إذا مد بموضع الأساس ـ في ناحية فج عضدان

في غربي الحقل مما يلي جبل عيبان . . فبنى الظبر - أي الركن الذي يوضع عليه الأساس - فلما ارتفع - أي الركن - بعث الله طائراً فاختطف المقرانة وطار بها ، وسام يتبعه لينظر اين يسقطه . فأمَّ الطائر الى جبوب النعيم « والجبوب ما ارتفع من الأرض ودون الهضبة » من سفح جبل نقم ، فوقع بها فلما هفه - أي قرب منه - طار بها وطرحها على حرة غمدان (والحرة بلهجة أهل اليمن هي الأرض المدرجة في المرتفعات).فلما قرت المقرانة على حرة غمدان ، علم سام أن قد أمر بالبناء هناك ، فأس غمدان (أي قصر غمدان) واحتفر بئره »[١].

وبنيت صنعاء - بعد ذلك - بين الجبلين نقم وعيبان .

ومثل هذه الحكاية لا تزال متوافرة في صنعاء الى اليوم ، وتحمل صنعاء اسم « مدينة سام » وفيها فندق يدعى « فندق مدينة سام » ولها اسم آخر هو « ازال » وهو اسم ورد في التوراة « أزال » وهو أحد أبناء يقطن ابن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح [٢]. وقد ذكر هذا الاسم في شعر شعراء اليمن وما زال معروفاً الى اليوم وبه سميت مدرسة نموذجية حديثة بصنعاء.

وقيل سميت صنعاء نسبة الى جودة الصنعة في ذاتها كقولهم امرأة حسناء، وكان اسمها في الجاهلية أزال حتى دخلها الحبشة فوجدوها مبنية بالحجارة حصينة فقالوا هذه صنعاء ومعناها حصينة فسميت صنعاء بذلك[٣].

ويبدو أن الرواة قد قلبوا صيغة الخبر ففي الحبشية (ازل) بمعنى (صنع) ، وفي الحالين يدل المعنى على القوة والمنعة والتحصين ، وذلك موافق للمعنى الذي ورد في الخبر. والجذر (صنع) اشتقاقه معروف في اللغة اليمنية القديمة وفي اللهجات اليمنية المعاصرة . . فيقال في النقوش (وتصنعـو / بوصت / هجرن /

---

(١) الاكليل ج ٨ ص : ٣٤ - ٣٦ ؛ الرازي ص : ١٦ - ١٧ .
(٢) الرازي ص : ١٠ ، ١٤ .
(٣) ياقوت ، مادة صنعاء ؛ الرازي ص : ٢٨ .

ذمر/) أي وتحصنوا داخل مدينة ذمار ، ويقال : (وتصنعـو/ سسلت / مدبن /) أي واقاموا سلسلة حصون ساحل المندب بتهامة . وفي النقوش أيضاً :(هجرهمو /وعلن / تأزل/) أي مدينتهم المسماة وعلان تمنع ، صيغة على الدعاء كقولهم (يزيد) علم بمعنى فليزد الله من أمثاله أو فليباركه ومن أسماء ملوك اليمن قديما (يأزل بين) وهو أخو (إلي شرح يحضب) الذي تنسب اليه الأخبار العربية بناء مدينة صنعاء. ويأزل فعل مضارع من (أزل) بمعنى حصن وقوي وصنع ، وفي لهجات اليمن اليوم يقال (مصنعة اسم لقرية حصينة في أعالي الجبال وهي كثير وجمعها (المصانع) وتصغيرها (مصينعة) وهي كثيرة أيضاً[1] .

وكما تتعدد الروايات في سبب تسمية المدينة فانها تتعدد أيضاً في ذكر مؤسسها . . فبجانب سام بن نوح مؤسسا للمدينة وبانيا لقصرها غمدان يذكر الاخباريون بعض ملوك سبأ بناة للمدينة وسورها وقصرها غمدان . يقول الهمداني في الجزء الثاني من كتابه الاكليل : ان الذي بنى غمدان هو (الي شرح يحضب) ، وان (شعرم أوتر) هو الذي أوصل بنيان القصور وأحاط صنعاء بحائط[2]. وفي شرح (القصيدة الحميرية) ان الذي بنى قصر غمدان هو عمرو ذو غمدان بن الي شرح يحضب بعد بنائه الأول[3].على انه من المفيد ان نذكر موافقة هذه الاشارات الاخبارية لبعض شواهد النقوش اليمنية القديمة التي اكتشفت حديثا . . فلعل أقدم ذكر لقصر غمدان في النقوش اليمنية القديمة هو ما ورد في نقش دونه الملك السبئي (شعرم أوتر) وذكر فيه كلا من قصري سلحين (مأرب) وغمدان (صنعاء)[4]. وكان سلحين آنذاك مقراً للعائلة

---

(١) مدونة النقوش اليمنية دراسات يمنية ١٩٧٩/٢ ص : ٥٠ .

(٢) الاكليل ج ٨ ص ٥٩ ـ ٦٣ .

(٣) القصيدة الحميرية ص ١٦٨ .

(٤) نقش نامي ١٢ .

التقليدية الحاكمة في مأرب ، ابان الصراع على اللقب الملكي اليمني : ملك سبأ وذي ريدان (أي ملك سبأ وحمير) كما كان قصر غمدان في صنعاء مقراً للملوك من قبيلة (ذي جرة) ومحلها اليوم سنحان قرب جبل كنن .

ولما كان الملك (شعرم أوتر) قد وحد المملكتين فقد ادعى القصرين في نقش واحد.ويحدد علماء النقوش اليمنية القديمة تأريخ هذا النقش بنهاية القرن الثاني الميلادي[١] .ويتكرر ذكر القصرين غمدان وسلحين معاً في نقش آخر يعود تاريخه الى منتصف القرن الثالث الميلادي من عهد الملك (الى شرح يحضب) ملك سبأ وذي ريدان وأخيه المشارك له في الحكم (يأزل بين).ويؤيد ذلك نقشان آخران يذكران استيلاءهما على قصري غمدان وسلحين وعثر عليهما في مارب وان كانت التسمية للقصر قد وردت بلفظ غندان (بالنون) وليس غمدان (بالميم) [٢] .

وربما عنى تكرار ذكر غمدان بعد سلحين أنه غمدان يحتل المرتبة الثانية بعد سلحين وقد نوه الهمداني بذلك حيث قال في الجزء الثامن من كتاب الأكليل : أن الملوك كانت تسكن في مأرب حيناً وحيناً في صنعاء. واستناداً إلى آثار مأرب ونقوشها يعتقد العلماء اليوم أن مقر سلحين في مأرب لم يكن يحتل المكانة الأولى فحسب وانما يحتل المرتبة الأولى في القدم ايضاً . .

علـى أن بناء قصر سلحين قد لا يعود الى عهد (الى شرح يحضب) في القرن الثالث الميلادي ، بل الى عهد (شعرم أوتر) أي إلى القرن الثاني بعد الميلاد ويجوز أن يكون قبل ذلك . ويميل الأستاذ مطهر الأرياني أحد الدارسين للنقوش اليمنية القديمة أن بناء قصر غمدان لا بد وأن يكون قد اقتضى وضع نقش له حسب ما جرى عليه أهل اليمن قديماً ، من وضع نقوش للبناء. . ولكن هذا النقش لم يعثر عليه حتى الآن وكذلك نقوش تجديده رغم أن مثل هذا النقش قد يكون فيه الخبر اليقين عن بناء قصر غمدان [٣].واذكر انني لدى

---

(١) نقش كوربوس (CIH) ٤٢٩ .

(٢) والنقشان هما : ارياني ١٨ و Jamme 577 .

(٣) دراسات يمنية عدد ٤ ص : ١١٩ ـ ١٢٠ .

زيارتي لقصر هجر قانية ورأيت النقش المدون على بقايا جدرانه ظننت أنه نقش التأسيس . . وبعد فترة زرت القصر فوجدت أن الأهالي قد حفروا وسط القصر واستخرجوا منه حجارة ومن ضمنها حجر منقوش ينبيء عن المؤسس الأقدم لذلك القصر . .

ويرد أقدم ذكر لمدينة صنعاء في النقوش اليمنية القديمة في نقش من عهد (هلك أمر بن كرب إيل وتر يهنعم ملك سبأ وذي ريدان في حوالي سنة ٧٠ ميلادية وذكر مع مدينة صنعاء مدينة شعوب وهي القسم الشمالي من صنعاء العاصمة اليوم . . وبها سمي باب صنعاء القديمة الشمالي[1] . واسم مدينة صنعاء في النقوش هو (هجرن / صنعو /).وهجر بلغة اليمن مدينة و (صنعو) مثل (قرنو) بالواو بدلاً من الألف والهمزة كما تدل النسبة حيث يقال صنعاوي وفي صحراء صحراوي ، ولكنه المصطلح الشائع اليوم أن يقال صنعاني . . والعجيب أن مدينة شعوب المذكورة في النقش قد ورد ذكرها في نقوش يسبق تاريخها تاريخ مدينة صنعاء نفسها . . وتذكر صنعاء بعد ذلك في نقش من أيام الملك السبئي (ذمار علي حوالي ٩٠ ميلادية وفي نقش آخر من أيام الملكين (سعد شمسم اسرع ومرثدم يهحمد)وأيام حكم الملك (وهب إيل يحوز) وينتمي كل هؤلاء الحكام الى أسر سبئية مختلفة يقدر تاريخ حكمها ما بين عام ١٠٠ ـ ١٢٠ ميلادية وبعد ذلك تذكر صنعاء مراراً كما هو متوقع في عهد حكم الملكين (الي شرح يحضب ويأزل بين) وذلك في منتصف القرن الثالث الميلادي . وفي نهاية القرن الثالث الميلادي يصلنا نقش يتحدث عن رجال قاموا بأداء بعض الواجبات في عهد الملكين المعروفين في التراث اليمني وهما (ياسر يهنعم وشمر يهرعش) في كل من مدينتي مأرب وصنعاء. وليس لدينا نقوش بعد ذلك تتحدث عن صنعاء سوى كسرة اكتشفت حديثا . وتذكر « الحبشة من صنعاء » مما قد يوحي بأن النقش دون بعد عام ٥٢٥ للميلاد أي بعد الغزو الحبشي

---

(١) النقش جلازر ٤٥٢ .

لليمن ، وبذلك ينحصر ذكر صنعاء في اليمن القديم من خلال الشواهد النقشية بين الأعوام ٦٠ - ١٢٠ للميلاد ثم النصف الثاني للقرن الثالث واخر الربع الثاني من القرن السادس الميلادي . . [١] .

ولهذا فان من الممكن ان نقول ان مدينة صنعاء وباسمها هذا قد عرفت في حوالي فترة ميلاد المسيح عليه السلام وان كنا لا نقطع بالحجة ولا ننكر ايغال تاريخها في القدم ومما يؤيد هذا الرأي هو قول المؤرخ الهمداني أن الملك (شعرم اوتر) هو الذي سور المدينة ووصل دورها كما أن نشوء مدن القيعان في المرتفعات اليمنية تم بعد تدهور مدن الوديا في المشرق.وقد يكون من باب الصدف ان لا تذكر صنعاء بعد القرن الثالث حتى الغزو الحبشي ، ولكن من الممكن أن نستنتج أيضاً أن قيام دولة حمير الكبرى واتخاذها مدينة ظفار قرب قاع الحقل عاصمة لها قد أزاح الى الظل كل المدن اليمنية الأخرى بما فيها مأرب وصنعاء. تماماً كما طغت أهمية مدينة مارب عاصمة سبأ على مدن اليمن الأخرى قروناً قبل الميلاد في مشرق اليمن السعيد . . .

ويبدو أن صنعاء اكتسبت أهمية خاصة بعد الغزو الحبشي لليمن في عام ٥٢٥ وحلت محل ظفار عاصمة حمير والعاصمة الأولى لليمن منذ سقوط مارب . . ويؤيد هذا القول النقش السالف الذكر والذي أشار الى « الحبشة في صنعاء » كما تعكس الأخبار مثل ذلك . . فقالوا كان اسم صنعاء في الجاهلية ازال حتى دخلها الحبشة . . فلزمها اسم صنعاء يومئذ . . وقالوا انه بعد أن انهزم بنو حمير والقى ذونواس بنفسه في اليم تولى بعده ابرهة الملك في صنعاء [٢] .

---

(١) راجع هذه النقوش في المدونات المعروفة ، ومن هذه النقوش Jamme 629 ;Jamme 644 ؛ جاربيني في (AION 36 (1976) ومن المفيد مراجعته بحث للدكتور والتر مولنر بعنوان :

Ancient Castles mentioned in the eighth volume of al-IKLiL;... Hamdani symposium, Oct. 1981.

(٢) العرب والحبشة ص : ٦٠ - ٦١ ؛ الرازي ص : ٢٨ .

وهناك دلائل على أن صنعاء كانت مقراً لذي نواس وهو (يوسف اسار يثار) اخر ملوك حمير. ورغم .. ان بعض الروايات العربية تجعل من صنعاء عاصمة للحميريين ،وهو قول خاطيء إذ أن ظفار كانت هي عاصمتهم والآثار والنقوش تثبت ذلك ، إلا أن قول الرواة قد يصح في حال آخر ملوك حمير وهو ذو نواس اذ يعرف من النقوش أن نفوذ الحبشة في ظفار قد تزايد منذ مطلع القرن السادس الميلادي ، وذلك من خلال سفارتهم هناك ، وأن ملكي حمير (مرثد إلن ومعدي كرب يعفر) قد ساعدا على استشراء نفوذ الحبشة . فقام ذو نواس من خارج العاصمة ظفار ليناوىء الحكم فيها .. ويبدو أنه انطلق في حملاته على الحبشة في ظفار ، ونجران ، وتهامة من مقره صنعاء، وكان ذلك قبل الغزو الحبشي الأخير بحوالي سبع سنوات . ولما غزا الأحباش اليمن وانهزم ذو نواس في سواحل تهامة . واصل الأحباش زحفهم حتى وصلوا مقر ذي نواس واتخذوا مثله صنعاء عاصمة لهم ، اذ ليس لظفار منذ ذلك الحين شأن يذكر في صفحات التاريخ ..

وظل عالقاً في ذاكرة الاخباريين من معالم صنعاء في تلك الفترة أمران : قصر غمدان ، والقليس واعتبروهما من المباني العجيبة ، وربما بالغوا في وصفهما ، قال الهمداني يصف قصر غمدان :[1]

من بعد غمدان المنيف وأهله	وهو الشفاء لقلب من يتفكر
يسمو الى كبد السماء مصعدا	عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة	ومن الرخام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخره	والجزع بين صروحه والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر	أو رأس ليث من نحاس يزأر

(١) الاكليل ج ٨ ص : ٥٠ . وفي البيت الأخير اللفظ (مبهومة) والأصح (منهومة) ، واشتقاق اللفظ معروف في اللغة اليمنية القديمة ، ويعني في الغالب الحجر « الموقص » أي المهندم .

متضمنا في صدره قطارة — لحساب اجزاء النهار تقطر
والطير واقفة عليها وفودها — ومياهه قنواتها تتهدر
ينبوع عين لا يصرد شربها — وبرأسه من فوق ذلك منظر
برخامة منهومة فمتى ترد — أربابه مدخوله لم يعسر

وربما لا يصدق المرء أنه كان لغمدان عشرون سقفاً ولكن تقنية البناء وجمال الزخرفة اللذين عرفا في المعمار اليمني قديماً وحديثاً لا يبعدان كثيراً عن وصف الهمداني لقصر غمدان .

وتحدث أهل الأخبار أيضا عن القليس (ومعناها الكنيسة وهي المقابل العربي للفظة اللاتينية « ايكليسيا » وربما كانت قلبا للكلمة « السامية القديمة » كنيس ومنها كنيسيت أي المجمع .مثل لفظ صنم بالعربية المحضة مقابل صلم باللغة اليمنية القديمة . فقالوا : كان سقفها من الساج المنقوش مسمراً بمسامير من الذهب والفضة ولها منبر من الأبنوس المرصع بالعاج المصفح بالذهب والفضة ، وبناها أبرهة الحبشي لتكون قبلة العرب ومتوجه انظارهم وليصرفهم عن الحج الى الكعبة ولو لم تكن القليس عمارة فذة لما بالغ الناس في وصفها خاصة وأن اليمن قد عرف قبل ذلك ومنذ منتصف القرن الرابع الميلادي كنائس في نجران وظفار وعدن والمخاء .

ومهما كان الأمر ، فالقصر والقليس كلاهما معلمان بارزان يحكيان قصة معمار صنعاء واليمن في التاريخ ، وإذا كان التاريخ لم ينبئنا عما حل بالقليس بعد ذلك فان لدينا اشارات تذكر اقامة سيف بن ذي يزن حاكم اليمن بعد الأحباش في قصر غمدان واتخاذه من صنعاء عاصمة له . وإلى صنعاء وقصر غمدان وفد وجوه قريش برئاسة عبد المطلب جد الرسول العربي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، مهنئين (سيف بن ذي يزن) بالظفر على الحبشة . ولما تفرق أهل اليمن في مخاليفهم بعد سيف بن ذي يزن كانت صنعاء مقرا للأبناء ، وهم أبناء الفرس الذين دخلوا اليمن ، وكان منهم عمال الأكاسرة . ولما دخل زمان الهجرة النبوية كان باذن الفارسي عامل كسرى برويز الثاني في صنعاء واسلم عام ٦٢٨ م .

ولم تكن صنعاء قبل الاسلام وخلال حكم الأبناء لليمن حاضرة فحسب وانما كانت محطة على طريق التجارة عبر الهضبة اليمنية . وهو الطريق الذي حل محل طريق اللبان في المناطق الشرقية . ويفترض ان مسلك هذا الطريق هو ما عرف (بدرب اسعد الكامل) الممتد من ظفار عاصمة حمير الى الطائف او (درب اصحاب الفيل).وهو طريق يبدأ من عدن عبر صنعاء الى مكة . وهو نفسه طريق القوافل التي كانت تحضر اسواق العرب الموسمية قبل الاسلام . وكان بصنعاء (سوق صنعاء) التي تقام في النصف من شهر رمضان . وذلك ضمن مواسم اسواق العرب التي تبدأ في (دومة الجندل) بين الشام والحجاز في أول يوم من شهر ربيع الأول ثم سوق (المشقر) بهجر (الهفوف حاليا) ثم سوق (صحار ودبا) على بحر الخليج ثم سوق (شحر مهرة ، على ساحل البحر العربي ثم سوق عدن ثم سوق صنعاء ثم سوق عكاظ وهي من اعظم اسواق العرب . .

وبقيت صنعاء بعد الاسلام محطة تجارية أيضاً ،و وجهة كل تاجر وعالم ، وشاع عنها قول العرب : [1] .

لا بـد من صنعا وان طـال السفـر وان تحـنى كـل عـود وانـعـقـر

ولكنها اكتسبت ملامح جديدة حيث تركزت فيها التعاليم الاسلامية واستجاب ثوبها الجديد لمضمون الدعوة المحمدية . واندثرت الكنيسة ليبنى المسجد الجامع ، وانهدم قصر غمدان العجيب ليبنى على تلته قصر جديد . ولا شك ان سوق صنعاء نالها أيضاً بعض التأثير بسبب الظروف الروحية والمادية الجديدة واصبح الجامع والقصر والسوق محاور أساسية لنشاط مدينة اسلامية فريدة حافظت على ديمومة حياتها الى اليوم . . .

وكان قد دخلها عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم (وبر بن يحنس الخزاعي) وينسب إليه تأسيس المسجد الجامع بصنعاء.

---

(١) وفي رواية أخرى عجز البيت هو : وزورة القاضي في هجرة دبر .

وفروة بن مسيك المرادي الذي لا يزال مسجد بصنعاء يحمل اسمه الى اليوم . . .

ويعتبر المسجد الجامع واسمه اليوم الجامع الكبير أقدم الجوامع التي بنيت في صنعاء وربما في اليمن كله . وقد تم توسيعه وجدد بناؤه مرارا ، فقد وسع مرة في زمن الوليد بن عبد الملك الأموي. وجدده علي بن الربيع المداني الحارثي احد ولاة العباسيين سنة ١٣٦ هـ ، كما يفيد النقش المزبور بالخط الكوفي والمثبت حديثا في جدار الجامع . وفي سنة ٢٦٥ هـ نزل سيل عظيم خرب الجامع فقام الأمير محمد بن يعفر الحوالي بعمارته وتجديده . ورغم أنه قد زيد عليه وجدد عبر الزمن إلا أن الجامع ما زال بحال حسنة ويحوي بعض أساساته كتلك الحجارة التي قيل انها اخذت من انقاض قصر غمدان وتلك الدعائم التي نحتت نحتا فنيا متقنا ، وتحمل بعضها نقوشاً يمنية قديمة وكذلك الباب المجاور للمحراب فهو من الأبواب القديمة وعليه نقوش حميرية بارزة.

أما مسجد فروة بن مسيك فمكانه المشهد (الجبانة) حيث كانت تقام صلاة العيدين ويقع في الشمال الشرقي من صنعاء، وقد هدم هذا المسجد منذ فترة قريبة وبني محله في العام الماضي مسجد فخم على نفقة دولة الامارات العربية المتحدة . وفي صنعاء كثير من المساجد ، عدها القاضي الحجري في كتابه مساجد صنعاء فبلغت المائة ولكنها اليوم لا تتجاوز النصف وذلك في صنعاء القديمة فقط . . (١)

وفي أروقة تلك الجوامع ومرافقها تركزت التعاليم الدينية وازدهرت العلوم ، ولم يزل بصنعاء عالم وفقيه وحاكم. وزاهد وكان فيها الخطباء وفيها العلماء من الأوائل كوهب بن منبه وعبد الرزاق الصنعاني والحسن بن أحمد الهمداني ، والشعراء مثل علقمة ذي جدن ووضاح اليمن وعبد الخالق بن أبي الطلح

---

(١) راجع أيضاً : Yemen the Land of Builders, p. Costa, pp. 150.

الشهابي ، ومن البلغاء وكتبة الدواوين بشر بن أبي كبار البلوي وغيرهم . . .

وتوفرت لصنعاء في العهد الإسلامي الشروط الأساسية لإقامة مجتمع حضري بكل أدواته من جامع ومدرسة وحمام وسوق ومعمار جميل وأدب جيد وظرف حسن وسماع مشهور عرف بعد ذلك بالغناء الصنعاني . وفي الوقت نفسه حافظت على ركانة ماضيها فانتعشت اسواقها التقليدية واشتهرت بتنوع بضاعتها وجودة صنعتها ، وحرص حكامها على مكانتها السياسية فاتخذت مقراً لهم أو حاضرة لدولهم . . .

ولما كان قصر غمدان قد بقي رمزاً لأهل اليمن حتى بعد تهدمه فقد اعتاد حكام صنعاء على بناء قصر في اعلى مكان من صنعاء من جهة الشرق ، وكانوا يسمونه قصر غمدان ،وقد يعرف بقصر صنعاء أو القصر فقط . وكان ذلك القصر مقرا للحاكم وقلعة حصينة بأبراجها ومرافقها ، خاصة في فترات حكم آل مهدي والأيوبيين والعثمانيين والأئمة . على ان بدر الدين حسن بن علي الرسولي قد بنى هو ايضا قصرا كبيرا عام ٦١٨ هـ . في المكان نفسه . وفي العهد الحديث سمي قصر غمدان بقصر السلاح تمييزاً له عن القصر الجمهوري وما زال قائماً الى اليوم.كما ان سوق صنعاء احتفظت بدورها الاقتصادي وتحولت من سوق موسمية في دورة اسواق العرب الى سوق نشطة على طريق الحج الممتد من عدن الى مكة .

ورغم قلة المعلومات عن سوق صنعاء فقد تمكن (والترد وستال) من تتبع خطة سوق صنعاء في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٩ ، بعنوان (سوق صنعاء) منذ القرن الحادي عشر الميلادي وقرر أن خطة السوق الحالية هي نتيجة تغيرات بنائية ومكانية عبر التاريخ وتعكس تلبيته دوما للحاجات المستحدثة كالأسلحة النارية والقات او ازدهار التجارة بوجه عام [١] . وفي كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني ذكر لحقل صنعاء (وعجائبه) وعدد أنواع ثماره كالعنب

---

(١) انظر : Dostal, S. 29 .

باصنافه الكثيرة والخوخ والتفاح واللوز والكمثرى واصناف البقول وانواع الحبوب والوان الطعام والخبز والحلبة . وذكر ضمن (عجائب) اليمن العسل والسمن والمن واللبان والورس والتمر ، كل ذلك وغيره مما يفترض وجوده في (سوق صنعاء) مولد الهمداني ومقر إقامته زمنا . وسوق صنعاء اليوم بشكله القديم وحركته الدائبة ما زال يعكس ماضي السوق وخطته.ولكل حرفة أو بضاعة هامة سوق خاصة بها ضمن خطة السوق الأصلية . فهناك سوق البز وسوق البقر وسوق الحب ، وسوق الحرير ، وسوق الزبيب ، وسوق العلف ، وسوق الفتلة ، وسوق الفضة ، وسوق النحاس ، وسوق الملح . . وغيرها ويذكر الرازي في كتابه تاريخ صنعاء ٢٣ سوقا وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي ، أما في القرن الثامن عشر فكثير. ومن يزر متحف صنعاء اليوم لا بد وان يشاهد نحتا جميلا لرجل منذ عهد سبأ وهو يتحلى بجنبية جميلة (خنجر) لا يبعد شكلها كثيرا عن تلك التي يشتريها المرء اليوم في سوق صنعاء القديمة . . .

وليست حوانيت سوق صنعاء ذات شكل معماري متطور خاص وإنما يتجلى معمار مدينة صنعاء في تلك الدور التي تحيط بالسوق . قال صاحب كتاب (اليمن ارض البناة) اذا صح القول ان حضارة اليمن تنعكس في معمارها فان مدينة صنعاء ولا ريب هي مثلها الأروع . . (ودور صنعاء ليست موغلة في القدم ولكن طابعها الانشائي متطور ويتسم بمستوى راق) من الرفاه والجاذبية والجمال وبملاءمة ذكية للشروط المناخية المحلية . كماينبيء عن تقاليد صنعاء القديمة والمستمر في البناء. بل ان سكان صنعاء قد نجحوا في ان يجعلوا من دورهم بنايات اثرية . ولا يكاد يوجد بقعة اخرى من العالم مثل هذه النسبة العالية من المساكن الحضرية ذات التقليد القديم [١] .

ويبلغ ارتفاع بعض دور صنعاء اليوم ثمانية ادوار ويصل بين كل دور وآخر زنار (حزام) من الخارج ويعمل من مادة البناء نفسها وباشكال هندسية رائعة

---

(١) انظر كتاب كوستا السالف الذكر (١٨) .

الزخرفة . وكل دور مستقل بمرافقه . ويسمى (الحبشي): ويستعمل الدور الأرضي عادة مخازن وحظائر للماشية والدور الأول دواوين متسعة للاجتماع في المناسبات كالولادة والعرس والموت ، والدور الثاني خاص بالنساء والأطفال . والأدوار العليا ينفرد بها الرجال . وللقاضي اسماعيل الأكوع حديث منشور بهذا الشأن [١] . وفي معظم الدور حجرات في أعالي البيوت تدعى الواحدة منها (مفرج) والجميع (مفارج) ، وهي مستطيلة الشكل ذات نوافذ واسعة منخفضة ليرى الجالسون فيها أثناء القيلولة (وفي عصرنا خلال مقيل القات) حقول صنعاء وبساتينها كما يراعى في تصميم المفرج امور عدة منها تقلبات المناخ .

ولا يبين نسيج المدينة المعماري المتحانس وتبرز فيه مفارقة الحديث والقديم اليوم ، دون ذلك السور الذي ما زال جزء كبير منه يكتنف المدينة . فلقد كانت صنعاء حتى وقت قريب محاطة تماما بسورها ، وذلك منذ أن سورها ووصل حيطان دورها الملك السبئي (شعر اوتر) كما سلف الذكر. والتاريخ يروي أن ذلك السور تعرض مرارا للخراب وكان ممن اصلحة واداره بالحجر والجص وركب عليه سبعة ابواب الملك علي بن محمد الصليحي في القرن الخامس الهجري. ويذكر لنا الحسن بن علي الخزرجي في كتاب(العسجد المسبوك) كيف خرب السلطان علي بن حاتم الهمداني درب صنعاء عام ٥٧٠ هـ وكسر خنادقه واستأصل مآثره [٢] ، وذلك لدى سماعه قدوم (توران شاه الأيوبي) الى صنعاء. وقد اعاد بعد ذلك بناء سور صنعاء (طغتكين الأيوي) في أواخر القرن نفسه [٣] . وفي حوالي عام ١٠٣٦ هـ اصلحه الوالي محمد باشا وذلك عندما عاين السور وقد سعى فيه الخراب واصبح خلق الجلباب؛حيث الزم العملة في

---

(١) راجع مجلة الأكليل عدد ١٩٨١/٥ .

(٢) العسجد ص : ١٥١ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٦٧ .

الطين ، والمحسنين من المعمارين باصلاح شقوقه وصدوعه واقامته قبل حدوث وقوعه واعادته احسن مما كان عليه ايام (طغتكين) [١]. ولسور صنعاء ستة ابواب ثلاثة جنوبية وهي باب ستران وباب اليمن وباب خزيمة وبابان شماليان وهما باب شعوب وباب الشقاديف ، وباب غربي وهو باب السبحة . وكان في السور عدد من الأبراج بين كل برج واخر المسافة نفسها . وكان في وسط السور ممر لفارسين يمشيان معا ثم استعمل الممر نفسه بعد ذلك لمرور عربات المدافع عند الحاجة لحماية المدينة [٢].

وفي ايامنا هذه فتحت بعض ابواب صنعاء وتزايد هدم سورها وكادت المدينة القديمة ان تسفر ويهتك صونها .

ان هذه المدينة التي ربما كانت قد بدأت تَشكّل كمدينة بتلك القلعة التاريخية على سفح جبل نقم والتي عرفت بعد ذلك بقصر غمدان تطورت خطتها لتصبح مدينة يحيط بها سور دائري ، وسطها القليس قبل الاسلام ثم الجامع بعده وسوق المدينة ثم ازدهر الى جانب سورها الشمالي حي سكني كان استمراراً لمدينة صغيرة اسمها (شعوب) ورد ذكرها في نقوش اقدم عهدا من صنعاء. وهو ذلك الحي نفسه الذي اتسع بعد الاسلام وتركز حول قبر الصحابي فروة بن مسيك . ثم تزايدت صنعاء بعد الاسلام الى حوالي بضع وتسعين ومائتين من الهجرة حيث خرجت وعادت بعدها الى ما كانت عليه قبل خرابها .

ويذكر الرازي والخزرجي [٣] في كتابيهما ان صنعاء استكملت عمارتها في الاسلام ، وكثر ريفها والخير فيها والاتيان من جميع النواحي اليها ، حتى بلغ عدد دورها مائة الف دار وعشرين الف دار ، وعدد مساجدها عشرة آلاف مسجد وبها سقايا جمة . وعدوا مساكن ربع صنعاء فبلغت سبعين الف مسكن

---

(١) روح الروح ج ٢ ، ص : ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) مجلة الاكليل عدد ١٩٨١/٥ .
(٣) الرازي ص : ١٠٥ ـ ١٠٦ ، العسجد ص : ٦ .

وذلك في خلافة هارون الرشيد أي سنة ١٧٠ هـ. وقالوا ان صنعاء تلاشت بعد ذلك في أيام احمد ابن قيس الضحاك وذلك سنة ٣٨٠ هـ وقالوا ان صنعاء تلاشت بعد ذلك.ومن الصعب تصديق عدد الدور والمساجد في صنعاء كما ورد في روايتي الرازي والخزرجي . اذ ان بغداد نفسها حاضرة الخلافة الاسلامية آنذاك ربما لم يتجاوز سكانها مائتي الف نسمة، فما بالك بدورها .

ومن طريف ما روي عن المبالغة في مثل هذه التقديرات هو تعليق احدهم لما قرأ تقدير يزدجرد (ت ٣٢٠ هـ) في كتابه « فضائل بغداد » ان عدد حماماتها ستون الفا حسب تقديره الشخصي وليس أكثر من ذلك ، فقال : جعلت كل حمام عشرين ذراعا في عشرين ذراعا ، وضربت ذلك فوجدت بغداد كلها حمامات ، ثم طلبت بغداد فلم اجدها (١) . وربما كانت الرواية التي تقول ان دور صنعاء بلغت في أيام جزرها اربعين داراً وألف دار أقرب الى التصديق ولا ريب انها تجاوزت ذلك الرقم في ايام مدها والله اعلم .

ومن الفترات التي توسعت فيها مدينة صنعاء عهود الدولة الهمدانية في القرن الحادي عشر الميلادي (السادس الهجري) والدولة الأيوبية في القرن الثاني عشر الميلادي حيث انشيء حي (النهرين) الى غرب المدينة ، واقيم على طرفه الجنوبي مقرا للحاكم عرف وما زال (ببستان السلطان). وفي العهد العثماني الأول اي في المائة العاشرة للهجرة استحدث حي جديد في الجانب الغربي ايضا يدعى (بير العزب) وكان معظم من يسكنه هم موظفو الدولة العثمانية . وطابع البناء فيه يختلف عن بناء بيوت المدينة القديمة . وكان هذا الحي اكثر اتساعا في شوارعه وأكثر عدداً في حدائقه وكان لكثير من البيوت بساتين وفي البستان مفرج وامامه نافورة (شذروان) وتظللها اشجار مثمرة وتحيط بها عرائش الأعناب (٢) .

---

(١) ابن الفقيه ص : ٢٣ .

(٢) راجع أيضاً مجلة الاكليل عدد ١٩٨١/٥ ، مقال القاضي اسماعيل الأكوع .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي استحدث في الجانب الغربي من (بير العزب) الحي المعروف (بقاع اليهود) . وفي القرن الثامن عشر أنشأ الامام المتوكل القاسم عددا من القصور ومسجدا وحمامات وحديقة في الطرف الغربي من المدينة . وفي أيام الوجود التركي الأخير بنيت في جنوب سور المدينة ثكنات عسكرية ذات طابع معماري غريب ، وما زالت تشاهد الى اليوم قرب باب اليمن على يسار المسافر الى تعز . وكما لصنعاء القديمة سور يحيط بها كان لبير العزب ايضا والمنطقة المستحدثة سور أقل شأنا وبأبواب عديدة.

وليس لدى الباحث وثائق أو خرائط تحدد معالم تطور مدينة صنعاء بدقة عبر الزمن ، سوى شذرات قليلة هنا وهناك حاولنا جمعها في هذا الحديث. ولكن لدينا بعض الخرائط منذ القرن الثامن عشر مثل خارطة (نيبور١٧٦٣) وخريطة (مانزوني ١٨٧٩) وخريطة راثينزوفون فيسمن ١٩٢٩) واخيرا خرائط تخطيط المدينة اليمنية الحديثة. وتشير هذه الخرائط بالاضافة الى تلك النبذ التاريخية الى ان عمارة صنعاء قد مرت بأطوار تغيير وتجديد يتعذر اليوم تتبع ملامحها بدقة، خاصة وان فن البناء اليمني قد اتسم بالتواتر والتجديد معا كما ان مواد البناء تكاد تكون دوما متجانسة. غير ان الثابت هو أن هذه المدينة العريقة قد استطاعت ان تحافظ على ديمومة الحياة فيها . وبقيت عبر الزمن عاصمة اليمن أو مدينة هامة فيه . وما زالت الى اليوم تحمل سحنات الماضي بأزقتها وأسواقها وجوامعها ودورها وسورها ، بل ان معظم آثارها وبديع معمارها ما زال قائماً ولم تفسده التيارات المعمارية الأجنبية .

وحتى يومنا هذا ما زال التزاوج بين القديم والحديث على الاجمال ، مستمرا وبإيقاع مريح . كتب احد المهتمين الألمان بمدينة صنعاء في احدى المجلات واصفا انطباعاته منذ فترة قريبة فقال :

صنعاء المدينة الفاضلة هي، حاضرة اليمن واعرق مدينة وليس بين مدن الشرق ما يضاهيها جمالا وسحرا ، مساجدها البديعة تسامق منائرها أجواء الفضاء، أسوارها المنيعة .. التي تحصنها الأبراج وتحميها الأبواب ، خضرة

اشجارها في فسيح بساتينها ، دورها الفخمة المنيفة ، التي تنبيء طوابقها عن زخرفة دقيقة . وعندما تسطع الشمس تبدو صنعاء تحت اشعتها وكأنها نسيج فني ، يبرز من خلال سورها بالوانه الرتيبة الحمراء والصفراء. دور زاهية ، نوافذها مزينة بصحاف الرخام الملونة مزخرفة أطرافها الجيرية بالوان بهيجة . ابوابها الخشبية السميكة تكشف عن صنعة بهية تتألق من خلال حفرها الثري . كل ما في تلك المدينة ـ الأساطير ـ يوحي بسحر قصص الف ليلة وليلة ، حتى اسواقها بمصنوعاتها الملونة امام جاذبية المصنوعات الأجنبية التي تكاد تغمرها . وما زال الأجنبي يجد امامه رغم ذلك عرضا غنيا متعدد الألوان والجوانب في حوانيتها . وما زال منذ القدم تتدافع كل يوم افواج الزوار بين ازقة صنعاء الضيقة وتتزاحم وتتعالى اصواتها .

ومن سحيق القرون منذ حكم ملوك حمير والأحباش والفرس وولاة الخلفاء وسلاطين الترك ، وعبر الزمن شهدت المدينة حروباً وثورات وخراباً ، ولكن مجد صنعاء وفخارها ما زال إكليلا على رأسها الى اليوم .

ولكن ذلك الايقاع المريح في التزاوج بين الحاضر والماضي قد بدأ يصاب ببعض الخلل . وشرع عدوان الحاضر يحدث الضرر ويشكل اليوم جرحا داميا . ويخشى أن يتسع ليهدد هذا الأثر المعماري القيم وهذا المعلم القومي الهام . . فقد هدم احد أبواب صنعاء الجميلة عام ١٩٦٦ وهو باب السبحة.وبدأ سورها الذي تحدى عوادي الزمن يتهاوى تحت ضربات العابثين وكثرة الاهمال . واشتدت حركة السيارات في ازقة المدينة الضيقة الى حد انها لا تهدد هدوء ذلك الجمال فقط وانما ايضا تعمل على انهيار البنيان .

ولقد تسببت مشاريع ادخال المياه دون خطة الى المدينة في انهيار بعض مبانيها ، كما ان ادخال شبكة مجار دون مراعاة ظروف المدينة التاريخية قد يسبب تلفا بالغا لا يمكن اصلاحه .

لقد صمدت صنعاء قرونا ضد الأخطار الطبيعية كالسيول والتقلبات الجوية ، وصمدت ضد عدوان الانسان كالحروب والحرائق واعمال التخريب

والاهمال ، وبقيت الى اليوم شاهدا حيا وشامخا على حضارة عربية اسلامية أصيلة ، ذات مستوى فني رفيع مزج بين الفن التقني والجمال المعماري مستجيبة في نفس الوقت للحاجات المادية والنفسية والروحية لسكانها دوماً وفقاً لذلك .

ولهذا نراها اليوم نموذجا معماريا فريدا قل ان تجد له مثيلا على مثل ذلك الكمال المعماري ، نسيج متجانس وفي حالته البكر ، غني بالآثار الاسلامية كالجامع والسوق والدور . ولكن هل تقوى صنعاء القديمة حقا على مقاومة التحديث المشوه ؟ هل تقدر على مواجهة الحياة العصرية والنمو التكنولوجي والانفجار الديمغرافي ؟ هل تستطيع ان تصمد أمام الزحف العمراني الهائل والذي ينقل ملامح عاصمة اليمن بسرعة مذهلة من العصور الوسطى الى العصر الحديث؟

ربما كان ذلك ممكنا ان وضعت خطة للمحافظة على المدينة وفق سياسة متوازنة تتناسب والامكانات المادية والفنية المحلية والدعم العربي والدولي وفي اقرب فرصة ممكنة . وذلك لتبقى صنعاء القديمة على وضعها الراهن وفاء لابداع الأجيال السالفة وخدمة للأجيال القادمة وتعزيزا للذاتية الثقافية وذخرا للثقافة الانسانية .

ولقد استثارت صنعاء خيال المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم وجذبت اهتماماتها وشاركها في ذلك المخططون المعماريون والعلماء الأثريون وغيرهم في جميع انحاء العالم . وابدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اهتماما مماثلا واعتبرت العمارة الاسلامية بوجه عام قضية أساسية وصورة من ثقافة الأمة وتجسيدا لها وان صون المدينة التاريخية هو دفاع عن التراث ، اذا ان التراث هو خير لبنة لبناء صرح الوحدة العربية [1].

---

(١) راجع حلقة العمارة العربية (اليكسو) ، الحمامات تونس ١٩٧٧/١٢/٣ ، توصيات المؤتمر التاسع للآثار ، صنعاء .

وأدركت المنظمة الدولية انه لن يتسنى انقاذ تلك البقعة الكبيرة وصونها ضمن تلك المدينة التي تنمو سريعا على غرار مدن العالم الثالث ـ الا اذا نظر اليها في اطار المحيط الحضري العام وضمن تخطيط ثقافي شامل ودقيق [١] .

وكانت أبرز الخطوات العملية وأحدثها في هذا الشأن هي توصية اللجنة الاستشارية للثقافة العربية التابعة لليونسكو في اجتماعها الذي انعقد بصنعاء من ٢٠ ـ ٢٤ يونيو ١٩٧٩ م ـ بصون مدينة صنعاء [٢] وكانت هذه التوصية هي المتكأ لمشروع القرار الذي تقدمت به اليمن في الدورة الحادية والعشرين للمؤتمر العام لليونسكو والذي انعقد في بلغراد عام ١٩٨٠ م . وكان ان اتخذ المؤتمر العام قرارا نقتطف منه ما يلي : ان المؤتمر العام : [٣] .

أ ـ نظرا لما للتراث الثقافي الممثل في الآثار والمواقع من اهمية بالنسبة لتاريخ وحضارة البشرية بأسرها وإدراكا منه بضرورة الشروع في برنامج يكفل حماية هذه الآثار والمواقع وصونها وترميمها واحياءها ، يرخص للمدير العام بأن يدرج المشروعات التالية ومنها صنعاء التاريخية بالجمهورية العربية اليمنية .

ب ـ بأن يجري بالتعاون مع الحكومات المعنية وفي حدود الاعتمادات المتوافرة ، الدراسات الفنية اللازمة لإعداد خطط عمل تفصيلية للمشروع ولتحديد طرائف الترويج له في صورة حملة دولية .

ومبلغ العلم انه قد وصل الى صنعاء مبعوثان من اليونسكو في اواخر عام ١٩٨٠ م لاعداد خطط العمل والتشاور مع الحكومة . وقد لقيت زيارتها اهتماما خاصا لدى المسؤولين ، وصدى طيبا لدى المهتمين من علماء صنعاء ورجالها .

---

(١) راجع تقرير جيرالد ايرباخ ، اليونسكو ، باريس (١٩٧٧) : التخطيط الثقافي لمدينة صنعاء ص : ٣

(٢) توصيات المؤتمر التاسع للآثار ، صنعاء ١٩٧٧/٢/١٦ .

(٣) وثائق المؤتمر العام لليونسكو ٢١ م/م ق ٣٨٦ بلغراد ١٩٨٠ .

كما وصل الى صنعاء المدير العام لليونسكو[1] لمتابعة الموضوع وفي سبيل توجيه نداء عام للمجتمع الدولي نحو صيانة مدينة صنعاء . وكان مما قاله آنذاك في مقابلة تلفزيونية : انه من المتعذر صيانة المدينة دون تعاون حقيقي من أهلها ، وتذكرت حينذاك ما ورد في قديم الخبر أنه لن تنقضي الليالي والأيام حتى تملأ صنعاء ما بين جبليها . . واذا بلغت ما بين جبليها فلا خير في سكناها لأهلها .

أجل ! أهل مكة ادرى بشعابها ، وأهل صنعاء هم الذين سيتخذون القرار الأخير . وكلنا أمل ان يكون قرار أهل صنعاء ومن يسندهم من المهتمين عربياً واسلامياً ودولياً مصداقا لخبر قديم آخر (٢) يروي ان صنعاء لن يصيبها مكروه فهي من القرى المحفوظة .

---

(١) وصل الى صنعاء في أواخر عام ١٩٨١ .

(٢) الرازي ص : ١٠٣ وص : ٤٠ ـ ٤٦ .

سيرة الحسن بن أحمد الهمداني
«صياغة جديدة»

استهل العلامة حمد الجاسر ترجمته القيمة للحسن بن أحمد الهمداني في المقدمة التي تصدرت كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني بتحقيق القاضي محمد علي الأكوع بقوله : (يحتاج الهمداني إلى دراسة واسعة لا تتسع لها هذه الصفحات ولا أبالغ إذا قلت بأنه بحاجة إلى كتابة مؤلف واف حافل بكل ما يتصل بحياته ، وهذا ما علمت بأن القاضي العلامة الأستاذ محمد بن علي الأكوع يقوم به ولهذا سأكتفي بإشارات موجزة عنه ، حتى تصدر دراسة أستاذنا الأكوع أو غيره) . . ويكاد قول الشيخ حمد أن ينطبق على هذه المحاولة التي تقدم هنا ضمن أبحاث ندوة علمية متخصصة وفي اطار مناسبة خاصة بصاحب الترجمة .

أما كتابة مؤلف واف حافل بكل ما يتصل بحياة الهمداني فيحتاج إلى معلومات ثرية تفوق حجم النبذ القصيرة التي أوردها الذين ترجموا له ، وتحتاج إلى استقراء دقيق ومتأن لمؤلفات الهمداني المعروفة ، وربما تحتاج أيضاً إلى تفاؤل حسن بالعثور على المفقود منها ، وفي سبيل ترقب تحقيق الأمنية قد يكون من

المفيد صياغة ترجمة مكثفة ومتكاملة تجمع شذرات الرواة ولمحات الدارسين المحدثين، وتفيد من الاشارات العابرة التي وردت في ثنايات مؤلفات الهمداني المتوفرة وخاصة تلك المعلومات الجديدة في المقالة العاشرة من كتاب « سرائر الحكمة » للهمداني المفقود والتي نشرها القاضي محمد بن علي الأكوع عام ١٩٧٩، كما قيل لي إذا ليس عليها تاريخ ـ ونوه بما فيها من دلالات جديدة تلقي الضوء على بعض ما خفي من حياة الهمداني ، ومنها نقل الشيخ حمد الجاسر استناداً إلى مخطوطة المقالة حقائق جديدة عن مولده وسجنه . أما الأستاذ (أوسكار لوفجرن) فقد نقل عن الأكوع التنويه بتاريخ الميلاد ولكن لم يتسن له الأفادة من المقالة المذكورة غير ذلك ـ عندما كتب مادة الهمداني « في دائرة المعارف الإسلامية » .

وكان المعول في كتابة هذه الترجمة على ما كتبه محمد بن علي الأكوع في مقدمة الجزء الأول من كتاب (الأكليل) وغيرها من مقدمات الكتب التي نشرها للهمداني ، وعلى ترجمة حمد الجاسر للهمداني في مقدمة كتاب (الصفة) وعلى مقالة (لوفجرن) في دائرة المعارف الإسلامية . ولعل تلك الترجمات من خير ما كتب المحدثون عن حياة الهمداني والذين اعتمدوا في ذلك أهم الترجمات السابقة كترجمة صاعد بن الحسن الأندلسي (ت ٤٦٤ هـ) في كتابه (طبقات الأمم) وعلي بن الحسن القفطي (ت ٦٤٦ هـ) في كتابيه : إنباء الرواة على أنباه النّحاة » و « طبقات الأطباء » وعلي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢) في كتابه (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) .

غير أن ذلك لا يعني أن أغفل غيرها من الترجمات الأخرى القصيرة والملحوظات المفيدة حول حياة الهمداني قديمها وحديثها ، بل إن كثيراً من ذلك قد أسعف على إبراز الصورة وزاد في جلائها .

صاحب الترجمة هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود ابن سليمان الأرحبي البكيلي الهمداني . كان أهله يقطنون المراشي من شرق اليمن وهي منطقة تقع في الجزء الأعلى من مساقط الجوف يجمع سكانها بين

عيشة التبدي والتحضر قديماً وحديثاً . وتكون اليوم ناحية من قضاء برط وتتبع إدارياً محافظة صنعاء . وقد نسب بعضهم الهمداني إلى آل الدمنة والأصح على الأرجح هو أن يقال آل الدمينة ، وهم إلى اليوم من سكان ناحية المراشي وفرع من ذي محمد القبيل الكبير هناك . وقد انتقل جده داود وابنه يوسف إلى الرحبة شمال مدينة صنعاء ثم سكن يوسف صنعاء في آخر عمره وسكن بها أولاده من بعده .

ويستدل من (المقالة العاشرة) أنه ولد بصنعاء يوم الأربعاء ١٩ صفر سنه ٢٨٠ هجرية أي حوالي ٨٩٣ ميلاديه ، ورغم أن النص لم يصرح باسمه ولم يقطع بالحجة إلا أن كل القرائن تومىء إلى ذلك وتدل عليه. وكان القاضي الأكوع أول من تنبه إلى ذلك فنوه به في ملحق مقدمة الجزء الأول من (الأكليل) الذي نشره عام ١٣٦٩ هـ بالقاهرة. وقد بقي تاريخ مولده غير معلوم علم اليقين حتى كتب الشيخ حمد الجاسر مقدمة (الصفة) المذكورة وترسخ الأمر في أذهان المعنيين من الدارسين منذ أن نشرت (المقالة العاشرة) متضمنة النص الذي أسند إليه ومجمله :

فمن ذلك أنا اختبرناه ببعض التسييرات المشهورة الفروع ، فيما شاهدناه وعايناه ولم نرجم فيه بالغيب ولم نتبع به التعليل ، لمولود ولد في الإقليم الأول في المدينة التي عرضها ١٤ درجة ونصف وظل رأس الحمل بها ثلاث أصابع وست دقائق . . وكان ذلك يوم الأربعاء يوم ١٩ من صفر سنة ٢٨٠ لعشر ساعات مستوية من النهار . . يكون الطالع من الميزان أحد عشر جزءاً ونصف بالتقريب . . ثم يذكر النص لتحقيق ما ظهر من دلائل الطالع وهو أن المولود يصاب بنكبتين عظيمتين من الأعداء ثم يؤرخ لأحدهما يوم الثلاثاء يوم أحد عشر من رجب من سنة ٣١٥ ولثانيهما بيوم الأثنين من شهر شوال سنة ٣١٩ .

فالمولود هو الهمداني نفسه هو صاحب النص وهو الذي خبر وعاين ولم يرجم بالغيب . والمدينة المشار إليها هي صنعاء فاليمن عند بطليموس في الإقليم الأول . وعرض صنعاء على ما وجد أهلها على حد قول الهمداني أربع عشرة

درجة ونصف والنكبتان هما سجنه مرتين في صعدة وصنعاء . وسياق الأحداث في حياة الهمداني تقتضي أن يكون مولده في حوالي الربع الأخير من القرن الثالث الهجري . ويوافق سنة مولده خروج الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من الرس في أرض الحجاز إلى اليمن في خرجته الأولى بدعوة من بني فطيمة من خولان صعدة وهي الخرجة التي وصل فيها إلى الشرفة من بلاد نهم ، شمال شرق صنعاء. ويبدو أن في السنة نفسها ، كان علي بن حسين المعروف (بجفتم) بصنعاء عاملاً من قبل بني العباس وذلك إبان خلافة المعتضد العباسي . .

ولا نعرف شيئاً عن أول حياة الهمداني سوى أنه حدثت به علة ليست بشديدة وهو في الخامسة من عمره . وأنه منذ بلغ السابعة بدأ يحادث النفس بالأسفار . وقد كان أبوه رحالة دخل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان ومصر . كما كان لأجداده بصر بالابل منذ أن كانوا في مشرق اليمن . ولما تركوا البداوة واستقرُّوا في صنعاء اشتغلوا بالجمالة . وإن كان منهم من عني بالصناعات كالتعدين .

ويستدل أن بعض أهله حل بصعدة وحيث كانت الجمالة مزدهرة بحكم موقع المدينة على طريق التجارة والحجيج. ويبدو أن الهمداني شارك أهله في عملهم وهو نقل الحجيج والتجار إلى مكة من صعدة ، ثم انتقل إليها واستقر بها وهو آنذاك في الخامسة عشرة من عمره .

قال الهمداني في المقالة العاشرة : ولأن الزهرة كانت في السابع نقلت المولود حينئذ ، (أي حين بلغ خمس عشرة سنة) من وطنه إلى بلد آخر فقطن فيه واسترفع عيشه وحسنت أحواله . وفي صعدة بلغ سن الرشد وجنح إلى متع الحياة ولذائذها وتعود مخالطة الغرباء واكتسب من ذلك الرفق والتسامح . وبعد زمن (أي حوالي عشرة أعوام - من استقراره فيها وحوالي ١٥ عاماً من إتخاذه صعدة محطة ينزل بها في قدماته إلى مكة مع أهله إبان صباه) أشقاه الكد والترحال فاكتسب حدة الطباع ونال من معارضة الخلطاء وعداواتهم ما شجعه

على السفر الكبير فارتحل إلى مكة طلباً للعلم المكتسب للأجر .

وقد جاءته علة شديدة وهو في رحلته تلك ، شارفت به على الموت . وكان الذين هاجها أنه كان في بلد حار وهجير من النهار فطلب التبريد بالماء فشن على بدنه فنازلته العلة . وكانت رحلته إلى مكة في سبيل العلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره أي حوالي عام ٣٠٥ وفي مكة أطال الإقامة وجاور بها أكثر من ست سنوات . ورغم أنه عدم في مكة رفاهية صعدة ولذاتها ، وتعرض لأذى حر مكة وهجيرها إلا أن فترة مكة كانت من أخصب سني التحصيل لديه حيث تفتحت له آفاق المعرفة وانفتح له فيها باب نفيس من المنطق فازداد منه ، وانكشط عنه كثير من الجهل واتسعت بسطته في العلم فعلم شيئاً من علم الأخبار وكتب صدراً من الحديث والفقه ورواه ومال إلى مذهب الجماعة . كما قال ذلك بنفسه في المقالة العاشرة . وكانت مكة في ذلك العهد من مراكز العلم حيث يفد إليها كثير من علماء البلدان الإسلامية لأداء فريضة الحج أو للمجاورة فتسنى للهمداني أن يتلقى العلم عن بعضهم مثل الخضر بن داوود . وذكر الهمداني في « شرح قصيدة الدامغة » أنه اجتمع به سنة ٣٠٧ هـ وقد روى عنه (السيرة) عن ابن اسحاق . ومنهم أبو علي الهجري الذي أشار إلى الهمداني في « النوادر والتعليقات ».ويرى حمد الجاسر أن الهمداني نقل عنه بعض النصوص الشعرية في (صفة جزيرة العرب).ويظهر أنه أثناء مجاورته بمكة اقتنى بعض الكتب كدواوين الشعر ومؤلفات ابن الكلبي في الأنساب وغيرها .

وفي حوالي ٣١١ هجرية رجع إلى صعدة مرة أخرى ، وهي إذ ذاك كورة بلاد خولان وقاعدة أئمة الزيدية ومحطة هامة على طريق التجارة الممتدة من أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام، ونقطة تجمع الحجيج من مختلف الجهات اليمنية.فحبذ الهمداني سكناها مرة أخرى بعد أن خلص من حرارة مكة وكانت تؤذيه وتضر بصحته ومال إلى الإستقرار فيها وعمر داراً وامتلك عقاراً واستطاب المقام بها .

وكان قد توفر لصعدة استقرار نسبي خلال فترات الهادي وابنيه المرتضى

والناصر خاصة إذا ما قورنت بصنعاء في الفترة نفسها حيث شهدت صنعاء آنذاك اضطرابات سياسية وتعرضت للنهب والعدم وكثر تناقل الحكام فيها السلطة. وقد أدى الاستقرار في صعدة إلى استقطاب كثير من الناس من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم وكذلك التجار من داخل اليمن وخارجه، فقامت فيها حركة أدبية وفكرية وانتعشت فيها التجارة. فكان أن أفاد الهمداني من فنون العلم التي كانت تزخر بها كما أسهم فيها بنصيب وافر ولا سيما في علوم الأخبار والانساب والشعر .

ولم تكن صعدة قبل ذلك من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث كصنعاء فلم تنتشر أخبارها وقل وقوف النسابة على أنسابها وقبائلها وبطونها من خولان . فأطل الهمداني فيها على أخبارها وأنسابها ورجالها إطلالة العارف المتمكن فقرأ بها سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية وأخذ عن علماء صعدة ومما خبره رجالها ورووا له واستنشده منهم. لذلك وسم الهمداني بالعلم بين أهلها وعرض جاهه ورفع قدره واكتسب رضا رجال القبائل من خولان وما جاورها من همدان وحمير .

وكان استقرار الهمداني في صعدة أيام الإمام الناصر بن الإمام الهادي يحيى ابن الحسين الذي تولى الأمر بعد تخلي أخيه المرتضى عنه في عام ٣٠١ هـ والذي بقي في الحكم حتى توفي عام ٣٢٢ هـ . وذلك بعد خروج الهمداني من سجن صنعاء بفترة وجيزة . وكان يحكم صنعاء في الفترة نفسها آل يعفر من آل ذي حوال الحميريين وأميرهم هو أبو حسان أسعد بن أبي يعفر وكان مقره بكحلان وهي (كحلان) خبان في شرق مدينة يريم الحالية . وأما زبيد فكان يحكمها (ابن زياد) ولعله اسحق بن ابراهيم بن زياد وهو الذي يشير اليه الجزء الأول من الاكليل بقوله : ـ « أن اطلاق الهمداني (أي من سجن صنعاء) كان من جهة ابن زياد صاحب زبيد » . . . .

وإلى جانب هؤلاء الحكام كان هناك عدد من زعماء القبائل وخاصة آل الدعام من بكيل وآل الضحاك من حاشد . قال الهمداني في آل الدعام : أن

سؤددهم عظيم وأخبارهم كثيرة ـ ونعت أبا جعفر أحمد بن محمد ابن الضحاك بأنه سيد همدان في عصره . وقال عن حاشد وبكيل : إنهما قبيلا همدان العظيمان . أما في صعدة نفسها فكان نفوذ القبائل للفطيميين والاكيليين وكلا القبيلين من خولان .

وكانت تلك القوى تتنازع السلطة في اليمن فشهد اليمن في أواخر القرن الثالث الهجري ومطلع القرن الرابع الهجري اضطراباً سياسياً شاملاً شاركت فيه كل القوى المذكورة بما فيها « القرامطة » . ورغم القضاء على « القرامطة » إلا أن ذلك الانقسام السياسي استمر إلى الفترة التي نحن بصددها وهي فترة الهمداني في صعدة .

ولم يكن ذلك الشتات في اليمن غير امتداد للتمزق والخلاف السياسي الذي اعترى الدولة الإسلامية كلها، حيث انحسرت سلطة الخلافة وضعف أهلها فاستقل كل بما لديه حسب قوة نفوذه . وكانت صعدة من المراكز التي ورثت ذلك الخلاف السياسي والتنازع على السلطة . واتخذ ذلك الصراع في صعدة صوراً متعددة منها عودة ذلك الخلاف القديم والخطير بين قبائل عرب الشمال وقبائل عرب الجنوب ذلك الخلاف الذي نشأ في القرون الأولى للهجرة نتيجة تداخل الحضارتين الإسلامية الجديدة واليمنية القديمة لدى مشاركة أهل اليمن في الدعوة إلى الدين الجديد والإسهام في موجة الفتوحات وفي تمصير الأمصار وفي إرساء ثوابت الدولة الإسلامية . وكان خلافاً معلوماً يدور حول مسألة الخلافة وأحقيتها ، وقد تنازع فيه الناس بالسنان وتجادلوا بالحجة واللسان.فأدى ذلك إلى بروز موروث تاريخي ملحمي عن حياةالعرب قبلالإسلام وخاصةعن حياة عرب اليمن . وكان أن انعكس ذلك الصراع على الحركة الأدبية والفكرية في صعدة وأذكى عودة الخلاف القديم أواره .

ولم يكن بوسع الهمداني أن يتجنب مثل ذلك الصراع إذ كان في صميم الأمر.فهو شخصية أدبية مرموقة ، وعالم شغوف باستقصاء أخبار وطنه وله صلات عديدة برجال خولان في صعدة وهمدان في أرضها . وقد جمع كثيراً من

اخبارها ووقائعها ومفاخرها،فخاض ذلك الصراع المحتدم الذي كان قائماً في صعدة منذ أن وطد الإمام الهادي مركزه فيها . وكان أبرز ما في المجال الأدبي من صراع هو كتابة الأشعار التي تذكي الحمية وتحيي من العصبية،ثم نوع من المفاخرة الشعرية كان الكميت بن زيد الأسدي قد بدأه قبل حوالي قرنين في قصيدته الموسومة بالمُذَهَّبة حيث يحرص كل جانب على تبيان مناقبه ومثالب معارضه .

وكان في صعدة عدد من الشعراء الذين يمثلون جانب عرب الشمال منهم أبو العساف الحسين بن علي وأبو أيوب بن أبي الأسد السلمي وأيوب بن محمد بن محمد اليريمي ، وكانوا في شعرهم كما قيل يتعصبون على قبائل اليمن . ويبدو أن الأمر تفاقم بين الهمداني وبين أولئك الشعراء فكتب قصيدته التي ينحو فيها منحى الكميت ويجيب بها عنه وسماها « الدامغة ».فاستغلها خصمه؛ فكان ان فتحت عليه أبواب الطعن وسبل الاتهام واثار عليه السلطان والناس كما قال الهمداني نفسه في المقالة العاشرة وسجن الهمداني إثر ذلك . وكانت نكبة عظيمة ومشهورة ولكنها خفيفة ومتجاوزة ولم تعد عشرة أيام وذلك يوم الثلاثاء يوم أحد عشر من رجب سنة ٣١٥ هـ .

وقد عمل على فك الهمداني من سجن الإمام الناصر بصعدة بعض كبار رجال القبائل من خولان ومنهم يحيى بن عبد الله سيد اكيل ورجل خولان ولسانها وهو الذي مدحه الهمداني بقوله :

زر خير أبناء مالك حسبا	ومفخرا ان عدت مفاخرها
يحيى بن عبد الله مقلة خولا	ن وانسانها وناظرها

على أن الإمام الناصر توعد الهمداني ان عاد إلى مثلها فخرج على اثر ذلك من صعدة إلى صنعاء مسقط رأسه ، طامعاً في أن ينعم بحمى أميرها بالجاه العريض والقدر الرفيع . وكان أن تأتى له ذلك إلى حين ومن الجائز أن اتصاله الوثيق بأبي نصر محمد بن عبد الله اليهري قد تم بصنعاء في هذه الفترة . وهو

العالم الذي وصفه الهمداني بقوله : شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكنون علمها ، وقاريء مسندها والمحيط بلغاتها . . ويشهر بصنعاء واليمن بأبي نصر الحنبصي . . قال الهمداني : وما زال لنا معولاً في المشكلات وربما وردت منه بحراً لا تُكَدِّرُهُ الدلاء ولا تلوب دونه الظماء فأغناني نهله دون علله ، وأوسعني كفاية البعض دون كمله . وكان بحاثة قد لقي رجالاً ، وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، ويذكر الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل أن أبا نصر هذا كان على قرابة تسعين من عمره ، وذلك لدى تأليف ذلك الجزء من الإكليل في مطلع العقد الرابع من القرن الرابع الهجري .

ويستدل من بعض الاشارات على أن الهمداني ربما كان هو مؤلف (شرح الدامغة) وأنه كتب ذلك بصنعاء بدءا من عام ٣١٦ هـ . وكان الإمام الناصر قد توعد الهمداني ان عاد إلى ما اتهم به سلفاً (اي تفضيل عرب الجنوب على عرب الشمال) . ولكن الهمداني لم يأبه إلى ذلك فانطلق يكتب الأشعار ويجمع مفاخر قحطان وألف (شرح الدامغة) في صنعاء وظن أنه في حمى آل يُعْفِرَ الحميريين ، وأنهم لا ريب مانعوه . ولما بلغ الناصر أن الهمداني لم يكف وقيل أنه تنقصه أيضاً في بعض أشعاره، كتب إلى أسعد ابن أبي يعفر يعرفه بما بلغه من ثلب الهمداني . وكان بين الناصر وأسعد مودة شديدة ووفاق عريض ، فورد كتاب أسعد إلى أبي الفتوح الخطاب إبن أخيه أمير صنعاء ، يأمره فيه أن يأمر بحبس الهمداني وتحديده فحدد وضمن الحبس .

وخاب أمل الهمداني في أسعد الحميري ، وساءه ما صنعه به وهو الذي كان ينتظر مؤازرته ، ولم يلق الهمداني بالاً إلى موقف الوفاق السياسي بين الحاكمين . فكتب إلى الأمير أسعد معاتباً (قصيدة الجار) التي مطلعها :

خليلي إني مخبر فتخبرا ... بذلة كهلان وحيرة حميرا
عذيري من قحطان إني مشتك ... عواريكما ظلما وخذلا فأنكرا

ثم يشير الى سوء تدبيره حيث أقام في حمى أسعد بصنعاء هرباً مما لقاه في

صعدة فيقول :

ويسقط ضعفي ذاك عن حي حمير وسيدها المنظور فيها ابن يعفرا
انخت به خوف العداة وغدرهم فألفيته فيهم على الأمن أغدرا
فملكهم مني مناط قلادتي وأسلمني فيهم بأذني وأدبرا

وبعد ذلك يشير إلى استغلال الأمير أسعد لحادثة سجن الهمداني حفاظاً على مودة الناصر واصلاحاً لما قدفسد بينهما فيقول :

واصلح بي ما كان من قبل بينه وبين قريش الأكرمين تغيرا
وقد ذل من جارى بذمة جاره وأسلمه مما يخاف فأخفرا

وفي ختام القصيدة يشير إلى خطأه ونزوله في حمى آل يعفر الحميريين في صنعاء بدلاً من بقائه في صعدة واحتمائه بخولان القبيلة التي منعته وحمته لدى سجنه الأول ، وهم قادرون على ذلك رغم وعيد الإمام الناصر :

ولو ضربت ما بين خولان قبتي لآمن سرحي ان تندى وإن عرا
وعاين شخصي ممسك النجم كل من تربع من ذي غيلة وتمضرا
ولكنني أصبحت في دار غربة أجاور من بين البرية حميرا

وقد اختلط الامر على الرواة في أمر سجن الهمداني حيث مزجوا بين سجنه لمدة قصيرة في صعدة على يد الناصر ، وبين سجنه الطويل في صنعاء على يد آل يعفر ، أي بين سجنه عام ٣١٥ هـ وسجنه عام ٣١٩ هـ .

وفي المقالة العاشرة تفصيل دقيق لوقائع سجنه الثاني يستهله بقوله :

« نريد أن نثبت قضية في السجون معروفة مشهورة . رجل غضب عليه الملوك في المدينة التي عرضها ١٤ درجة ونصف من الاقليم الأول يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ٣١٩ هـ » . والملوك المعنيون هم الإمام الناصر والأمير أسعد وربما أيضاً أبو الفتوح الخطاب والي صنعاء . وفي الجزء الأول من الاكليل يذكر الهمداني أنه سجن بيد أسعد وان آل بني فطيمة من خولان طالبوا فيه الناصر

فاعلمهم أنه لم يسجنه وان أسعد سجنه في جرم أجرمه . ولما ذهبوا الى الأمير أسعد اعتذر لهم وقال انما كتب إليّ فيه الناصر أن أسجنه له فهو في سجنه عندي .

وكان السجن لدى الهمداني نكبة ثقيلة وأليمة . أتت عليه بالضيق والضنك ووقع له اليأس ، خاصة وان « الملوك » تأكدوا من تعميره في السجن ، وأجريت على ذلك الايمان . ولكنه رغم ذلك ظل يكتب الأشعار معاتباً ومستنجداً وبجانب قصيدة الجار التي عاتب فيها أسعد كتب قصائد يستنجد فيها كبار رجال القبائل وخاصة من آل بني فطيمة ومنهم زيد بن أبي العباس الذي كتب اليه الهمداني يقول :

يا زيد زيد الخير يا ابن محمد ما كنت لاسمك إذا عرفت بناسي
بل كنتَ أول من هتفت به إلى إحياء نفسي ساعة الإبلاس
فابدر إلى نقذ الغريق فانه إلا تخب يعوم عوم الناسي

وقد بادر إلى نجدته بعض رجال القبائل فطالبوا به بالحسنى والشدة. قال الهمداني في المقالة العاشرة « كثر بهذا الحبيس الطلبة من الاشراف وذوي النجدة الذين يأخذون في الطلب من جهة المغالبة والمكابرة والغضب . . » .

وبدأت الجهود المبذولة لإخراجه من السجن تؤتي أكلها ، فكان ان سمح له في إتيان مسكن يتسع فيه . وفسح له في زيارة الاخوان وقضاء الحوائج وذلك بعد مضي سبعة أشهر وأربعة عشر يوماً . . وبعدها أبدل بالقيود الثقال قيداً خفيفاً . . وانهدم جانب من حائط السجن الذي هو فيه فحول إلى سجن القاضي وأصحاب الديون وذلك بعد تسعة أشهر وأربعة أيام ونصف . . ثم أطلق من القيد الخفيف بعد أربعة وعشرين يوماً . . ونقل من السجن العظيم الى ما هو في عداد المنزل . . ثم تبدلت به الحال الرضية إلى حال ضيق فنقل من بلد الى بلد وطيف به مصفداً إلى موضع غربة فلقي من ذلك الأمرين . . وكان ذلك بعد ستة عشر شهراً وأربعة عشر يوماً من مدخله السجن . ثم أدخل عليه بعض الراحة بعد سبعة عشر شهراً وثمانية عشر يوماً . . واحترك في

الطلب فيه العظماء من الناس فنفذت فيه الشفاعة وأذن بإطلاقه وأخرج.ثم رد إلى السجن ثانية فلم يبق فيه يوماً ثم أطلق فحير ، ثم أطلق من الموضع وبعث به مغرباً مع حفظة أينما وصلوا من قرية سجنوه . فأقام على ذلك ثمانية أيام ثم فلت من النهج الذي قصد له به ، وملك نفسه وذلك بعد ستمائة و ٢٢ يوماً تكون شهوراً تامة ٢١ شهراً و ١٩ يوماً . . ثم كان وقوع الهمداني في مأمنه وخلوده للراحة بعد فلتة شهرين ويومين .

وبذلك يكون قد أذن بإطلاق الهمداني من السجن في ٢٧ شعبان من سنة ٣٢١ هـ.ولكنه لم يبلغ مأمنه بعد إفلاته من حفظته في الطريق ثم اختبائه إلا في حوالي ١٧ ذي القعدة من عام ٣٢١ هـ.وكان مأمنه على الأرجح ريدة من بلاد قاع البون ، وهي شمال صنعاء وعلى الطريق الى خمر وصعدة . وبها قضى الهمداني بقية عمره . .

وقد يكون أهم سبب دعاه للبقاء فيها هو وجود سند عائلي وقبلي . فقد كان سكان ريدة من اللعويين ومنهم آل القاسم العثاريون أصهار آل جد الهمداني الأول يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان الذي نعتهم الهمداني برهطه.ورهط الهمداني من بكيل وينتمون وفق سلاسل النسب عنده الى همدان وكانت ريدة في قاع البون آنذاك هي بلاد همدان.ويذكر الهمداني ريدة في كتابه صفة جزيرة العرب ويقول : إنها من قرى همدان في نجدها وبها البئر المعطلة والقصر المشيد وهو (تلفم) وربما كان الأصح كما هو في النقوش تلقم . وكان بها علي بن المفضل وجه اللعويين في عصره وكليمهم المنظور اليه منهم وله شرف وسؤدد وتقدمة عند « الملوك » . كما كان بها سيد همدان آنذاك ابو جعفر أحمد بن الضحاك الذي مدحه الهمداني وقيد أيامه وكان منه خل وصاحب . وابن الضحاك الذي تعمر طويلاً عرف بكثرة الوقائع والأيام بين حزبه وبين الإمام الهادي يحيى بن الحسين واولاده من بعده .

ومن أسباب استقرار الهمداني في ريدة وقوعها على مقربة من كثير من مواقع الآثار اليمنية القديمة التي عني الهمداني بزيارتها واستقراء مساندها.ويتكرر في

مؤلفاته ذكر قراءته لمساند ناعط وتلقم وريدة وعمران . كما أن الهمداني قد ذكر بأنه نقل كثيراً من أخبار البونيين عن زبور قديم بخط أحمد بن موسى عالم أهل البون. والأرجح أنه اتخذ أيضاً من ريدة منطلقاً لتنقلاته العديدة في أنحاء اليمن وفيها اشتغل بالتأليف الغزير ففيها كتب (الإكليل) بأجزائه العشرة ليكون موسوعة الحضارة اليمنية القديمة. وقد أشار بضع مرات الى فترة اشتغاله بتأليفه فذكر عام ٣٣٠ أو نحوه كما أنه يذكر عام ٣٣١ هـ في المقالة العاشرة من كتاب سرائر الحكمة. وتفيد الإحالات في كتاب صفة جزيرة العرب الى الإكليل أنه ألف بعد كتاب الإكليل ؛ أما الكتب الاخرى مثل اليعسوب والأيام والقوى والزيج فيستدل من الاحالات أيضاً أنها ألفت قبل عام ٣٣٠ .

ورغم أن بعض كتب الهمداني قد رويت عنه مختصرة أو منقحة مما قد يبعث الريبة في بعض الحالات، الا انه من الثابت ان اقامته في ريدة كانت أغنى فترات التأليف عنده بعد أن شغل قبل ذلك في مكة وصنعاء بالجمع والتحصيل . وتوفي الهمداني في ريدة وبها قبره وبقية أهله. وقبره اليوم مجهول وتاريخ وفاته غير ثابت وفيه خلاف . قال صاعد أنه توفي عام ٣٣٤ وفي رواية الخزرجي أنه تعمر ستاً وخمسين سنة أي أنه مات عام ٣٣٦ هـ . . ويرى الأكوع أنه عاش إلى ما بعد ذلك بدليل انه قال شعراً في تشييع جثمان الأمير أسعد إلى قبره في شاهرة بعد أن نقل من كحلان إلى ذمار فصنعاء عام ٣٣٧ هـ. وكان أسعد قد مات قبل ذلك بخمس سنوات أي عام ٣٣٢ هـ ولا ندري مدى صحة نسبة الأبيات المذكورة الى أسعد .

كما أنه قد يفهم من النص أن الأبيات قيلت عند موته وليس عند نقل جثمانه بعد ذلك بسنوات . كما يرى الأكوع أنه مات بعد الحوادث عامي (٣٤٤ ـ ٣٤٥) بين ابن الضحاك والامام القاسم المختار. ودليل ذلك ان الهمداني قال شعراً في تلك الحوادث وقيد فيها أيام الضحاك. والأرجح ان الهمداني قال شعراً في تلك الحوادث التي دامت تسع سنوات ووقعت بين ابن الضحاك والقاسم بعد وفاة الناصر أي منذ ٣٢٢ حتى ٣٣٠ أما حوادث ٣٣٤ و

٣٤٥ فمجملها : وصول القاسم إلى ريدة حيث خرج إليه ابن الضحاك من صنعاء واستمد منه التولية على صنعاء فولاه وفي سنة ٣٤٥ حبس ابن الضحاك المختار في ريدة ثم قتله . .

اما النص الذي ورد في الجزء الثاني من الإكليل ويذكر فيه قول أبي محمد عبد الله بن سليمان الحكيمي : رويت عن محمد هذا سنة ست وخمسين وثلثمائة وهو من عمره في ثمانين وكتبت عنه وقتل في سنة ٣٦٠ مما قد يفهم أن الهمداني عاش إلى ما بعد ٣٦٠ أي أنه تعمر ثمانين عاماً فلا ندري ما إذا كان ذلك من زيادة النساخ ورواة الاكليل إذ ان المرء لا يكاد يسمع خبراً عن الهمداني وهو العلامة المشهور بعد العقد الرابع من القرن الرابع .

وبعد فاننا نرى أن الهمداني عاش الى ما بعد ٣٣٤ بسنوات وربما بعد ٣٣٦ أيضاً ولكن ليس هناك دليل قاطع بذلك .

وهذه محاولة سريعة لإعادة صياغة ترجمة الهمداني دون التعرض لمؤلفاته وتقييم مسار حياته ورغم ذلك فاننا نزعم أنها قد تفتح آفاقاً رحبة لدراسة سيرة الهمداني وتعين على حسن تقييم اعماله .

الآثار والتنمية في اليمن

أهمية الآثار : ـ

انه مما يستفاد من تجارب الشعوب التي اتجهت الى وضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية لتكفل بلوغ ما تبتغيه من رفع المستوى المعيشي للانسان وتحريره من عوامل التخلف هو تضمينها تلك الخطط مشاريع تعنى بتراثها الوطني . وانه من اهم جوانب التراث الوطني هو جانب الآثار . وذلك لأن الآثار هي التعبير المادي المستمر عن الشخصية الوطنية للشعوب ، والمحافظة عليها هو المحافظة على اصالة تلك الشخصية وابراز للصلة الحية مع الماضي بشكل يمنح الشعور بقوة الاستمرار نحو صياغة الحاضر في سبيل مستقبل افضل.

وتكتسب الآثار قيمتها الكبرى عندما تكون نتاج حضارة عريقة اسهمت بنصيب وافر في بناء الحضارة الانسانية ، اذ تصبح حينئذ تراثا انسانيا ينبغي على كل شعوب العالم المشاركة في العناية به والمحافظة عليه .

الآثار اليمنية : ـ

والآثار اليمنية القديمة هي بقايا فترة حضارة مزدهرة من تاريخ الشعب

اليمني القديم تنيف على ألف عام ، قبل الميلاد ونصف ذلك بعده ، وتتجلى في تلك المواقع الأثرية التي تنتشر في معظم الأرض اليمنية، وفي تلك اللقى الأثرية الكثيرة التي عثر عليها بطريقة غير علمية ودون اية تنقيب إما بمحض الصدفة أو من خلال حفر السرقة . وتكاد تلك العاديات ان تشمل كل ما انجزه الانسان من أعمال وما خلفه من بقاياه . ومن اهمها القصور والسدود والمدرجات والطرق وقنوات الري والمعابد والنقوش والحلي والتماثيل والأسلحة وغيرها . وتقع أهم المواقع الأثرية في السهول والوديان الشرقية من الجوف ومارب وبيحان ومرخة وشبوة . ثم في اطراف القيعان الجبلية من المرتفعات الوسطى مثل أرحب وقاع البون والحدا وظفار ورداع والبيضاء وغيرها . وفي الوديان المشهورة مثل وادي بنا ووادي حضرموت ووادي نجران .

وفي العهود الاسلامية خلف الشعب اليمني منجزات حضارية تميزت بمحافظتها على استمرار اصالة الحضارة اليمنية القديمة ضمن التراث الاسلامي فبرزت على شكل مخطوطات كثيرة في شتى المعارف او على شكل عمارة بارعة وزخرفة بديعة للمساجد، ثم تلك المدن اليمنية التي احتفظت بطابعها الأصيل حتى لتبدو اليوم وكأنها متاحف اسلامية فريدة.ومن أهمها مدينة صنعاء القديمة ومدينة شبام حضرموت ثم صعدة وجبلة وظفار ذيبين ومساجد الجند والعامرية والأشرفية وغيرها.

على ان ذلك قد تم ايضا في اطار عربي وانساني تمثل في الاشعاع الحضاري الذي بثه اليمنيون ابان الفتوحات الاسلامية في مراكز كالكوفة والبصرة والفسطاط او في الأندلس . وبعد ذلك برز في الروابط التجارية والدينية مع الحبشة وشرق افريقيا وجنوب شرق اسيا .

واذا ما صح الافتراض ان ارض اليمن من اقدم المواطن التي سكنها الانسان وذلك لتوفر الشروط الطبيعية للحياة فيها فان آثار ما قبل التاريخ والتي قد لا تبدو ظاهرة للعيان لأول وهلة ربما كانت من اخصب آثار الانسان القديم

وقد يساهم اكتشافها بعلم وجدية في توضيح صورة معيشة الانسان في عصور ما قبل التاريخ :

الآثار اليمنية وبرامج التنمية : -

ان تنفيذ كثر من مشاريع التنمية في بلاد غنية بآثارها كاليمن يضع الآثار في أحرج فترات تاريخها ويهددها بالخراب . ويمكن التدليل على ذلك بوضوح في تنفيذ مشاريع التعمير وشق الطرق . فالمدينة تنمو بحكم هجرة السكان من الريف وتوسع نشاطاتها ، وابنيتها القديمة قد لا تفي بحاجة سكانها الذين يميلون الى متطلبات الحضارة الحديثة، فيلجأ هؤلاء السكان الى تقليد الأنماط الأجنبية الحديثة في التعمير ويهدمون الأبنية القديمة الجميلة بدلا من ترميمها وصيانتها بحذق ومهارة دون ان يلاحظوا الملامح القبيحة التي تدخلها هذه العبارة الجديدة الغربية على مدينتهم . أضف الى ذلك ان مواد البناء الحديثة المستخدمة كثيرا ما تكون اغلى ثمنا وغير ملائمة لطبيعة المناخ ومدينة صنعاء خير مثال على ذلك . فصنعاء نموذج معماري فريد لم يزل في حالته البكر وربما تعسر ان يوجد في مكان آخر مثل تلك الدرجة العالية من الكمال المعماري . ويمكن القول انها متحف اسلامي رائع بل وتراث ثقافي عالمي كالقدس وفاس والبندقية وفلورنسا . ولكنها اذا ما خضعت للمشاريع العمرانية وللنماء الاقتصادي الذي يشجع على المضاربة العقارية وتسخير الذوق والتراث لحركة السوق فان هذا الأثر الرائع سيواجه التشويه والتدمير . اما اذا اعطيت هذه المدينة اعتبارها في مشاريع التعمير النمائية فانه من الممكن الاحتفاظ بكامل هذه المدينة بعد ترميمها وصيانتها والعناية بسورها وازقتها . وهو امر يحتاج الى مهارة وخبرة .

وفي حالة شق الطرق تتعرض الآثار القديمة لتخريب كبير . خاصة وأن اليمن يستمر في هذا المجال بكثافة . وطبعا يخضع شق الطرق لخطط هندسية معينة قد لا تضع في اعتبارها المناطق الأثرية ولا سيما في حال انعدام المسح الأثري وربما كان بعضها من اثمن المواقع الأثرية . ومثال ذلك شق طريق صنعاء مارب . اذ أن هذا الطريق يمر عبر العشرات من المواقع الأثرية المهمة .

وكثير منها لم تحدد هويتها الأثرية بعد . وفعلا اخترق هذا الطريق على بعد عشرين كيلو مترا شمال شرقي صنعاء اطلال مدينة شبام الغراس الأثرية من الجنوب الى الشمال وطمس بذلك جزءاً كبيرا من معالم المدينة واتلف كثيرا من اثارها وجرفت الآلات الضخمة العديد من اللقى الأثرية . ولم تتحول الطريق عن المدينة الا بعد فوات الأوان . والعجيب ان تلك المدينة من ضمن المشهور من محافد اليمن وذكرتها كتب التاريخ اليمنية والشواهد النقشية . ويزداد الأمر غرابة اذا ما عرف المرء أن أهم هدف لشق الطريق كان لتسهيل الرحلات السياحية لزيارة الآثار في المناطق الشرقية من اليمن وخاصة مارب والجوف .

حال الآثار اليمنية اليوم : -

قبل اكثر من الف عام كتب مؤرخ اليمن الهمداني في الجزء الثامن من كتابه المشهور الأكليل يصف بعض اثار سد مأرب ما يلي : ورأيت بناء احد الصدفين باقيا ، وهو الذي يخرج منه الماء، قائما بحاله على اوثق ما كان ولا يتغير الى ان يشاء الله . . ورأى كاتب هذه السطور البناء نفسه منذ فترة قريبة ، فوجده قائما بحالـه على أوثق ما كان . . . ولكن من الصعب الادعاء اليوم ان آثار مأرب لم تتغير . فمنذ وقت قريب شهد بعض من زار منطقة مأرب ان بعض الناس ينقلون حجارة بعض الأبنية الأثرية هناك ليقيموا بها بيوتا جديدة ، كما شهد خبير اثري زار مدينة صرواح الأثرية المجاورة انه رأى سيارة شاحنة وهي تحمل الكثير من انقاض جدار معبد صرواح الكبير . وقد رأى كاتب هذه السطور كيف نقلت احجار معبد الشمس في سوق الليل من حوران وبنى بها بعض دور القرية المجاورة وذلك خلال بضعة اشهر . من الصعب الادعاء ان الآثار اليمنية بوجه عام ستصمد في الأيام القليلة المقبلة قدر ما صمدت مئات السنين الماضية . هناك تقارير تصل باستمرار ممن يزور المناطق الأثرية وكلها تؤكد ان الآثار اليمنية القديمة والاسلامية منها تخرب ويعبث بها ويتم ذلك بكثافة عجيبة وسرعة غريبة . تلك الآثار التي صمدت المئات من السنين امام عدوان الناس وعدوان الزمن والعوامل الطبيعية والحروب والسيول والبراكين

تدمر اليوم وتشوه في وقت لم يكتب تاريخ هذا البلد بعد ولم تتوفر نماذج كافية محفوظة من آثاره . في حين من الدهر تنال الآثار فيه اهتماما بالغا لدى مؤسسات العالم الثقافية ورغبة متزايدة من السواح . وفي مرحلة من تاريخ اليمن المعاصر هو في امس الحاجة الى ترسيخ الأصول وتأكيد الذات .

وينطبق القول السالف على المساجد القديمة في اليمن والتي تبرز دور اليمن في الفن الاسلامي والعمارة بوضوح . فقد اقتضت رغبة الناس في توسيع المساجد وترميمها طمس الكثير من الزخارف المعمولة بالألوان المائية على السقوف وبواطن القبب وتغطية الكتابات المحفورة بالطلاء والدهان على الجدران مما افقد هذه المساجد كثيراً من ملامحها التاريخية . والأمثلة المتوفرة كثيرة عن التخريب والتشويه الذي يلحق بالآثار اليمنية اليوم . وربما كان مرد ذلك كله الى الزحف العمراني وغيره من مشاريع النهضة الجديدة في شتى مجالات الحياة والتي لم تعط الاعتبار الكافي للآثار .

ان دعم التراث عامل اساسي من عوامل التنمية الوطنية . اذ أن اليمن اليوم ينبغي أن يعي انه بجانب معركة البناء والتعمير والتنمية في سبيل حياة افضل ورفع المستوى المعيشي للشعب لا بد من معركة ثقافية اخرى تسير جنبا الى جنب الأولى في سبيل المحافظة على التراث وبناء الجديد على القديم .

العناية بالآثار اليمنية : -

من اجل انقاذ الآثار اليمنية في هذه الفترة الحرجة من تأريخها لا بد من ربط موضوع الآثار بالتنمية بطريقة مكثفة وذلك لأن الأخطار المحدقة بالآثار اليوم كثيرة وشرسة . واذا لم تعط الآثار في السنوات القليلة القادمة عناية خاصة ربما كان من العسير عمل شيء مفيد للآثار بعد خراب أكثره . لذا فان النقاط التالية هي ايجاز لما ينبغي عمله على الأقل في السنوات الخمس القادمة : -

أولاً : البدء بالمسح الأثري الشامل وذلك بوضع مخطط يهدف الى حصر وتسجيل كافة الآثار اليمنية المنقولة وغير المنقولة مع التركيز على أهم المناطق الأثرية ومسحها مسحا شاملاً . ويمكن الاستعانة هنا بالبعثات العربية والأجنبية

على ان يتم ذلك وفق قانون الآثار اليمنية والعربية .

ثانياً : اعداد العناصر البشرية الأثرية اليمنية وتدريبها وذلك يقتضي تشجيع صلة المهتمين من طلبة جامعة صنعاء على دراسة وذلك عن طريق تقديم منح لهم في الجامعة ثم اعدادهم لمواصلة دراستهم في معاهد متخصصة في الخارج ضمن تخصصات معينة .

ثالثاً : حماية الآثار : ويمكن في هذا المجال عمل ما يلي : ـ

اعلان بعض المناطق الأثرية مناطق محمية وكل ما فيها من آثار ممتلكات وطنية . وهي المناطق التي تتركز فيها الآثار مثل مارب والجوف وظفار وتنشأ فيها حراسة مشددة دائمة .

اعلان مدينة صنعاء القديمة معلما اثريا اسلاميا وكل ما فيها من عمران وتغيير يخضع لمجلس دائم خاص بحماية المدينة .

ينبغي أن تخضع تصاميم شق الطرق لموافقة مسؤولي الآثار .

تطبيق مادة رقم (٤٤) من قانون الآثار اليمنية بشدة والخاص بموظفي الجمارك وسلطات الامن ومصادرة الآثار المسروقة وذلك في كل نقاط الحدود البرية والبحرية والجوية .

رصد مالية خاصة لشراء ما يقتنيه المواطنون او لتصويره من لقى اثرية كالنقوش والمخطوطات والتماثيل .

رابعاً : صيانة الآثار : ـ

انشاء متحف جديد يتفق وصفات المتحف الحديث الذي تتوفر فيه الأقسام اللازمة والمعدة . كقسم الخزن وقسم العرض وقسم الصيانة .

استجلاب خبراء بشؤون صيانة القطع الأثرية والمخطوطات ضمن خطة موضوعة تكفل تكامل عمل الخبراء واستمراره.

خامساً: نشر الوعي الأثاري: وفي هذا المنحنى يمكن عمل الكثير وقد يركز على ما يلي: -

اقامة جسور وطيدة بين المواطنين والمتاحف عن طريق اقامة المعارض والندوات والأفلام.

كان الأولى أن يكون هناك اعداد علمي واعلامي مركز لمؤتمر الآثار العربية الذي سيعقد في سبتمبر القادم في صنعاء، وذلك عن طريق نشاط الأجهزة المسؤ ولة عن ذلك.

اسهام المدرسة في كل انحاء اليمن في نشر الوعي الآثاري عن طريق عناية كتب التاريخ بالآثار، والاكثار من الرحلات المدرسية الى المواقع الأثرية القريبة وعناية المدرس بتنمية الصلة الحميمة بين الآثار والتلاميذ.

ان المحافظة على التراث وخاصة الآثار ينبغي ان ينال مكانة كبيرة في اولويات الانماء الاقتصادي في المرحلة الحالية. وذلك لأن حدة تخريب الآثار وتشويهها تعود الى حدة الانتعاش والتوسع في مجالات التعمير وشق الطرق وغيرها من مشاريع التنمية. فكان لا بد من عناية خاصة تستجيب للخطر المحدث بالآثار في فترة حرجة من تاريخها كهذه حتى ولو اقتصر الأمر في البداية على توفير الحماية والشروع في المسح الأثاري. ان قضية الأولويات في طريق التنمية مهما دار الجدل حولها لن تجعل الآثار على كل حال في آخر القائمة.

---

* كان ذلك عام ١٩٧٩.

الهمداني.. وكتابه
صفة جزيرة العرب(*)

مقدمة[1]

ولد ابو محمد الحسن[2] الهمداني في صنعاء وتاريخ مولده الصحيح غير معروف ، وفي حوالي ٩٤٢ - ٩٤٣م ، لاقى متاعب سياسية ودخل بسببها السجن وقضى فيه عدة سنوات ثم مات فيه كما يظن عام ٩٤٥م ويعتبر الهمداني عالما فذا واسع المدارك استنادا الى اعماله العلمية التي لم تصلنا كاملة ، ثم بشهادة معاصرية ومن تبعهم من العلماء .

ومن كتبه المعروفة غير كتاب « صفة جزيرة العرب » الذي نحن بصدده في هذا المقال ، مؤلفه الموسوعي كتاب « الإكليل » الذي يتألف من عشرة مجلدات تتناول التاريخ والانتساب في جنوب جزيرة العرب ويعرض فيه لعلم الفلك وعلم التنجيم والفلسفة وغيرها من علوم الأوائل .

(*) نقل من الألمانية الى العربية لفصل من رسالة دكتوراه صدرت عام ١٩٧٦ بعنوان «تقويم البلدان والجغرافيا في محيط الحضارة الاسلامية خلال القرن العاشر الميلادي » تاليف ارنهيلد شولتن - صدر ضمن منشورات معهد الجغرافيا بجامعة بوخوم في المانيا الاتحادية

(١) حذفت هوامش المؤلفة تجنبا للصعوبات الفنية لدى الطبع ، واثبت هنا بعض ملحوظاتي :

(٢) راجع كتاب الصفة بتحقيق الأكوع تقديم حمد الجاسر.

كما أشتهر الهمداني في علوم اللغة والنحو . . وتدل الأجزاء القليلة المتوفرة من كتابه الأكليل على إحاطة الهمداني بكل مناحي المعارف الاسلامية في عصره مع تعمق واضح في تلك التي تعنى بأمور بلده اليمن .

لم يكن الهمداني يهدف بالدرجة الأولى في تأليفه الى تحقيق رغبة في نفسه كإبراز دور بلده كما يبدو لأول وهلة من الاطار العام لأعماله وانما كان رائده العلم بالدرجة الأولى وكتابه ـ صفة جزيرة العرب ـ مثال على إهتمامات الهمداني الواسعة التي تتخطى حدود الجغرافية الاقليمية الى مشاهدات جمعها في رحلاته أو معلومات غريبة متنوعة ينثرها بين دفتي كتابه .

تأليفه كتاب صفة جزيرة العرب .

يتألف كتاب صفة جزيرة العرب من ثلاثة أقسام : الأول يعنى بأمور رياضية وجغرافية والثاني يقدم بالدرجة الأولى عرضا جغرافياً دقيقاً لليمن ، والثالث يروي قصيدة تصف مسالك جنوب الجزيرةالعربية. ولا يظهر مدى ترابط الأقسام السالفة الذكر الا بعد مراعاة واقع الموروث الجغرافي الأدبي لجزيرة العرب وادراكه ، اذ نشأ هنالك قبل الاسلام شعر تغنى بمواطن الشعراء وجمالها وفيه وصف للديار والوديان والجبال حيث اقامت القبائل واستقرت ، وظل ذلك الشعر الجاهلي متواتر الرواية حتى زمن الهمداني[1].

وعنى الناس خاصة بما يرويه التراث من اماكن شهيرة خلدت ذكرها الأشعار كالوديان والجبال والوديان والجبال والصحارى والقصور وما يتعلق بها من ذكر القبائل وهجراتها من مواطنها الأولى[2] وهكذا كان الشعر ناقلا للمعلومات الجغرافية ، يحتج به الأدباء والعلماء وخاصة الجغرافيون . كما شغل به علماء اللغة والنحو في الفترات اللاحقة ، واهتموا بتحديد مواقع البلدان

---

(١) راجع مقالا بهذا الخصوص في مجلة العرب العدد الخاص بالندوة العالمية لدراسة مصادر تاريخ الجزيرة ١٩٧٧ .

(٢) اهمل نقل جملة صغيرة .

وخاصة ضبط اسمائها ، وقد رفدهم الشعر بالكثير في هذا المجال . ورغم ان الشعر نقل تلك الأسماء ناقصة وبعضها مشوها الا ان مجرد ذكرها قد أسعف على انقاذها من النسيان . . ويمكن القول ان علماء اللغة في القرون الوسطى الاسلامية كانوا قد اتخذوا ما وصلهم من الشعر الجاهلي والاسلامي مادة خصبة لمعارفهم واعتبروها مصدرا مهما وحجة وافية .

وهكذا يجوز القول إن اساس علم الجغرافيا كانت الاهتمامات اللغوية في جزيرة العرب، بل ان اقدم ما وصلنا من المعلومات الجغرافية مستقاة من محابر الشعراء والنحاة واللغويين وليست من كتب علماء الجغرافيا، والهمداني لا يشد عن هذه القاعدة فهو نحوي تناول جغرافية جزيرة العرب ضمن ما اشتغل به من تراثها اللغوي وليس انطلاقا من ميول جغرافية محددة كما سيتبين فيما بعد في هذا البحث . وفي ضوء هذا التصور يفهم ضم الهمداني لأرجوزة الرداعي[1] الى كتابه لتكون القسم الثالث منه ـ تتألف تلك الأرجوزة من ١١٧ بيتا تصف واحداً من طرق الحجيج القديمة . او ان يورد الهمداني ـ اضافة الى معلوماته الشخصية ـ معلومات جغرافية مستقاة من مصادر شعرية دون ان يناقش صحتها. فالشعر لديه مصدر قيم لا يستغنى عنه تماما كمعلوماته التي يجمعها بنفسه أو ينقلها عن غيره ، وتلك دالة واضحة على تعلقه بتراث وطنه الأدبي والعلمي ضمن تصور يؤكد استمراره وينفي انقطاعه[2].

وعلى النهج نفسه يسير الهمداني في القسم الخاص بالجغرافيا حيث يستند الى الموروث الأدبي الذي يملي عليه ما يكتب . وتنال اليمن فيه النصيب الأوفر حيث يسهب في وصفها ويتناولها من البحر الى البحر وحتى رأس الحد شمالا ، اما وسط الجزيرة وشمالها فلم يحظيا بالقدر نفسه من العناية وهو امر يسوغه انتماء المؤلف الى ذلك البلد ونشوءه ضمن موروثه. واذا ما قورنت دراسة الهمداني هذه

---

(١) أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعي .

(٢) قديما قيل الشعر ديوان العرب أي سجل وقائعهم ومواطنهم وانسابهم .

بغيرها من الدراسات التي تعنى بالجغرافيا وتقاسيم البلدان فسيلاحظ انها تتميز بالتركيز على حيز دراسي ضيق اذ ليست الدولة الاسلامية المترامية الأطراف هي مجال دراسته ولا جزيرة العرب كلها هي محط عنايته ولكن موطنه اليمن الذي يعرفه عن كثب معرفة جيدة هو ميدان دراسته الأول ومحل قصر كبير اهتمامه وسبب ذلك ايضا الموروث الشعري ، إذ أن الشعر نفسه كان أول ما نشأ في الأقسام الجنوبية للجزيرة العربية[١] ورغم العلاقات التجارية الواسعة فان تلك المناطق ظلت معزولة عن احداث العالم الكبرى. . فقد كان البحر يمثل فاصلا طبيعياً في جهات الغرب والجنوب والشرق. وكانت الصحراء حاجزة من جهة الشمال. واجتياز هذين الحاجزين يقتضي عبور مسالك وعرة بين ساحل تهامة شبه الصحراوي والمرتفعات الخصبة حيث الكثافة السكانية مما يعوق تناقل الناس لأخبارها بخلاف المناطق الساحلية التي تربط مدنها بالطرق البحرية فيكثر حديث الرواة عنها ، وخير دليل على تلك العزلة هو اقتصار الشعر على وصف امكنة محددة كموطن الشاعر أو ذكر العلاقات السائدة المجاورة [٢].

وهكذا فان تقديم الهمداني لليمن في كتابه على غيره يعتبر مؤشراً بارزا على شدة تعلقه بتراث بلده الأدبي . . وذلك بحكم نشأته وبسبب توجهه نحو اللغة والنحو ، وهو نهج علمي اعتمد عبر القرون على شعر متوارث تحده شروط المكان وتغلب عليه سماته .

ان الهمداني في اهتمامه باليمن ينطلق من عنايته بالموروث الأدبي الذي توفر له وحدد مسار تأليفه وليس من تعصب وطني أو نزعة اقليمية كما قد يتبادر

---

(١) ربما كان القصد نجد والحجاز وما جاورهما جنوبا اذ لم يدون من اليمن شعر بالعربية الفصحى يعود زمنه الى بدايات الشعر العربي الجاهلي . وما وصلنا من شعر اليمن يبدابعهود الاسلام أو منحول يدعى قدمه .

(٢) لا ينطبق هذا القول على كل فترات التاريخ اليمني قبل الهمداني اذ أن الطرق عبر الهضبة اليمنية والمناطق الشرقية يسرت كثيرا من اتصال اليمن بالعالم حوله ، ومرة اخرى ربما كان القصد هو جنوب الجزيرة بوجه عام والذي يبدأ تحديده بانتهاء شمال الجزيرة .

الى الذهن لأول وهلة .

ولم تكن الأرجوزة وحدها هي التي وسمت منطلق الهمداني الأدبي كتراث أدبي سهل المنال بين جملة الموروث الشعري . . وانما حصره ايضاللموضوع ضمن مجال مكاني صغير نسبيا إن طريقة عرض الهمداني للقسم الخاص بالأرجوزة من كتابه والقسم الخاص بصفة الجزيرة يثبت حتمية انطلاقه من الموروث الأدبي للجزيرة العربية[١] .

أما القسم الأول من الكتاب فينبغي ان ينظر اليه ضمن سياق مختلف ، فهو يتألف من ستة فصول ذات طابع رياضي وجغرافي يناقش فيها الهمداني كتاب المجستي لبطليموس ويحاول ان يضع فيه تقسيما لجزيرة العرب وفق ما قرره بطليموس في تقدير درجات المعمورة ومناخها . . وقد يخطئه في اقواله التي تعرض لموقع المعمورة واقسامها او يوضح الاختلاف في مناطق المناخ المتعددة. على انه لم يقصر حديثه على مناخ جزيرة العرب وحدها وانما تعرض للمناخ في نطاق واسع .

وقد اتسمت محاولته تلك بالوضوح وخاصة تصنيفه لأقاليم جزيرة العرب وفق التقسيم الرياضي الجغرافي . ويعتبر ترتيبه ذلك فريدا بين كتابات الجغرافيين الوصفيين التي عرفت في القرن العاشر الميلادي[٢] .

اذ كان سلف الهمداني ومعاصروه من علماء الجغرافيا كأبي دلف وابن

---

(١) يوازي هذا القول انطلاق الهمداني في العناية بالآثار اليمنية القديمة في كتابه الأكليل من خلال الكتابات والعاديات الباقية .

(٢) القرن العاشر الميلادي متميز بوفرة الجغرافيين العرب وجودة انتاجهم ومنهم ابو دلف وابن فضلان والمقدسي بالاضافة طبعا الى الهمداني . وقد شمل كتاب المؤلفة عرضه ودراسة للأعمال الجغرافية لكل من ابن فضلان وتاريخ كتابه (حوالي ٩٢٣ م) . ابو دلف وتاريخ كتابه حوالي (٩٤٣ ـ ٩٤٥ م) والمسعودي وتاريخ كتابه (حوالي٩٤٣ ـ ٩٤٧) وابن حوقل وتاريخ كتابه حوالي (٩٨٠ م) والمقدسي وتاريخ كتابه حوالي (٩٨٥ ـ ٩٨٨) وطبعاً الهمداني وارخت لكتابه صفة جزيرة العرب حوالي (٩٤٠ م) وهو تاريخ قد يقصر زمنه قليلا .

فضلان يرون أن عملهم ينحصر في النقل المحض لما شاهدوه او جمعوه في رحلاتهم ولا يعنون بالتصنيف الرياضي للمكان بكل افاقه او حتى يكلفون انفسهم مشقة الرواية عمن سبقهم في تلك الميادين . . اما الهمداني فقد عمت احاطته بالعلوم في زمانه من نظريات عامة تتعلق باقاليم المناخ وذكر درجات القياس ثم اتبع ذلك بنقل ما أتى عن بطليموس وفسره، وبذلك ربط الهمداني علم الجغرافيا عند المسلمين بعلوم اليونان التي كانت قد دخلت دائرة الثقافة الاسلامية ، وبقيت حتى القرن العاشر الميلادي دون ان تنحسر عنها وخاصة علم الجغرافيا .

ويتحرر الهمداني من تأثير بطليموس في القسم الثاني من الكتاب،وهو قسم صفة الأرض ويجانب طرائقه كلها ، اذ يصف الأرض بكلماته دون اللجوء الى وضع الخرائط وكتابة الأرقام،الا انه قد يشذ عن ذلك ويحدد جزيرة العرب استناداً الى الجغرافيا الرياضية،اذ بدونه لا يستقيم الاطار الخارجي للجزيرة ، وهو سلوك علمي يدلل على مدى ثقافته وسعة اطلاعه . ويؤكد ذلك تنويهه بفضل بطليموس صاحب الكتاب الذي أعتمد عليه واعتباره حجة جغرافية وكذلك حرصه على الاستناد الى الثقات اذ هو شرط لازم لكل عمل علمي . غير ان لرواية الهمداني عن بطليموس دلالة أخرى وهي ان راويا مثل الهمداني وهو ينوه بفضل المروي عنه كبطليموس ربما حق له أكثر من فضل الرواية .

وهكذا تتنوع مشارب كتاب الصفة فهو يستقي معارفه مرة من موقع جغرافي خاص تمتد جذوره الى الشعر الذي تواتر في الجزيرة حتى زمن الهمداني،وينهل مرة أخرى مما أتى عن بطليموس وكذلك يحاول وصل رافد الفكر اليوناني مرة اخرى بعلم الجغرافيا لدى العرب ، وهي محاولة وإن تباين تقويمها ، فريدة بين كتابات الجغرافيين العرب في القرن العاشر الميلادي .

جغرافية جزيرة العرب :

قال أبو محمد (الحسن بن احمد الهمداني) : أما ذكر طبائع سكان جزيرة العرب فقد دخل في ذكر طبائع الكل ، وبقي ذكر مساكن هذه الجزيرة ومسالكها

ومياهها وجبالها ومراعيها وأوديتها ونسبة كل موضوع منه الى سكانه ومالكه على حد الاختصار ، وعلى كم تجزأ هذه الجزيرة من جزء بلدي وفرق عملي وسقع سلطاني وجانب فلوي وحيز بدوي .

وبهذه الكلمات يرسم الهمداني المخطط الجغرافي الذي ينوي تناوله لدى وصفه للجزيرة العربية وكذلك يحدد أهم نقطتين يرتكز عليهما محور وصفه وهما مسح المعالم الطبيعية لسطح جزيرة العرب وذكر اقسامها السياسية وعلاقات الملكية فيها .

يبدأ الهمداني وصفه استناداً الى المصادر . وخير ما يستهل به هو حديث ابن عباس عن انتشار قبائل العرب واقتسامها للمنازل والمحال في الجزيرة ثم ما يحدها من البحار والأنهار وما صارت عليه من أقسام خمسة حسب ما روته العرب في اشعارها : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، مبينا حدودها وأسماء أمكنتها . ويختتم ذلك بقول أهل اليمن في أقسام هذه الجزيرة وهي عندهم يمن وشام ، فجنوبها اليمن وشمالها الشام .

ثم يذكر تفصيلهم لهذين القسمين الجبلية منها والصحراوية الحجاز والسراة والعروض والعراق والشحر ونجد وتهامة .

وقد يصعب على القاريء تبين وجهة نظر الهمداني في تلك التقسيمات وأي منها يراه صوابا إذ أن المصطلحات الجغرافية المذكورة ربما حملت معنيين معنى حرفيا ومعنى اصطلاحيا . فتهامة تعني في اللغة منخفض الساحل وهي ايضا اسم معروف لمنخفض ساحل اليمن الممتد من اقصى جنوب اليمن الى شمال جيزان وينطبق هذا القول على كل من ـ نجد ـ والجوف ـ والحجاز ـ وغيرها ـ على أن مدلولات مثل هذه التسميات وان خفيت عنا اليوم فإنها كانت معروفة حق المعرفة لدى سكان الجزيرة في عصر الهمداني ، ومثال ذلك مصطلح اليمن حيث يفهم من تفسير الهمداني له إنه كل جنوب جزيرة العرب من رأس الحد في الشرق حتى شمال جيزان في الغرب .

وصار ما خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء وما والاها إلى حضرموت والشحر وعمان وما يليها اليمن : وفيها التهائم والنجد ، واليمن تجمع ذلك كله إلا أن اهتمام الهمداني . لتفسير مصطلح اليمن دون غيره يعكس نهجه العام الذي سلكه في كتابه وحرص على اتباعه . . فاليمن بلده وينبغي ان تنال النصيب الأجزل من الرواية والوصف قياسا على بقية اجزاء الجزيرة اما نوع القياس الذي بنى الهمداني . . عليه تفسير مصطلح اليمن فيكاد يكون غير واضح من الناحية الطبيعية او الوحدة السياسية ولربما ذكر الهمداني ايضا البحار المحيطة باليمن والجزر التي تتبعها مميزة بالاسم تارة ومنعوتة دون الاسم تارة أخرى بوصف قد يطول أو يقصر.

وبعد هذه المقدمة العامة التي عرضت سبل تقسيم الجزيرة الممكنة وبينت علاقات المكان فيها ينتقل الهمداني الى وصف اليمن وفي وصفه هذا يبدو وكما لو أن الهمداني لا يسير وفق نسق معين ولا يعتمد طريقة واحدة في العرض كتلك التي ذكرها سلفا كلا على حدة .

فهو يذكر تهامة ثم السراة ونجد وهكذا . . ولكنه عندما يورد أوصاف تلك التضاريس يجانب التسلسل الذي وضعه مسبقاً ويذكر مدن اليمن فيها دون مراعاة لتسلسل واضح المعالم ويختم ذلك بذكر ما وقع من جبال السراة وأودية هذه السراة مفصلا مواقعها مبينا أوصافها متقصيا حتى مناطقها الصغرى الواقعة في جنوب اليمن .

وفي الفصل الخاص بتهامة اليمن يخرج عما رسمه فيذكر أيضاً العروض والبحرين ونجد،علما بأنه يفرد لها فصلا مستقلا بعد ذلك، ويتابع استطراده هذا فيذكر شمال الجزيرة ، عراقها وشأمها.ولكنه يعود مرة اخرى الى اليمن حيث يذكر عجائبها التي ليس في بلد مثلها جامعا منها ما يراه جديرا بالذكر وتنبغي الاحاطة به .

فالهمداني يحاول ضم الموضوعات المتصلة والمترابطة ثم يعرضها منسقة في فصل واحد دون أن يراعي التقيد باطار المكان الجغرافي وما يندرج فيه من

تفاصيل وحداته السياسية والادارية خلافا لما اعتاد عليه معاصروه من علماء الجغرافيا كالاصطخري وابن حوقل . كأن يصف الهمداني مدن اليمن وجبالها وأوديتها ويذكر مميزات كل منها ذلك مجتمعا بينما كان قد ذكرها ضمن فصول مستقلة أخرى جرى تنسيقها وفق التقسيم الطبيعي العام الذي وضعه . . أو أنه يلحق وصفه السابق بمعارف قيمة عن مقام القبائل ومساكنها ومياهها ، أو بوصف دقيق للمحجات عبر بلاد اليمن . .

على ان الهمداني وفي سياق عرضه المفصل يحرص على تنظيم واضح ويتقيد بالعناوين التي يضعها ولا يحيد عنها الا نادراً.ففي الفصل الذي أورده عن وديان سراة اليمن لا يكتفي بتعداد تلك الوديان فحسب وانما يحرص على تناولها متتابعة من الجنوب الى الشمال وبدقة ذاكراً مسايلها ومنابعها ومصباتها ومساقيها فيبتديء من المناطق الشرقية مارا بالقاطعة منها الجبال الغربية ثم يتجه ـ نحو تهامة ويصف كلا منها وصفا منظما وشاملا ومفصلا.ويقدم خلال وصفه معلومات وافية ودقيقة يمكن أن تيسر للقاريء رسم صورة شاملة وجامعة لكل جزيرة العرب وخاصة يمنها . . مما يجعل كتاب الصفة واحدا من المصادر القيمة للتأريخ الجغرافي والحضاري حتى في يومنا هذا .

على أن نسقية الهمداني في وصفه للمدن والجبال اليمنية في بدايات القسم الجغرافي من هذا الكتاب لا تقتضي بالضرورة أن يكون هذا حكما عاما على نمط تأليف الكتاب كله . . إذ أن الهمداني لم يحرص على اتباع نهجه ذاك فيما تلا من فصول كتابه . . فعندما وصف جبال اليمن ، يستطرد فجأة ليعنى بتفاصيل تضريسية اخرى فيذكر الجوف وحضرموت وسرو حمير وبلاد همدان . . أي أنه ينتقل الى موضوعات تشمل مساحات شاسعة تتداخل فيها الأسس التي اختطها الكتاب في بدايته . . ويصير تفصيل المناطق كيفما أتفق، غرضا في حد ذاته . وبذلك يسهل الانتقال دون مسوغ من عرضٍ مادة موضوع معين الى تقديم تخطيط جغرافي لمكان معين فيحدد الجوف مثلاً وفق الشروط الطبيعية . . أي

وحدة المكان أما بلاد همدان فتميز وفق ارض القبيلة ، اي وفق الوحدة السياسية . . ولا يبدو أن الهمداني قد تعرف الى اختلاف وجهتي النظر في هذا الشأن . . بل يخلط بينهما . . فقد كان الهمداني يتبين الشكل الذي يصنف بموجبه ويسهل التقسيم وفقه ، ولكن لم يكن يأبه لنوعية التقسيم أو ربما لم تكن واضحة لديه .

لقد نسق الهمداني مادة كتابه في فصول يشتمل كل منها على ظاهرات عدة ولكنه لم يحرص على ترتيب معين لدى عرض تلك الظاهرات . . يقسم الجزيرة الى اجزاء صغيرة ، ثم يذكر مدن تلك الأجزاء ووديانها ومساكنها وحصونها ومسالكها وعلاقات الملكية فيها ، كما يقسم جنوب اليمن الى مخاليف ـ أي وفق توزع القبائل ـ ثم ينتقل إلى وصف المظاهر العامة من وديان ومساكن وغيرها وهو تقسيم استناداً الى المكان بالدرجة الأولى لكنه قد أثبت جدواه وربما ايضا أحاطة أوفى نسق جغرافي لا يقل جودة عن أي نسق موضوعي آخر . . اذ ينظم المادة وفق المكان ويمعن في ذكر التفاصيل وفي الوقت نفسه يتيح إمكان عرض موضوعات عدة مجتمعة تنتظم في اطار النسق العام وتدخل في تفاصيله . فتهامة اليمن تقسيم مكاني ولكن اموراً هامة تندرج تحت هذا العنوان ، يتم تجميعها في موضوعات مستقلة ووفق نسق موضوعي آخر هكذا :

- الجبال المشهورة.
- ذوات النبع منها .
- الحصون المشهورة منها.
- الشوامخ من الجبال التي في رؤ وسها المساجد الشريفة .
- أشكال الجبال المختلفة كالمنخرطة الرؤ وس والمسنمة .
- الجبال التي في رؤ وسها الآبار والمساني والغيول والعيون .
- الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في اشعارها .

إن الموضوعات السالفة الذكر وردت وفق تقسيم مكاني . . أي أن المؤلف

لا يخرج بذلك عن نهج الكتاب العام ، غير أن تلك الموضوعات قد نسقت بطريقة جادة تكفل الوضوح التام وإن وردت مستقلة أو بدت منفصلة .

وربما جاز في هذا المقام ان يوضع كتاب الصفة على قدم المساواة مع عمل المقدسي، رغم أن الهمداني قد قصر عن اعتماد المنطلقين المكاني والموضوعي بصيغة التتالي ، وبدلا من ذلك مزج بعضهما ببعض فكانت تلك محاولة منه في استخدام الموضوعي الى جانب المكاني .

ويمكن اعتبار هذه المحاولة هي المعلم الذي يميز به نهج الهمداني ، وإني اخالف كل من يدعي بأنه كان للهمداني تصور جغرافي عام في كل ما أثبته في كتابه على أني لا أنكر قط أنني قد لمست بعضا منه في فصول عدة مفردة .

افادة الهمداني من التراث :

سلك الهمداني في تأليف كتابه نهج السلف وهو الطريق الذي كان يحتذيه علماء المسلمين في عصره فبنى كتابه على ثلاثة أقسام . . استهله بمقدمة رياضية جغرافية استند فيها الى بطليموس وختمه بأرجوزة الحج للرداعي . . وكذلك بدأ المقدمة بالبسملة وأنهى الخاتمة بالحمدلة قال : كملت الأرجوزة وكمل بكمالها كتاب صفة جزيرة العرب والحمد لله رب العالمين .

فكان الكتاب بشكله هذا وحدة منغلقة جرى تصور المؤلف لها قبل الشروع في التأليف وفق ما تعارف الناس عليه حينئذ من قواعد شكلية صارمة ينبغي على كل مؤلف مراعاتها . . وتجنب إهمالها . . وهو سلوك علمي لا يمكن مجافاته من عالم طلعة كالهمداني . . على أن تصور الهمداني لم يكن مقصورا على مجرد استيفاء قواعد الشكل في التأليف، وإنما اشتمل على أكثر من ذلك . لقد استهدف الهمداني التأليف العلمي ايضا وتجلى ذلك في حرصه على استخدام ادوات الصناعة العلمية التي توفرت لدى علماء المسلمين في تلك العهود مثل طرق الجدل ، سبل استخدام المصادر ، طرائق التدليل وغيرها .

وخير دليل على ذلك ما أورده الهمداني في مطلع القسم الجغرافي من كتابه

حيث يروي حديث عبد الله بن عباس في جزيرة العرب وانتشار العرب فيها واقتسامهم المنازل والمحال قبل الاسلام وذلك قبل أن يقدم هو بنفسه اي تصور شامل لتقسيم جغرافي للجزيرة حسب ما وصل اليه علم عصره والذي يستند الى روايات شهود العيان أو ما اشبه ذلك من مصادر موثوقة .

فالحديث الشريف يحتل عنده مكان الصدارة بين المصادر الأولية ورواته ثقات لا يتطرق الشك الى سندهم. وهذا ايضا سلوك علمي يشهد بأن الهمداني ينطلق فيما يؤلف من تصور علمي أصيل وإحاطة جادة بمعارف عصره ومراتب مصادرها . . ومن الأدلة ايضا اتكاؤه على جهد من سبقه من العلماء ذوي المكانة العلمية المرموقة كبطليموس الحجة في علم الجغرافيا في معظم ما كتبه في المقدمة إلا أن الهمداني قد يخالف خطى بطليموس أو يغفل الاستناد اليه، كما صنع في القسم الثاني من الكتاب . . رغم انه في وصفه لطريق الحاج بين صنعاء ومكة يذكر المواقع الجغرافية حسبما قررها بطليموس من قواعد فلكية رياضية . . كما انه يصعب إثبات ما استقاه الهمداني من محابر معاصريه علماء الجغرافيا كالإصطخري ولم يرد بالإسم إعتماده على المتقدمين مثل قدامة وابن خرداذبه وابن الفقيه. والهمداني لاغفاله أولئك قد لا يجانب الصواب ونهج العصر في التأليف العلمي إذ هناك ايضا الشعراء الذين اعتمد عليهم الهمداني كثيرا وكانوا بمقاييس العصر ثقات وأعمالهم الأدبية تقدم معارف جغرافية موفورة الثقة وعلى جانب كبير من الأهمية .

اهمية الشعر في كتاب الصفة :

ختم الهمداني كتابه بأرجوزة وكفى بذلك شهادة على ما للشعر من قيمة كبيرة لديه بين المصادر الجغرافية الأخرى ، خاصة وأن للجزيرة العربية شعرا قديما متوارثا وطيد الصلة بالنواحي الجغرافية . وقد أبرز الهمداني هذه الصلة حين عرض للقسم الجغرافي من الكتاب فكان يدون مشاهدته لمكان معين او لإقليم محدد أو ما استقاه من معارف أخرى عنها ، ثم يستشهد بقول الشاعر على ما ذهب اليه كان يقول : ـ اثافت ، وتسمى اثافه بالهاء وبالتاء أكثر ،

وخبرني الرئيس الكباري من أهل أثافت ، قال كانت تسمى في الجاهلية درنى
وإياها التي ذكرها الأعشى بقوله :

اقول للشرب في درني وقد ثملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل

وكان الأعشى كثيرا ما يتخرف فيها وكان له بها معصر للخمر يعصر فيه ما اجزل
اهل أثافت : من أعنابهم ، ويروون في قصيدته البائية : ـ

احب اثافت وقت القطاف ووقت عصارة اعنابها
ويسكنها ال ذي كبار ووداعة

وعلى هذا النحو يسير الهمداني في ذكره لصنعاء وغيرها من مدن المرتفعات اليمنية وقراها .

وفي النص السابق يقدم لنا الهمداني حقائق أربع تتعلق بمدينة أثافت : موقعها واسمها في كل من العصرين الإسلامي وما قبل الاسلام زراعة العنب فيها ، سكانها . وقد كانت الشواهد الشعرية مصدر اثنتين من تلك الحقائق وهو دليل آخر على كون الشعر مصدر ثقة لدى الهمداني كغيره من المصادر الجغرافية
مثال اخر يمثل منحى الهمداني في هذا الصدد قال :
ـ عنذل مدينة عظيمة للصدف وكان امرؤ القيس بن حجر قد زار الصدف إليها وفيها يقول :

كأني لم الهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

وعندل وخودون وهدون ودمون مدن للصدف بحضرموت.الشعر عند الهمداني كما هو واضح من الأمثلة السابقة شاهد إثبات للأخبار الجغرافية التي يجمعها ومحله بين المصادر في مرتبة المصادر الجغرافية التي يعول عليها ويحتج باقوالها .

ذلك هو نهج الهمداني في القسم الجغرافي ، أما الأرجوزة فلا يعدو ادراجها امتدادا لذلك النهج . وربما بدا للهمداني ايضا ان أرجوزة الرداعي هي خير ما

يختم به كتابه ، فهي تورد معارف جغرافية جيدة وفي الوقت نفسه يحلى كتابه ببعض ما عرفت به الجزيرة من أدب شعري متواتر . . ويبقى الهمداني في الحالين ضمن مواصفات التقاليد العلمية في الجزيرة وغير متجاوز لها بل يصبح استشهاده بالشعر في كتابه دليلا على سلامة منهجه وتوثيقا لعلميته .

ولما كانت الأرجوزة تحتل قسما خاصا من الكتاب وهو القسم الثالث فان ذلك يقدمها محلا على الشواهد الشعرية الورادة في القسم الثاني ، حيث يستخدم الشعر في القسم الثاني إستشهاداً على أخبار نقلها المؤلف أو تدليلاً على معارف خاصة جمعها . بينما وضعت الأرجوزة كقسم مستقل أي بالمكانة نفسها التي اعطيت في الكتاب لأقوال بطليموس وأخبار الهمداني بحيث بدت لا تقل شأنا عن كلا المصدرين . وفي الحالين ما يبرز أهمية الشعر وتزايد مكانته بين المصادر التي استمد الهمداني منها مادة كتابه . الشعر إما متساو في قيمة معلوماته مع غيره من المصادر او يتقدمها بصرف النظر عن الوظيفة التي يؤديها أو السياق الذي يرد فيه وسواء استخدم كمصدر او كشاهد اثبات.

لعب الشعر دورا أساسياً في كتاب صفة جزيرة العرب مما يوثق اتكاء الهمداني في مؤلفه على النسق العلمي السائد ويومىء إلى صعوبة وضع تصوير جغرافي مستقل في عصره ، وحيث كانت تنحصر المقاييس العلمية في اعتماد صيغ متبعة واستدلالات معينة . أما بناء الهمداني لمحتوى الكتاب كتصنيف الموضوعات وتنسيق العمل وإعمال الفكر فيه فلم يبلغ حد التأليف المتخصص الدقيق ، إذ أن ذلك أمر لم يبلغه حتى مقام التأليف في عصره . وإذا ما وضع في الحسبان المتكأ الذي يحكم الهمداني (والمذكور انفا) وقورن في مجال وصف البلدان بمعاصريه مثل ابن فضلان وابي دلف ، فانه في هذا الجانب متجاوز لهما ، حيث انه قد حاول إضفاء نظام معين على شكل مكاني يتعذر وصفه عادة وفق ترتيب موضوعي أو حتى تخطيط مكاني منفصل بسبب القيود الشعرية السائدة منذ مئات السنين .

على أن الهمداني لم يكن ينوي تطوير نهج جغرافي تخصصي ، وإنما كان

يحاول ان يرسم صورة شاملة جامعة للجزيرة العربية كما هو بين في كتابه الصفة والإكليل ، وجل همه ان يضيف إلى عمله معلومات عصره الجغرافية ومشاهداته ومعلوماته الشخصية . ولم يكن يهدف قط الى تطوير نهج جغرافي خاص أو وضع تصور علمي جديد لعلم الجغرافيا ، كما هو ثابت فيما قدمه .

إن الهمداني ينحو نحو علوم العرب السلفية ولا يتجاوزها الى مقولات النهج العلمي ، الأمر الذي لم يكن معهودا آنذاك في علم الجغرافيا ، وهكذا فان كتاب الصفة لم يخرج عن نهج السلف ، بل أتخذ قدوته من بطليموس والشعر العربي .

كما أنه لم يدر بخلج الهمداني قط، أو قل لم يكن بمقدوره تنظيم محتوى كتابه وفق قاعدة تصنيف مكاني يطبقها باحكام .

كما أن ذلك لم يكن مطلوبا أو ضروريا عند أهل العلم . ان تصور علم قائم بذاته آنذاك لم يكن ممكنا ، وربما قد لا يخطر في البال كما يبدو جليا في محاولته .

أما القسم الثاني من كتاب الصفة فجغرافي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى إذ هو مادة جغرافية تعنى بمكان معين وتقدم فيه التضاريس المختلفة اعتمادا على السلف مصادرا وطرائق وادوات صناعية ، ولا سيما تلك التي تأتي من مجال الشعر والهمداني على علاقة وطيدة بالشعر، بحكم نشأته اللغوية والنحوية، ومن هنا يمكن ادراك سبب إعتماد الجغرافيا على الشعر مصدرا وشاهدا معا . ولهذا ايضا تعذر وجود أفكار محددة تنزع الى تطوير علم الجغرافيا ، وتهدف إلى ممارسة تأليف متخصص منظم ذي تصورات علمية وبمنطلقات واضحة .

ورغم ذلك فقد قدم الهمداني جديداً اذا ما وضع في زمانه ومكانه ، فبينما توفر للأصطخري لدى تأليف كتابه وهو من معاصريه ، إمكان الافادة من نموذج عمل البلخي ، فان الهمداني قد كتب كتابا علميا وهو في اليمن ، حيث يكاد ان يكون في عزلة ودون معرفة بمدرسة البلخي ، وتمكن من التحري في كتابه لكل

المعلومات الجغرافية الممكنة والمعلومة . وتمكن أيضا من تقدير مصادره المختلفة حق قدرها . فقد ابتدأ كتابه بالقسم الرياضي الجغرافي الذي يحاور فيه بطليموس ضمن وحدة محكمة ثم جعل وسطه جملة أخبار جغرافية جمعها بنفسه وتكون في حد ذاتها وحدة واضحة المعالم وضمن هذا القسم مجموعة من الشواهد الشعرية التي لا بد منها لاستيفاء شروط علمية الكتاب . ثم ختم كتابه بالأرجوزة لتكون مثالا دالا على نهج فن الجغرافيا الذي كان وما زال انذاك يخضع للشعر وينوء بثقله .

وهكذا استطاع الهمداني أن يضم في كتاب واحد كل معارف عصره الجغرافية . وهي معلومات قل أن ترد مجتمعة في كتاب واحد إبان ذلك العصر.

إن كثيرا من العلماء في عصره كانوا قد عرفوا نهج بطليموس وكلهم كانوا يعرفون الشعر العربي: ولا ريب ، ولكن ليس منهم من قد جمع بين كل تلك المعارف السلفية وما علمه بخبراته الشخصية ثم قدر على صياغتها ضمن مقاصد بحث معين أريد به مكان محدد . ذلك كان فضل الهمداني .

ولذا ينبغي تقويم جهده ضمن هذاالإطار المتماسك، أجل إن نظرة فاحصة إلى القسم الجغرافي من الكتاب تنبيء ولا شك بثراء معلوماته ، ولكن مادة هذا القسم وحدها لا تكفي لتبين مدى اعتماد المؤلفين انذاك على المصادر القديمة ولا يظهر فضل الهمداني جليا إلا إذا نظرنا الى أقسام الكتاب الثلاثة باعتبارها وحدة واحدة. ومما يدل على هذه الوحدة كون الكتاب يبدأ في قسمه الأول الرياضي الجغرافي بالبسملة ، ـ وليس في الجغرافي منها ـ وينتهي بخاتمة الكتاب المعهودة بعد الارجوزة التي تكون القسم الثالث منه وبهذا يمكن رد الاعتراض القائل بأن كتاب الصفة ربما وصلنا غير كامل وأن ما لدينا منه مما هو جزء فقط، فورود الفاتحة والخاتمة التقليديتين يعطي الكتاب وضعه النهائي. واستناداً الى هذه النظريات فان كتاب الصفة في القرن العاشر الميلادي ظاهرة تستحق التنويه هو كتاب جمع بين دفتيه الجغرافيا الرياضية ، وهو علم دخيل مكتسب ، والشعر

وهو علم عربي اصيل ثم سخرهما مصادر لوصف مكان محدد . وهذا تبرز مكانة الهمداني الخاصة فهو يستقي مصادره وطرائفه الجغرافية من علوم متباينة في سبيل تحقيق عرض جغرافي لمكان ما . ويصبح ما يميزه عن علماء عصره في القرن العاشر الميلادي ليس غزارة علمه أو دقة عمله بل كونه استطاع أن يجعل من الجغرافيا علما مزيجا من علوم العرب وغير العرب .

إما أن يتغلب العنصر العربي في كتابه على العنصر اليماني أو أن يقدر على تناول مادة المصادر الشعرية بإسهاب أكثر فمرده إلى نشأة الهمداني اللغوية وكونه يلم بقسط وافر منها تتجاوز تحصيله الرياضي والفلكي وهذه هي أهم القضايا البارزة التي تتعلق بكتاب الصفة للهمداني .

١ ـ كتاب صفة جزيرة العرب مؤلف علمي ومؤلفه يستخدم كل الأدوات العلمية المعهودة في عصره ، وخير دليل على ذلك استناده الى جغرافيين ثقات كما يتسم الكتاب ايضا بحسن جمعه للمصادر المتباينة ، فهي تركن إلى علوم الأوائل كما هي الحال مع بطليموس وإلى علوم العرب كما هو بين في الشعر والشعر كما هو معلوم قديما ـ ديوان العرب وخاصة علومهم .

٢ ـ وبحكم تحصيله العلمي فقد شغف الهمداني وهو اللغوي والمؤرخ بمجالات التاريخ والشعر اكثر من مجال الجغرافيا للشعر عنده وظيفة مزدوجة فهو حينا مصدره وفي الوقت نفسه أداة إثبات لأقواله . ولا ريب أن إقتصار الهمداني على إقليم صغير يسهل الإحاطة به كان من عواقب السيطرة الواسعة الموروث الأدبي في الجزيرة العربية .

٣ ـ يتضح ولاء الهمداني للسلف من تصوره الجغرافي الذي يشده الى بطليموس والشعراء ، فهو يتخذهم قدوة حسنة له ويحذو حذوهم ثم يعزف عن التفكير في وضع مبنى لمضمون كتابه خاص به . ورغم أن الكتاب لا يخلو من قواعد تنظيمية إلا أنها بقيت قاصرة الإتساق بحيث نتج عن ذلك اعتماد قاعدتين مختلفتين لتقسيم المكان ثم مزجهما معا،بحيث بدا من الصعب تبين أي

القاعدتين كانت جل اعتماده.

ورغم ذلك فالهمداني اذا ما قورن بابي دلف وابن فضلان فانه من غير الجائز أن نهمل الاشارة الى ما كان يتمتع به من حسن ادراك للمكان وقدر على تبين إختلافاته بحيث أن خطته لا ترصد مسارا زمانيا وإنما تعنى بالبنى المكانية بالدرجة الأولى.

٤ ـ إن كتاب الصفة هو أول عمل علمي في القرن العاشر الميلادي يحوى مادة جغرافية محددة المعالم واضحة الإطار في عصر لم يكن علم الجغرافيا علما قائما بذاته وانما كان يصدر عن عمل الشعر الذي كان يقوم بدور المصدر والشاهد معاو دون أن يكون هناك ميل الى انماء أي تصور جغرافي منظم، ورغم ذلك فإن مقام الجغرافيا الوصفية ارتقى بعد ذلك من الأدب الخالص إلى آفاق العلمية الا ان هذا الارتقاء قصد منه ان يحررها حتى لا تظل عبئا على غيرها من العلوم .

«أهل اليمن في صدر الاسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار»[1]

ليس في الكتاب ما يشير بوضوح إلى أنه في الأصل رسالة دكتوراه قدمت لقسم التاريخ بجامعة بغداد باشراف الاستاذ الدكتور صالح أحمد العلي وربما كانت أول رسالة دكتوراه تصدر عن القسم ، وقد يصدق الظن هذا بعد مراجعة الكتاب بدقة،ومبلغ العلم بالدراسات العليا الصادرة عن كلية الاداب بجامعة بغداد .

وربما صدق الظن أيضا في اعتبار الكتاب اول محاولة جدية لدراسة دور « أهل اليمن » (والتسمية قديمة) ومدى مساهمتهم في البناء الحضاري للأمة خلال القرن الأول الهجري ضمن تصور منهجي محدد . وذلك لا يعني أن مجال الكتاب طريق لم يسلك قبل ، بل إن المؤلف قد أشار فعلا في المقدمة إلى إن دراسات غير قليلة جرت عن كل أو بعض جوانب تكوين البناء الحضاري

(١) الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ١٩٧٨ ٢٢٤ صفحة وخارطتان و ١٢ جدولا .

الاسلامي في القرن الاول الهجري ، وإن أغفل بعض تلك الدراسات حتى في قائمة مصادره .

فإذا ما تجاوز المرء كتاباً عاماً مثل « الدولة العربية وسقوطها » لفلها وزن والذي صدر في أول القرن ، والإشارة إلى دراسات احمد صالح العلي التي عنيت بخطط البصرة والكوفة والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة بوجه خاص في الخمسينات والستينات ، وإلى ما كتبه ماسينون بشأن البصرة ، فان هناك بعض الدراسات الوثيقة الصلة بموضوع الكتاب ربما كان من المفيد لو أشار اليها المؤلف مثل كتاب بوين « ديوان عمر بن الخطاب » (١٩٧٠) ، وكتاب شعبان « التاريخ الاسلامي في القرن الاول ونصف الثاني »(١٩٧١) ومقالات كيستر وما كتبه هاشم جعيط عن دوراليمنيين في الكوفة (١٩٧٤) ، وكتاب الوثائق السياسية اليمنية للقاضي الاكوع (١٩٧٦) ، وكتاب دور ابن الاشعث والقراء لرضوان السيد ،وهي دراسة للتاريخ الديني والإجتماعي . في مطلع العصر الاموي (١٩٧٧) وكتاب أرض همدان لكريستيان روبان ١٩٧٨) وفي مجال النقوش اليمنية القديمة هناك مقالات كثيرة تعنى بتفاصيل ما عرضه المؤلف . إن إتجاه العلماء من عرب ومستشرقين منذ النصف الثاني للقرن الحالي يتركز نحو الدراسات التفصيلية للقرن الأول الهجري في مناحيه المتعددة . والمتتبع لقائمة الكتب والمقالات العلمية المتعلقة بالتراث الاسلامي لن يغرب عن باله ذلك .وقد ساهمت تلك الدراسات بنصيب وافر نحو إعادة صياغة كثير من التصورات القاصرة لكيفية تكوين البناء الحضاري للأمة الاسلامية آنذاك . وضمن هذا الاتجاه العلمي الذي يعنى بالاصول مقارنة بكثير مما تطلع به علينا المكتبة العربية من دراسات تبرز أهمية الكتاب المراجع .

قسم المؤلف بحثه إلى ثلاثة أبواب رئيسية ، الأول بحث فيه أحوال اليمن عند ظهور الاسلام (الجغرافية والاجتماعية والسياسية) ، وخصص الباب الثاني لدراسة إتصال الاسلام باليمن ودور أهل اليمن في الفتوحات والباب الثالث درس فيه مساهمة أهل اليمن في الحياة العامة لدى استقرارهم في الشام والبصرة

والكوفة والفسطاط . وقد صدر الكتاب بمقدمة تناولت فيها تناولت مراجعة عامة للمصادر وختمه بخلاصة موجزة وممهدة لدراسة أخرى . وسيقتصر في هذه المراجعة السريعة على إبداء الملحوظات التالية : ـ

(١) إن إطار الكتاب الزمني كما يعلم من خطته ينبغي أن تشمل القرن السابع الميلادي أي أحوال اليمن عند ظهور الاسلام ، اتصال اليمن بالاسلام ، موقف أهل اليمن من دعوة الجهاد ، استقرارهم في الامصار التي فتحت (الشام والبصرة والكوفة والفسطاط) وربما قصر الإطار عن ذلك . ولكن المؤلف تجاوز هذا الإطار قرونا قبل ذلك وقرونا بعده وذلك عندما يتعرض للجغرافية التاريخية والأحوال الإجتماعية . صحيح أن الاستمرارية في التاريخ اليمني تعد من ابرز سماته وصحيح أن مصادر الدراسة الاسلامية (وخاصة صفة جزيرة العرب للهمداني) متأخرة ومصادر الدراسة النقشية متقدمة ، الا أن تداخل الشواهد المؤيدة لإطروحات المؤلف ومن فترات خارج الاطار الزمني قد هز الانسجام الكلي للبحث . فمثلا (ص ٤٥) يقول المؤلف : يتبين من هذا (الجغرافيا التاريخية لحمير) أن حمير إذا أضفنا إليها أملاكها في حضرموت إبتداءً من شبوه باتجاه الغرب فانها تسيطر على الطريق التجاري القديم الذي يخترق وادي حضرموت الى شبوه حيث يتفرع الى فرعين فرع يتجه إلى نجران مباشرة وفرع يتجه عبر بيحان غرباً ثم يصعد (هكذا) شمالاً إلى مارب بينما يستمر فرع باتجاه الغرب يتصل بمينائي اليمن عدن ومخا » . (أنظر أيضاً ص ٥٣) . إن هذا الإستنتاج لا يتفق مع وقائع التاريخ المثبتة في الشواهد النقشية فلم يكن الطريق التجاري القديم (طريق البخور) مزدهراً في أواخر عصر الدولة الحميرية ولا حتى في فترات بعد الميلاد كما أن طريق البخور عبر بيحان لم يزدهر الا في فترة ازدهار دولة قتبان قبل الميلاد ، وشبوه لم تعد مدينة ذات بال منذ إنهيار دولة حضرموت في القرن الثالث الميلادي ، وليس فيما لدى علماء النقوش اليمنية القديمة ما يثبت معاصرة (المخا) لفترة إزدهار البخور بل إن أقدم ما تذكره النقوش عن المخا يعود الى الربع الأول من القرن السادس الميلادي .

ولم يشر المؤلف (أن كان لا بد من الإشارة إلى الطرق التجارية) إلى طريق حمير التجاري الأول الذي يمتد من عدن عبر ظفار وصنعاء ونجران ويمتد إلى الطائف ، والذي عرف بعضه بدرب أسعد الكامل ، وهو الطريق البري عبر المرتفعات الذي حل محل الطريق الصحراوي الشرقي ، وصلة هذا الطريق بالبحر عن طريق ميناء موزا (ربما موشج) عبر مدينة السوا .

ويلمس تجاوز الإطار الزمني أيضا في الخارطة المرفقة (ص ٣٦) ففيها مزج عجيب لأسماء الأماكن وأسماء القبائل ، فتعز المدينة الرسولية أو المكلا المدينة المتأخرة أو التسمية الانجليزية لجزيرة ميون تذكر جنباً إلى جنب مع شبوه ومارب وذمار (تذكران في مكانين مختلفين) .

(٢) إن حصر المناطق اليمنية جغرافياً ضمن تسميات مختلفة استناداً إلى الرأي الذي تبناه الكتاب (التنظيم الإجتماعي في اليمن يقوم على أساس بشري وليس جغرافي) قد جر المؤلف إلى تجاوزات خطيرة للاطار المكاني الذي رسمه ، فخولان العالية قبيلة تنسب إلى حمير (ص ٤٨) والمعروف أن هناك خولان صعدة (خولان الشام) وخولان العالية (خولان الطيال حالياً) وخولان رداع . والنقوش الجديدة المعروفة من مناطق وعلان (المعسال حالياً) وردمان ومراد تذكر أن أقيال المنطقة ينتسبون الى قبيلتي ردمان وذي خولان هذه هي (خولان رداع) التي اختلطت بحمير وصارت جزءاً منها ومساكنها قديماً جنوب شرق صنعاء في جبال مراد ووادي قانية وردمان وقاع المعسال (وعلان) . واقتضى تحديد مناطق حمير وهمدان في زمن معين وسحبه على فترات التاريخ اليمني القديم كله أن يستنتج المؤلف أن النشاط الإقتصادي لمنطقة همدان لم يتطور كثيراً . . . لهذا لم تظهر فيها مستوطنات كبيرة كالتي ظهرت في منطقة حمير (ص ٤٨) . والمعلوم ان مدناً شهيرة مثل شبام أقيان (شبام كوكبان حالياً) ، ناعط وحاز (في قاع البون ومن أخصب مناطق اليمن) تعتبر من مناطق همدان ، وآثارها قائمة إلى اليوم وكانت مزدهرة قبل أن تتحد سبأ وحمير في دولة سبأ وذي ريدان أو التي عرفت بالموروث العربي دولة حمير . ويشبه ذلك قوله لدى الحديث

عن منطقة حضرموت » غير أن أبرز إنتاجها (حضرموت) هو البخور الذي ينمو في أودية حضرموت » : والحقيقة أن البخور ينمو في منطقة ظفار إلى الشرق من وادي حضرموت وكانت فعلاً تابعة لدولة حضرموت إبان ازدهارها .

(٣) ورغم الجهد الكبير الذي بذله المؤلف خلال الكتاب كله في تحديد هوية القبيلة اليمنية إلا أنه لم يقطع بهوية واضحة لما يقول : « إلا أن هذا النظام القبلي فقد بعض ملامحه ولا بد أن يكون فقد الكثير من تقاليده ونظمه البدوية التي اقتضتها حياته السابقة انسجاما مع الاحوال التي تقتضيها المدن » . هذا القول يصح على القبائل البدوية اليمنية التي عاشت في صحاري اليمن مثل مفازة صيهد او اطرافها مثل مذحج وكنده وهي قبائل تحضر بعضها،بينما هي في الأصل ذات بنية إجتماعية افقية شيخ القبيلة فرد متميز بين متساوين تربطهم رابطة الدم والنسب والقبيلة تعيش على التنقل بحثا عن الماء والعشب وتعتمد على الجمل في تنقلها إلى غيرها من خصائص البداوة . أما قبائل مثل سبأ وحمير وهمدان فهي قبائل مستقرة وتميز باللغة اليمنية القديمة بلفظة (شعب) وبنيتها هرمية وتشارك الحضر كل خصائصهم ، ولا تربط القبيلة بالضرورة روابط الدم وإنما تربطها المصالح المشتركة من سكن وزراعة وتجارة وضرائب ونظام حكم . وهذا يفسر مثلاً كون حمير قبيلة نشأت في وادي بنا كتجمع صغير أمتد ليشمل مناطق كثيرة بحكم إنتشار الدولة وذاب فيها كل ما كان يدعى بقبائل أوسان وقبائل قتبان والمعافر وغيره . وبناء القبيلة في اليمن رغم استمراريته شكلاً إلا أن محتواه في حركة متغيرة دائبة ولا يربطه عبر القرون إلا الإطار الجغرافي بالدرجة الاولى . وتقتضي تلك التغيرات الجديدة التي تطرأ على مبنى القبيلة اليمنية أن ينظم وفق صيغ إجتماعية ملائمة منها تنظيم القبيلة وفق نظام كسري يجمع عدة بيوت او بطون وذلك لتسهيل دفع الضرائب والدّيات وإجابة الداعي ، ويقال « ثلث حاشد » مثلاً (أي يكون الثلث من قبيلة حاشد) ، وقس على ذلك ربع وخمس وسدس وهكذا . وما زالت هذه الصيغة تستعمل بين بعض قبائل اليمن إلى اليوم. ولربما فسرت صيغة كهذه غموض بعض المصطلحات للتكتلات القبلية التي تناولها المؤلف مثل (الجماع والخليط) ويجدر

بالذكر هنا أن مراجع الكتاب قد زار مثلاً وادي قانية وما حوله فوجد سكانها خليطاً من حمير ومراد أو هكذا يدعون كما ذكر الهمداني في كتاب صفة جزيرة العرب وكما استشهد بها المؤلف (ص ٧٣) .

(٤) ناقش المؤلف (ذو)والأذواء وعلاقة ذلك بالبنية الإجتماعية ولكن يبدو أن المؤلف لم يدرك أن (ذو) صيغة تدل على معنى الانتساب إلى قبيلة أو بطن . فذو يزن ليس اسما لواحد من الاذواء وانما يطلق على كل من ينمى إلى قبيلة يزن الحميرية . كما انه ليس صحيحاً القول ان يزن الحميرية لم تكن عائلة ملك وأن سيف اليزني ليس من ابناء ملوك حمير ، إذ يكفي ان نشير إلى أن قبيلة يزن الحميرية وقبيلة جدن السبئية من ابرز عائلات الحكم إبان الفترة الحميرية . ومن أمثلة ذلك يوسف أسار يثار (ذونولس) الذي تنص النقوش صراحة بأنه من قبيلة يزن . وليس هناك اذواء ثمانية (أشخاص) كما قد نفهم خطأ من القصيدة الحميرية وإنما هي بيوت من حمير (بيت مصطلح يمني قديم بمعنى عائلة) .

(٥) في (ص ٦٨) ذكر المؤلف نص « شعب همدان هجرهم وأعرابهم » كمثال على ارتباط الأعراب بالقبائل المستقلة في اليمن وهذا صحيح إذ أصبحوا جزءاً من اللقب الملكي في دولة حمير المتأخرة . على أن لفظة هجرهم تعني مدينتهم ولم تكن لهمدان مدينة بعينها وإنما كانوا سكان مدن وقرى ، والصحيح هو أن تقرأ هجارهم أو اهجورهم وكذلك في نص عهد الرسول (ص ١٠٤) اي سكان المدن والقرى وسكان البادية . وربما حدث الالتباس من قراءة النقش الذي يخلو عادة من أصوات اللين . كما أن المستوطنات اليمنية لم يطلق عليها اسم القرى وإنما اسم الهجر وقد تعني الهجر بالفصحى القرية (ص ٧٠) .

(٦) لقد اجتهد المؤلف في تفسير بعض المصطلحات وكيفها لخدمة نتائج بحثه ولكن تصحيف الناشرين لبعض هذه المصطلحات هو الذي قاده الى ذلك فمثلا ، الاحمور وورد ايضاً الأخمور اعتبرهما المؤلف شيئاً واحداً (ص ٧٠) وأحياناً اعتبر الاخمور هم العبيد والأحمور الفلاحون ، وعند اليمنيين جمع تكسير

فريد هو وزن (أفعول) ورد في النقوش مراراً ولا يزال قائماً إلى اليوم الأعبوس ، الاقدوس ، الأشمور ، وهي كثيرة . فالأعبوس مثلاً من ينتمي إلى عبس والاقدوس من ينتمي إلى قدس والأشمور من ينتمي الى شمير وهكذا ، وعليه فالأحمور من ينتمي إلى حمير القبيلة اليمنية المعروفة والاخمور النسبة اليها خامري لا تزال إسم منطقة في الحجرية يعرف سكانها بهذا الاسم الى اليوم ولا علاقة لها بالعبيد . رغم أن خمر في اللغة اليمنية القديمة تعني وهب وأن (استخمر) بمعنى استبعد دلالة مفيدة ومعروفة عند علماء النقوش .

(٧) أما الأخطاء المطبعية وأخطاء السهو فكثيرة ومثال ذلك (حميم) والصحيح حمين وربما نسب اليها الشعر الحميني اليمني المعروف (ص ٧٣) . (القرض) والصحيح القرظ (ص ٤٦) ، الابل الصيعية والصحيح الصيعرية (ص ٥١) . ليس من أسماء اليمن القديمة (معد يكرب) وانما هو اسم مركب من معد وكرب ويوصل بالياء فيقال معدي كرب وعمي كرب وعمي أنس الخ . . . (ص ١٢١) (الخشمي) طبعاً قصد به الخثعمي (ص ١٢٧) وماوة الصحيح ماوية (ص ٤٠) ، وفي ٦٦ يذكر المؤلف أن دولة حمير سقطت في القرن الخامس الميلادي والصحيح القرن السادس (٥٢٥) وهناك أخطاء مطبعية في قائمة المراجع بالإفرنجية عديدة .

(٨) اعتمد المؤلف نسخاً خطية رغم أن الكتب منشورة مثل مخطوطة كتاب تاريخ صنعاء للرازي ومخطوطة كتاب جمهرة النسب لابن الكلبي الذي نشره كاسكل ، أو أستعمل طبعة غير دقيقة لصفة جزيرة العرب الذي كان سناد بحثه ، واهمل طبعة موللر وطبعة الأكوع وهما أكثر دقة . على ان الدكتور الحديثي قد بذل جهداً ممتازاً في إعداد مادة البحث واعتمد منهجية صارمة في كتابته ، وقد أبرز حقائق عن اليمن ومجتمعه قل أن تقرأها في كتاب بمثل ذلك الوضوح ، حيث ناقش مثلاً البداوة في اليمن في أماكن مختلفة من كتابه بدراية وعلم ص (٦٧ ـ ٦٩) ، وربط بدقة بين موقع أهل اليمن الحضري في مجتمعهم اليمني ومجتمعهم في الامصار (ص ١٤٩ ، ١٦٩) مما يلقى الضوء على كثير من

التصورات الخاطئة حول تكوين الشخصية اليمنية العربية الاسلامية . إن كتاب اهل اليمن في صدر الاسلام من خير ما قرأت في السنوات الاخيرة عن اليمن ، وارجو أن تتاح لي فرصة مناقشة اتجاهات الكتاب وتفاصيل بحثه في المستقبل ان شاء الله .

اكتشاف مومياء في اليمن

لليمن سجل تاريخي حافل وقصة مثيرة تتوالى فصولها لتحكي حياة أولئك القوم من العرب ، أهل اليمن وتقص تجربتهم الرائدة على درب الانسانية الطويل . ومما هو جدير بالإهتمام هو صمود تلك التجربة البشرية في بلاد اليمن وإصرارها على الاستمرار والبقاء . فقد حافظ شعب اليمن على استمرار ثقافته ودوام أصالته ضمن سجل حافل من المنجزات التاريخية التي أسهمت بثراء في مسار الحضارة الإنسانية سواء في تاريخه القديم الزاهر أو في دوره المتألق إبان العهود الاسلامية أو في نشاط أهل اليمن في شتى مرافق الحياة في سبيل بناء اليمن الجديد .

وإذا كان لكل حضارة من الحضارات البشرية سمات خاصة ضمن السمات الحضارية المشتركة لبني الإنسان ، فإن الشعب اليمني هو من بين تلك الشعوب التي تميزت على الإجمال بحرصها على توجيه منجزاتها لخدمة مجتمعاتها عبر التاريخ ، حيث أحسن تقدير شروط وطنه الطبيعية وعرف كيف يستفيد من موقع بلاده الاستراتيجي الممتاز ، فدأب على العمل المنظم والأداء المنتظم في سبيل تحدي قسوة الطبيعة من مناخ جاف معظم أيام السنة وصخر أصم يؤلف

معظم تضاريس بلاده . وكان أن ذلّل الصعاب ، فاهتم باقامة السدود وتشييد قنوات الري وبناء المدرجات الزراعية والتمرس بأمور التجارة البرية والبحرية والسيطرة على طرقها وتأمين مسالكها فصنعوا من ذلك حضارة مزدهرة تجلى فيها عطاء الإنسان اليمني في أرضه زراعة وتجارة وثقافة ضمن أنظمة إجتماعية لو وضعت في إطارها الزمني من مسار التاريخ لاعتبرت من خير ما قدم الانسان وأبدعه في مجالات العدالة والحرية والتقدم . كما أن تلك الحضارة عريقة وقد عاصرت عهودا وحضارات راقية معروفة في الشرق والغرب مثل حضارة وادي النيل وحضارة بلاد ما بين النهرين وحضارات فارس والهند واليونان والرومان وبلاد الشام . فكانت على صلة بتلك الحضارات وتربطها بها روابط إنسانية في مجالات المعرفة والثقافة والاقتصاد وتأثرت بها وأخذت منها وأثرت فيها تأثيرا ملموسا . فاضافت بالاشتراك معها أروع المنجزات في العمران الانساني ، مثل مجالس الشورى التي عرفت في دولة سبأ ومعين ، وسن القوانين الزراعية والتجارية في دولة قتبان . وإقامة المنشآت العامة كالقصور والمعابد ومنشآت الريّ في الوديان والقيعان وفق أسس هندسية ومعمارية رائدة ثم تجمُّعهم فوق ذلك كله ضمن كيان سياسي موحد متماسك يكفل تكاملي نشاطهم البشري ويوفر لهم سبل الرفاه والقدرة على صد الغزاة ودحر الأعداء .

وقد دلت الأبحاث الأثرية الجديدة بأن الناس في اليمن قد عاشوا على تلك الأرض وبشكل دائم منذ أقدم الازمنة المعروفة لدى علماء الآثار والانتروبولوجيا وحتى الآن ، بل ان بعض تلك اللقى الاثرية تؤكد بأن الانسان عاش على أرض اليمن منذ عشرات الآلاف من السنين ، مثل الأدوات التي عثر عليها في جنوب (الهجرين) ضمن الحفريات التي تمت في (ريبون) عام ١٩٨٣ م.وهي أدوات يعود تاريخها الى كافة فترات العصر الحجري ، أستخدمت لصيد الحيوانات المتوحشة وسلخ جلود الحيوانات وتصفيتها من الشوائب . وتشبه تلك الأدوات التي استخدمت من قبل الانسان القديم في أماكن استيطان أخرى خارج اليمن .

وقد أعطت نتائج (كربون ١٤) لنماذج من اللقى الأثرية التي عثر عليها في المجسات الأختبارية في وادي الجوبة من قبل بعثة المؤسسة الامريكية لدراسة الانسان بالتعاون مع جامعة (فيلادفيا) أن إستيطانا كان في هذه المنطقة ونشاطا إنسانيا ملحوظا يعود تاريخه الى الالف الثاني قبل الميلاد .

أما البعثة الألمانية التي تقوم بالمسح الأثري في منطقة (مارب) منذ عام ١٩٧٧ فقد ذكرت في إحدى تقاريرها التي تنشرها تباعا عن أعمالها في المنطقة أن الدراسات (الجيومورفولوجية) لمنطقة سد مآرب تدل على أنه كان هناك إستصلاح للأراضي وإعتماد وسائل الري منذ أواخر الالف الثالث قبل الميلاد وأن أسس سد مأرب الشهير نفسه تعود إلى بداية الالف الأول قبل الميلاد .

ودلت الحفريات الفرنسية الحديثة والمستمرة في منطقة شبوة على أن أصول الحضارة هناك تعود إلى أواخر الالف الثاني قبل الميلاد .

وكانت تلك الآثار قد ظلت مطمورة تحت الرمال بحكم عوادي الطبيعة وتقادم الزمن . وبقي ذكر اليمن ككل مجهولا لدى الأوروبيين بعض الشيء بحكم انغلاقه على نفسه في الفترات الحديثة .

اما بعد أن كسرت تلك العزلة ، ومنذ أن بدأت الثورة اليمنية في ٢٦ من سبتمبر ١٩٦٢م تمكن الانسان اليمني في عقدين من الزمن من تثبيت أقدامه في مرابع الحياة الجديدة . وكان أن بدأ الأخرون يحسون بوجوده ويهرعون للتعرف عليه وعلى آثار حضارته القديمة . ورغم قصر المدة التي مضت على بداية الإكتشافات الأثرية في اليمن إلا أن معلوماتنا عن تلك الحضارة القديمة صارت كثيرة . ورغم أن التنقيب العلمي والاكتشافات المنظمة لم تحدث أبعد ، الا أنَّ المسح الآثاري بعد انفتاح اليمن على العالم انفتاحاً حياً وبناءً قد جعلت الناس لا يتحدثون عن اليمن من خلال ذكر رموز بالية ، وحديث المكتشف عن بلاد نائية مجهولة ، إنما صار حديثهم عن الإنسان في اليمن وحضارته القديمة وعن دوره في الحضارة الإسلامية وعن نشاط أهل اليمن اليوم في شتى مرافق الحياة ، وصار العلماء والرحالة والمهتمون والسياح ينظرون إلى اليمن ليس من خلال منظار

رومانطيقي أو من خلال حنين الى رموز الشرق فحسب ، وانما ينظرون اليه ايضا من خلال معالم حضارة عريقة تكتشفها كل يوم الأبحاث الاثرية ومن خلال الحاضر الحي والواقع المعاش الذي لا يزال يستلهم روائع الماضي ويحيا بعض سماته الحية ، والذي لا يخلو أيضا من انجازات معاصرة جليلة ، وفي الوقت نفسه تجده مفعما بأمال المستقبل ورؤ اه المشرقة .

نعم !! لقد تحولت تلك الرموز التاريخية الباهتة في عهد الثورة اليمنية المجيدة إلى مفاتيح حقيقية يدلف بها المهتمون باليمن أبوابه المشرعة بعد أن انمحت من أذهانهم صورة ذلك العالم المجهول ، وليشهدوا بدلا منه عالما حديثا نابضا بروح الحياة والقوة ، وفي الوقت نفسه ما زال يعبق بشذى الماضي ويستلهم روائعه ضمن استمرارية عجيبة قلَّ أن تجد لها في الشرق القديم مثيلا .
وتعتبر المومياوات المكتشفة حديثاً من اللُّقى الاثرية النادرة والتي تدل على معرفة أهل اليمن قديماً للتحنيط وربما كما عرفه المصريون القدماء ، فقد عثر بالصدفة في مقبرة صخرية في شبام الغِرَاس على خمس جثث محنطة .

وتقع شبام الغِرَاس على الطريق من العاصمة صنعاء الى مأرب وعلى بعد حوالي عشرين كيلو متر من صنعاء . وهي منطقة أثرية تقع على سفح جبل تكثر فيه القبور الصخريةالتي نقرت في الصخر في العصور القديمة . ولكن تلك القبور قد نبشت منذ عهد طويل ونهب كل ما فيها من لقى أثرية .وقد ذكرت مدينة شبام بهذا الإسم (شبامم) في النقوش اليمنية القديمة وعرفت بأنها عاصمة محلية لأقيال ذي سخيم الذين كانوا يحكمون في تلك المناطق السبئية منذ حوالي‌الفي عام . وعندما بدأ شق الطريق الذي يربط العاصمة الجديدة صنعاء بالعاصمة التاريخية مارب عام ١٩٧٧ خطط الطريق خطأ عبر الموقع الاثري للمدينة القديمة . وعندما بدأت تتكشف الموجودات الأثرية بفعل الجرافات أتى الصارخ الى العاصمة يحمله أحد طلاب تخصص الآثار الذي كان قد بدأ في جامعة صنعاء ذلك العام . فكان أن حول مجرى الطريق في حينه وأنقذ التل

الاثري من الدمار . وفي أكتوبر من العام الماضي[1] أتى صارخ آخر من المنطقة نفسها يحمله طالب أعمى في قسم التاريخ والآثار ولكنه من ابناء المنطقة نفسها . ويروي الطالب أنه سمع في المنطقة حديثاً رائجاً حول لقى أثرية جديدة في الجبل المجاور للقرية وأنهم وجدوا في اثنين من الكهوف القريبة بقايا آدمية وربما يكون معها كنوز من الذهب والفضة . ولما كانت أخبار الإكتشافات الاثرية رائجة هذه الايام فقد أرسل شخصين من المهتمين لتحري الأمر ، وعادا ينبئان،مع الأسف بأن هناك نبشاً يجري لقبرين صخريين قد تناثرت بعض ما فيهما إلى أسفل الصخرة .وأن المسألة تمت بالصدفة ودون قصد إذ أن احدهم. مصاب بمـرض الربو وكان مكلفاً بحراسة دوالي العنب ومزارع القات هناك ، فظن أن من الخير له أن يطل على المزرعة من صخرة عالية ليسهل التنفس حسب زعمه ، ولما كان يعرف أن هناك كهفاً مسدوداً يطل اطلالاً حسناً على المزرعة فقد أحضر سلماً وتسلق الصخر وبدأ يزيح الاحجار التي تسد باب الكهف . وفيما هو مجد في عمله ظهرت لـه آثار أكفان بالية وعظام نخرة ، فخاف وهرب وأبلغ اهل القرية بما دهاه . وظن بعضهم استناداً إلى ما تواتر من أخبار الماضين أنه لا بد وأن يكون مدفوناً مع هذه الأجداث أموال عظيمة وكنوز غالية فانطلقوا إلى الجبل وبدأ ينبشون القبرين ويستخرجون ما فيهما من محتويات .

ووصلت البعثة الاثرية والباحثون عن كنوز الماضي منهمكون في عملهم ودون أن يعلموا أنهم لا يستخرجون كنوزاً وإنما يعبثون بتلك الكنوز . وإنقاذاً لما تبقى وخوفاً عليه تم في اليوم نفسه إجراء حفرية أثرية سريعة استخرج فيها كل محتويات القبرين بعناية ودقة . ذلك لأن النظرة الأولى الناجحة دلت على أن في الأمر شيئاً وأن ما نراه من جثث تالفة ملفوفة بالجلد والكتان وملقاة حيثما أتفق في القبر تنبيء عن سر مكنون . وليس في مبلغ علمنا طريقة للدفن أو أسلوب للتكفين يشبه ما رأيناه آنذاك . وتحت سمع وبصر العابثين ممن أزعجهم في تلك القرية الآمنة نبش القبور وانتهاك حرمة الموتى وان كان يشفع لنا انهم هم

(١) اكتوبر ١٩٨٣ م .

البادئون ، أخذت خمس جثث إلى متحف جامعة صنعاء لتوضع في توابيت ملائمة وتعالج من الروائح التي كانت تنبعث بقوة من الجلود التي كفنت بها . ولولا حسن التقدير المصحوب بحسن النية والدهشة التي يعتريها الشك والفضول الأثري لما تجرأت البعثة على انتهاك حرمة قبر في بلد مسلم يقرأ القرآن وقوله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ . وكانت نية البعثة في الوقت نفسه هو إنقاذ تلك الأجداث من عبث الباحثين عن الكنوز الضائعة . وتكريم تلك الجثث التي يكتنفها الغموض وتحيط بها الاسرار .

ولما كانت البعثة التي قامت بالتنقيب غير مؤهلة لمعالجة تلك الجثث خاصة وأن أربعاً منها قد أصابها تلف العابثين وواحدة فقط ما زالت تحتفظ بشكلها فقد أستقر الأمر على استدعاء فريق مختص بمعالجة الجثث والمحافظة عليها . وقد حضر في غضون أيام فريق مصري تولى بنجاح معالجة تلك الجثث وصيانتها مما أتاح لمن يهمهم الأمر محاولة تبين بعض أسرارها دون المساس بهيئاتها او التعرض لما تحويه . خاصة وأنه ليس في اليمن ولا حتى في الفريق المصري الذي تولى المعالجة من هو متخصص في هذا المجال . وإلى الآن لم يقم أحد المختصين بدراسة هذه اللقى الآثرية دراسة علمية متخصصة وإن كان هناك تصور مبدئي للقيام بهذه الدراسة ومرتبط بتوفر بعض الاجهزة الفاحصة مثل الجهاز الفاحص الاسكاند والذي سيتوفر قريباً جداً في أحد مستشفيات اليمن وسيتولى بعض المختصين الذين أبدوا رغبتهم في القيام بتلك المهمة الكشف العلمي اللازم والتحليل الدقيق لتلك الجثث الملفوفة .

وبعد إذا كان الأمر كذلك . فما هي مسوغات الإدعاء بأن هذه الجثث مومياوات أو على الأقل جثث قديمة تنولت بالمعالجة والتحنيط قبل دفنها ؟

اسمحوا لي أن أسرد عليكم بايجاز طائفة من المؤشرات الدالة والتي تسوغ مبدئياً مثل ذلك الادعاء ، أي انها مومياء .

١ ـ تكثر في شبام الغراس القبور الصخرية . وهي عبارة عن خروق في الجبال غير منتظمة الشكل وإن كانت مربعة أو مستطيلة في بعض الحالات .

ويكون عرضها حوال متر ونصف وارتفاعها حوالي مترين وعمقها يتراوح بين مترين واربعة أمتار . وتنتشر هذه المقابر في جبال اليمن قرب المناطق السكنية مثل كوكبان وناعط . وبيت الأحرق ، وظفار ووادي ضهر وغيرها . وقد وصف هذه الجروف في الجبال العلامة الحسن بن احمد الهمداني (من علماء القرن العاشر الميلادي في اليمن) فقال إنها كانت نواويس يقبر بها الموتى،ورأى بنفسه بقايا جثث في قبور وادي ضهر. وفي ددان (العلا) شمال السعودية توجد قبور صخرية يعود تاريخها إلى عصر إستيطان المعينيين لتلك المنطقة قبل الميلاد . وعلى مقربة من العلا تقع مقابر النبطيين في مدائن صالح التي تشبه المقابر الصخرية الشهيرة في البترا في وادي موسى جنوب الأردن .

وشبام الغراس مدينة تاريخية تذكرها النقوش اليمنية القديمة . وكان أقيالها من بني سخيم وآثار المدينة القديمة ما زالت تشاهد في مكان المدينة الحالية .

٢ ـ تثير هيئة الجثث المدفونة والتي عثر عليها في هذه المدافن أكثر من سؤال ، فهي أولاً جماعية وملقاة باتجاهات مختلفة ويجمعها وضع القرفصاء (أو وضع الجنين في بطن أمه وما قد يشير إلى عقيدة البعث) .

٣ ـ عثر على الجثث مكفنة بملابسها الأصلية وتلبس في العادة حذائين ، الحذاء الأصلي ، ثم حذاء أحسن صنعة كأنه الحذا ء الذي تفترضه مراسيم الدفن . وقد كفنت الجثث جميعها بالجلد المدبوغ ولفت بالكتاب لفات عديدة .

٤ ـ عثر في المقبرتين بجانب الجثة المحنطة الكاملة على اربع جثث (قد نبشت سلفاً وتلف بعضها) ، وعلى عظام أحواض لـ ٢٦ رجل واثنان لامرأتين . وعثر ايضاً على آنية فخارية تحوي مواد عالقة وعلى رأس رمح وقطعتين من الخشب منقوشة بخط المسند . وكلها مؤشرات على نمط من الدفن غير عادٍ وفيه جهد إنساني ملحوظ للعناية بجثث الموتى .

٥ ـ استخدم نبات محلي هو نبات (الرا) لامتصاص سوائل الجسم وحشي التجويف البطني بكثر من (الرا) والكتان . وقد دلت التجارب التي أجريت على نبات الرا أنه أكثر فعالية في امتصاص الرطوبة من نشارة الخشب التي كان

المصريون يستعملونها في عملية التحنيط مع العلم أنه ضمن المعلومات المتوفرة ليس هناك دليل على أنه جرت عملية استخراج المخ كما كان يفعل المصريون القدماء ، وإن كان الأمر ما زال قيد الدرس .

٦ ـ افادت مختبرات الأبحاث المركزية بكلية العلوم التي قامت باجراء التحاليل اللازمة للعينات التي أخذت من الجثث الملفوفة أن قطعة القماش الحمراء التي عثر عليها في التجويف البطني لاحداها تدل على أن اليمنيين القدماء ربما استخدموا عنصر الزنك كمرسب لبروتين الانسان وتجميده ضمن عملية التحنيط ، كما يتضح أن اللون الأحمر لخرقة القماش قد تم صنعه باستخدام خليط من مركبات الحديد ومركبات الجبسيوم (وهو كبريتات الجبسيوم) وهي الطريقة نفسها التي اتبعهاقدماء المصريين حسب مبلغ العلم في عملية التحنيط .

٧ ـ دلت التحاليل العملية التي اجريت في معامل بيتا (Analytic Inc. Beta)في فلوريدا بواسطة المؤسسة ، الأمركية لدراسة الانسان على عينيتين من الجلد والقماش مأخوذة من المقبرتين ان تحليل التاريخ عن طريق الراديو كربون يشير الى ان تاريخ العينيتين يعود إلى ما قبل الفين وثلاثمائة سنة على الأقل . أي ان تاريخ الجثث التي عثر عليه يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد . ولما كانت هذه المنطقة التي عثر فيها على هذه القبور الصخرية ليست من أقدم مناطق اليمن تاريخياً ولم يكن فيها الملك الأكبر فان المرء يفترض ان مقابر الملوك في مارب ومعين وربما دلت على أن اليمنيين عرفوا التحنيط بشكل لا يقل عن المستوى الذي عرفه المصريون . وربما في زمـن يسبق بكثير القرن الثالث قبل الميلاد .

ان هذا الاكتشاف الفريد لبقايا مومياوات في اليمن ذا أهمية بالغة في امور كثيرة . فهو يدل على أن أهل اليمن كانوا يمارسون التحنيط الصناعي ضمن عقيدة خاصة بهم في الألف الأول قبل الميلاد وربما قبله . كما أن المرء يسمع لأول مرة بوجود جثث محنطة في الشرق القديم خارج مصر . وهذا بدوره مدخل

جديد يوسع دائرة الإكتشاف في هذا المجال ويومي‌ء الى التواصل الثقافي في المنطقة . ولا شك أن هذه الجثث إذا ما اعطيت حقها من الدراسة ستساعد في الدراسات التشريحية والمرضية والجسدية لإنسان الجزيرة العربية في تلك القرون . ويمكن للمرء أن يزعم أن الآثار اليمنية القديمة اكتسبت مصدراً غنياً مثل اللقى الأثرية والنقوش اليمنية القديمة مما قد يلقي ضوءاً جديداً على كثير من قضايا البحث والدراسة في مجال الدراسات اليمنية القديمة خاصة ودراسات الشرق القديم على وجه العموم .

الجزء الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

تسمية اليمن باليمن

لماذا سميت اليمن باليمن ؟

سماها الجغرافيون القدماء « العربية السعيدة » لما عرفت به من خير عميم وثراء تجاري وفير بحكم تحكمها بطرق اللبان التجاري البري بين سواحل البحر العربي وسواحل البحر المتوسط ولم تكن اليمن لدى أقوام العالم المتوسط القديم واضحة الحدود والمعالم فربما كانت هي الهند عندهم ، او الحبشة ، او بلاد « البُنت » او جزيرة العرب كلها او جنوبها او الجنوب الغربي منها . وكان اليمنيون انفسهم يحرصون على الاحتفاظ باسرار تجارتهم وعلى حصر المشتغلين بها قدر الامكان فيما بينهم . فكان القدماء في حوض البحر المتوسط يسمعون عن وفرة ثراء اليمن ، وطيب بضاعتها ولكنهم يجهلون الكثير عن موقعها وربما كان جلّ علمهم انها تقع الى الجنوب وهي آخر اليابسة او اخر الارض المعمورة وحيث يوجد المرو الكاسيا والقرفة واشجار اللبان التي لا تسوق في مكان غيرها وتحرسها الثعابين .

وتبدأ حدود العربية السعيدة عند بطليموس حوالي عشرة كيلومترات جنوب العقبه ويمتد خط حدودها شرقاً عبر صحراء النفوذ حتى يصاقب الخليج وجنوباً تمتد حتى البحر العربي . فهي تشمل معظم جزيرة العرب . اما ما تبقى من

الجزيرة فهي العربية الصخرية والعربية الصحراوية ، وكلتاهما تقع في شمال العربية السعيدة .

واختلف الاخباريون العرب في تسميتها فقالوا : اليمن اسم لولد قحطان بن الهميسع بن تيمن بن ثابت بن اسماعيل بن ابراهيم وبهم سميت الناحية التي سكنوها كما سمي كثير من البلدان باسماء من سكنها ، او أن نسبته الى ايمن بن يعرب بن قحطان وقالوا سمى اليمن يمنا ليُمنه كما سمي الشام شاماً لشؤمه . وقالوا سمي اليمن يمنا لانه يمين الكعبة وسمى الشام شاما لأنه شمال الكعبة ، وسمي الحجاز حجازاً لانه حجز بين الشام واليمن . وسماها اهل اليمن كالهمداني وغيرهم اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها خاصة اذا ما قرنت بالفلوات التي تجاورها .

قال الشاعر : -

هي الخضـــراء فاسأل عن ربـــاهـــا   يخبـــرك اليـــقـيـــن المـــخـبـــرونـــا

وحدودها عند الحسن بن احمد الهمداني تبدأ مما خلف تثليث وفيها التهائم والنجد ، واليمن تجمع ذلك كله ، وتأييد ذلك عنده أي في جمع اليمن لهذه المواضع كتب العهود من الخلائف لولاة صنعاء اليمن ومخاليفها وعك وعمان وحضرموت ويريد بعك ارض تهامه . وفي دراسات بعض المستشرقين المحدثين قد يطلق على اليمن اسم جنوب الجزيرة بدلاً من اليمن فيقولون مثلا علم نقوش جنوب جزيرة العرب وتاريخ جنوب جزيرة العرب وهكذا .

والجزيرة العربية في نظر كثير من الجغرافيين العرب كالهمداني تمتد من نهر الفرات شمالاً حتى البحر العربي جنوباً وتأييد ذلك ان الصحراء العربية تضُريـس طيبعي يمتد من الربع الخالي عبر الدهناء والنفوذ ويشمل بادية الشام ، بل أن المظاهر الطبيعية من جبال وصحاري وغيرها في شمال الجزيرة هو امتداد طبيعي لجنوبها .

يضاف الى ذلك كثرة التنقلات البشرية الواسعة والتغيرات المتعددة لسكان جزيرة العرب حضراً او بدواً. فقد كانت قبائل تنوخ العربية مثلاً تتاخم الفرات وكانت دولة الحضر العربية في الجزيرة « اي ما بين دجلة والفرات قرب الموصل».

وكانت تدمر العربية وسط الطريق بين دمشق والفرات وفي قلب بادية الشام .
وفي جلّق وبصرى وما جاورهما ازدهرت حضارة الغساسنة ، وفي الحيرة والانبار استقرت القبائل العربية كاللخميين.وعثر على النقوش الصفوية العربية والمنقوشة بخط مشتق من خط المسند في مناطق تمتد من حوران في سوريا الى عرعر وبدنة شمال السعودية حالياً. وشمل نفوذهم مدين ومدائن صالح . في معظم الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً . وكان الأنباط وهم عرب في وادي موسى جنوب الأردن حالياً وأنفوذهم يمتد الى مدين ومدائن صالح .

هذا بالاضافة الى الاتحادات القبلية التي كانت في محطات التجارة كتيماء ودومة الجندل .

وقبل ذلك كان هناك « العرب » بالدلالة القديمة وهي تلك الاقوام التي استقرت في الشام وبلاد ما بين النهرين والجزيرة بين دجلة والفرات.واذا ما وضع في الاعتبار ان « ركبة » نهر الفرات القادم من بلاد الروم تكاد تقابل « ركبة » نهر العاصي الذي يصب في البحر المتوسط (ولا ينقصها سوى مساحات برية صغيرة اذا ما قيست بالاطار المائي الكبير من بحار وانهار والذي يحيط بالجزيرة من جميع الجهات تقريباً ، وهو قول فصله الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » لدى الحديث عن حدود جزيرة العرب) فان المصطلح « جزيرة العرب » يكاد يكون هو الأدق مقابل المصطلح الشائع « شبه جزيرة العرب » الذي يقصر عن تادية المعنى الذي تثبته الشواهد التاريخية والجغرافية .

الشام واليمن : -

واذا ما أخذ بالقول السابق من ان الجزيرة العربية تمتد من الفرات الى البحر العربي على هيئة مستطيل فانه من اليسير ان يفهم تصور العرب قديماً لشمال جزيرتهم وجنوبها على وجه الاجمال فينعتون شمالها بالشام وجنوبها باليمن ولكنهم يختلفون في تثبيت حدود الشمال والجنوب وذلك لعدم وجود حاجز طبيعي يفصلها بصورة واضحة ويصلح ان يتخذ حداً كما ان شقة الخلاف حول هذه الحدود توسعت بسبب الاقوال التي حرصت قديماً وحديثاً على اعتبار سوريا وفلسطين ولبنان وغيرها ليست ضمن الجزيرة العربية بحكم تفردها بخصائص

حضارات مستقرة تختلف عن النمط المعيشي البدوي الغالب على الجزيرة العربية . وفاتهم ان اليمن بالنسبة للجزيرة العربية لها ايضاً سماتها الحضارية المستقرة الخاصة ولكن ذلك لا يعني انها لا تدخل ضمن الجزيرة العربية . ولما كانت لفظتا الشام واليمن بمعنى الشمال والجنوب واسعتي المدلول وهما في الاصل تدلان على الجهة فان استعمالهما للدلالة على تسمية ارض معينة او مكان محدد لم يكن شائعاً في التاريخ العربي القديم .

ومن هنا لم تكن دول شمال الجزيرة تطلق على نفسها دول بلاد الشام ، وكذلك لم تطلق دول جنوب الجزيرة على نفسها دول بلاد اليمن وانما كانت التسميات تتبع مناطق عديدة وتحمل الدولة اسمها الاصلي في منطقتها الصغيرة حتى وان اتسعت الدولة لتشمل شمال الجزيرة كله او جنوبه كله كدولة تدمر التي حكمت شمال الجزيرة كله في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وخاصة ايام الملكة زنوبيا وتجاوزت دولتها بشمال الجزيرة الى امبراطورية قصيرة الاجل بلغت مصر واسيا الصغرى. وليس في مبلغ علمي ان زنوبيا دعت نفسها بملكة بلاد الشام . كما ان شمر يهرعش الذي حكم جنوب الجزيرة العربية كلها في اخر القرن نفسه كان يسمي نفسه ملك سبا وذى ريدان وحضرموت ويمانة وليس ملك اليمن . ويبدو أن أنتشار لفظي الشمال والجنوب مع انتشار اللغة العربية المحضة وذلك قبل الاسلام بزمن ليس ببعيد هو الذي اعطى لفظتي الشام واليمن تدريجياً الى اليوم دلالات محددة فكان الشمال والجنوب اصبحت لفظتين عامتين والشام واليمن لفظتين خاصتين ضاقت دلالتاهما تدريجياً حتى صارتا تسميتين على مكانين بعينهما وهما بلاد الشام « سوريا » وبلاد اليمن حيث تشمل سوريا بمعناها الخاص كل مناطق الحضارة الارامية « السريانية » في فترات معينة بما فيها لبنان وفلسطين .

مصطلح اليمن في لغات العرب : ـ

وهكذا فإن اليمن في لغات جزيرة العرب القديمة تعني الجنوب وعكسها الشام وتعني الشمال . وفي علم الجغرافيا تبدأ حدود الجنوب حيث تنتهي حدود الشمال فاذا اتخذت اية نقطة في وسط الجزيرة ولتكن الكعبة مثلاً فإن الشام هو

شمال تلك النقطة واليمن جنوبها . وفي اللغة يقال ايضاً شام ويمن وشآم ويمان والنسبة الى شأم شامي وشآم والى يمن يمني ويمان.وقيل كل نسب يشدد. باؤه إلا يمان وشآم وتهام ونباط. وفي النقوش اليمانية القديمة يرد اللفظان بهذا المعنى فيقال مثلاً : اشعب شامت ـ ويمنت ـ وبحرم ويبسم ـ أي قبائل المناطق الشمالية والجنوبية والبحر واليابسة. والواضح ان الكلام يقصد به مطلق العموم وان كان يوحي ايضاً بمعنى الشمال والجنوب والغرب والشرق.وفي نص آخر مشابه ما معناه كل غزوة غزاها « شعر اوتر » ضد من حاربه من جيوش ، وقبائل اهل الجنوب واهل الشمال واهل البحر واهل اليابسة.واللفظان المستعملان في النقش هما « ذيمنت وذشامت ».ويقارب ذلك ما ورد في القرآن الكريم « اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة » مع فارق الدلالات . واللقب الملكي لدولة حمير يرد في النقوش هكذا « ابو كرب اسعد » ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت «وأعربهمو طودم وتهمت» أي ملك سبا وحمير وحضرموت ويمانة واعرابهم في نجد وتهامة.« ويمنت » هنا او يمانة احدى مناطق اليمن ولا بد ان تعنى اقصى الجنوب بالنسبة لبلاد اليمن اي مناطق ساحل بحر العرب مثل تهامة التي تطلق على مناطق ساحل البحر الاحمر.اما المناطق الاخرى المذكورة في اللقب فهي بينة وتشمل بقية اليمن الذي امتدت آنذاك الى وسط الجزيرة .

وفي نقش ابرهة المشهور في النقوش اليمنية القديمة يرد لفظ زبيمن (بالزاي) هنا اسم الموصول بالحبشية ويقابل الذال اسم الموصول باللغة اليمنية القديمة.واذا ما صحت قراءة هذه الكلمة في النقش المذكور* فانها ربما كانت اقدم ذكر لليمن في النقوش اليمنية بهذا المعنى الخاص الذي اصبح يعد ذلك مصطلحاً تعرف به بلاد اليمن اي منذ حوالي منتصف القرن السادس الميلادي ويقابل هذه المصطلحات في لغات شمال الجزيرة مثلاً ما ورد في النص السرياني للتوراة بصدد الحديث على ملكة سبأ فذكرت باسم ملكة « تيمنا »اي الجنوب وهو قريب مما ذكره الاخباريون من ان اليمن اسم لولد قحطان « تيمن أو أيمن » والى الاصل نفسه يعود معنى الاسم تيماء المدينة العربية القديمة المعروفة التي تقع في جنوب بلاد الشام وفي جمع الاحوال فالجذر هو « يمن » ومن هنا ظن بعض

* القراءة صحيحة وتأكدت من النقش نفسه وهو اليوم في مبنى محافظة مارب .

الباحثين المحدثين ان اليمن قديماً ربما كانت الارض الواقعة على الحدود الجنوبية الغربية لبلاد الشام الحالية وليست في اقصى جنوب الجزيرة وفق المنطق السائد حيث ينتهي الشمال يبدأ الجنوب. وعليه فان ملكة الجنوب المذكورة في التوراة والتي زارت النبي سليمان لم تكن سوى ملكة المناطق الجنوبية لبلاد الشام والتي لا تبعد كثيراً عن ميناء العقبه حالياً وتيماء وهي منطقة عرفت قديماً بعض الملكات العربيات التي ذكرتها الحوليات الأشورية ،ولم تكن الزيارة من ملكة سبا في مارب وهو راى طريف لا يختلف كثيراً عن تصور بطليموس لموقع العربية السعيدة الذي يبدأ جنوب آلعقبة ويمتد حتى آخر اليابسة . على ان مثل هذا القول لا يتفق والنصوص الاخرى التي تذكر انها ملكة سبا . وحضارة سبأ كانت في اليمن استناداً الى الشواهد الاثرية الحالية فضلاً عن الروايات التاريخية . وليس هنا مجال تفصيل الرد على مثل هذه الاقوال الطريفة .

مصطلح اليمن في الموروث العربي : -

ورغم الخلاف لدى الاخباريين العرب قديماً او العلماء حديثاً حول تسمية اليمن باليمن فان اليمن بمعنى الجنوب كان معروفاً عند العرب في جزيرتهم فقد قالوا : سميت اليمن لتيامن العرب اليها اي لاتجاههم في نجعاتهم وبحثهم عن الماء والعشب والماوى نحو الجنوب،وعرفوا انه اذا ما استقبل احدهم الشمس صباحاً في جزيرة العرب فإن اليد اليمنى كانت تشير الى الجنوب واليد اليسرى كانت تشير الى الشمال فالشام هي شماله واليمن جنوبه وسموا الركن الجنوبي من الكعبة بالركن اليماني وذكروا الريح اليمانية والبرق اليماني . وفي شعر العرب القديم وهو مادة علومهم الجغرافية وشاهد اثباتهم : -

بكى كل ذى شوق يمان وشاقه شآم فأنّى يلتقي الشجيان

وقالوا :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما تبدت وسهيل اذا استقل يمان

وهي إشارة الى تعاكس مطلعي الثريا وسهيل في السماء وتعريضاً بزوجين

يحملان الاسمين نفسيهما .

وقالوا :

ابــا كرب والأيهـمين كليهما وقيسا باعلى حضرموت اليمانيا

وقالوا :

ثم اغتدت والنجم ما تصوبا تؤم في الأفق اليماني الكوكبا

وتيامن العرب (اي اتخاذهم جهة اليمين اي جهة اليمن او الجنوب بحثاً عن الماء والعشب) كان تفاؤلاً بالبرق اليماني وريح الجنوب « الامطار الموسمية » وربما كان ذلك من أسباب ابتدائهم باليد اليمنى وتقديمها على اليسرى وهو من آداب العرب قبل الاسلام وبعده : قال شاعرهم :

صددت الكاس عنا ام عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

فصار كل تيامن عند العرب ادباً محموداً وميمونا وفالاً حسنا وبشارة بالخير واليمن والبركة فقالوا : -

أما من جنوب تذهب الغل ظلة يمانية من نحو ليلى ولا ركب

يمانون نستوحيهم عن بلادهم على قلص يذمي باحسنها الجدب

وقالوا : -

واني ليحييني الصبا ويميتني اذا ما جرت بعد العشى جنوب

وارتاح للبرق اليماني كأنني له حين يبدو في السماء نسيب

نكتفي بهذا القول الذي لم يكن الاستقصاء معوله ولا تحقيق بعض الأقوال مقصدة ونختمه بنص من مخطوطة كتاب العسجد المسبوك للخزرجي ، ويجمع فيه دلالات مفيدة بهذا الصدد:

اليمن قطر مبارك عظيم الفضل ظاهر البركة وردت في فضيلته اخبار واثار فمن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ بالمدينة اذ قال : الله اكبر جاء نصر الله وجاء الفتح وجاء اهل اليمن نقية قلوبهم لينة طباعهم الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية اخرجه بن حيان في صحيحه

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا » الخ . . .

وخلاصة القول ان اليمن تعني جنوب الجزيرة والشام تعني شمال الجزيرة وربما فصلاً فقيل الحجاز ونجد فيما بينهما. وعرب الشمال يسمون اهل الشام وعرب الجنوب يسمون اهل اليمن . ويقال بلاد اليمن وارض اليمن او اليمن فقط . وما زال اللفظان حيين بالمعنى القديم في كلام العرب الى اليوم فكثيراً ما نسمع فيروز تغني سائليني يا شآم ويقصد بذلك دمشق حاضرة سوريا او بلاد الشام ، وكلنا في حاضرة اليمن اليوم نعرف باب صنعاء الجنوبي او ما يسمى بباب اليمن .

شواهد في تاريخ اليمن القديم

بعد أن بان خطأ الزعم أن النصوص الهيروغليفية قد ذكرت سبأ ، وبعد ما تبين ان ذكر الاسم (مجن) فيها لم تكن تعني (معين) وانما مكان في (عمان) ، وأن مدلول التسمية (بُنت) عند المصريين ربما اقتصر على الساحل الافريقي للبحر الاحمر ولم تشمل ساحله الاسيوي . لم يبق لدى دارسي تاريخ اليمن القديم من المصادر الخارجية الموغلة في القدم سوى التوراة والحوليات الاشورية والمصادر الكلاسيكية (اي اليونانية والرومانية).أما المصادر الداخلية فثلاثية أولها الآثار والنقوش . والاثار هي بقايا منجزات الانسان اليمني القديم في ارضه ومخلفاته المادية . والنقوش هي تلك الكتابات التي خلفها في فترة تمتد اكثر من ألف وخمسمائة قبل الاسلام ، منقوشة على الصخروالحجر بدقة وعناية . ثم الشواهد المكتوبة التي وصلتنا في الكتب التي دونت بعد الاسلام على شكل ملاحم وأساطير وقصص وأخبار وتاريخ سجلت ما نقله الناس من روايات شفهية عن أهل اليمن قبل الاسلام ظل بعضها متواتراً حتى عصر المؤلفين. واخيراً الشاهد الحي على التاريخ اليمني القديم من خلال الاستمرارية التي تشهد في مجالات عدة من يمن اليوم شعباً وارضاً وحضارة . فاليوم هو صنيع الامس وملامح الماضي البعيد ما زالت بادية في الحاضر القريب

ولا ريب ان المصادر جميعها تكمل بعضها بعضاً ومن جماعها تستقى الشواهد التي تسعف على رسم الصورة الممكنة لتاريخ اليمن في القديم .

وربما كان خير طريق يسلك لتبيان تكامل تلك الشواهد هو ضرب المثل وسأختار امثلة من كتاب الاكليل لابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني المتوفي في حوالي اواسط القرن الرابع الهجري في الاعلام واسماء البطون والقبائل والامكنة اليمنية واضعاً نظائرها في ما وصلنا من نقوش كثيرة مارا ببعض ما يدل على ذلك من آثار اليمن الحاضر .

وبذلك نستدل على ان كتبنا التاريخية ليست كلها اساطير وانما فيها من الحقيقة شيء كثير .

١ - إن حكاماً يمنيين مشهورين مثل أبي كرب أسعد وابنه حسان بن أسعد وشمّر يهرعش وياسر يهنعم ويوسف ذو نواس كلها شخصيات تاريخية كبيرة ظل ذكرها في اليمن عالقاً في أذهان الناس الى اليوم ، كما نسجت المصادر المكتوبة كثيراً من القصص حولها . وقد اثبتت المصادر المنقوشة ان هذه الشخصيات قد عاشت في اليمن قبل الاسلام وربما كان ما نسب اليها ليس بعيداً عن الحقيقة .

٢ - يحدثنا الاكليل عن المثامنة وهي ثمانية أبيات كانت ملوكا واقوالا في حمير تساعد في الحكم وترث الملك اذا خلا العرش . وقد أكد ذكرها نشوان في شرح القصيدة الحميرية حيث يقول: لا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حمير الابهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية وان اجتمعوا على عزله عزلوه . والمثامنه هم ذو خليل وذو سحر وذو جدن وذو حزفر وذو ثعلبان ، وذو عثكلان وذو مقار وذو صرواح ، وربما حلت ذو قيفان وذو مناخ في محل ذو حزفر وذو صرواح .

٣ - ويورد الهمداني في كتابه مراراً صيغة جمع تكسير لا ترد في صيغة جمع التكسير العربية وهي صيغة (الأفعول) كقوله الاحلول ، الأحموس ، الاحنوش الاسروع ، الاسلوم ، الأعبول ، الأشبوم ، الاودوع وهي جموع لخليل ،

، واحمس ، وحنش ، وسارع ، وسالم ، وذى عابل وشابم ووداع . ولما كانت هذه الاعلام قد اصبحت اسماء بطون وربما قبائل فان جمعها على وزن الافعول يفصل بوضوح بين العلم واسم القبيلة . وهذه الظاهرة وردت في النقوش ايضاً فهناك وزن (افعولن) في النقوش حيث تنوب النون عن أل التعريف مثل (أريومن) اي الأريوم ، (أز أونن) أي الأيزون (وأفيوشن) أي الأفيوش (وأيدوعن) اي الأيدوع ، (وأبكولن) اي الابكول (وأرحوبن) أي الأرحوب . . الخ . وهذه جموع تكسير لكل من ريام ، وذويزن ، وذو فائش ، ويداع وبكيل ، وذو مرحب ، أو أرحب .

وإثبات الهمداني لهذه الظاهرة اللغوية في كتابه جعل ممكناً ضبط نطق هذه اللفظة التي يؤيدها ما أثبته الهمداني كتابة استعمال هذه الصيغة في اليمن الى اليوم . فنحن نسمع بالأخمور ، والاعروق ، والأقدوس والأحكوم والأعبوس . . الخ وهذا دليل على ذلك التكامل بين الشواهد التاريخية الثلاثة ،النقوش والكتب التاريخية واليمن اليوم ،كما أنه شاهد على استمرارية التاريخ اليمني عبر الأجيال .

- وقد تساعدنا الشواهد النقشية احياناً على تصحيح الشواهد الكتابية فكثيراً ما أعتاد ناشرو التاريخ اليمني المكتوب ومن يؤلف فيه ان يضبطوا خطأ أعلاماً يمنيه قديمة فنسمع معد يكرب وصحيحه معدي كرب ونسمع ملكيكرب وصحيحه ملكي كرب ، ونسمع السيفع والسميدع وصحيحهما (سم يفع وسم يدع) اي اسم يفع واسم يدع ، وهي صيغة حميرية مركبة معروفة . ونقرأ في كتبنا التاريخية لهيعة ولختيعه ولحيعه ، وخنيعة ، ولحيئة وكلها تصحيفات للعلم الحميري المعروف (لحي عت) وعت اختصار للإله اليمني القديم أله الزهرة عثتار ، أو نقرأ نبت غم وصحيحه في النقوش (نبط عم) غير ان نبط عم هي المقابل في العربية لنبت ، أو تاران ينعم والصحيح ثاران ينعم وهو ثأران يهنعم وهكذا . وقد تنبهنا النقوش لبعض هفوات مؤرخينا القدامى فتألب ريام عند الهمداني اسم شخص ولذا فقد

الحقه بسلسلة نسب طويلة بينها يرد تألب ريام في النقوش كاسم اله معروف .

والهمداني كغيره من المؤرخين القدامى قد يلتبس عليه الأمر فتكون الأذواء لديه حيناً اشخاصاً وحيناً بطونا . وكثير من اذواء الهمداني مثبتة في النقوش ، نهناك ذو اصبح،ذو أقيان ، ذو أوسان ، ذو جدن ، ذو غيمان ، ذو معاهر وغيرهم ، ولكنهم بخلاف ما نص عليهم الهمداني يردون في النقوش اسماء بطون وقبائل . فذو في النقوش تقابل في العربية الشمالية آل وأهل . وبنو ، ذو معاهر مثلاً هم آل معاهر والقيل ذو معاهر ينبغي ان يكون القيل من آل معاهر . والملك ذو ثات يجب ان يكون أحد الملوك الذي سقط اسمه الأول وينتمي الى آل ثات وهكذا . على ان الاكليل قد يصحح بعض النقوش المنشورة ايضاً . فخولان الأجدود أي (خولان اجدودن) نشرها احد علماء النقوش (خولان إل دودن) اذ التبس عليه اللام والجيم وهما متقاربان في الشكل في خط المسند . وبدون الاكليل ربما صعب تلافي غلطة كهذه . ومثل ذلك ذو هل والصحيح ذهل او ربيعه ذوائل ثور ملك كندة ، والصحيح ربيعة ذو آل ثور ملك كندة ، وآل ثورهم كندة في الموروث اليمني والعربي .

ومن ناحية اخرى فإن الهمداني قد ينقل العلم الينا صحيحاً ولكنه يفهمه ويفسره تفسيراً خاطئاً فمثلاً علهان نهفان عنده علم على شخصين وليس شخصاً واحداً . ويوجد لذلك تخريجاً لطيفاً ، فيقول فلما لم يمكن ان يقول المعلمانان كما تقول العرب العمران في ابي بكر وعمر والبصرتان في البصرة والكوفة قال علهان نهفان . بينما اثبتت النقوش أن علهان نهفان كان ملكاً من ملوك سبأ وهو شخص وليس شخصين .

على ان يمن اليوم تؤكد اسماء بعض القبائل التي وردت في النقوش تأكيداً لا يدع مجالاً للشك . وفي كتاب الاكليل وردت ايضاً . فقبائل خولان ، وهمدان ، وسيبان ومراد مثلاً لا تزال موجودة وربما في إمكانها القديمة نفسها ، كما يؤكد يمن اليوم اسماء اماكن كثيرة ذكرتها النقوش وهي لا زالت تحمل الأسماء نفسها الى اليوم مثل سيئون ، تريم . شبوة رداع ونجران .

وهكذا نجد في النقوش اليمنية القديمة مثات من اسماء الأماكن والقبائل والعشائر التي عرفها العصر الاسلامي وما زالت قائمة حتى اليوم. ومن هذه الامثلة البسيطة نستدل على أن دراسة تاريخ اليمن القديم ترتكز على مصادر داخلية ثلاثة هي شواهد النقوش والشواهد المكتوبة وشواهد التاريخ الحية الى اليوم ، وان هذه المصادر تكمل بعضها بعضا* .

وكثير من علماء النقوش أهملوا المصدرين الآخرين كما ان محققي الكتب التاريخية اليمنية قد اهملوا اعتماد النقوش وان كان بعضهم قد اعتمد بعض الشيء على اليمن اليوم فكان ذلك فضله .

إن استمرارية التاريخ اليمني ليس لها مثيل آخر في بلدان الشرق الادنى بأسره وما ذكرناه مثال على ذلك ، على أن خير مثال حي على استمرارية حضارة هذا الوطن هو ان ذلك الشعب اليمني الذي بنى السدود فابدع ، واحترف التجارة فلم يجاره احد ، وبنى البنايات العالية فكان مثلاً يحتذى ، وسن الشرائع فكان اليمني خير من قضى ، ذلك الشعب الذي نقش على اديم ارضه مجده وكفاح شعبه ، هو الشعب نفسه الذي استطاع ان يطرد المستعمر ويزيل اثار الظلم وفي بعض سنوات استطاع أن يبني يمناً جديداً شامخاً .

---

* في الأصل محاضرة القيت في ندوة الحضارة اليمنية العالمية ، عدد (١٩٧٥) وراجع بهذا الخصوص :

— ABDALLAH . Y : DIE PERSONENNAMEN In ALHAMDANIS ALIKLIL UND IHRE PARALLELEN 1 n DEN ALTSUD ARABISCHEN INSCHRIFTEN' TUBINGEN(1975)'

— ALSCHAIBA, A. H.. Die Ortsnamen In den Altsudarabischen inschhriften' Marburg (1982)'

حديث في حضارة سبأ

ليس في تاريخ اليمن القديم ما يضاهي تاريخ سبأ وليس في رموز اليمن التاريخية وآثاره ما يضارع سد مأرب العظيم .

فتاريخ سبأ هو في آخر الأمر عمود التاريخ اليمني القديم وتكوينه السياسي الكبير وما تلك الدول التي ذكرت معها سوى تكوينات سياسية معاصرة لفترات سبأ ، انفصلت منها احياناً واندمجت فيها احياناً اخرى مثل دول معين وأوسان وقتبان وحضرموت ودويلات المرتفعات ، أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة كدولة حمير. واقدم الشواهد التاريخية تذكر سبأ ، واطول صراع واعنفه دار في اليمن قديماً كان حول اللقب الملكي : ملك سبأ وذي ريدان وعندما حسمت حمير الصراع في اواخر القرن الثالث الميلادي لم يسم ملوكها انفسهم بملوك حمير وانما بملوك سبأ وذي ريدان . وذو ريدان هم حمير . ورغم ان حمير كانت هي الغالبة على حكم اليمن الا ان سبأ تصدرت القاب ملوكهم توكيدا لتلك الحقيقة .

وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن فسبأ عند النسابة هو ابو حمير وكهلان ومنهما تسلسلت انساب اهل اليمن جميعاً.ومهما اختلف الناس في الانساب الا انها ولا ريب جزء هام من علوم الانسان التي إن جانبت الصواب

احياناً فهي تعكس رغم ذلك صدى مفيداً لمسار التاريخ . وبلقيس وإن اختلف في تفاصيل قصتها واسمها فهي عند الجميع ملكة سبأ ، وهجرة اهل اليمن ارتبطت بسبأ حتى قيل في الأمثال العربية القديمة تفرقوا ايدي سبأ . والبلدة الطيبة التي اشار اليها القرآن الكريم هي في الاصل ارض سبأ ، وأكثر من ذلك كله ان ابرز رموز اليمن التاريخية وهو سد مأرب قد اقترن ذكره بسبأ ، وكان تكريمه بالذكر في القرآن سبباً في ذيوع ذكر قوم سبأ وحاضرتهم مارب في التاريخ الاسلامي ، وما زالت بقايا السد تشهد بعظمة الحضارة السبئية ورقيها الى اليوم .

وقد عاصر السد نشوء تلك الحضارة وشهد شمس إزدهارها وكان تفجره إيذاناً بافولها وكان آخر تلك التفجرات خاتمة منطقية لانهيارها .

سبأ هي سناد الحضارة اليمنية القديمة ومبلؤها وسد مارب في ارض سبأ هو رمز رقيها وانهيارها . ذلك هو محور القول في حديثنا هذا وهما النبأ والآية : وجئتك من سبأٍ بنبأ يقين . . لقد كان في مسكنهم آية . . .

يمكن القول إن الشواهد المنقوشة من حضارة سبأ لا تزال قليلة وناقصة بحيث لا تفي بحاجة الباحث إن هو اراد اعادة رسم الصورة التاريخية الجلية لتلك الحضارة العربية العريقة . . ناهيك بالشواهد المكتوبة والتي تروي كثيراً من الاخبار بنفس ملحمي يتغشاها غسق الماضي البعيد ويتردد من خلالها صدى التاريخ السحيق . كما أن الدلائل الاثرية المتوفرة ما زالت ناقصة وقاصرة ، خاصة اذا علم ان حصيلة العلماء من معلومات اثرية ، هي نتيجة مسح غير كامل ، قد لا يتجاوز السطح ونتيجة اللقى الاثرية التي وجدت بطريق الصدفة في مناطق شتى من أرض سبأ .

وقد يستثنى من ذلك محاولات قليلة كالتنقيب الذي اجرته بعثة المؤسسة الامريكية لدراسة الانسان في مارب عام ١٩٥٢ . والذي تركز في موضع محدد هو مدخل معبد أوام المعروف بمحرم بلقيس ، رغم كل ما شابه من سوء تدبير وقلة بصيرة ، كما ان نتائج المسح الاثري الشامل لبعض منطقة مأرب لم تصلنا

حتى هذه الساعة . وقد قامت به بعثة المعهد الاثري الالمانية لمدة ثلاث سنوات على الأقل(*). على إن الباحث قد يفيد من تلك النقوش السبئية الكثيرة التي عثر عليها في مناطق سبأ . وهي شواهد مهمة تمكن العلماء اخيراً من وضع قاموس جيد لمادتها ويؤمل حسب مبلغ العلم ان يصدر بثلاث لغات حية هذا العام ضمن منشورات جامعة صنعاء . ولكن هذه النقوش في مجملها هي عبارة عن نذور وقرابين تقدم للالهة في المناسبات المختلفة ، وقد نقشت بأسلوب صارم يدور معناها حول محور ديني معلوم مما يقلل من غزارة مادتها التاريخية وسعة معلوماتها الدالة . وهكذا صار من المتعذر على الباحث ان هو ألمّ بمتلك المعارف ، ومهما اعمل ذهنه في الربط والتحليل ان يحصل على نتائج دقيقة ومرضية تسعف على رسم تلك الصورة التاريخية المبتغاة .

ولكن المحاذير السالفة الذكر جميعها لا تعني بالضرورة استحالة رسم بعض ملامح تلك الحضارة وتلمس قدراً من التفاصيل التي تومىء الى كثير من حقائقها وإن كانت تقصر احياناً عن القطع بالحجة البالغة واثبات الحق الذي لا جمجمة فيه

أجل ! ليس بوسع المرء ان يقرر بثبات ، متى نشأت حضارة سبأ ، اذ الايماءات التاريخية قليلة والآراء التي قامت عليها متضاربة فالاخباريون العرب يذكرون ان تلك الحضارة موغلة في القدم ، ولكنهم يخفقون في الاتفاق حول مدى ذلك الايغال . ومجمل قولهم ان قحطان هو أول من ملك ارض اليمن وأول من تتوج بها ، وأن عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان هو الذي تسمى بسبأ وهو الذي بنى سد مأرب ، وكان العقب والذكر والملك لولديه حمير وكهلان . . .

أما العلماء المحدثون فلهم في ذلك مذاهب شتى . ومنهم الاستاذ « ألبرت جام » من كبار المعنيين بالنقوش اليمنية القديمة وممن شارك فيّ البحث العلمي الذي قامت به بعثة المؤسسة الامريكية لدراسة الانسان السالفة الذكر يرى الأستاذ جام ان صورة الحروف. التي اكتشفها في (العبر) عام ١٩٦٢ هي

(*) صدرت اخيراً بعض تلك النتائج .

اقدم ما عثر عليه من خط المسند وان ما عرف بحروف سيناء ـ الاصل والتي عثر عليها في سيناء، ويعتقد ان تاريخها يعود الى حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ـ لا بد وان تكون قد انتقلت من ارض سبأ وذلك مع السبئيين الذي يعتقد انهم استقروا في شمال غربي الجزيرة العربية إبان تلك الحقب .

أما العالم الالماني (هرمن فون فيسمن) والذي قضى اكثر من نصف قرن في دراسة تاريخ اليمن وجغرافيته قبل الاسلام وتوفي منذ عامين وهو يكتب مؤلفاً ضخماً عن نشوء الحضارة السبئية ـ فيرى ان اقدم كتابة يمنية قديمة هي تلك التي عثر عليها في (هجر بن حميد) من وادي بيحان والموسومة بين العلماء (بمونو جرام هجر بن حميد) ، ويعود تاريخها الى زمن يتراوح بين القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد استناداً الى معايير الكشف التاريخي بواسطة طريقة الراديو-كاربون والتي اجرتها بعثة المؤسسة الاميركية لدراسة الانسان .

ويرجح جمهور العلماء ان النبي سليمان عليه السلام قد عاش في حوالي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، وبناء عليه فإن زيارة ملكة سبأ له ، والمعروفة باسم بلقيس لا بد وأن تكون قد تمت في ذلك العصر نفسه .

ويرى بعض العلماء المحدثين ومنهم العالم السالف الذكر (هرمن فون فيسمن) ان الحاكمين السبئيين اللذين ذكرتهما الحوليات الاشورية هما المكربان نفساهما اللذان ذكرتهما النقوش اليمنية القديمة فاحدهما هو (يثع امر بين بن اسمهو على ينوف) والذي دفع جزية للملك الاشوري سرجون الثاني عام ٧١٥ قبل الميلاد وثانيهما هو (كرب إيل وتار بن ذمار علي) والذي بعث بهدية الى الملك الاشوري سنحريب عام ٦٨٥ قبل الميلاد. ولما كان اسم الاول وهو (يثع امر بين) ما زال منقوشاً على جدار الصدف الجنوبي لسد مارب واسم (كرب إيل وتار) قد دون في نقش صرواح الكبير والمشهور بنقش النصر ويعنى بغزواته الى معظم انحاء اليمن وذكر اصلاحاته وخاصة وسائل الري ـ فإنه من الممكن ان تعتبر تلك الاشارات النقشية ثوابت في تاريخ الدولة السبئية واقدمها يعود الى القرنين الثامن والسابع ق . م ولا يزال جمهور علماء النقوش اليمنية القديمة ومنهم الاستاذ « الفرد بيستن » يترددون في القول بإيغال السبئيين في القدم

ويعتقدون ان اقدم نقوشهم لا تتجاوز في تاريخها القرن الخامس قبل الميلاد وربما القرن السابع . ويسوغون ذلك بقولهم إن الوثائق الاثرية الكافية والادلة النقشية القاطعة ما زالت غير متوفرة ، ومن الاولى انتظار نتائج الابحاث الاثرية التي يتوقع ان تزخر بها اليمن في المستقبل القريب .

تلك هي ابرز اراء العلماء في زمن نشوء حضارة سبأ ، وقد حاولت ان اثبت منها اهمها قيمة ، واحدثها قولاً وابعدها عن الشطط واسلمها من التكرار ، واقلها رجماً بالغيب كل ذلك من بين فئة العلماء الباحثين المختصين في دراسات اليمن القديم تاريخاً وآثاراً ونقوشاً . ومهما كان الامر ، فإنه يجوز للمرء أن يقرر على ضوء ما سلف من جهد علمي مرموق ، أن حضارة سبأ لا بد وأن تكون قد نشأت قبل الالف الاول قبل الميلاد . ولكن ليس قبل ذلك بزمن بعيد ، خاصة اذا ما اخذ في الاعتبار ان النشوء هو محاولة الارتقاء وليس محاولة العيش البدائية لانسان عصور ما قبل التاريخ . . ورغم تفاوت الآراء وتباينها بهذا الشأن فإنها لا تنفي البته إمكان اعادة زمن نشوء الحضارة السبئية الى ما قبل الالف الاول قبل الميلاد ولا يضير ما قررناه كون هذه الآراء تختلف في مدى القدم بين من يرجحه. ولكن لا يتجاوز كثيراً الألف الأول قبل الميلاد ومن العلماء من يتردد في ذلك ويعتقد أن الحضارة السبئية وفق المصادر المعلومة تقتصر عن بلوغ ذلك الزمن .

أما اقدم ذكر لسبأ فقد ورد في التوراة وبصيغ مختلفة حوالي ٢٣ مرة أي منذ القرن العاشر قبل الميلاد . وتشير الدلائل الحبشية الى ان هجرة بعض قبائل اليمن الى الحبشة وابّان الدولة السبئية كانت في حوالي منتصف الالف الاول قبل الميلاد . اما بعد ذلك فقد ذكرت سبأ في النقوش اليمنية القديمة وفي المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) وفي الاخبار الاسلامية وفوق ذلك كله في القرآن الكريم . وارتبط ذكرها دائماً بالرخاء والعظمة والشهرة .

والاسم سبأ ليس من السبي كما يذكر الاخباريون ، حيث قيل أن عبد شمس ولي امر بني قحطان وسار الى ارض بابل وارمينية وارض الشام والفرات ومصر ، ورجع الى اليمن وقد سبى خلقا كثيراً فسمي سبأ . بل إن الاسم من

الغزو كما هو بيّن من مصدر اللفظ في النقوش اليمنية القديمة القديمة ، سبأ اي غزا و (سبأتن) اي الغزوة . ونون الاخر هي اداة التعريف ورسم المسند يثبت ان الاسم مهموز الاخر . وهو كثير في النقوش .

أما ارض سبأ في الاصل فهي منطقة مارب ، وتمتد الى الجوف شمالاً ثم ما صالاها من المرتفعات الشرقية مثل مناطق ارحب وخولان وقاع صنعاء وقاع البون ، وتشمل ارض سبأ في فترات امتداد حكمها مناطق ابعد من ذلك بكثير بل قد تشمل اليمن كله .

وكانت مارب اشهر مدينة يمنية قديمة وهي عاصمة سبأ لقرون عديدة وموقعها في السهل السبئي على مشارف صحراء صيهد يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان والذي كان يمتد من ميناء قنا على ساحل المحيط الهندي عبر حضرموت الى نجران ومنها الى ددان (العلا اليوم) ثم الى غزة على ساحل البحر المتوسط .

وتدل الخرائب والاثار المنتشرة والتي تكتنف قرية مارب الصغيرة ، على الضفة اليسرى من وادي (ذنه) على ضخامة المدينة القديمة وعظمها ، تلك المدينة التي اعتبرها بطليموس الجغرافي الاسكندري وسط الاقليم المناخي الاولى على الارض . وكانت مساحة المدينة حوالي كيلومتر واحد مربع ويحيط بها سور عرضه متر تقريباً وبثمانية ابواب ، وهي نفسها ابواب المدينة .

ويرجح ان التل اذي تقع عليه قرية مأرب اليوم هو مكان قصر سلحين ، الذي ذكره العلامة الهمداني قبل الف عام وتردد اسم القصر في النقوش ايضاً ، وقد بقيت المدينة عاصمة لسبأ وشهدت الحملة الرومانية عام ٢٤ ق . م وهي الحملة التي اخفقت امام اسوار مأرب واضطرت بعد أيام الى الأنسحاب .

وفي القرن الاول الميلادي ظهرت دولة حمير كقوة ضاربة بعاصمتها ظفار وقصرها ريدان وادعى حكامها حق السيطرة على مأرب ولقبوا انفسهم بملوك سبأ وذي ريدان . وهو لقب تنازعه معهم ملوك مأرب حفاظاً منهم على شرعية الحق التقليدي في مارب . على ان ذلك الوضع لم يدم طويلاً ففي القرن الثاني بعد الميلاد انتهى الحكم التقليدي في مأرب نتيجة صراع القوى في اليمن آنذاك

وانتهت مارب كعاصمة . ولكن ذلك لا يعني ان مأرب انتهت كمدينة بل بقيت محتفظة بمكانتها الدينية ومقامها الخاص المرموق زمناً ولما احتل الاحباش اليمن عام ٥٢٥ امر نجاشى الحبشة (كالب) ان يسجل نقش نصره في مارب وبنى في عهد ابرهة كنيسة فيها بعد ذلك .

ويمكن تقسيم سبأ على الاجمال وكإطار زمني الى ثلاث مراحل .

المرحلة الاولى : وتبدأ منذ حوالي الألف الاول قبل الميلاد حتى القرن الاول الميلاد . والمرحلة الثانية منذ القرن الاول الميلادي حتى نهاية القرن الثالث الميلادي ، والمرحلة الثالثة من القرن الثالث الميلادي حتى القرن السادس الميلادي . وقد وضع هذا التقسيم وفق معطيات جغرافية واجتماعية واقتصادية معلومة .

فالمرحلة الاولى هي تلك الفترة التي نشأت فيها حضارة سبأ وازدهرت في وديان مشرق اليمن ، وخاصة في وادي (ذنه) حيث كانت تقع مأرب العاصمة . والمرحلة الثانية هي فترة ظهور ملوك الطوائف واصطراعهم على ملك سبأ ولا سيما على اللقب ملك سبأ وذي ريدان ، وذلك في المرتفعات السبئية ، حيث القيعان الفسيحة الخصبة ، مثل قاع البون وقاع صنعاء.والمرحلة الثالثة هي تلك الفترة التي حسم فيها صراع القوى في اليمن لصالح حمير التي ازدهرت في المرتفعات الوسطى في مناطق قاع الحقل وقاع ذمار وقاع السحول وغيرها . ولكن اللقب الرسمي لحكام حمير كان يبدأ دوماً بذكر سبأ وكان شمر يهرعش الذي عاش في اواخر القرن الثالث الميلادي يلقب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة . وذو ريدان هي حمير ، ويمانة هي المناطق الساحلية المحاذية لساحل البحر العربي . وهي الفترة نفسها التي عرفت عند الاخباريين بزمن التبابعة وملوك حمير . وفيها ايضاً اصبحت عاصمة اليمن الاولى ظفار بدلاً من مأرب .

وعلى الرغم من تلك التحولات التاريخية خلال تلك المراحل ، كانتقال ثقل حضارة سبأ من الوديان الشرقية الى القيعان في المرتفعات ، وتداول اعنة الحكم بين كثير من اقيال سبأ وانتقال العاصمة من مأرب الى ظفار وتحول طرق

التجارة من البر الى البحر - على الرغم من ذلك فإن لحضارة سبأ معلماً ثابتاً واحداً على الدوام نما معها وصاحب اوج نفوذها وواكب فترات ضعفها وقوتها وشهد لحظات انهيارها ثم انهار على إثرها . بل إن صدى تاريخها ظل يتردد على مسامع الزمن مرتبطاً بذلك المعلم الثابت وبفضله ، وهو الى اليوم عنوان تلك الحضارة ورمزها وآيتها . ذلك هو سد مارب .

وكان صيت السد قد ذاع في التاريخ لما ناله من تكريم بذكره في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل** ﴾. والعرم بلغة أهل اليمن إلى اليوم هو السد أو الحاجز وقد يقال العريم . وسيل العرم هو سيل سد مارب .

ويعتبر سد مأرب أشهر آثار اليمن وأعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية وقد بني بين مأزمي الجبلين البلق الشمالي والبلق الجنوبي على وادي ذنه ميزاب اليمن الشرقي . ووادي ذنة هو اعظم اودية مشرق اليمن كما هو وادي مور اعظم اودية مغربه ، وذلك حيث تتجمع مساقط المياه في المرتفعات الشرقية من ناحية رداع وذمار ومراد وخولان وغيرها . وتأتي هذه السيول التي تكون عادة موسمية في فصلي الربيع والصيف وخاصة في ابريل مايو ويوليو وأغسطس لتكون وادي ذنه وتفضي جميعها الى موضع السد بين أزمي مأرب .ولم يكن الغرض من بناء السد هو خزن المياه طيلة العام ، وانما كان بالدرجة الأولى التحكم في تلك السيول الجارفة ، وتحويلها سريعاً الى الضياع والحقول في سهل مأرب والتي عرفت بالجنتين ويبلغ طول وجسم السد حوالي ٧٢٠ متراً ، ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٥ متراً . أما سمك جداره فإنه يقارب العشرين متراً . وكان الجدار ترابياً مملطاً بالحجارة والجص من الجانبين ، ومسنداً الى حائط واثر في الصخر، يقوم على حجارة ضخمة ملحمة الاساس بالقطر من نحاس او رصاص ، وذلك لأحكام الربط ، وربما تجنباً لأثر الزلازل وفي طرفي جسم السد يقع الصدفان وهم الفتحتان اللتان يخرج منهما الماء الى شبكة من قنوات الري ، والسدود

الصغيرة والمقاسم التي توزع المياه على الارض وفق نظام دقيق وعرف متبع .

قال الحسن بن أحمد الهمداني من علماء القرن الرابع الهجري يحكي قصة السد مستوحياً اياها من آثار السد التي شاهدها .

وجنتـا مـأرب من بعـد ذا مثـل ... والعـرش فيها وسـد وسط واديها
مـا بـين طـودين لا بـاد ولا كثب ... وجرية السد طول الـدهر يسقيها
كـأنها حـين تهـوي من مشاعبهـا ... كـواهل الصهب اذ دنت هـواديها
وتـارة اذ تعـالى المـاء غـاربـه ... جـدر مجصصـة مـالت سواقيهـا
تسقى بـه جنتاهـا ثم بعـدهمـا ... مسـافة الخمس مـوصـولاً ليـاليها
تغدو النواصف بالاطباق تملأها ... من كـل فـاكهــة بـالكف تجنيهـا

ولشهرة تلك البقاع الخضراء تضخمت اخبارها ، كما يرى من شعر الهمداني او كما نقرأه عند الاخباريين والمؤرخين القدماء ومثال ذلك قولهم : كانت ارض سبأ اخصب اليمن وانزهها واكثرها جناناً ، وهي بين قصر مرصوف وشجر مصفوف ، وكانت مسيرة ذلك أكثر من شهر الراكب على هذه الحال لا يرى فيها الشمس ولا يفارقه الظل . . وكان لهم بساتين عن يمين الوادي وشماله وكانت المرأة تمشي ومكتل على رأسها فيمتليء من الثمر .

وتدل الدراسات الاولية الحديثة والصور الجوية ان المساحة التي كان السد يرويها شاسعة ويقدر بأكثر من ٧٢ كـم مربع . وذلك يعني ان السد كان يسقي مسافة ٢٤ كلم على الاقل باتجاه نهية دغل في طرف مفازة صيهد . على أن هذا ليس هو القول الفصل ، فلا بد من تقدير زحف الصحراء وحركة التصحر الذي تسببه الرياح السافية عبر القرون وتطمر مساحات شاسعة من التربة الخصبة التي كان السد يرويها .

ويمكن اعتبار تقنية سد مأرب ومرافقه الزراعية فريدة في عصرها خاصة اذا ما قورنت بمنشآت الري المعهودة في حضارة وادي النيل او حضارة بلاد ما بين النهرين . فقد كان الري في تلك البلدان يعتمد على انهار دائمة الجريان ويقتصر جهد الانسان فيها على حسن استغلال تلك المياه وضبط فيضانها . أما في اليمن

فلم يكن هناك انهار دائمة الجريان وانما كان هناك وديان جافة ، لا تسيل المياه فيها سوى فترات قصيرة من السنة معلومة مواسمها ، ولهذا كان همّ السبئيين هو إقامة نظام للري يتلاءم مع تلك الشروط الطبيعية حتى يتمكنوا من حصر تلك السيول الجارفة وتصريفها الى الحقول باسرع وقت ممكن ثم خزن ما تبقى لفترات قصيرة .

وسد مارب قديم قدم ازدهار حضارة سبأ ، بل إن ذلك الازدهار مرتبط ولا ريب بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة ذلك السد الشهير ، وآثاره الباقية تدل على ان بناء السد قد مر بمراحل عديدة ، وأنه تضخم وتجدد مع الزمن . وكان جدار السد متماسكاً وثابتاً وحجارته ضخمة مما جعل بعض الناس يروون عن بنائه اجمل الاساطير فقالوا ان بنائه هم العمالقة من قوم عاد ، مثل لقمان ابن عاد ، وذلك في سالف العصر وسحيق الزمان ، وقالوا ان بناته هم سبأ،ومنهم من قال ان بناته هم حمير والأزد ،كما نسبوا بناءه الى بلقيس . غير أن النقوش التي عثر عليها في جدران السد تنبئنا أن من بناة السد وصدفيه المكرب (اسمه علي ينوف بن ذمار علي) وابنه (يثع امر بين) ويقدر العلماء فترة حكم هذين المكربين في حوالي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، ولهذا لا بد ان يكون السد قد أقيم لاول مرة منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة . اذ ان بناء السد من قبل (اسمه على ينوف) وابنه (يثع أمر بين) كان في شكله المتطور المحكم مما يدل على ان تجارب بنائه الاولى قد سبقت ذلك بقرون .

أما متى تفجر سد مأرب فسؤال يقتضي الاجابة عنه تتبع تاريخه عبر القرون اذ لم يتفجر السد مرة واحدة وانما صارع عوادي الزمن والطبيعة واهمال الانسان طيلة الفترة التي كان قائماً فيها . . ولا ريب انه تأثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدتها اليمن قديماً ، وتعرض للاهمال والكوارث الطبيعية مراراً وتفجر نتيجة ذلك مراراً ايضاً . على أننا لا نملك وثائق تثبت ذلك وإن كنا نملك بعضا منها عن مرات تفجره بعد الميلاد . وهي نقوش يمنية قديمة تذكر بوضوح تفجر السد وما بذل حينها من جهود كبيرة في سبيل ترميمه واصلاحه . وربما عثر في المستقبل على نقوش اخرى تقدم معلومات اغنى عن بناء السد وعن

تجديده وعدد مرات تصدعه .

والانفجارات التي سجلتها النقوش المعروفة للسد هي ثلاثة . أولها انكسار العرم الذي حدث في عهد « ثاران يهنعم بن ذمار علي يهبر » ودليل ذلك نقش اسمه (جام ٦٧١) عثر عليه في مأرب اي في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ، ويذكر أنه في عهد (ثاران يهنعم) وابنه (ملكي كرب يهأمن) الذي كان يشاركه في الحكم ، تم اصلاح ما تهدم من السد في حوالي ثلاثة اشهر . وثانيهما حدث في عهد (شرحبيل يعفر ابن ابي كرب اسعد) التبع اليماني المشهور وذلك بين عامي ٤٤٩ و ٤٥٠ بعد الميلاد.ويذكر نقش اسمه المدونة (٤٥٠) انه تم اصلاح ما تهدم من السد من جداره او قنواته ، واعيد بناؤه سوياً كما كان وذلك في خمسة أشهر من العمل المتواصل واشتركت في إصلاحه عشرون الفا من السواعد اليمنية الفتية . وتفجر سد مأرب للمرة الثالثة في عهد ابرهة الذي حكم اليمن بعد الغزو الحبشي والياً لنجاشي الحبشة ثم حاكماً مستقلاً عنه . وكان ذلك الانفجار في عام ٦٥٧ بالتقويم الحميري (الذي يبدأ ١١٥ قبل الميلاد) ويوافق ذلك ٥٤٢ بعد الميلاد . وقد عمل في إصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرفت على ترميمه اموال طائلة اشير اليها في نقش ابرهة الذي عثر عليه قرب السد واسمه (المدونة ٥٤٢) . وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو في احدى حملاته لاخضاع بعض القبائل الثائرة. وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشترك الجميع في إصلاح السد وباشراف ابرهة نفسه .

أما متى تفجر سد مأرب للمرة الاخيرة ، وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم ، فلا يعلم زمانها بدقة وإن كان جمهور العلماء يرى ان تلك الحادثة لا بد وان تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادي اي بعد عام ٥٥٠ وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد ﷺ بسنوات قليلة .

ولكن لماذا يتهدم سد مأرب ؟ ذلك أمر تخالف الناس عليه وامتزجت في الاجابة عن السؤال الحقيقة والخيال فكان ان اضيفت الى ملحمة التاريخ اليمني صفحة رائعة من القصص الجميل الممتع . حتى قالوا ان السد خربته فأرة أو

جرذ يقال له الخلد ونسجوا حول ذلك عدداً من القصص . ولكن مثل هذا الرأي كان قد دحضه الاقدمون قبل المحدثين فقالوا : قيل خربت الفأرة السد ليكون ذلك اظهر في الاعجوبة والاختلاف فيه عند اهل الديار لشهرته .

وقد ذكرت في القرآن الكريم العبرة الالهية في انهيار السد قال تعالى : **﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾**. ولكن الاسباب المباشرة تستند العوامل عدة ، منها امتلاء السد بالتراب والحجارة وغيرها مما يسب ضغطاً شديداً على جدار السد فينكسر اذ لا بد للسد من صيانة منتظمة ومنظمة وفي فترات محددة ولو انشغل الناس عنه واهملوا تنظيفه من كميات التراب المتراكمة وترميم ما تآكل من اجزائه بحكم تقادم الزمن فلا ريب ان الانكسار حاصل .

ومنها كثرة السيول في بعض سني الخير العميم مما يفوق طاقة السد العادية وقدرته على الاحتمال . فيكون السبب حينئذ كارثة طبيعية ومثل ذلك حدوث الزلازل .

على ان انهيار السد للمرة الاخيرة كان في زمان شاخت فيه تلك الحضارة الزاهية وساد اليمن فرقة وانقسام وصراع ديني عنيف وغلب عنصر البدوة على عناصر الحضارة في كثير من مناطق اليمن . وكان تفجر السد ايضاً في زمان سقطت فيه اليمن تحت الاحتلال الحبشي وقوي فيها نفوذ الدولتين الكبيرتين آنذاك الروم والفرس - كل ذلك كفيل بان يجر اليمن الى بداية انهيار حضاري . وكان تهدم سد مأرب نتيجة لذلك وشاهداً على افول ذلك المجد التليد الذي طبقت صهرته الآفاق - قال تعالى : **﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتين جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل ﴾**. ومن يزور مأرب اليوم سير ان الخمط (قيل هو الأراك) والاثل وبعض اجار اشجار العلب وهي السدر ما زالت الغالبة على النباتات البرية في مأرب ، سيرى الزائر ايضاً بقايا مقاسم الماء من مذاخر السد فيها بين الضياع الغامرة وشيئاً من جسم السد . كما سيرى بناء احد الصدفين وهما الفتحتان اللتان يخرج منهما الماء لا يزال باقياً تماماً كما وصفها الحسن بن احمد الهمداني قبل الف عام لدى زيارته لمأرب قال :

، ورايت بناء احد الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه الماء قائماً بحاله على اوثق ما كان ولا يتغير الى ان يشاء الله عز وجل .

ولكن هل يا ترى يمكن إعادة بناء سد مأرب ؟ سؤال هام يشغل بال الكثير اليوم بل إن خطوات عملية قد تمت في سبيل تحقيق ذلك والحق اقول لكم أن ليس سهلاً الاجابة عن هذا السؤال ؟

إن التاريخ لا يعيد نفسه ، كما كان تماماً وانما قد يكرر ما يشبه بعض معالم مساره. وتشير التقارير العلمية الحديثة والتي بنيت على بعض الدراسات الطبيعية والسكانية والمناخية ان تغييراً هائلاً قد طرأ على ارض سبأ . . وأبرز ملامح ذلك التغيير هي ما يلي : -

أولاً : انجراف كثير من التربة التي تراكمت عبر القرون من جراء السيول .

ثانياً : زحف الصحراء على بعض الاراضي الباقية مما يسبب نقصاً كبيراً في التربة الصالحة للزراعة .

ثالثاً : ربما كانت كمية السيول التي ترد الى وادي ذنه ليست بتلك الكميات التي كانت تأتي قديماً ، نظراً لبعض التغييرات المناخية الطفيفة التي طرأت على المنطقة ككل .

رابعاً : إن السيول قد عمقت الوادي فارتفعت الاراضي الباقية والصالحة للزراعة عن مستواها القديم مما يقلل من فائدة السد بوضعه القديم .

خامساً : ان عدد السكان في مأرب قد لا يفي بحاجة الارض من المزارعين ، والعاملين لاعادة تعمير تلك المناطق تعميراً يقارب ما كان عليه في العصور الخالية ، خاصة وأن ظروف العمل حالياً قد لا تيسر العنصر البشري الكافي ، بسبب اشتغال الناس بالعمران ومشروعات التنمية في كل انحاء البلاد او بسبب الهجرة الى خارجها .

واخيراً ما الذي يمكن ان يحدث للآثار اليمنية المنتشرة في مارب اذ لا شك ان تنفيذ مشروع اعادة بناء السد من جديد سيعود على الاثار القديمة بالضرر

الكبير ويكفي ان نذكر مثلاً اقامة مخيمات الشغل والتنقل الى مكان السد وإعادة صياغة شبكات الري ، ناهيك ببقايا السد نفسه . وتلك الاثار النفيسة هي اهم الشواهد المادية على تاريخ سبأ ولا تقدر بثمن وهي ملك لليمن والعرب ككل وللانسانية جمعاء . فهل يمكن إعادة بنائه حقاً ؟

إن تلك التغيرات والعوائق السالفة الذكر لا تعني ابداً استحالة بناء سد مأرب بل إن تشييد طريق صنعاء ـ مأرب والذي استكمل حديثاً والوعي الجديد الذي يتمتع به اهل المنطقة في مجال التنمية الزراعية والاهتمام الخاص الذي توليه القيادة والدولة في سبيل تطور المنطقة بشرياً وزراعياً كلها امور تبشر بتذليل كثير من تلك العقبات التي قد تعترض اعادة بناء السد .

كما ان القيام بدراسة تلك المشكلات دراسة طبيعية وهيدرولوجية وسكانية واثرية ، قد تسعف على تقديم حلول علمية ومناسبة . وفعلاً قد بدأت مثل تلك الدراسات ومنها ما ينبيء بأنه يمكن اعادة بناء السد رغم تلك العوائق ، كأن يعاد بناؤه مثلاً ، ليس في مكانه القديم وانما على بعد ثلاثة كيلومترات من موقع السد الحالي في اعلى الوادي حيث يصلح مكان هناك لاقامة سد جديد اصغر حجماً ، ولكنه يلائم اوضاع المنطقة المناخية والسكانية والزراعية . وقد يكفل هذا السد احياء اراضي شاسعة تزيد على ٥٠٠٠ هكتار وتوفير مياه جوفية تسعف على استصلاح اكثر من ذلك (وكان السد يسقي ، قديماً الى مسافة تزيد ٢٤ كيلومتر) . كما سيساعد على اعداد مخطط اثري علمي دقيق ، يكفل صيانة اهم المواقع الاثرية ويجاري تنفيذه عملية بناء السد ويواكبها .

وهكذا نضمن بذلك بقاء آثار الماضي شامخة وشاهدة ، وفي الوقت نفسه ننعم بخيرات سد حديث يربط الحاضر بالماضي ويحيى مدينة مارب العتيقة ، وذكرى حضارة سبأ التليدة : آية جديدة ـ جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . ومن يدري قرائي الكرام فلربما كنت قد جئتكم اليوم من سبأ بنبأ يقين ، وما ذلك على الله بعزيز .

دولة معين
هل هي أقدم من سبأ ؟

قبل تسع سنوات* صدر عن معهد الدراسات الشرقية بمدينة « نابولي » الايطالية مدونة للنقوش المعينية جمعها ونسقها عالم ايطالي جم التواضع اسمه « جيوفاني جاربيني » أغفل ذكر اسمه على غلاف الكتاب واكتفى بالاشارة اليه في المقدمة . وتضم تلك المدونة « ٤٦٧ » نقشاً هي كل حصاد نقوش منطقة الجوف . قبل هذا الجهد المفيد بحوالي مائة عام تمكن العالم الفرنسي « جوزف هاليفي » من زيارة الجوف ونقل الى المهتمين اول اخبار علمية عن آثار الجوف ونقوشه . ولأول مرة في العصر الحديث بدأت معين تحتل مكانها في صفحات تاريخ اليمن القديم دولة وحضارة . واستناداً الى قلة عناية المؤرخين العرب مقارنة بما ذكروه عن سبأ وحمير استنتج العالم النمساوي « جلازر » في مطلع هذا القرن ان سبب ذلك هو تقادم العهد على دولة معين ولذلك فمعين هي أقدم الدول اليمنية القديمة . ودعم رأيه ذاك بما ورد في نقش صرواح السبئي في ذكر مدن نشان ونشق وغيرها من الجوف منذ القرن الخامس قبل الميلاد . ورسخ هذا الرأي الرحالة الانجليزي « فيلبي » في منتصف هذا القرن عندما نشر قوائم ملوك معين وافترض القرن الثاني عشر قبل الميلاد بداية لذلك . وتعود الناس

---

* عام ١٩٧٥

بعد ذلك على الاخذ برأي « جلازر » وبقيت معين في اذهانهم الى اليوم اقدم الدول اليمنية القديمة . وقد نشر عالم الماني معنى بدراسة اليمن القديم ونقوشه منذ فترة قريبة مقالاً تناول دولة معين واعتبر ان كتابه تاريخ معين اشد تعقيدا من كتابة تاريخ أية دولة يمنية قديمة ومن أسباب ذلك صعوبة إزاحة الاعتقاد الشائع بأن معين اقدم الدول اليمنية القديمة . على أن السبب الرئيسي هو توقف الكشف الآثاري في الجوف عند زيارة العالم المصري . محمد توفيق عضو بعثة مكافحة الجراد الى اليمن في مطلع الاربعينات « وكان اول من نشر صوراً فوتوغرافية عن أرض الجوف ونقوشها » وسلفه في آواخر الاربعينات عالم الآثار المصرية احمد فخري .

ومنذ ذلك الحين ليس هناك إضافة تذكر عن آثار تلك المنطقة رغم عدة زيارات خاطفة قام بها ولا يزال يقوم بها نفر من الهواة واحياناً بعض العلماء .

ولذلك فلن يمحو افتراض « جلازر » من أذهان الناس إلا حقائق ناصعة تجود بها علينا التنقيبات الاثرية في الجوف وهو امر كاد ان يفوت اوانه . ولن تجدي نفعاً امام القارىء العادي دقائق علم تطور الخطوط والاستنتاجات المنطقية التي يقوم بها الباحثون في خفايا النقوش السبئية التي تحدثنا عن مدن الجوف التابعة لها والتي استغلت ضعف دولة سبأ لتنفصل عنها وتنشيء دولة معين لأول مرة في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد . وفي آواخر القرن نفسه كان أوج ازدهارها وكيف ان اقدم الاخبار عن معين تشهد بها نقوش سبئية عثر عليها في الجوف ، وكيف أن جل ما نعرفه عن صلات المعينيين التجارية بشعوب البحر الابيض المتوسط وشمال الجزيرة من خلال مستوطنتها « ددان » ويعود معظمه الى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، كل ذلك معلوم لدى المتخصصين وليس بينهم اليوم من يدعي قدم دولة معين . وان كان ليس بينهم من ينكر قدم قبائل معين التي سكنت اليمن كغيرها من القبائل جنوب الجزيرة العربية منذ عهد سحيق .-الخلاف هو حول قيام الدولة وازدهار الحضارة المعينية وليس حول قدم الشعب العربي وقبائله في اليمن منذ فجر التاريخ .

قلنا إن تقادم العهد على دولة معين كان من أهم الأسباب التي دعت بعض

العلماء في مطلع هذا القرن الى الاعتقاد بأن معين اقدم من سبأ . ودليلهم في ذلك أن أخبار معين من المصادر العربية أقل وفرة من أخبار سبأ وحتى اذا قيست باخبار غيرها من الدول فإنها لا تعدو ان تكون شذرات قليلة ولا تنبيء تلك الأخبار بوضوح عن دولة معينة وإنما تذكر آثار معين في الجوف . على أن العلماء ومنهم الأوربيون هم الذين ينقضون ذلك الرأي القائل بقدم دولة معين على دولة سبأ ، ومن الأدلة التي يستشهد بها اليوم على ذلك هي :

(١) إن المصادر القديمة من خارج اليمن كالكتابات الأشورية والتوراة تتحدث عن سبأ ولا تشير الى معين . وحتى المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) تخبر عن سبأ اكثر مما تخبر عن معين .

(٢) إن نقشاً قديماً كنقش كرب إيل وتار من صرواح والذي يعود تاريخه الى ما قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد . وربما اعتبر من أقدم النقوش اليمنية القديمة على الاطلاق - يذكر دولاً مثل أوسان وحضرموت وقتبان بجانب سبأ ولا يذكر دولة معين . كما يذكر اسماء مدن الجوف كنشان وكتلم وعرارتم على أساس انها مدن سبئية . وبعد نقش صرواح بزمن تتحدث النقوش السبئة والمعينية عن دولة معين وملوكها الى جانب دولة سبأ .

(٣) إن دراسة تطور خط المسند قد بينت وفق معطياتها أن اقدم اشكال الخطوط اليمنية القديمة هي تلك التي عثر عليها في مأرب وصرواح وغيرها وليس النقوش المعينية التي عثر عليها في الجوف وباللهجة المعينية .

(٤) إن أقدم النقوش التي عثر عليها في الجوف قد كتبت بلهجة سبئية وليس بلهجة معينية والفرق بين اللهجتين معلوم وواضح .

(٥) إنما يعرف من معلومات نقشية عن ازدهار دولة معين ربما لا تتعدى القرن الرابع قبل الميلاد وإن اكثر ما نعرفه عن حضارة تلك الدولة يعود الى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد . بينما تتجاوز معلوماتنا عن سبأ تلك الفترة بزمن .

إن أخبار معين في المصادر العربية اقل وفرة من مصادر سبأ وليس لدي الباحث من الأصول غير شذرات كتابي الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني « تاريخ وفاته غير متفق عليه حوالي منتصف القرن الرابع الهجري » وهما صفة جزيرة العرب والجزء الثامن الاكليل وفيهما يقول : -

« ومن محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف ارحب . . . واذا ذكرنا معين . . . فإنا نذكر ما بالجوف من الآثار والعمور » . . ويمثل على ذلك بخرائب السوداء والبيضاء ومعين وبراقش وكمناونشق . ويستشهد الهمداني بقول الشاعر اليمني القديم مالك بن حريم :

اذا سألتك نفسك ان ترانا	بملك الجوف فاغترب النجادا
ترانا بالقرارة غير شك	نقودها مسومة جيادا
علينا كل فضفاض دلاص	واسياف ورثناهن عادا
سنحمي الجوف ما دامت معين	بأسفله مقابلة عرادا
ونلحق من يزاحمنا عليه	بأعراض اليمامة أو جرادا
نبيت مع الثعالب حيث باتت	ونجعل صمغ عرفطهن زادا

أما أخبار دولة معين من النقوش اليمنية القديمة فتروي انه حوالي ٤٠٠ قبل الميلاد خرجت مناطق الجوف عن دولة سبأ بقيادة مدينة يثل (براقش) ونشق واقام المعينيون دولتهم واتخذواقرناو (قرناء) عاصمة في وادي الجوف وتمكنوا من السيطرة على طريق البخور التجاري بمساندة حضرموت وقتبان . وفي سبيل ازدهار تجارتهم تجنبوا مد نفوذهم على مناطق سبأ واتجهوا شمالاً فأقاموا المحطات وبنوا مستوطنة معينية في شمال الجزيرة ددان (العلا) . وتذكر النقوش تجاراً من معين في مصر وجزيرة (ديلوس) اليونانية . فهناك نقش عثر عليه بمصر على قبر تاجر معيني كان يتاجر بالمر والقرفه في عهد (بطليموس الثاني) حوالي ٢٦٤ قبل الميلاد . ولما كان المعينيون قد عرفوا في العالم القديم فإن المؤرخين اليونان يذكرونهم في مؤلفاتهم ويسمون البخور باسمهم كما يشيرون الى الدول المعاصرة لهم في اليمن كالسبئيين والقتبانيين والحضارمة وتلك دلالة اخرى على معاصرة معين لسبأ وليس على سبقها .

وكان وراء نجاح المعينيين مدينة براقش تلك المدينة التي قادت ثورتهم على سبأ وتركزت فيها الحياة الدينية التي كانت تحكم حياة المعينيين الى حد كبير وينسب الهمداني بيتين من الشعراء لعملقة ذي جدن تدل على نفوذ هذه المدينة في تاريخ المعينيين :

وقد أسوا براقش حين أسوا ... ببلقعة ومنبسط انيق

وحلوا في معين حين حلوا ... بعزهم لدى الفيح العميق

ومن المصادفات ان (هاليفي) الذي اشير اليه بانه اول من نبه العلماء الى آثار دولة معين في العصر الحديث كان اول ما شاهده في الجوف هو آثار براقش .

عادت معين في القرن الاول قبل الميلاد الى سبأ بعد ان اخفقت في سياسة عدم التحرش بسبأ وتركز كل همها على طريق التجارة فما أن انست سبأ من معين ضعفاً حتى احتوتها من جديد وبقيت سبأ كما كانت دائماً عمود التاريخ السياسي اليمني تنفصل عنها مناطق لتكون دولاً ثم لا تلبث بعد حين ان تضم اليها من جديد .

وبعد . . ان تاريخ معين الحقيقي لا يزال في جوف ارض الجوف. وما لم تمسح تلك الخرائب الكثيفة على وادي مذاب مسحاً اثارياً شاملاً ثم يتلو ذلك تنقيب علمي مبرمج فان الحديث عن حضارة معين وقيام دولتها وسقوطها ومدى عظمة انجاز اليمني في تلك المنطقة يظل قصيراً وقاصراً إن لم نقل رجماً بالغيب .

طريق اللبان التجاري

ربما كان من المفيد ان نوجه بعض الاهتمام نحو الدراسات الجادة والمنصفة التي يكتبها العلماء الاجانب عن اليمن وبلغات اجنبية ويلاحظ انه في السنوات الاخيرة تزايد صدور الكتب والمقالات الاجنبية التي تعني بدراسة مجالات شتى عن اليمن كالتاريخ ، واللغة والاقتصاد ، والمجتمع . ومعظم تلك الدراسات ان لم يكن كلها لم تلق الى الآن سبيلها الى اللغة العربية ولا يعرفها سوى أولئك الذين يحسنون اللغات التي ألفت بها تلك الدراسات . وازعم ان مكتباتنا المتخصصة والخاصة قد جمعت حصاداً وفيراً من تلك البحوث مما قد يبشر بظهور مبادرات جماعية او فردية يقوم بها المهتمون في بلادنا او في وطننا العربي في سبيل تنشيط حركة ترجمة هادفة تييسر لنا إمكانات اوسع للبحث العلمي وتوفر أدوات أدق لصناعته . ولربما ساهمت تلك البحوث العلمية المنقولة بنصيب حسن في تقديم تصورات اكثر عمقاً لماضينا وترشيد توجهات اكثر تكاملاً لحاضرنا ومستقبلنا . ولما كان هؤلاء الباحثون الاجانب قد سبقونا الى اتقان المناهج العلمية السوية وفاقونا في حسن استعمال أدوات الصنعة وربما كانوا ايضاً اكثر همة واداء وبالإضافة الى ما اتيح لهم من فرص المقام في اليمن والقيام بالدراسات الميدانية وامكانات الاطلاع على نوادر الموروث العربي من كتب ومخطوطات موزعة في شتى اقطار الدنيا في جو هادىء وتفرغ علمي يغبطون عليه ـ فإنه لن يضيرنا في شيء ان نقرأ كل ما كتبوه او نفيد مما اتقنوه وليس

جديداً أن يقال أن معظم ما نستهلكه يومياً من ضروريات المعيشة وترفها نتاج أجنبي، ونحن نعلم ان ليس كله خيراً . أفلا يجدر بنا ان نطلع قدر الامكان على ما يقوله الناس عنا من خير وشر سواء كان ذلك في إطار الحديث عن الماضي او مجالات الحياة اليوم .ولو حاولنا ان نستقصي ما كتبه الاجانب عن اليمن.لملأنا رفوف مكتباتنا . وربما اغنت الاشارة هنا الى وفرة ما صدر عن اليمن من كتب وبحوث شملت معظم جوانب الحياة ابتداء من قصة رحالة البندقية (لود فيكو دي فارتيما) الذي نقل اوصافاً قيمة عن اليمن ومدنها في منتصف القرن السادس عشر مثل « زبيد » و « عدن » و « صنعاء » و « تعز » و « ذمار » و « المقرانة » مروراً بقصة رحلات (نيبور الدنمركي) التي صدرت في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ودونت معلومات كثيرة عن اليمن تراوحت بين وصف الحياة السياسية وذكر انواع النبات والحيوان بما فيها خيول « ذمار » وجودتها،وانتهاء ببحوث البعثات الاجنبية وخاصة الاوروبية منذ منتصف هذا القرن على تنوع مشاربها العلمية والتجارية الى ان شملت قضايا متعددة مثل آثار مارب ومعمار صنعاء وتعاونيات المحويت واعراف ارحب وتشجير مناخة ملح الصليف وقات الوادي وبن المخا، ولبان ظفار .

وقد وصلني قريباً العدد الاخير من مجلة جمعية (الصداقة اليمنية) ١١ / ١٩٨١ . يحمل مقالا صغيرا عن « طريق اللبان القديمة » بقلم الدكتور « والتر موللر » استاذ الدراسات السامية بجامعة ماربوج بالمانيا الاتحادية . وهو عالم جليل يشتغل منذ مطلع الستينات بالدراسات القديمة وخاصة علم النقوش وله في ذلك ابحاث كثيرة . وقد زار اليمن مراراً والقى دروساً ومحاضرات بجامعة صنعاء . وكانت احدى محاضراته في الجامعة حول اللبان في المصادر الكلاسيكية . وانا اعلم انه قد كتب عن اللبان عدة مقالات علمية اهمها ذلك البحث الطويل الذي نشر في احدى دوائر المعارف الالمانية المتخصصة (ريال انسكلبودي).وكاد ان يستوفي في هذا المقال كل ما يمكن توفره من ماده علمية حول تاريخ اللبان وطرق استعماله وأهميته في تاريخ العالم القديم وخاصة في اليمن . وكنت قد اعددت بحثاً في هذا الشأن والقيت بعضاً منه على طلابي في

الجامعة استندت في معظمه الى تلك المادة العلمية الغزيرة التي اعدها الاستاذ « موللر » ولكني عدلت عن نشر ذلك البحث وفضلت نقل المقال الطويل الذي تنشره دائرة المعارف المذكورة من الالمانية الى العربية وذلك لاهميته واستفاضته ، وان الحق ما فتح الله عليّ من جديد في اخر المقال . ولما زار الاستاذ « موللر » اليمن في العام الماضي اشار علي بان انتظر حتى يلحق الزيادات التي جمعها في الفقرة التي تلت كتابة مقاله . كما ان المقال ينبغي ان ينشر في مجلة متخصصة لكثرة ما فيه من نصوص ومصطلحات باللغات اليونانية واللاتينية وغيرها من اللغات القديمة بما فيها لغة النقوش اليمنية القديمة .

ولما وصلني منذ ايام العدد الاخير من مجلة جمعية الصداقة اليمنية الالمانية وقرأت فيها مقال الدكتور « موللر » لمست فيه ايجازاً غير ممل وبساطة في العرض تنم عن إحاطة وتجنباً للاستشهادات الغزيرة والمناقشات اللغوية المستفيضة التي عرفتها في مقاله الطويل المذكور وقد كتب المقال ليلائم طبيعة مجلة الصداقة اليمنية الالمانية والتي تعني عادة بتعريف القارىء الالماني باليمن ماضيه وحاضره في مقالات موجزة واسلوب يجانب التعقيد ويميل الى التشويق . فاستحسنت ان ابدأ بنقل هذا المقال لقارىء الملحق(*) الذي سبق وان نقلت له من الالمانية بعضاً من مقالات تلك السلسلة الطريفة والمفيدة التي يكتبها الاستاذ «موللر» في المجلة المذكورة عن اليمن القديم والتي بلغت بهذه المقالة العاشرة ، وقد استأذنت المؤلف في الزيادات التي تتم الفائدة ولا يمس من مبنى المقال او تسلبه نَفَسَه .

" كان يعد اللبان ـ وهو صمغ شجر من فصيلة « بوسوليا » من احب انواع الطيوب واغلاها في بلدان الشرق الادنى القديم وحوض البحر المتوسط . اذ ان استعماله آنذاك لم يقتصر على ضرورة حرقه بخوراً لدى تقديم القرابين للالهة في معابدها وانما كان يحرق ايضاً لدى مراسيم دفن الموتى او الاحتفالات العامة لتكريم الأحياء . وقد يقدم كهدية ثمينة او يدخل في تركيب الادوية . وكان اجود انواعه يأتي من جنوب جزيرة العرب حيث تنمو خير فصائل اشجار اللبان

(*) ملحق الثورة اليمنية الأسبوعي .

المسمى (بوسوليا) في الجزء الاوسط من الساحل الجنوبي وكذلك في جزيرة « سقطرة » وبلاد الصومال . وذلك بسبب توفر شروط التربة والمناخ الملائمة لنمو تلك الاشجار ولكن شروط انتاج اللبان لم تكن متوفرة في البلدان التي تشتد رغبتها فيه مما جرّ الى تطوير تجارة واسعة نشيطة لهذه السلعة وبالتالي توسع دول جنوب الجزيرة العربية التي اقامت مستوطنات في شمال الجزيرة لحط الرحال مما أدى أيضاً الى تنافس مستديم بين تلك الدول في سبيل السيطرة على طرق التجارة. وكان اول هذه الطرق طريق بري يمتد من ظفار مصدر اللبان الى وادي حضرموت . وثانيها طريق بحري يمتد من ظفار الى ميناء قنا القديم ومحاذياً للساحل . ومن ثم اراضي (الجول) المرتفعة الى شبوة وهناك من عاصمة حضرموت وحيث تلتقي مختلف الطرق يبدأ طريق اللبان الفعلي . وهو طريق يتحكم في مساره مدى نفوذ كل دولة من دول اليمن القديم وخاصة تلك التي يلامس حاضرتها الطريق كتمنع عاصمة قتبان او مأرب عاصمة سبأ . فاللبان الذي يصدر خصيصاً الى الاسواق الاجنبية ينبغي ان يمر طريقه عبر تلك الحواضر حتى ولو اقتضى الامر ان يطول حتى تفيد من الرسوم الجمركية .

ويبدو أن تلك الرسوم التي تؤخذ من تجارة اللبان كانت تكوّن الجزء الاكبر من المصروفات العامة . ويتجه الطريق بعد ذلك من مارب الى نجران عبر جوف المعينيين او يتخذ اتجاهاً اخر عبر سلسلة من موارد المياه حيث تقع الوديان المنحدرة من سلسلة التلال الشرقية الواقعة بين المناطق المرتفعة ورمال الصحراء . . وفي حوالي منتصف الطريق هذا يلتقيه طريق موقوت اخر من طرق القوافل في الناحية الجنوبية الشرقية وتأتي من حضرموت ماراً عبر العبر ثم يتجه نحو المحطة الكبرى (نجران) ملتقى الطريق التجاري الكبير. ويتفرع من نجران طريق يمر عبر « قرية الفاو » حيث نقب في السنوات الأخيرة علماء الأثار السعوديون في وادي الدوارسر و منه الى اليمامة و «جرها» في منطقة الخليج ثم الى جنوب بلاد ما بين النهرين.وفي شرق الجزيرة كان لاهل جرها اهمية خاصة في تجارة اللبان حيث كان لهم دور كبير في تسويق منتجات اليمن وكانوا معروفين حتى في زمن الاسكندر الكبير . ويذكر استرابو بوضوح ان اهل جرها كانوا

يشتغلون وسطاء في تسويق المنتوجات العربية وينقل ارسطو بول (حوالي القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد) ما معناه ان اهل جرها كانوا ينقلون البضائع الى بابل ومنها تنقل الى كل مكان .

وبعد ان يترك الطريق بلاد اليمن (بالمدلول التاريخي) يبدأ طريق اللبان مساره الفعلي الطويل نحو الشمال ملائماً مقتضى الظروف المناخية والطوبوغرافية بحيث يتجافى المرتفعات والمنخفضات الساحلية الوبيئة المحاذية للبحر الاحمر وهو الطريق الذي يناسب ايضاً الجمل الذي يحمل الاثقال والبضائع عبر تلك المسافات الشاسعة . فمن نجران الى يثرب (المدينة في العصر الاسلامي) يتخذ طريق القوافل المسار نفسه الذي عرف بعد ذلك بدرب اصحاب الفيل ابان حمل ابرهة على مكة . وهو طريق يصعب تحديد مسالكه تماماً . ومن يثرب يتجه الطريق شمالاً ليمر عبر ددان (وهي اليوم العلا في شمال الحجاز) ، وحيث أقام المعينيون ومن قبلهم السبئيون مستوطناتهم الشمالية ثم الى حاضرة ارض الانباط البترا . وكان للانباط دور هام على طريق التجارة بحكم موقعهم الجغرافي ، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد كانت البترا حاضرة الانباط مركزاً تجارياً هاماً للطيوب التي كانت تجلب من ارض العربية السعيدة (اليمن) ثم تنقل لتسويقها في مناطق حوض البحر المتوسط . ويتفرع من طريق اللبان في البترا فرع يسير موازياً للبحر الميت ونهر الاردن نحو دمشق ومنها الى مدن الساحل الفينيقي وفرع آخر يتجه نحو الشمال الى بلاد ما بين النهرين، أما الفرع الرئيسي فيتجه نحو ميناء غزة على ساحل البحر المتوسط مجمع السلع العربية . ويمكن تبين اهمية موقع هذا الميناء بالنسبة للسبئيين من خلال اخبار الملك الاشوري سرجون الثاني الذي احتل غزة في ٧١٥ ق . م وحصل على جرية من المكرب السبئي (يثع امر) مع غيرها من انواع الأفاوية والتوابل . وببلوغ غزة يكون المرء قد مر بخمس وستين محطة تنزل فيها القوافل منذ ان غادرت عاصمة القتبانيين حسب رواية بلينيوس المتوفي حوالي سنة ٧٩ ميلادية في الباب العاشر من كتابه التاريخ الطبيعي.وللناس في مدى تواجد هذا الطريق وعلى هذا النحو افتراضات متجددة ، حيث يشكون في وجوده منذ قديم الزمان . ان طريقاً

للقوافل يمر عبر طريق طويل كهذا يتعذر افتراضه دون دابة تحمل الاثقال كالجمل . فالمعروف ان استئناس الجمل بطريقة فعالة لم يتم إلا في العصر البرونزي اي حوالي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد . كما ان اقدم ما عرف من هذا الطريق هي تلك الاخبار التي تستند الى ما ورد في العهد القديم (التوراة) عن زيارة ملكة سبأ التاريخية للنبي سليمان وهي اخبار يمكن ان يستقرأ منها نواة لانتشار العلاقات التجارية القائمة آنذاك وخاصة وان اخبار تلك الزيارة ترتبط بذكر كميات كبيرة من الطيوب .

وكان « ثيوفراست » (٣٧١ - ٢٨٧) قد روى ان حصاد اللبان يحضر اولاً الى المعبد حيث يكدس اصحابه اكوامهم كل على حدة ويسجل على لوح وزن كل كوم وثمنه . وكان سكان الجزر ايضاً يحضرون لبانهم الى اليابسة ويبيعونه من التجار المعنيين هنالك وهؤلاء يتولون بدورهم تسويقه . ويضيف استرابو ان كثيراً من السبئيين كانوا يشتغلون بتجارة الطيوب. واسترابو يعرف اليمن جيداً ، حيث كان قد صاحب اليوس جاللوس في غزوته الفاشلة الى اليمن عام ٢٤ ق . م ، ولم يقتصر السبئيون على تسويق منتجاتهم وانما كانوا يسوقون منتجات الحبشة التي يجلبونها عبر البحر الاحمر . اما بليني فقد روى ان المعينيين هم الذين اتوا بتجارة اللبان وهم خير من اتجر به . ولهذا يتحدث المرء عن اللبان المعيني وهي اشارة قد سبق استعمالها في عام ٢٦١ ق . م . ورغم ان الدولة المعينية كانت قد انتهت ايام بلينيوس الا ان سيطرة المعينيين على معظم طريق اللبان ابان ازدهارهم كانت ذا دور هام . حتى انه في عام ٢٤٣ ق . م عندما غزا الفرس مصر كان المعينيون هم المسيطرون على طريق اللبان الى حد بعيد . كما يشير الى ذلك نقش معيني . وعندما تذكر المصادر الكلاسيكية اللبان السبئي بجانب اللبان المعيني فذلك يعني ان سبأ هي اشهر دولة في اليمن بالنسبة للعالم اليوناني او الروماني وهي موطن اللبان على كل حال . ويبدو ان خضوع المعينيين للسبئيين في منتصف القرن الاول قبل الميلاد كان السبب الرئيسي لسقوط حركة البضائع على طريق اللبان . على ان الاخبار القديمة التي يرويها بلينيوس تفيد ان طريق التجارة البري ظل مزدهراً . ويذكر فيما يذكر من الاخبار عن ازمنة

متاخرة ميناء موزا اسما لميناء يتبع دولة حمير الصاعدة التي يشتغل تجارها باللبان والطيوب العربية . كما يذكر كتاب الطواف حول البحر الاريتري في بداية النصف الثالث من القرن الاول بعد الميلاد (وهو كتاب دليل بحري تجاري مجهول المؤلف) ان النقل البحري حينذاك كان شائعاً ، وان اللبان لم يكن ينقل بالدرجة الاولى عبر طريق القوافل الى منطقة البحر المتوسط . واصبح حينذاك مجمع البضائع ميناء الاسكندرية الذي يربطه بالبحر الاحمر قناة مباشرة ويحتل المكانة الاولى . وهكذا فإن ازدياد نشاط حركة الملاحة بسبب ازدياد المعلومات الملاحية عن حسن استعمال الرياح الموسمية ادى الى اتصال مباشر بين شمال البحر الاحمر والهند والى منافسة الاسواق اليمنية في عقر دارها والى تراجع تجارة طريق القوافل القديم . وكان ان بدأ اللبان كالسلعة التجارية الاولى يفقد اهميته في القرون التالية . فبانحسار المعتقدات الدينية القديمة تدريجياً وانتشار الكنيسة المسيحية التي كان من جرائها منع استعمال اللبان في الصلوات في القرن الاول الميلادي مما ادى الى تناقص تجارة اللبان تدريجياً ثم انعدام اهميتها تماماً .

ما هو اللبان ؟

هو صمغ يحرق فيصدر عنه دخان كثيف ذات رائحة طيبة ويستخرج من نوع شجر تعرف بشجرة اللبان . واسمه باليونانية libanos وبالانجليزية frankincnce وبالالمانية weihrauch وبالهندية والفارسية (كندر) وعرف في المصادر العربية ايضاً بالكندر نقلاً عن الفارسية . اما في اليمن فاسمه دوماً باللُّبان او اللِّبان.وتضاف اليه نعوت مختلفة مثل لبان ذكر لبان شحري لبان مستكا . . الخ . (قال الهمداني في « صفة جزيرة العرب » صـ ٣٦٠ في باب عجائب اليمن : ومنها الورس واللبان اللذان لا يكونان في غير اليمن . واسم شجرة اللبان العام في علم النبات boswellia واحسن فصائل هذا النوع من الشجر هو ما يسمى boswellia carterii birdwood ومعروف من انواع هذه الشجرة حوالي خمسة عشر نوعاً .

موطن شجرة اللبان

اهم موطن لشجرة اللبان هو الجزء الاوسط من المنطقة الساحلية لجنوب الجزيرة العربية (اي منطقة ظفار شرق حضرموت) وتنمو الشجرة ايضاً في جزيرة سقطرى وفي بلاد الصومال وعلى ساحل Coromandel في الهند وفي هذه المناطق وحدها تتوفر العوامل الطبيعية الملائمة لنمو هذه الشجرة .

صفته

شجرته صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن عشرة اقدام . يقطف او يقطع جذعها في فصل الصيف فيسيل صمغ الشجرة ويكون حبيبات متصلبة بعد ان تجف وذلك هو اللبان لونه اصفر شاحب الى اصفر بني . ويكون شفافاً حال جمعه في الخريف ثم يخزن في اماكن خاصة ربما (بَخًّار) وعندما يحل الشتاء يكون الموسم قد اكتمل فتشحن الاصماغ في أكياس للتصدير .

استعماله واهميته

يحرق اللبان في مباخر وينشأ عنه دخان قاتم غير ان رائحته طيبة ودخانه مقبول . وبدأ استعمال اللبان منذ ان بدأ الناس يمارسون التحنيط وانتشر استعماله في المعابد حتى اصبح ضرورياً لدى تقديم القرابين الى الالهة واستعمل ايضاً في الحفلات الدينية ولدى مراسيم الدفن وفي حفلات تكريم الاحياء، وعمّ استعماله في كل ما عرف بالشرق الأدنى القديم وكثر حرقه في المعابد من الكرنك في وادي النيل الى نينوي في ما بين النهرين . (نينوى عاصمة الأشوريين والكرنك في مصر وكلاهما يعودان الى قبل الألف الأول قبل الميلاد).وفي سفر العدد من التوراة ورد ان رؤساء بيوت بني اسرائيل قدموا قرابينهم امام المذابح بامر الرب وقدم كل منهم ضمناً عشرة قوافل من ذهب مملؤاً بخوراً . وعلى معبد نينوى عثر على صور عديدة لقرابين البخور امام اله الشمس . وعندما يتحد ملوك اشور وينصبون التماثيل يقدمون مع ذلك بخوراً الشجرة الحياة . وفي مصر القديمة كان البخور معروفاً منذ عهد سحيق . وقد استعمل الفرس اللبان

بكثرة الى حد ان العرب كانوا يحضرون لدارا ملك فارس الف تالنت من البخور سنوياً جزية . ويروى هيرودوت ان حوالي الف تالنت من البخور كانت تقدم الى الإله يحرق على مذبحه في معبد بابل الكبير . ويجدر ان نشير هنا الى ان المؤلفين الكلاسيكين من اليونان والرومان قد اكثروا من وصف انواع اللبان وطريقة اعداده واثمانه كما اشاروا الى استعماله كمادة طبية .

البخور في النقوش اليمنية القديمة

في متحف صنعاء نرى صورة مذبح وامامه منظر تقديم قربان . وفي احد النقوش وردت لفظة (lbnhn) (وظن ان معناها لبان والصحيح لبؤان)اي وعاءان يحتويان بخوراً . ورغم كثرة استعماله خارج اليمن في القديم الا ان بليني في كتابه (Naturalis historia) يذكر ان سكان جنوب الجزيرة العربية كانوا يستعملون انواعاً رخيصة من اللبان وهذا يذكرنا باستعمال لبان جاوى اليوم بدلاً من اللبان الاصلي نفسه .

وفي جملة ما وجد من آثار اليمن عثر على مباخر قديمة مكتوباً عليها اسماء انواع اخرى من اللبان مثل الرند والقسط . اما اسماء المباخر وهي التي تقدم فيها انواع البخور فقد وردت منها الفاظ مثل مقطر ، مفحم ، مسود .

ووردت في احد النقوش القتبانية لفظة شهز . وهي الكلمة نفسها اليوم للبان باللغة المهرية . وهذا يذكرنا بنوع من الاشجار التي يدخن بها السمن في بعض قرى اليمن واسم الشجرة (شهس) . على ان هناك انواعاً اخرى من انواع البخور تنتج باليمن مثل المر والفارعة . وما زالت تستعمل الى اليوم في مناسبات عدة مثل نذور للاولياء وايام الولادة وساعة غسل الميت وطرد الشياطين ، ولبان لعيص او لبان انثى الذي يكثر استعماله ايام الحمل أو لبان ذكر وهو من اشهر الانواع .

وتذكر المصادر اليونانية (بليني) ان الذين يحق لهم حصاد اللبان كانوا مقدسين ويتجنبون النجاسة ايام الحصاد وملامسة النساء،فدم شجرة اللبان مقدس .

ويمكن ان نختم هذا المقال عن اللبان بالاسطورة المصرية القديمة التي تقول « ان الطير (بنو) عاد من ارض البنت، وهو يحمل اللبان على عرفه » والاسطورة التي ذكرها ثيرودوت ان العنقاء تأتي كل ٥٠٠ عام من بلاد العرب الى هليوبوليس لتدفن اباها الميت المكفن بالمر .

ويذكر بليني ان العنقاء هذه عندما تشيخ تبني لها عشاً وتملأه باللبان والتوابل ليكون قبراً لها .

بلقيس أو ملكة سبأ ـ بين التاريخ والأسطورة

قصة ملكة سبأ او قصة الملكة بلقيس ، كما هو شائع ، قصة طبقت شهرتها الآفاق منذ القدم . فقد ذكرتها المصادر اليهودية كالتوراة والتلمود ، وأشار اليها القرآن الكريم ، وعنيت بتفصيلها كتب التفسير وقصص الانبياء ، وكذلك روتها كتب التاريخ والأخبار وخاصة اليمنية منها ، مثل كتاب التيجان برواية وهب بن منبّه ، والقصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميري وشرحها . كما تناولتها النصوص المسيحية ، واستلهمتها روائع الفنانين الأوربيين في عصر النهضة مثل رافائيل وريموندي وجبرتي ، حيث رسموا قصتها ، ونحتوها ، ضمن ما أبدعوه من تصوير ونحت لصور القديسين والشخصيات المذكورة في التوراة والانجيل . ومنها تلك اللوحة البارزة التي رسمها (جبرتي) في القرن الخامس عشر على باب معمدانية فلورنسا بايطاليا لتحكي الى اليوم قصة استقبال النبي سليمان عليه السلام لملكة سبأ من حفل مهيب . كما تروى تلك القصة مفصلة في كتاب الحبشة الشهير المسمى « كَبْرا نُجُست » أي مجد الملوك .

إن قصة مثل هذه تملأ اسماع الدنيا وتشغل الناس عشرات القرون ، تذكرها الكتب المقدسة وتتواترها الاخبار ،وتبقى عالقة في الموروث الثقافي لكثير من الشعوب بصيغ مختلفة وروايات متعددة ، لا بد وأن يكون لها نواة تاريخية

وأصل قديم ، بل إن كثرة انتشار هذه القصة ومدى شيوعها قد اتاح المجال عبر الزمن لتنازع الناس حولها واختلافهم في أصلها ونسبتها وحتى في اسم تلك الملكة التي تدور القصة حولها .

وعندي أنه لا ريب في أن ملكة سبأ حقيقة تاريخية ، فقد أكدتها الكتب السماوية كالتوراة التي نصت على أنها كانت « ملكة سبأ » أو « ملكة الجنوب » ، وذكرت زيارتها للنبي سليمان وما قدمته له من هدايات ثمينة . وفي القرآن الكريم قال تعالى :﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم** ﴾(الآية) .كما ان صدى تاريخ ملكة سبأ نسمعه يتردد في المصادر العربية والاسلامية كقول نشوان الحميري في قصيدته المعروفة :

أم أين بلقيس المعظم عرشها ... أو صرحها العالي على الأصراح
زارت سليمان النبي بتدمر ... من مارب دينا بلا استنكاح

بل ، إنه يصعب على المرء الافتراض ان قصة لها مثل هذا الذيوع عبر القرون لا تقوم على أصل تاريخي . وكما يقول المثل « لا دخان بدون نار » .

على أن هذه القصة قد اكتسبت عبر الزمن نفساً قصصياً ، بحيث تعددت رواياتها وتنازعتها شعوب كثيرة ، وطفق كل شعب يصبغها بصبغته المحلية ويضيف اليها اخباراً مصطنعة حتى كاد يغلب على القصة الأصل المنحى الاسطوري ونفس الحكايات الشعبية . ولهذا ينبغي ان يفرق بين ما هو الأصل وهو زيارة ملكة سبأ للنبي سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد - وهي كما سلف ذكره حادثة تاريخية - وبين ذلك القصص الجميل الذي نسجته اخيلة الشعوب عبر الأزمان ، من وَشْي ومبالغة مما اكسبها النفس الاسطوري ، وروح أساطير الاولين . وهكذا فإن القول بأن قصة ملكة سبأ ، أسطورة ، قول من حيث المبدأ فيه حيف وتعميم وربما رجم بالغيب ، إذ أنه حتى في غياب الدليل الأثري القاطع لمن يريد ان يطمئن قلبه ، فإنه لا يجوز الادعاء بأن القصة في الأصل اسطورة . وما زال علماء الآثار يطمحون في العثور على الدليل القاطع . وليس من شرعة العلماء البت فيما ليس لهم به علم وليس من نهجهم اقفال باب العلم بجرة قلم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . والشواهد المتوفرة تومي‌ء

الى حقيقة وجودها التاريخي حتى وإن كانت تقصر عن ان تقطع بالحجة والدليل . وأما من آمن بكتاب ربه فلا يساوره ادنى شك في صحة القصة وكفى بالله شهيداً . أما القول بأنها اسطورة فقول مردود على أصحابه إذ ليس في ما يؤيد ذلك القول سوى إدعاء اصحابه ذلك ومع ذلك فهناك خلاف حول امر ملكة سبأ واسمها ونسبتها . وينحصر ذلك الخلاف عادة في ثلاث مسائل :

المسألة الاولى هي عدم اكتشاف أية دلائل أثرية او كتابية تشير الى أن تلك الملكة عاشت في بلاد اليمن او في اي بلاد اخرى . أي ان اللقى الأثرية القديمة والنقوش التي اكتشفت في اليمن وفي الجزيرة العربية وبلاد الشام وغيرها لم تذكر ملكة سبأ واسمها بلقيس . على أن هذا بحد ذاته لا يقتضي بالضرورة نفي وجودها ، إذ أن التنقيبات الأثرية ما زالت قليلة وفي أول أمرها . المسألة الثانية هي عدم ورود اسمها في أي من الكتب السماوية ، والقرآن والتوراة هما المصدران الاساسيان لقصة تلك الملكة . فالتوراة تذكر فقط « ملكة سبأ » أو « ملكة الجنوب » .والقرآن لا يذكرها بالاسم وانما يشير اليها بقوله تعالى : ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ . أي انها لم تعرَّف بالاسم . ومن هنا استدل بعضهم على أن « بلقيس » ليس علماً وانما صفة مشتقة من اللفظ « بلجش » المعروف باللغتين العبرية واليونانية ومعناه الجارية او الفتاة الحسناء ورغم أن كتب الاشتقاق العربية توغل في اشتقاق اسمها ، إلا أن الصواب يجانبها في معظم الأحوال . كأن تذكر ان بلقيس هي بلقيس بنت إيل شرح وكان اسمها (يلمقه) وهي كلمة فارسية معربة وتعني القباء المحشو . ومن يعلم شيئاً من لغة نقوش اليمن القديمة ، لا شك أنه يعلم ان (بلمقة) لفظ مصحف ومعدول عن اسم إله القمر في معابد سبأ .واصل الاسم هو (ألمقه) بالهاء . وكان بعض مَن يقرأ خط المسند في العصور الاسلامية الأولى يرى الأسم يتكرر نقشه على آثار سبأ وخاصته في مكان معبد مأرب المعروف « بمحرم بلقيس » ، فيظن انه اسماً لبلقيس . كما ظنوا الامر نفسه حين اعتقدوا ان « تألب ريام » اسم لأحد اجداد الهمدانيين علماً بأن آثار معبد الإله تألب ريام ما زالت قائمة في ارحب الى اليوم وتنص النقوش التي عثر عليها هناك بوضوح على هوية ذلك الاسم . وقد

اجتهد بعضهم ايضاً فقال إن اصل الاسم بلقيس هو (بالقياس) أي بالقياس الى حكم ابيها كانت عادلة . أو ان أصل التسمية (بنت القيس) وتصبح بالتالي بلقيس قياساً على ابن الفقيه ، او أبو الفقيه فتكون حينئذ (بلفقيه) . . . وهكذا ، والتخريجات بهذا الشأن كثيرة ولكنها كما هو بيِّن لا تعدو ان تكون محاولات طريفة .

والمسألة الثالثة هي عدم ذكر مكان مملكة ملكة سبأ وأرضها ، بدقة وتحديد . فالتوراة وهو اقدم مصدر يذكرها ينص على انها ملكة (شبا) و (سبأ) وملكة الجنوب (تيمنا) . والقرآن الكريم يذكر سبأ ولكن ارض سبأ لم تحدد نصاً باليمن على حسب زعم بعضهم . (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) ، (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) . فأين هي مملكة سبأ إذن ؟ إن « الجنوب » كما ورد في التوراة يشير الى اتجاه ، وجنوب فلسطين يمكن ان يكون حيث تنتهي حدود فلسطين أو في الحبشة او في جنوب جزيرة العرب (اليمن) . ومن هنا يرى بعضهم ان ارض سبأ المذكورة في التوراة لم تكن في اليمن وانما في منطقة شمال غرب الجزيرة العربية. ولدى الأحباش كثير من القصص والتصاوير التي تمجد تلك الملكة وتدون قصتها .

وليس عسيراً ان يدحض المرء معظم تلك الآراء التي تصر على أن ملكة سبأ كانت في شمال غرب الجزيرة او أنها حبشية الأصل والتراث . ولكن يبدو أنه من المفيد في هذا المقام أن يذكر المرء انه ليس لدى العلماء الأثريين والمؤرخين (بما فيهم العلماء الأحباش) اية دلائل قاطعة على نسبة هذه القصة في الأصل الى الحبشة او الى جنوب أرض فلسطين . بل إن الآثار التي عثر عليها من اليمن تثبت أرض سبأ وحضارة سبأ ومجد سبأ في مشرق اليمن . وتدل الابحاث الاثرية في منطقة مارب على حضارة سبئية راقية . وترجعها احدث الابحاث الى ما قبل الالف الاول قبل الميلاد . وليس هناك اية دلائل اثرية ، رغم الجهود الاثرية الى وجود حضارة راقية في بلاد الحبشة يعود تاريخها الى القرن العاشر قبل الميلاد وهو القرن الذي عاش فيه النبي سليمان عليه السلام .

كما أن آثار سبأ اليوم عثر عليها في اليمن وحيثما يُولّي المرء وجهه في منطقة مارب يجد أثر ما لسبأ ونقشاً ما يذكر اسم سبأ وقبيلة سبأ وملك سبأ . وليس فيما نعلم أية آثار سبئية بينة عثر عليها في شمال غرب جزيرة العرب . وإن كان قد عثر على آثار معينية متأخرة في منطقة ددان (العلا) . ويؤكد العلماء ان اقدم النقوش التي عثر عليها في الحبشة هي سبئية وبخط المسند اليمني ويرجحون ان اصحابها كانوا سبئيين مهاجرين من اليمن . وأن تلك النقوش ليست على أية حال اقدم من نظائرها من النقوش التي عثر عليها في وادي سبأ في مشرق اليمن .

ولعلّ سبب نسبة القصة الى الحبشة تكمن في أمر تلك الهجرة السبئية الى بلاد الحبشة والتي تمت قبل الميلاد بقرون . وكانت أساساً لقيام دولة أكسوم الحبشية في حوالي الميلاد . وربما كانت تلك المملكة من أول أمرها تخضع لدولة سبأ وتحكم من حاضرتها مأرب وقصرها سلحين . وربما كان من الجائز ان يفترض المرء استناداً الى آثار سبأ وانتشارها أن ملك سبأ كان يمتد من مأرب ليشمل اليمن كله والمستوطنات السبئية في الحبشة وشمال غرب الجزيرة على امتداد طرق التجارة الى الحبشة وفلسطين .

وصفوة القول انه لا يكاد يختلف عالمان حول حضارة سبأ وقوة ازدهارها في الألف الاول قبل الميلاد . وقلّ من يخالف جمهور العلماء ويفترض ان ملكة سبأ وارض سبأ كانتا خارج حدود اليمن . وقد يختلفون حول اسم تلك الملكة ومعنى إسمها وقد يشيرون الى أن علم الآثار لم يتثبت الى اليوم من هوّيتها وصحة اسمها. ولكن الادلة التي تشير الى وجودها التاريخي كثيرة ومتعددة . كما أنه ليس من العلم والعدل ادعاء اسطوريتها دون دليل غير دليل النفي . ومع ذلك فإن بلقيس (ملكة سبأ) تبقى رغم ذلك كله رمزاً تاريخياً يمنياً لحضارة سبئية فائقة وتبقى الآية الكريمة شاهداً خالداً على آية سبأ : **﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾** . وتبقى الآية الكريمة خير القول واصدقه : **وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾**. ولا ضير في أن يكون

تراث ملكة سبأ مشتركاً بين الناس في جزيرة العرب والحبشة فقد هاجر اهل اليمن الى تلك المناطق ونقلوا إليها ومضات من ثقافتهم وحضارتهم كالخط واللغة والدين والفن والمعمار والموروث الثقافي والقصص الشعبي وشوامخ الماضي ومن ذلك قصة الامرأة السبئية التي كانت تحكم في ارض سبأ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

قتبان وتمنع (الدولة والعاصمة)

تمهيد :

هذه صفحة مشرقة من تاريخ اليمن القديم كتفها في هذا المقال القصير الاستاذ الدكتور [والتر موللر] استاذ الدراسات السامية واليمنية القديمة بجامعة ماربوج . .

وكان قد نشرها في مجلة جمعية الصداقة اليمنية الألمانية منذ فترة بغرض تعريف القارىء الالماني بملامح تاريخ اليمن القديم وشوامخ حضارته . .

وقد استحسنت نقلها الى العربية وزدت عليها حيثما اقتضى الأمر وبإذن من المؤلف . . وكنت قد نشرت في الصحف والمجلات السيارة قبل سنوات مقالات عدة يكتبها العلماء الأجانب عن اليمن وبلغتهم ، وما هذا المقال اليوم ، سوى استمرار لتلك السلسلة السابقة ، ارجو ان يفيد منه القارىء وان يجلو له صفحة من صفحات تاريخنا المجيد . .

كان ينبغي على واضع عنوان هذا المقال ان يضبط الاسمين بالشكل توخياً للدقة . . غير ان اهمال الضبط لهما بالشكل كان امراً مقصوداً . . فالمؤرخون الكلاسيكيون يختلفون في رواية الأسمين ، وكان اول ذكر لمدينة [تمنع] قد ورد

عند اراتوسيثينيس و [استرابو] بفتح اول الأسم ، وعند [بليني] ورد بضم الاول . . وقريب من ذلك ما ورد عند [بطليموس] . . وفي النقوش اليمنية القديمة ورد اسم المكان تمنع كثيراً ولكن تتعذر قراءته بدقة [اذ ان النقوش تخلو من علامات الشكل والحركات الطويلة] ولكن علماء النقوش يميلون الى كسر اوله . .

وفي التوراة يذكر الاسم ايضاً ولكنه فيها علم على قبيلة ادومية وليس اسماً يدل على مكان وقد ورد هكذا [تمنه] . .

ويختلف الكلاسيكيون ايضاً في رواية الاسم [قتبان] ، فهو عند [ثيوفراست] كتبان بكسر اول الاسم وثانية ، وعند [اراتوسثينيس] هو كتبانيا بفتح الكاف وتشديد التاء . .

واهل قتبان عند [بطليموس] يسمون الكتبانيين بضم الكاف وتشديد التاء . .

أما عند [بليني] فهم جبانيين . .

واذا كانت تسمية [بليني] غير واردة لشدة تصحيفها فإن من غير المستبعد ان يكون اصل التسمية قتبان بكسر القاف . . ومثل ذلك قد جاء في انساب اهل اليمن . .

واقول : ان الدكتور مولر يعتمد في مناقشة ضبط الاسمين قتبان وتمنع على ما جاء من صيغ في الكتابات الكلاسيكية ، وفي تلك الكتابات يكثر تصحيف الكلمات العربية حيث تنقل دون قاعدة او حسب السماع . .

والواقع ان معلوماتنا عن قتبان في المصادر العربية قليلة جداً . .

وقد ورد الاسم قتبان في كتب اللغة والانساب . . ففي الجزء الثاني من الاكليل ص ٣٩٤ يذكر [قتبان بن ردمان] . . وقال محقق الكتاب القاضي محمد علي الاكوع : ليست منسوبة الى قتاب من يحصب بل الى هذه [اي قتبان بن ردمان] ، وفي تاج العروس للمرتضى الزبيدي وفي مادة [قتب] ، قتبان بالكسر بطن من رعين . . وهي بالكسر ايضاً في كتاب الانساب للسمعاني . .

وقد اصطلح الناس في ايامنا هذه ومنذ ان اكتشفت آثار قتبان على نطق

الاسم قتبان بفتح الاول والثاني . . وليس لهذا الاصطلاح من مسوغ سوى اضطراب الاسم في المصادر الكلاسيكية التي عنها نقل المستشرقون المحدثون الذي عنوا بذكر قتبان في النقوش اليمنية القديمة . .

ونرجع ان قتبان بكسر القاف وسكون التاء والمعول في ذلك على كتب اللغة والانساب كما سلف الذكر رغم شحة مادتها وقليل اعتنائها بهذا الشأن . .

ولا ريب ان الاسم قتبان قد جاء ذكره كثيرا في النقوش اليمنية القديمة ولكن النقوش لا تسعف على ضبطها ضبطاً دقيقاً فهي كما قلنا تهمل رسم الكلمات اصوات اللين والحركات . .

أما الأسم [تمنع] فقد قيل فيه الكثير واختلف الناس في ضبطه خاصة وان مصدر المعلومات عند جلهم هي اللغات الاجنبية التي قد لا تتفق على نقل الحروف العربية الى ما يقابلها من حروف لاتينية . . فقالوا هي [تمنه]. وعم هذا اللفظ في الكتب بل سمي بها بعض الشوارع في اليمن . . واحسب ان النقوش قد حسمت الأمر من حيث الحروف الصحيحة فهي تاء وميم ونون وعين . .

كما ان قواعد اللغة اليمنية القديمة تعلمنا ان صيغة المضارع المعلوم على وزن تفعل ، وكما هو الحال في اللغة الفصحى ، تأتي تسمية لمكان وعلى الدعاء في حالات كثيرة من اسماء الامكنة والمدن اليمنية القديمة . . وقد ترد التسمية بصيغة يفعل ايضاً . . ومثال ذلك تريم ويريم اسم المدينتين المعروفتين من الفعل رام بمعنى علا والذي يشتق منه مريمة ، وريمة وريام وغيرها . . ومن الأمثلة ايضاً تأزل ويأزل وبالصيغة الاولى سميت مدينة وعلان وبالثانية سمي [يأزل بين] الملك السبئي المعروف . . ومثلها تنعم وتلقم ويسلح . . وفي الموروث العربي واليمني عدد وافر من الامثلة .

ومع ذلك فإن الاسم قتبان هو كل ما تبقى من ذكر تلك الدولة اليمنية القديمة عند الاخباريين . . كما ان هذا الاسم لا يستعمل اليوم رغم ما عرف عن بلاد اليمن اجمالاً من تواتر اسماء امكانها وقبائلها . . ويبدو ان المؤرخين العرب قد نسوا فيما نسوه ذكر دولة قتبان وعاصمتها تمنع في تواريخهم ، خاصة وانهم كانوا لا يعنون في الغالب الا بذكر من عاش قبل الاسلام بمائتين او

ثلاثمائة سنة ويهملون ما تقادم عهده إلا قليلاً .

○ كشف آثار قتبان وتمنع

ولم تكن الشذرات اليسيرة من الأخبار في مؤلفات الأقدمين لتسعف على تحديد أرض قتبان تحديداً دقيقاً . . فقد خلط [إيراتوستينيس] بين قتباز وحضرموت عندما ذكر مناطق إنتاج اللبان والمر . . وفي العصر الحديث جعل (شبرنجر) من ظفار أرض اللبان موطناً للقتبانيين وذلك في كتابه [جغرافية الجزيرة العربية القديمة] [برن ١٨٧٥] . . وفي نهاية القرن الماضي ذكر البحاثة والجغرافي [لندبرج] بأن عاصمة قتبان أي تمنع، تقع حوالي ٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من موقعها الصحيح كما هو معروف اليوم، ذلك لأن نقشاً يذكر اسم تمنع ورد في ذلك المكان . .

وفي حقيقة الأمر كان العالم النمساوي (جلازر) هو أول من حدد لنا موقع تمنع عاصمة قتبان وأنه يقع في وادي بيحان . . ذكر ذلك في كتابه (الأحباش في جزيرة العرب وإفريقيا) والذي صدر في ميونيخ عام ١٨٩٥ . أما أول من زار الموقع الأثري للمدينة فهو الرحالة الإنجليزي (بري) وذلك عام ١٩٠٠ ويعرف الموقع اليوم بهجر كحلان ويقع على الضفة اليسرى لوادي بيحان وحيث يقترب الوادي من نفاذه إلى السهل الصحراوي .

وكان (بري) قد نسخ ثمانية نقوش عثر عليها على أسوار المدينة الأثرية . وسلمها آنذاك للبعثة النمساوية في اليمن . كما أن [جلازر] قد حصل أيضاً على نسخ لبعض تلك النقوش أتى بها إليه بعض أهل المنطقة على شكل مضغوطات وذلك خلال رحلته الرابعة إلى اليمن ما بين عامي ١٨٩٢ و١٨٩٤ . . .

وقد كتب (بري) الذي كان يسمي نفسه وهو في اليمن عبد الله منصور ؛ كتاباً بعنوان (أرض العز) صدر في لندن عام ١٩١١ ، وفي هذا الكتاب وصف رحلته وادعى فيه أن أيوب في العهد القديم يرجع أصله إلى أرض (العُز) وأنه كان معيناً استولى السبئيون على أمواله وحسب ما ورد في سفر أيوب (١ / ١٥)

على أنه منذ أن نشر (رودوكاناكيس) عام ١٩٢٤ النقوش التي عثر عليها في أسوار هجر كحلان لم يعد هناك أدنى شك في أن هجر كحلان هو الموقع الأثري لمدينة تمنع عاصمة الدولة القتبانية القديمة . . . وتعتبر تمنع أكبر المدن اليمنية القديمة بعد مأرب العاصمة السبئية من حيث مساحتها واتساعها ويذكر (بليني) أنه كان بها ٦٥ معبداً . وعن معبد رائع من تلك المعابد نقبت البعثة الأميركية بقيادة (وندل فلبس) في ١٩٥٠ / ١٩٥١ م ولم تكن المعابد وحدها هي كل ما عثر عليه في تمنع وإنما عثر أيضاً خلال التنقيب وفي (بيت يفيش) على أسدين برونزيين وعليهما يركب ولدان ويغلب على القطعتين الطابع الهلينيستي . ويمكن التنويه هنا بما عثر عليه في (نكر وبول تمنع) (واسمها اليوم حيد بن عقيل) وتبعد حوالي كيلومترين ونصف شمال شرقي العاصمة ، حيث وجدت مئات اللقى الأثرية كرؤوس من البلق وتماثيل ومنحوتات آدمية بارزة وما عداها من المصنوعات الفنية كالأنصاب والشواهد المنقوشة ورؤوس ثيران وأفاريز من الأوعال وغيرها .

ويرجح أن مقر تجمع قبيلة قتبان في الأصل هو أعلى وادي بيحان بين هجر كحلان وبيحان القصب وحيث تقع اليوم هجر بن حميد . وقد كان ذلك المكان عامراً بالسكان منذ القدم . . ويعتقد أن اسمه القديم هو (حريب) وحريب اسم معروف ومتواتر ولكنه يطلق اليوم على مكان آخر ويمتاز هذا الموقع بكونه استراتيجياً وهاماً (على طريق القوافل) حيث يفضي إلى نقيل مَبْلَقَة الصعب المرتقى. وقد نقب في هجر بن حميد وتم إزاحة التراب عن عشرين طبقة مختلفة ، تقع سفلاها وأقدمها على عمق ١٥ متراً ويقدر تاريخها بأحد عشر قرناً قبل الميلاد واستناداً إلى ذلك فإن وادي بيحان أي أرض قتبان من أقدم مناطق السكنى في اليمن ، وتدل الشواهد على كثرة ما عمر وتوالى الناس على سكناه منذ قديم الزمن .

الشواهد التاريخية

إن أهم مصدر نستقي منه تاريخ قتبان هي تلك النقوش التي كتبت بخط

المسند وبلهجة قتبانية متميزة . . وهي إن كانت تتميز عن اللهجة السبئية إلا أنها ذات وشائج أصيلة وقربى حميمة مع اللهجتين المعينية والحضرمية . وعلى الرغم من أن بعض النقوش السبئية تذكر قتبان أيضاً وبالتالي تضيف إضافة هامة إلى معارفنا عن تلك الدولة ، إلا أن هناك خلافاً بين العلماء حول زمن بعض الحوادث وتحديد تاريخ وقوعها تحديداً دقيقاً أو قريباً من الدقة .

على أن أول ذكر لقتبان في النقوش السبئية قد جاء في نقش الملك كرب إيل وتر السبئي ولعله من أقدم النقوش اليمنية القديمة (حوالي القرن السابع قبل الميلاد) . . وكانت قتبان حينذاك على وفاق مع سبأ ودخلت في حلف معها بعد أن خلصتها من سيطرة (أوسان) . ولقد تمكنت قتبان بعد حين ، وفي حوالي ٤٠٠ قبل الميلاد من أن تخرج عن دائرة النفوذ السبئي وأن تتوسع على حساب الدولة السبئية .

وقد ساعدها في ذلك تحالفها مع كل من معين وحضرموت .

وفي القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد بلغت دولة قتبان أوج نفوذها وازدهارها . وتوسعت جنوباً لتشمل مناطق « أوسان القديمة » حتى بلغت ساحل المحيط الهندي (البحر العربي) . وامتد نفوذها شمالاً حتى بلغ ، واحة (الجوبة) على بعد مسيرة يوم واحد من مأرب عاصمة الدولة السبئية . [وفي وادي الخانق من الجوبة يقوم فريق أمريكي بمسح أثري دلت التحليلات العلمية الأولية على آثار للسكن فيه يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد] .

غير أنه في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد تمكنت بعض المناطق التابعة لقتبان من إعلان استقلالها ، ومن هذه المناطق « سروحمير » و« سرو مذحج » فاقتطعت بذلك أرضاً واسعة في غرب الدولة القتبانية وجنوبها ، مما مهد للخطر الداهم الآتي من مشرقها ، فقد استطاعت دولة حضرموت الصاعدة أن تهدد قتبان وتغزوها ثم تهدم عاصمتها تمنع في القرن الأول بعد الميلاد . ولم تلبث الدولة القتبانية بعد ذلك إلا زمناً يسيراً حتى أصبحت جزءاً من دولة حضرموت . وفي القرن الثالث بعد الميلاد بقي ذكر قتبان وأرضها يتردد أحياناً ضمن أخبار الحروب السبئية ، أما بعد ذلك فلا يكاد المرء يسمع عنها في الأخبار شيئاً .

التجارة والطرق :

كانت تمنع عاصمة قتبان واقعة على مقربة من الصحراء وعلى حافة طريق اللبان مثل شبوة عاصمة حضرموت ومأرب عاصمة سبأ . ويذكر (بليني) في كتابه (التاريخ الطبيعي) أن طريق اللبان كان لا بد وأن يمر عبر أراضي القتبانيين ولا بد أن تدفع القوافل إتاوات جمركية لحكامها . وإذا كان المرء لا يعرف حجم تلك الأتاوات في سياق هذا الخبر فإن فصلاً آخر من كتاب بليني يذكر أن ما يأخذه ملوك قتبان من المر والأصماغ العطرة يعادل الربع .

وعندما تغادر القوافل التجارية تمنع تسير في وادي بيحان عبر المسالك الجبلية باتجاه الشمال الغربي نحو وادي حريب . ثم تمر في وادي الجوبة باتجاه مأرب . ومما يذكره بليني أيضاً قياس المسافات بين تمنع عاصمة القتبانيين ومدينة غزة على ساحل فلسطين مجمع كل البضائع التي تأتي من اليمن ، إذ يبلغ طول الطريق التجاري كما ينص (بليني) على ذلك ، (٢٤٣٧٥٠٠) خطوة ويمر عبر ٦٥ محطة .

والواقع أن سيل البضائع عبر طريق اللبان لم يكن يتدفق من جهة اليمن فقط وإنما كان يتجه إليها أيضاً . وقد دلت اللقى الأثرية الكثيرة التي عثر عليها المنقبون في وادي بيحان على أن أواني فخارية وأوعية زجاجية قد أحضرت من مناطق حوض البحر المتوسط .

ومما يدل على أهمية تمنع كمركز تجاري هو ما ذكرته النقوش من أن معينيين وبعض قبائل أمير كانوا يقيمون في العاصمة القتبانية .

وكانوا يشتغلون بالجمال التي تنقل البضائع والتي هي عماد النقل البري عبر طريق اللبان الطويل وفي محل السوق القديم بتمنع لا تزال مسلة قائمة إلى اليوم لتروي قانوناً نقش على جوانبها يبين أحكام التجارة في سوق تمنع والمناطق المجاورة . ومن الأمور التي يحددها قانون السوق المذكور حجم الضرائب التي ينبغي دفعها والمجال الذي يجوز للتجار أن يستغلوا في إطاره .

المعتقدات القتبانية والمؤسسات

كان الغالب على أهل قتبان عبادة النجوم وثالوثها المعروف في اليمن القديم كلها : الشمس والقمر والزهرة . وكانت الشمس في قتبان تحتل المقام الثالث بين آلهتهم كما هو بين في صيغ الدعاء المتكررة لديهم . وكان عثتار إله الزهرة يحتل المركز الأول وخاصة حين يتعلق بأمور الحياة الضرورية كالسقي ، أما إله الدولة الرسمي فكان القمر ويسمونه في قتبان (عم) . ويسمون تمنع مدينة قبائل (عم) ، وأهل قتبان هم أولاد (عم) وملك قتبان هو (كبير أولاد عم) . ومع ذلك فلم يكن للملك مطلق السلطات وإنما كان يحكم ويصدر المراسيم والقوانين ويتخذ القرارات بالتشاور مع مجلس مؤلف من جماعات وفئات عدة . أي أنه كان في قتبان نوع من التمثيل النيابي يضم الأعيان والقبائل . ويتميز الملك بكونه الأداة التنفيذية العليا . فهو يحرص على تنفيذ القوانين والالتزام بها كما يقوم بتنظيم مهام الأشغال العامة ولا سيما تلك التي تتعلق بأمور الصيانة العاجلة والضرورية لاستمرار وسائل الري الكثيرة ، وهي منشآت يتعذر بدون صلاحها أداء الأعمال الزراعية وضمان كفايتها . وينعت الملك أيضاً بلقب (الكرب) ومن ثم فقد كان في الوقت نفسه هو الرئيس الديني لكل اتحاد القبائل القتبانية ولكن كان يقف بجانبه شخص آخر هام يتولى عادة القيام ببعض الواجبات والوظائف الدينية والإدارية .

قانون سوق شمر

وفي محل السوق القديم بتمنع عاصمة قتبان هجر كحلان حالياً ، تقوم إلى اليوم مسلة صغيرة نقش على ثلاثة من جوانبها تعاليم خاصة بسوق المدينة واسمه سوق شمر ويبين هذا النقش إجمالاً الرسوم المفروضة وفئات التجار وفيما يلي نقل لهذا النقش من لغة المسند باللهجة القتبانية استناداً إلى قراءة كل من « ماريا هوفنز وألفرد بيستون » مع قراءة خاصة منقحة :

هكذا قضى وشرع شهر هلال ابن يدع أب ملك قتبان وأهل قتبان بتمنع وبرم ووادي حوكم وولد عم وحاكم تمنع وحاكم ولد عم - إن من يشتغل

بالتجارة في تمنع وبزم ، ومهما كانت بضاعته يجب أن يدفع ضريبة السوق في تمنع ، وأن يكون مالكا لدكان في سوق شمر . وإن من يأتي إلى قتبان ببضاعة . . يجب أن يتملك دكاناً حتى يحق له أن يزاول البيع والشراء في « سوق » شمر أياً كانت قبيلته . إن من يفتح دكاناً يكون من حقه أن يشترك في التجارة مع غيره من أصحاب الدكاكين ، ولا يجوز لعاقل السوق أن يتدخل في ذلك . وعندما يعلن عاقل سوق شمر عن حاجته إلى باعة قتبانيين متجولين بين القبائل ، نظراً لانشغاله ببيع بضاعته في دكانه بسوق شمر فإنه يجوز حينئذ لأهل قتبان أن يتاجروا على حسابهم الخاص بين القبائل . . يغرم عاقل السوق في حالة تبليغه كل تاجر يمارس غش الآخرين خمسين قطعة ذهبية ، كما يغرم المبلغ نفسه كل أجنبي يحاول أن يتجر في بلاد قتبان .

لا تسري ضريبة بيع الحبوب في عمليات البيع والشراء بين أهل قتبان ، على أن أداء هذه الضريبة واجب على غيرهم ، وتدفع هذه الضريبة بالعملة القتبانية بالاضافة إلى الضريبة الأساسية دفعة واحدة . يجب على كل قتباني أو معيني أو أي مقيم آخر في تمنع يؤجر بيته أو حجرة إلى صاحب دكان ، أن يدفع ضريبة السوق إلى ملك قتبان من بضاعة التاجر عينها . .

وفي حالة كون بضاعة التاجر لا تفي بقيمة الضريبة المقررة، يجب على صاحب البيت أن يستوفي الضريبة من ماله الخاص ، تحظر التجارة أياً كان نوعها من قبل دافعي الضرائب في السوق بقصد التعامل مع غير قتباني أو سُفلي (من ذي سفل) حرصاً على حقوق أهل قتبان العادلة وطبقاً لما شرعه ملك قتبان . يجب على كل من يتاجر بالجملة في تمنع أن يعهد إلى باعة تجزئة عند تسويق بضاعته في أرض قتبان . . تحظر التجارة « في السوق » ليلاً حتى الصباح . لملك قتبان حق الاشراف على كل بضاعة تمر في أرضه . فليدعم كل ملك هذا القانون . .

شَبْوَة وحضرموت

كانت حواضر الدول اليمنية القديمة واقعة في مناطق الواحات التي تكتنف مفازة صيهد [تدعى اليوم رملة السبعتين] وتكاد ترسم شكل هلال يمتد من حضرموت وقتبان وسبأ الى معين . . وأصبح الناس اليوم يطلقون على تلك العهود السابقة للاسلام في اليمن اسم « عصر حضارة صيهد » . . وخير مثال يبرز ارتباط حواضر تلك الدول باطراف تلك المفازة هي شبوة عاصمة دولة حضرموت . . ويطلق اسم حضرموت اليوم وبمعناه الدقيق على ذلك الوادي الذي يبعد عن ساحل البحر العربي ١٦٥ كيلومتراً ويسير في خط مواز له مسيرة ٢٠٠ كيلومتراً وحيث تقع مدن شبام وسيئون وتريم .

وكان اسم الوادي قديماً (سررن) وكان يضم الاسم فيما يبدو روافده من الوديان المجاورة . . أما دولة حضرموت القديمة فكانت تشمل مناطق اوسع من ذلك . كانت تمتد شرقاً لتشمل ظفاراً ارض اللبان ، وجنوباً تشمل . . نطاق (الجول)الجبلي الكبير حتى ساحل المحيط ، وشمالاً اتجاه الربع الخالي الصحراء الرملية الكبرى ، وغرباً مساقط الأودية التي تؤدي الى وادي حضرموت . . وفي موقع استراتيجي من اقصى الغرب كانت تقع شبوة حاضرة الدولة الحضرمية . . وما زالت الى اليوم تحمل الاسم نفسه وكما ورد في النقوش اليمنية

القديمة . . أما لماذا اتخذت شبوة عاصمة في ذلك المكان غير الحصين فمرده الى الموقع الاستراتيجي والجغرافي الهام الذي تحتله على طريق التجارة والذي كان يمتد من ميناء قناو يتجه نحو الشمال الغربي باتجاه العبر ومواطن المياه في ارض أمير حتى يصل واحة نجران .

أقدم الشواهد

جعل الاخباريون العرب حضرموت اسماً لاحد ابناء قحطان . . وقحطان جد أهل اليمن . . وكان من عادة « الساميين » ان يقرنوا اسماء البلدان والامكنة باسماء اشخاص ثم يدرجونها بعد ذلك في سلاسل انسابهم . .

ومن أقدم الامثلة على ذلك ما ورد في سفر التكوين بشأن حضرموت [ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت] . . وربما كانت سبتة المذكورة ضمن انساب بني كوش في قائمة السلالات هي شبوة نفسها عاصمة حضرموت : [وبنوكوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة . .] . ويبدو ان هذا الشاهد القديم هو اول ذكر لاسم حضرموت.واذا صح ما ورد عن شبوة فإن ذلك ايضاًهو أقدم ذكر لها في المصادر . . ولما كانت النقوش الحضرمية وسواء من حيث العدد او المحتوى لا تفي بحاجة الباحث عن تاريخ حضرموت القديم وعاصمتها شبوة فإنه لا مندوحة للباحث من ان يعتمد على تلك المعلومات القليلة بالاضافة الى النقوش السبئية والمصادر اليونانية الرومانية . على ان اللقى الاثرية العديدة التي عثر عليها في وادي حضرموت قد دلت على انه قد عرف العمران قبل زمن لتدوين النقوش . .

كانت حضرموت في أقدم عهودها تابعة لدولة سبأ العظيمة ثم حليفة لها . . وفي القرن الرابع قبل الميلاد خرجت حضرموت عن سبأ وكونت دولة مستقلة ونمت قوتها تدريجياً واكتسبت اهمية فائقة خاصة لكونها تملك ارض اللبان . . غير ان حضرموت لم تملك النفوذ الكافي الذي يؤهلها لتصبح دولة كبرى [في اليمن والجزيرة العربية] . . ومرد ذلك الى سببين رئيسين :

أولهما انه كان ليس يسيراً دمج العنصر البدوي من سكانها بحكم تركيبه

القبلي مع العلم انه يكون نسبة عالية من سكانها يفوق نسبته في أي مكان آخر من اليمن . . وثانيهما آن موقع عاصمة تلك الدولة كان بعيداً عن مناطق الانتاج في اليمن . .

المصادر الكلاسيكية

وتبرز اهمية عاصمة هذه الدولة بوضوح من خلال ذكرها في المصادر الكلاسيكية . . فقد ذكر اراتوستينيس شبوة عاصمة للحضارمة في القرن الثالث قبل الميلاد (سباتا) . . وذكرها (بليني) في كتابه التاريخ الطبيعي وسماها سبوتا ويقال يعتقد ان داخل اسوارها ستون معبداً (الكتاب السادس ١٥٤) . وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه ولكن من المؤكد ان شبوة كانت مركزاً دينياً للدولة ايضاً . . وهناك نقش برونزي عثر عليه في شبوة يذكر بالنص « آلهة شبوة » التي قدم النقش قرباناً لها (المدونة الفرنسية ٢٦٩٣) . كما ان بليني يؤكد ايضاً ان شبوة عاصمة الحضارمة كانت مركز تجارة اللبان (الكتاب العاشر ٥٢) : وكان اللبان الذي يجمع ينقل على الجمال الى شبوة . فيفتح له باب واحد . . وكان اي تهريب او انحراف عن الطريق يعتبر جريمة كبرى ويعاقب الملك صاحبها بالموت . . وكان الكهنة يطلبون العشر كيلاً لا وزناً وكانوا يسمون تلك الضريبة (سبين) . . ولا يجوز ممارسة البيع والشراء قبل ان يدفع ذلك . . وكان يصرف جزء من ذلك المال رفادة للضيوف في أيام معدودة من السنة. (الكتاب السابع ٦٣، نقلاً عن ترجمة ر . . . كونيج وج . . . فينكلر ، الكتابان السابع والثامن ، ميونيخ ، هيمر من ١٩٧٧). .

وكان اسم إله الحضارمة والدولة الحضرمية في شبوة هو (سين) كما ورد في النقوش.وكان مقر عبادته معبد اسمه أليم . . وكان الاله سين يلقب بذي أليم نسبة الى المعبد وعرف بذلك حتى في أقاصي الدولة كظفار . . والارجح ان معنى اللقب هو الاله صاحب الوليمة وهذا المعنى يوافق ما ذكره بليني بشأن الرفادة . . ولشبوة ذكر في كتاب الطواف حول البحر الارتيري وهو دليل ملاحة يعني بالدرجة الاولى بذكر الاماكن الساحلية . . فقد ذكر ان شبوة العاصمة تقع

في الداخل وفيها يقيم ملك بلاد اللبان . وتساق الى ملكها بعض البضائع القيمة التي تستورد مثل الذهب والفضة والخيول والتماثيل والاقمشة الزاهية

إنكسار الدولة :

وربما كان التمثالان الفضيان اللذين استولى عليهما القائد السبئي من بعض تلك البضائع المستوردة . . وكان احد قواد الملك السبئي شعرم اوتر قد غنمهما خلال احدى غزواته الى شبوة ثم قدمهما قربانين للإله المقه في معبده بمارب . . ويخبرنا النقش الطويل الذي نشر منذ فترة وجيزة عن هذين التمثالين وعن زوجة ملك حضرموت وانها كانت اختا للملك السبئي شعرم اوتر وان قصر الملك في شبوة كان يدعى (شقير) .

وكنا نعرف اسم القصر من المسكوكات الحضرمية والتي نقش عليها مكان اصدارها . .

وكان شعرم اوتر قد غزا حضرموت في اواخر القرن الثاني بعد الميلاد واعادها الى حظيرة الدولة السبئية ولكن الى حين . . ويبدو ان تلك الغزوة قد عادت بالفيء الكثير للجنود السبئيين . .

فقد عثر على مجموعة من النقوش ، من بينها النقش السالف الذكر ، في معبد مأربم وحده.وكلها قرابين قدمت لالههم حمداً على مما رزقهم من غنائم في شبوة . . على ان آخر نقش نذر للالهة ويذكر مدينة شبوة كان من عهد شمر يهرعش . . وهو الذي غزا حضرموت وضمها الى ملكه . واضاف اسمها الى لقبه السابق ملك سبأ وحمير ليصبح ملك سبأ وحمير وحضرموت . . وبذلك دفعت حضرموت ثمن محاولة استقلالها وفقدت عاصمتها شبوة اهميتها تماماً . . غير ان الهمداني ذكرها في الجزء الثامن من كتاب الاكليل واعتبرها من حصون اليمن ومحافدها . . وفي كتابه صفة جزيرة العرب يذكر ان شبوة مدينة لحمير وتقع فيما بين بيحان وحضرموت . . وقد ظنها الجغرافيون العرب ، وقل من ذكرها منهم ، انها مدينة حميرية وذلك لأنها عرفت عندهم منذ ان ضمت الى دولة حمير . .وما سوى ذلك فإن شبوة ظلت تذكر بعد ذلك بتجارة الملح . ومن

جبل الملح فيها استخرج الملح قديماً وما زال الناس يستخرجون منه الى اليوم . .

الكشف عن آثار شبوة

لا يبدو ان كارستن نيبور كان يعرف شبوة . فقد أشار الى (سبتا) المذكورة في التوراة حيث ذكر في الفصل الذي خصصه لأرض حضرموت من كتابه صفة جزيرة العرب والذي صدر في كوبنهاجن عام (١٧٧٢) انه لم يسمع في رحلته بمثل ذلك الاسم . وكذلك ظن كل من هـ . فون مالتزن وس . شبرنجران سهوة من وادي رخية هي شبوة وفي عام ١٩٣٤ تمكن هـ . هلفرتز ضمن رحلته الجريئة ان يصل الى شبوة وان ينقل بعض الصور الفوتوغرافية عن موقعها (سر من شبوة ، برلين ١٩٣٥ (ثم زارها هـ . سنت . ج . ب فيلبي عام ١٩٣٦ آتيا اليها من الشمال العربي ورسم مخططاً للمدينة القديمة (بنات سبأ ، لندن ١٩٣٩) . .

وبعد عامين قام ر . ب . هاملتون بحفرية اثرية محدودة في شبوة (راجع مملكة ملشور ، لندن ١٩٤٩) . ان مدينة شبوة الواقعة على وادي عطف تعتبر من المواقع الاثرية الهامة في جنوب الجزيرة العربية ، ومساحتها الواسعة تضم ثلاث قرى هي : هجر ومتنه وميوان وهي القرى التي يقيم فيها بعض من قبائل البريك والكرب ، الذين استخدموا في مبانيهم كثيراً من البقايا الاثرية للمدينة القديمة . . وقد شرعت البعثة الفرنسية بنشر نتائج ابحاث حفرياتها التي بدأتها عام ١٩٧٥ م ، ويبدو انها نتائج في غاية الاهمية ولكن لذلك حديث آخر(*) .

(*) نقل بتصرف من الألمانية لمقال الدكتور والتر موللر في مجلة جمعية الصداقة الألمانية اليمنية وباذن المؤلف.

ظفار حمير ودولة سبأ وذي ريدان

وجد على أركان سور ظفار مكتوباً (لمن ملك ظفار ؟ للحبشة الاشرار ، لمن ملك ظفار ؟ لفارس الاحبار ؟ لمن ملك ظفار ؟ لقريش التجار. لمن ملك ظفار ؟ لحمير سيحار . . .

لا ريب ان نصاً كهذا مما يرونه الاخباريون العرب ينبغي ان يدرج في باب الصنعة والخيال اذ ليس في النقوش اليمنية القديمة مثل هذا الضرب من الكلام على ان النص ، رغم ذلك حسن الاختلاق ، فهو لا يقتصر على تبيان من تخالف من الملوك على حكم ظفار ولكنه يعبر أيضاً عن حنين اهل اليمن الى ماضيهم المجيد الذي طبقت شهرته الآفاق(*) .

تقع آثار ظفار ـ المدينة القديمة ـ حيث تقوم اليوم قرية صغيرة تحمل الاسم نفسه وذلك على بعد حوالي عشرين كيلومتراً جنوب يريم وشرق الطريق المتجه من تعز الى صنعاء عبر نقيل سمارة ـ نقيل صيد قديماً ـ الذي يؤدي إلى حقل قتاب ـ كتاب حاليا . وكان اول ذكر لهذه المدينة قد ورد في الكتاب السادس من كتاب التاريخ الطبيعي للمؤلف الكلاسيكي بلينيوس الذي صدر في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي ، حيث ذكر عدداً من مدن ـ العربية السعيدة ـ . . ومن جملتها ظفار قاعدة الملك .

كما ذكرت ايضاً عاصمة لملوك حمير في كتاب - الطواف حول البحر الاريتري - وهو دليل ملاحة يوناني للبحر الاريتري - البحر الاحمر والبحر العربي - وعدها بطليموس ، الجغرافي الاسكندري ضمن المدن الداخلية - العربية السعيدة ونعتها بكونها عاصمة. وظفار هي احدث عواصم الدول اليمنية القديمة والحميريون هم أول من اسس بنيانها ويرد ذكرها في النقوش اليمنية القديمة لأول مرة ضمن نقش نذري عثر عليه في مارب ويروي النقش ان حرباً شهدتها اليمن في القرن الثاني الميلادي كان أوارها قد امتد الى ابواب عاصمة حمير . ويقع قصر المملكة بظفار المسمى - قصر ريدان - على جبل - ريدان الشامخ - الذي تسمى به ملوك - ذي ريدان - وكان بجانب المصنعة تلك ، مبان فخمة اخرى في المدينة تحدثت عنها النقوش وتغنى بها الشعراء حتى في فترات صدر الاسلام كقولهم :

يا من رأى ريدان امسى خالياً خويا كعابه
أمسى الثعالب أهله بعد الذين هم مآبه

وقولهم :

وأن المنايا وكلت برجالنا فعلتهم بمناسب وبازور
أخرجن اسعد من ظفار وقبله اخرجن منها ليثها ذا حزفر

وقولهم :

ومصنعة بذى ريدان است باعلى فرع مُتْلِفة حلوق
ومصنعة بذي ريدان أخرى اقاموها ببنيان وثيق

وينقل الحسن بن احمد الهمداني في الجزء الثامن من كتاب الاكليل انه كان لظفار تسعة ابواب وينعتها باسمائها احدها باب الحقل وهو باب حقل يحصب الارض الخصبة الطيبة.

ويورد قول الشاعر الذي يتحدث بلسان اسعد تبع :

وريدان قصري في ظفار ومنز لي بها أسَّ جدى دورنا والمناهلا
على الجنة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سدّاً تقذف الماء سائلا

وقد لعبت ظفار دوراً مهماً في محاولات نقل المسيحية الى اليمن ، حيث يفيد مؤلف تاريخ الكنائس اليونانية انه عهد الى ثيوفيلوس اسقف سقطرة ان يصل الى بلاط حمير عام ٣٥٤ م بمهمة انشاء طوائف مسيحية وبناء بعض الكنائس ومن ضمن ذلك تشييد كنيسة في ظفار . . .

وفي عام ٥١٧ بدا ملك حمير يوسف ذونواس الذي اعتنق اليهودية حملاته الواسعة لتعقيب الاحباش في اليمن ومن والاهم من اهل اليمن المسيحيين .

وكان اول ما استهدفه هو مدينة ظفار وكنيستها ـ ولم تكن ضمن حكمه انذاك ـ حيث نكل بالاحباش ، واحرق الكنيسة وتروى سيرة جرجنتوس اسقف ظفار انه بعد ان غزا الاحباش اليمن واستولوا على ظفار اعادوا بناء كنيستها . وبسقوط ملك حمير بدأت العاصمة ظفار تؤول الى الاندثار وحلت صنعاء محلها حاضرة لليمن بظهور الاسلام .

ورغم ان الجغرافيين العرب ظلوا يتناقلون اخبار ظفار في العصور الاسلامية زمنا ، فان التاريخ كان قد سبق الى تسجيل نهاية واحدة من اشهر المدن اليمنية قبل الاسلام وابرزها .

أما رونقها فقد ظل يسطع عبر الزمن،ومن يزور موقعها اليوم لا بد وأن يلمس بقايا ثرائها في الحقول الممتدة العامرة وفي اللقى الاثرية الرائعة التي تتزين بها مباني قرية ظفار وتلك التي يحتويها متحفها .

كانت حمير اخر الدول اليمنية القديمة حكماً واخلدها ذكراً ، كانت قد شيدت مدينة ظفار عاصمة واتخذت لها تقويماً خاصاً بها يبدأ عام ١١٥ قبل التقويم الميلادي . ولكن النقوش المتوفرة لا تؤرخ به سوى منذ القرن الاول الميلادي.ولا نعرف تماماً حتى يومنا هذه الحادثة التاريخية التي بدأت حمير تؤرخ لها ومبلغ علمنا ان حمير كانت في الاصل قبائل تتبع الدولة القتبانية ومناطقها الاصلية كانت داخله ضمن اراضي دولة قتبان وقد نعتهم السبئيون ابان الصراع معهم بانهم اولاد عم ـ اي انهم اتباع اله دولة قتبان الرئيسي .

وفي القرن الاول بعد الميلاد برزت حمير كقوة ضاربة في اليمن حيث مدت

نفوذها على أراض شاسعة كانت ضمن سيطرة قتبان وسبأ وادعت سيطرتها على مناطق سبأ الرئيسية وسمت نفسها - دولة سبأ وذى ريدان - واضعة لقبها الاول ذي ريدان في المحل الثاني بعد سبأ .

ويعتقد ان اول ذكر في النقوش لحمير ورد في نقش عثر عليه في حضرموت ويعود الى القرن الاول الميلادي. ويروي ذلك النقش ان الحضرميين صدوا حملة حميرية على المناطق الجنوبية مما يوحي بأن حميراً آنذاك كانت قد وسعت سيطرتها حتى بلغت السواحل الجنوبية .

وبعد ذلك خرجت حمير منتصرة في صراع القوى الذي احتدم بين الاسر المتعددة في اليمن في نهاية القرن الاول الميلادي ودام حوالي مائة وخمسين سنة . وما ان انتصف القرن الثالث الميلادي حتى كانت حمير ثانية اثنتين في اليمن وكانت الثانية هي دولة حضرموت ، ولم يكن نفوذ تلك الدولة على كل حال يضارع نفوذ دولة حمير التي حاز حكامها فعلاً اللقب المتنازع عليه وهو ملوك سبأ وذى ريدان - ودخل تحت نفوذها معظم اليمن . . . وفي نهاية القرن الثالث الميلادي تمكنت حمير من السيطرة على مناطق حضرموت وبذلك حكمت حمير اليمن كله من اقصاه الى اقصاه . واتخذ ملوك حمير اللقب الملكي الطويل - ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه. وكان ذلك الشعار حقاً، يعني توحيد الأقاليم في وطن واحد. وفي عهد ابي كرب اسعد - التبع اليماني الشهير حكمه طويلاً بلغ امتداد الدولة الحميرية اقصاه حيث تذكر النقوش انه غزا وسط الجزيرة ، وتروى الأخبار انه وصل يثرب - المدينة المنورة بعد ذلك - وبذلك حمل اللقب الملكي ، الرسمي الأطول - ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنه واعرابهم طوداً وتهامة - أي ما انجد من الأعراب وما اتهم منهم - وهذا يعني أن بدو شمال الجزيرة العربية قد صاروا جزءاً اساسياً من لقب الدولة الرسمي الى جانب حضر اليمن واصبحوا بذلك ضمن الاطار السياسي للدولة الحميرية .

أما آخر ملوك حمير فهو يوسف ذو نواس الذي سبق ذكره وكان يلقب نفسه بملك جميع القبائل على ان نقشاً مؤرخاً من عام ٥٢٥ م دون بعد موته قد اشار اليه بوضوح على انه كان ملك حمير ، واصبح اليمن بعد هزيمته تحت الاحتلال

الحبشي وان كان أول الولاة قد تم تعيينه من اهل اليمن المسيحيين .

وساد اليمن بعد ذلك اقطاع كثيف وصراع ديني عنيف وغلب عنصر البداوة على كثير من مناطق اليمن وقوي في اليمن نفوذ فارس والروم الدولتين الكبيرتين آنذاك مما جرّ اليمن الى بداية انهيار حضاري كبير وعاقبة ذلك الانهيار هي ندرة وثائق تلك الفترة التي حكم الاحباش فيها اليمن قرابة خمسين عاماً ، وانعدام الوثائق تقريباً في نصف القرن التالي الذي كان اليمن فيه ولاية على اطراف الامبراطورية الفارسية . وما ان مات كسرى الثاني برويز في عام ٦٢٨ بعد ان دخل حاكم اليمن الفارسي انذاك في دين الاسلام حتى كانت وحدة جزيرة العرب قد اكتملت ولأول مرة في ظل دين التوحيد .

(*) بعض هذا المقال يستند الى مقال للصديق الأستاذ الدكتور والتر موللر نشر في مجلة جمعية الصداقة اليمنية الألمانية .

التبع اليماني « اسعد الكامل »

هو أبي كرب أسعد* شخصية يمنية جمعت الشهرة الملحمية والتاريخية ، سمَّوه تبع اسعد وتبع الاوسط ، وابو كرب تبان اسعد ، وصلتنا اخباره القصصية بروايات متعددة بعضهـا نثر والبعض الاخر شعر . ومن الحكايات المروية عنه انه ولد في « خمر » من « همدان » وينسبون اليه قوله : واختطف الى جبل هنْوَم (الاهنوم) فصادف ثلاث نسوة فأضفنه ، ثم تنبأن بمستقبله ولما بلغ تسعا من عمره نهض الى ظفار عاصمة « حمير » فدرس هناك العلوم والنجوم ولما بلغ خمساً وعشرين سنة اصطنع الرجال وامده جده بمال فأستعاد ملك ابيه « ملكي كرب يهأمن وهرب ملك حمير السابق . ومن ابرز اعماله انه اكثر الغزو في كل ناحية وخاصة وسط جزيرة العرب ، حيث اخضع القبائل واقام دولة « كندة » في « نجد » وينسب اليه انه غزا العراق وهزم ملك فارس ولم يزل يفتح البلدان ويقتل الفرسان ويركب البحار ويدخل الظلمات حتى غزا ارض فارس وما يليها وبلغ ارض الصغد والهند والصين.وفي طريق عودته مر « بيثرب » المدينة المنورة واقتتل مع اهلها فخرج « حبران » من المدينة ونهياه عن قتالها وقالا له : إنها مهاجر نبي يأتي آخر الزمان . فكف عن ذلك واخذ الحبرين معه بعد ان اعتنق اليهودية ثم وصل مكة واقام بها ينحر كل يوم بدنه وكسا البيت الحرام وقيل هو أول من كساه .

* الاسم مكون من أب + كرب والياء للملكية وليست علامة الإعراب .

ثم انصرف الى اليمن وكان باليمن نار تعبدها حمير إذا قرب منها الظالم قرباناً أهلكته. فطالبهم اسعد بأن يرجعوا الى دين اليهودية وذكر لهم ما ألقى اليه الحبران من شريعة موسى عليه السلام فحاكمها الى تلك النار فسلم منها الحبران ومعهما التوراة واكلت الاوثان.

فاتفقت حمير على اليهودية من ذلك الزمان وهدموا بيتهم الذين كانوا يعبدونه، وكان فيه شيطان يكلمهم واسم البيت المذكور « ريام ». ثم انه اشتدت وطأته على حمير وكثرت غزواته فملته حمير وثقل عليهم فمالأوا على قتله ثم قتلوه وملكوا ابنه حسان عليهم وهو حسان يهأمن احد اولاده. وقيل انه اعْتُلّ ومات من المرض وقبر في « غيمان » وهي مصنعة قرب صنعاء. وهي اليوم في بني « بهلول » وآثار قصورها ومعابدها ومقابرها ما زالت باقية.

ذلك قصص شيق وممتع يغلب عليه نفس الملاحم، صنعته الرواة ولكن المصادر التاريخية الموثوقة كالنقوش اليمنية القيمة لم تجانب تماماً كل ذلك القصص الجميل إن ما ذكروه كان صدى للتاريخ الحقيقي « لأبي كرب اسعد » وليس التاريخ نفسه. ومما توفر لنا من معلومات تاريخية عنه تؤكد كثيراً من الأقوال الاساسية إذا ما خلت مما شابها من المبالغات فالتاريخ يذكر فعلاً إنه أبي كرب اسعد بن ملكي كرب يهأمن ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمانة واعرابهم في النجد وتهامة. وهذا هو لقبه الصحيح عندما كان ملكا على اليمن في اواخر القرن الرابع الميلادي واوائل القرن الخامس منه. ويعتبر عصره من ابرز عصور تاريخ اليمن القديم. حيث اكتملت الوحدة اليمنية على يديه وامتدت رقعة دولته كثيراً. ويستدل من النقوش التي عثر عليها في « ظفار » اليوم ان اباه « ملكي كرب يهأمن كان يهودياً ايضًا وبذلك تكون اليهودية قد دخلت اليمن قبل « ابي كرب اسعد وذلك خلافاً لما هو شائع. وينسب اليه الاخباريون مجموعة من الاشعار التي تتخلل قصة حياته. وتكاد تكوّن هذه الاشعار مع احداث حياته المثيرة ملحمة من ملاحم التاريخ اليمني القديم.

نقتطف هنا بعضاً منها :

ففي الفخر في اجداده يقول :

ولـدتـني مـن المـلوك مـلوك كـل قيـل متـوج صنـديـد
ملكتهم بلقيس تسعين عـامـاً بـأولي قـوة وبـأس شـديـد
ونسـاء متـوجـات كبلقـيس وشـمس ومن لميس جـدودي

ويذكر مجد بلقيس فيقول :

ولقـد بَنَت لي عمتي في مـارب عـرشاً عـلى كـرسي ملك مُتْلَد
عَمَـرَت بـهِ أزمـانها في مُلْكِهـا مغبـوطـة واسـتدعيت بـالهـدهـد
عَـمَرَتْ بـهِ تـسعين عـاماً دوَّخت ارضَ العراق الى مفازة صيهد

وبعدما آمن بالتوحيد يخبر بالنبي محمد ﷺ فيقول :

شـهـدتُ عـلى احمـد أنَّـه رسـولٌ مـن الله بـاري النَّسَمْ
فـلو مُـدَّ عـمري الى عـمـره لـكـنـت وزيـراً لـه وابـن عـمْ
والـزمـت طـاعـتـه كـل مـن عـلى الارض من عـرب او عَجَمْ
وهـو أحمـد سـيـد المـرسلين وامـة احمـد خـير الامـم

وعندما يفتخر بفتوحاته واعماله يقول -

سيـذكر قـومي بعد مـوتي وقائعي ومـا فعلت قـومي بقيس افـاعـلا
ومـا دوَّخت ارض اليمامـة بالقنـا ومـا فـعلت فـيـه تميـما ووائـلا
فحمـير سـادات الملوك وخيـرهـا وهمْ من قديم الدَّهر سادوا القبائلا
ويوم لقينا العُجْمَ من ارض فارس لقتْ ضيغماً من آل قحطان بـاسلا
ونلت بـلاد الهنـد والسنـد كلهـا وفي الصـين صيَّرنـا نقيباً وعـاملاً
ونلت بـلاد المشـرقـين كـلاهمـا ونلت بـلادَ المغـربـين وبـابـلا
وريـدان قصري في ظفـار ومنـزلي بهـا اسَّ جـدي دورنـا والمنـاهـلا
على الجنة الخضراءمن ارض يحصب ثمـانون سـداً تقذف المـاء سائلا
مـآثرنـا في الارض تُصْـدِقُ قـولنـا اذا مـا طلبنـا شـاهـداً او دلائـلا

أو يقول :

أنعم صبـاحـاً اسعـد الكـامـل يـا ناقمـاً بـالـثـأر والتـابـل
أثـنى عـلى الـله بـآلائـه الـواحـد المقـتـدر الفـاعـل

سرنا الى الاعداء من ارضنا　لم نك نرجو قفل القافل
يقتادهم من حمير شمّر　وأسعد من بعده ناهل
يا أيها المخبر عن خيلنا　ما العالم المخبر كالجاهل

وأسعد الكامل هو الذي نسب اليه قوله :

قد دعتني نفسي ان انطح الصـ　ـين بخيل اقودها من ظفار .

كما يروى عنه ذكره لقبيلته ومكان مولده فيقول :

ايها الناس لستُ اعرف قوماً　مثل همدان خولتي الابطال
خمر مولدي وفي مسنديها　مَوْلِدي حين تم نور الهلال

وتشير أبياتٌ اخرى منسوبة اليه إلى مكان قبره في غيمان فيقول :

وغيمان محفوفةٌ بالكروم　لها بهجةٌ ولها منظرُ
بها كان يُقْبَرُ من قد مضى　من آبائنا وبها نُقْبَرُ
اذا ما مقابُرنا بُعثِرَتْ　فحشو مقابرنا الجوهَرُ

ويروي التاريخ ايضاً ان اليمنين من بعده تركوا عبادة الاوثان واعتنقوا دیانتي التوحيد النصرانية واليهودية . وذكر اهل الاخبار ان أبي كرب أسعد مات موحّداً وهو الذي نهى النبي ﷺ عن سبِّه ويعتبر بعض المفسرين أن أبي كَرِبْ أسعد هذا ، هو التبع اليماني الذي ذكره القرآن الكريم قال تعالى :«أهم خير أم قوم تبَّعْ» .

أسعد الكامل هو « أبي كرب اسعد » حكم اليمن فترة طويلة في نهاية القرن الرابع الميلادي وبداية القرن الخامس الميلادي. اي قبل ظهور الاسلام بحوالي ٢٠٠ سنة. وحمل اطول لقب ملكي في تاريخ اليمن القديم وحكم معظم الجزيرة العربية، وسُمِّيَ الكامل - قيل - لكمال خلُقه او لاكتمال الدولة على يديه او لاعتناقه دين التوحيد . وهو حقيقة تاريخية تشهد آثاره والكتابات المنقوشة من عصره على عظمة شخصيته وقوة بأسه. على أن التاريخ وإن كان لا يقر بعض تلك المبالغات المنسوبة اليه كغزو الهند والصين مثلاً إلا انه يقر معظم الحقائق الاساسية التي ذكرت عنه . ابو كرب اسعد كان ملكاً على اليمن مشاركاً مع أبيه

ومع بعض ابنائه وبالتالي ربما دخلت اليهودية في فترة حكم الأب والابن معاً. وربما كان من الصعب إثبات فتوحات ابي كرب اسعد خارج الجزيرة العربية الى بلاد فارس والصين وغالب الظن أنها من صنع الاخباريين .ولكن نقشاً تركه ابي كرب اسعد على صخرة في مأسَل الجُمح في وسط الجزيرة العربية جنوب شرق الدُوادمي حالياً ، يذكر فيه انه حلّ غازياً مع ابنه حسان « يهأمن » لاراضي مَعَدْ وبصحبته قبائل اليمن من مأرب وحضرموت واقوالهم ورؤسائهم وقادتهم ورعاياهم وبصحبة اعراب كندة وغيرهم.وهذا النقش يؤكد ما ورد في قَصَص الاخباريين من غزوه لارض مَعَدْ واقامة دولة كِنْدَةْ من لَدُنْ ابنه حسان يهأمن .
واذا ما زرنا اليوم خَمِرا او ظفاراً او غيمان او بينون وهي مدن ارتبطت فعلاً بتاريخ ابي كرب اسعد ، فإن الناس ما زالوا يذكرون هناك اسعد الكامل ابو كرب أسعد بن ملكي كرب يهأمن وينسبون اليه كل قديم.فكما نسب الناس إلى (عاد) كلَّ قديم فقالوا(عادي) كذلك ينسب اليمنيون كثيراً من المنشآت القديمة وآثار السدود ووسائل الري الى أسعد تبع فيقولون حجر اسعد وكريف اسعد وقصر اسعد بل إنَّ كلَّ ما تقادم لعهد عليه من أثر فهو اسعدي .

لقد أدى تداخل الحضارة اليمنية القديمة بالحضارة الاسلامية في القرون الاولى للهجرة الى بروز موروث تاريخي ملحمي عن حياة العرب قبل الاسلام وخاصة عن عرب اليمن ، وظل حياً في ذاكرة العرب المسلمين على شكل قصص وأخبار ساهم في ابرازها ذلك الصراع حول الخلافة بين عرب الشمال وعرب اليمن بين عرب الشمال وعرب الجنوب وكان تمجيد ماضي اليمن احدى الحجج التي اعتمدها عرب الجنوب في الصراع على القيادة السياسية او على الخلافة فظهر ذلك التمجيد في مراحل ملحمية امتدت منذ زمن القصاصين امثال عبيد بن شرية والمحدثين أمثال كعب الاحبار وَوَهبْ بن منبه والشعراء امثال ابن مفرغ وابن ذي جَدَنْ حتى اخذت شكلها الكامل في مؤلفات الحسن بن احمد الهمداني ونشوان ابن سعيد الحميري . وكان ابرز مراحل تلك الملاحم هو ذلك القصص الجميل والشعر الجمّ الغزير الذي ارتبط بشخصية يمنية تاريخية فذة كشخصية اسعد الكامل ,

البداوة في اليمن القديم

البدو لغة واصطلاحاً هم أهل البادية وسكان الصحراء . أما معنى المصطلح من الناحية الاثنوجرافية فهو عند العالم السويسري (هيننجر) ذو شقين ، الأول ويعني به البدو الكمَّل اي رعاة الجمال ، والثاني ويعني به شبه البدو وهم رعاة القطعان الصغيرة . ولذلك فإن اهل بادية العرب هم من البدو الكمَّل لأن جلَّ اشتغالهم يتميز بتربية الجمال . فالصحراء العربية بحكم كونها امتداداً للحزام الصحراوي في افريقيا واواسط آسيا تبدو شاسعة ومترامية الاطراف . ويتوفر فيها حيوانات الركوب وحمل الاثقال بسبب الحاجة الى وسائل الحمل الثقيل والتنقل السريع عبر مساحات شاسعة . كما ان مواطن الكلأ في تلك الصحراء قليلة وشحيحة وموسمية تتفاوت وفق تقلب المناخ وحسب درجات الحرارة والبرودة وتنزل الامطار وانحباسها . مما يجعل نمط البداوة في الصحراء العربية كاملاً على الاجمال .

إن اهم ما يتميز به البدو ، كما سلف الذكر ، انهم قوم رحّل يشتغلون بتربية الجمال بالدرجة الاولى ويعتمدون في قوتهم على ما تيّسر ويدّخرون الحليب المجفف والتمر حسب الحاجة . ويقوم أساس مجتمعهم كما هو معلوم ، على رابطة الدم والنسب كما هو جلي من خلال حرصهم على زواج القربى

(الاندوجمي) . وتحدد علاقاتهم بأهل الحاضرة على أساس رابطة الدم ايضاً مما يحدد في الوقت نفسه البنية الاجتماعية التي ينتمون إليها ويندرج الآخرون معهم فيها . ويتجلى تميزهم هذا عن الآخرين في حبهم للغزو . ولذلك فهم يحبون الخيل إذ يكون قوام عدتهم الحربية مع الجمل الذي يعولون عليه في عدتهم الاقتصادية . وبالجمل والفرس معاً احتلوا الصحراء وبهما استطاعوا ان يشكلوا سبل التجارة في جزيرة العرب . وبهما ايضاً تمكنوا من تهديد ثغور الحضر وزعزعة دولهم .

ولقد بدأ استئناس الجمل ثم تهيئته للركوب وحمل الأثقال في مكانما وفي زمان ما في الجزيرة العربية يتعذر تحديدهما بدقة واستناداً الى إيماءات اثرية ربما جاز اعتبار الالف الثانية قبل الميلاد هو زمان البداية. على أن استعمال الجمل على نطاق واسع تم في وقت لاحق قد لا يجاوز القرن التاسع قبل الميلاد طبقاً لأقدم الدلائل المتوفرة . وتدل بعض الدراسات الانثروبولوجية ان استئناس الجمل لا بدَّ وان يكون قد بدأ في المناطق الساحلية من الجزيرة، حيث يمارس السكان مهنتي الصيد والزراعة . وان حيواناً كبيراً كالجمل يحتاج الى طعام وافر كالسمك الصغير (العَيْد ، الوزِفْ) الذي تقذفه أمواج البحر الى الساحل بكميات كبيرة . مما ساعد على استئناس الجمل وتدجينه من قبل اهل المناطق الساحلية المستقرين .

ويستفاد من فحص أنواع (القتب والرحال) التي صورت نماذج منها ضمن منحوتات اثرية ان الجمل كان يركب من أول الامر خلف سنامه باعتماد وسادة . وتلك هي اقدم مراحل التبدّي . إذ أن طريقة الركوب تلك بدائية وحركة الجمل فيها بطيئة . ويفترض ان الجمال المستأنسة في تلك المرحلة كانت قليلة للسبب نفسه . كما أن حركة البدو في الصحراء كانت بطبيعة الحال محدودة ايضاً .

وفي مرحلة تاليه تعلم البدوي ركوب الجمل على السنام متخذاً لذلك الرَّحل المنحني المعهود الى اليوم . وبهذه الطريقة زاد البدوي من سرعة حركة الجمل وفتح المجال أمام انتشاره في الصحراء على نطاق واسع مما أدى ايضاً الى

تيسير الاتصال بمناطق التحضر المجاورة . وهكذا فإن زيادة سرعة الحركة وكثرة عدد الجمال المستأنسة كانتا بمثابة انطلاقة جديدة يسرت للبدو في جزيرتهم سبل الاتصال المستديم فيما بينهم ومع غيرهم من أهل الحضر . ومن أهل الحضر تعلموا ركوب الخيل فكان ان بلغ البدوبها معاً مبلغاً أهلَهم للقيام بغاراتهم السريعة والخطرة واتخذوا من الغزو عادة دائمة وسمت بها حياتهم الاقتصادية فيما بعد زمناً طويلاً . ويعتقد ان مطلع الالف الاول قبل الميلاد كان زمن بداية التبدي الكامل بشكله الذي يعهد الى اليوم من جزيرة العرب .

من هنا فإن مصطلح البدو لا ينبغي ان يشمل كل سكان البراري والصحاري وانما ينبغي ان يقصر استعماله على رعاة الجمل فقط في جزيرة العرب . اما ما عداهم من أهل البراري والقفار فيمكن ان يطلق عليهم تسميات اخرى مثل القوم الرّحل وينعتون حسب ما يرعونه من دواب. كأن يقال الاقوام الرّحل رعاة البقر ، الأقوام الرحل رعاة الغنم وهكذا ، وأن يقال شبه الرحل على غرار شبه البدو.

وتروي التوراة والنقوش المسمارية طرفاً من أخبار البدو قديماً وشيئاً من أوصافهم . ومن الجدير بالذكر ان تلك الاوصاف التي نعت بها قدماء البدو لا تزال تنطبق الى حد بعيد على بدو اليوم كما كانوا عليه بالأمس . فلدى الحديث عن اسماعيل ورد في الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ما يلي : « وقال ملاك الرب لها (اي لهاجر) انت حبلى وتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون انساناً وحشيّاً (بدوياً) يده على كل واحد ويد كل واحد عليه » . ويصور سفر القضاة في الاصحاح السادس والسابع والثامن كيف عبر المديانيون والعمالقة وبنو الشرق (البدو) نهر الاردن سنوات عدة متتالية ليرعوا جمالهم الكثيرة في الاراضي المزروعة عائدين بعد ان يقضوا حاجتهم الى الصحراء مرة اخرى .

إن النبي اسماعيل عليه السلام وهو ابو عرب الشمال كما هو معلوم من كتب النسابة العرب يصور في العهد القديم على هيئة بدوي من أهل البرية يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، كناية عن سنة الغزو . كما أنه من الأمور

المألوفة قديماً وحديثاً نزول البدو في الاراضي المزروعة وذلك في سني القحط بحثاً عن العشب والكلأ وهم لا يتحرجون من ذلك ، إذ يعتبرون ذلك غزواً والغزو من شيمهم ، تماماً كما كان أهل المشرق من البدو ينزلون أغوار الأردن عند بني قومهم من الحضر ، عند الحاجة حيث يرعون جمالهم ومواشيهم (علماً أن الحدود المقامة في الفترات الأخيرة وبعد قيام الدول المستقلة في الجزيرة وانبثاق البترول قد حدت من انطلاق البدو وقيدت تحركاتهم) .

أما الحوليات الاشورية في القرنين الثامن والسابع فترسم صورة أخرى لاولئك البدو . إذ لم يعد اقتصاد بعضهم ذاتياً يعتمد على الجمل وإنما بدأوا يشتغلون تجاراً وينقلون البضائع من مكان الى آخر عبر جزيرتهم ويتصلون بمناطق الاستقرار ناقلين معهم الذهب والفضة والرصاص والحديد والعاج والملابس والرياش واللبان . كما صار لهم دويلات صغيرة في الواحات الخصبة على طرق التجارة ، وتقوم بدور الوسيط التجاري بين الدول المجاورة ودور الحاجز بين قبائل البدو الغازية والدول الكبيرة . صارت لهم مدن قوافل وحكام مستقرون يتولون ضبط القبائل البدوية خدمة للدول الكبيرة الضاغطة على جزيرة العرب وطرق تجارتها . ورغم هذه الصورة الجديدة التي ظهرت بها قبائل البدو التي تيسرت لها سبل الاستقرار فإن الجمل بقي عمود حياتهم وتجارتهم وسبب إيلافهم ورحلاتهم . أي أن الجمل قد صاحب نمط حياتهم الحضرية الجديدة التي يهفون اليها وظل آصراً للحياتين البدوية والحضرية زمناً ولهذا فإن لفظ البدو بمفهومه السالف الذكر انسحب على أهل جزيرة العرب قاريّتهم وباديتهم . واصبح لفظ البدو معادلاً للفظ العرب . وذلك هو الأصل كما يبدو من مدلول لفظ (العرب) التي قد تجمع على (أعراب) .

إذ ان للعرب في جزيرتهم حياتين، حياة البدو وحياة الحضر أو كما يقولون، اهل الوبر واهل المدر . حياة تقوم على التنقل والبحث عن مواطن الماء والكلأ اعتماداً على الجمل . وحياة تقوم على التجارة وشيء من الزراعة . وجزء كبير من حياتهم التجارية هذه كان يعتمد الجمل ايضاً . على ان هاتين الحياتين لم تكونا منفصلتين ، وانما يمكن القول ان تاريخ جزيرة العرب ليس سوى تاريخ

مسار عملية الوصال المستديم بين التبدي والتحضر ، بين العرب البدو في الصحراء والعرب الحضر في مناطق الاستقرار في الواحات والاطراف .

وينطبق هذا القول المجمل بالدرجة الاولى على عرب وسط الجزيرة العربية ولكنه يشمل ايضاً بلاد الشام وبلاد اليمن والذي يضم فيها يضم واحدة من اكبر الصحاري الرملية في العالم ذلك هو الربع الخالي . ويمتد من تلك الصحراء جُزُرٍ باتجاه الغرب ليشكل إذا صح التعبير « خليجاً صحراوياً » داخل نطاق المرتفعات التي تشكل الجزء الاكبر من تضريس بلاد اليمن (جنوب جزيرة العرب). ويدعى ذلك « الخليج الصحراوي » قديماً بمفازة صيهد و حديثاً برملة السبعتين. وقد تتجاوز التسمية اكثر من ذلك فتسمى مشارق اليمن حينئذ بجرُز (راء ثم زاي) اليمن الشرقي الذي هو بمثابة تهامة اليمن الغربية . واليمن بتضريسيه الجبلي والصحراوي امتداد طبيعي وجغرافي لجبال جزيرة العرب وعروق رمالها . فهل كان في اليمن بداوة إبان تاريخها القديم وفق التعريف الاثنوجرافي الذي استهل به هذا المقال؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي ان نستقريء ما توفر من النقوش اليمنية القديمة وهي المادة العلمية التي نملكها الآن .ليس هناك ذكر للبدو في النقوش اليمنية القديمة قبل القرن الاول الميلادي . ومنذ بداية فترة الصراع الطويلة بين سبأ وحمير والتنازع على لقب ملك سبأ وذى ريدان تنبيء نقوش نذرية عن اشتراك بعض (الاعراب) مع حمير في حروبها ضد همدان التي كانت حينها تحاول ملك سبأ في مارب . ومن القرن الثالث الميلادي تذكر نقوش اخرى ان اعراب مارب حاربت مع همدان (أي سبأ) ضد حمير . ومن القرن الرابع عثر على نقوش تذكر ان اعراب سبأ وحمير وحضرموت تشترك في غزوة تمت في عهد الملك ذمار علي يهبر الى حضرموت بقيادة كبير الأعراب . إن كل الاشارات السابقة تدلّ على أن الأعراب كانوا يؤلفون قوة عسكرية مساعدة ضمن جيوش الدولة وقبائلها الرئيسية .

ويقابل مصطلح قبيلة اللفظ (شعب) في لغة النقوش اليمنية القديمة ، ومدلولها يختلف عما هو متعارف عليه . فالمعروف أن القبيلة البدوية هي جماعة

ذات اصل واحد ويربطها رابط الدم والنسب وتتساوى جميعها في الحقوق ولكن يرأسها شيخ متميز . أي أن البنية الاجتماعية للقبيلة البدوية ذات شكل افقي ، بينما هي في القبيلة اليمنية الحضرية (شعب) ذات شكل هرمي تقوم في الأساس على الدين وتقوى بالمصالح الاقتصادية المشتركة ضمن وحدة جغرافية . القبيلة (شعب) في اللغة اليمنية القديمة تجمّع لا يقوم على رابطة الدم بالدرجة الاولى ولا يتساوى فيه افراده . كما أن القبائل المتعددة ضمن الدولة الواحدة ليست بمستوى اجتماعي واحد ، وهي ايضاً ليست على مستوى واحد بالنسبة للقبيلة الحاكمة .

ولكن كيف يصنف الأعراب (المذكورون في النقوش اليمنية القديمة) بالنسبة لنظام القبيلة (شعب) ؟ ويمكن الاجابة عن هذا السؤال بصفة خاصة خلال تتبع مختارات من النقوش التي يعود تاريخها الى القرن الخامس الميلادي . ففي نقوش القرن الخامس الميلادي يرد الاعراب ضمن لقب الدولة . فقد كان لقب ابي كرب اسعد بن ملكي كرب يهأمن هو ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمانة واعرابهم طوداً وتهامة . ويبدو انه كان يستعان بالاعراب كقوة مساعدة للجيش ، وذلك في أول الامر وعندما كان الجيش عبارة عن فئة معينة من القبيلة او اتحاد القبائل تقوم بالحرب وتتولى شؤون القتال والدفاع وفق نظام القبيلة وأعرافها . وعندما اعيد تنظيم الجيش في فترة دولة سبأ وذي ريدان اي في الفترة المتأخرة ، اصبح يطلق لفظ الاخماس (جمع خميس) على الجيش مقترناً بأسماء القبائل المعنية . وهذا التنظيم الجديد يعني توحيد الجيش والتقريب فيما بين فئاته مما اتاح للاعراب ان يكونوا جزءا منه . وربما كان من دواعي ذلك الحاجة الى اعداد كبيرة من المقاتلين في فترة الصراع الكبير والطويل على تاج سبأ وحمير . بالاضافة الى ان الدولة اليمنية في القرن الخامس كانت قد سيطرت فعلاً ، على كثير من مناطق البدو في جنوب جزيرة العرب ووسطها .

على أن الحديث عن البدو من خلال النقوش اليمنية القديمة في الفترات المتأخرة لا يعني انه لم يكن هناك بدو في اليمن قبل ذلك . إذ يكفي ان يومي المرء بهذا الخصوص الى طرق التجارة التي كانت تقطع الجزيرة طولاً وعرضاً . ولا

سيما طريق اللبان التجاري البري . فالجمل هو وسيلة الركوب والنقل ، وكما قيل « سفينة الصحراء » . وقوافل التجارة تحتاج الى عدد وافر من المرافقين (الجمّالة) . ومن غير البدوي يمكنه ان يقوم بتوفير تلك الخدمات على امتداد الطريق عبر محطاته . كما يجوز الافتراض أن البدو يتعايشون مع الحَضَر في فترات يغلب عليها حال السلم بحكم روابط المصلحة المشتركة وما تدره عليهم طرق التجارة من خير ومنفعة . ولكنهم في حال الحرب يستقطبون للخدمة ضمن الجيوش المتحاربة حسب الحاجة وظروف الحرب .

وفي النقوش التي يعود تاريخها الى فترات لاحقة لا يذكر الاعراب جملة ، ضمن اللقب الملكي للدولة فحسب ، وانما تسمى قبائل الاعراب باسمائها لدى اشتراكها في حروب ملوك دولة حمير . اي أن تلك القبائل لم تكن تعرف بانتماءاتها الى القبائل اليمنية الحضرية (شعب / أشعوب) ، ولا إلى جيش الكيان السياسي اليمني آنذاك ، وانما كانت تعرف باسمها البدوي . وخير مثال على ذلك اعراب كندة . وكانت الدولة اليمنية تحرص على ان يكون اعراب كندة ضمن سيطرتها ، بل إنها قد تعتمد عليهم في شن حروبها . كما استخدمتهم في إخضاع قبائل معد وجعلت منهم رؤساء وملوك على اتحاد قبائل معد في وسط الجزيرة . ويبدو ان سبب ذلك الاهتمام هو شدة مراس هذه القبيلة وبراعة رجالها في ركوب الخيل والفرس . ومما هو جدير بالذكر ان رجال كندة عرفوا بأنهم محاربون اشداء بعد الاسلام ايضاً . ومثال ذلك تنويه الرسول الكريم بمهور كندة ثم دور الكنديين البارز في حروب الفتوحات الاسلامية .

وصفوة القول ان الاعراب الذين ورد ذكرهم في النقوش اليمنية القديمة كانوا بدواً يعتمدون في معاشهم على الجمل بالدرجة الاولى . وكانوا يشتغلون ايضاً في قوافل التجارة إن تيّسر لهم الامر . كما اتخذوا من الغزو سنة إن مسّهم الضرّ واعتمدوا على الفرس (دبابة العصر) في شق غاراتهم على الثغور الحضرية . وقد يستفاد من مهاراتهم الحربية وحسن استخدامهم للجمل والفرس كقوة محاربة مؤقتة في الحروب التي تدور بين دول الحضر . وهذه كلها أمور تكاد تدخل في مجملها ضمن تعريف مصطلح البدو الاثنوغرافي الذي استهل به هذا

المقال . وبذلك يمكن ان يقرر المرء ان اليمن (جنوب جزيرة العرب) عرف قديماً ، كما هي الحال في المناطق الاخرى من جزيرة العرب ، حياة البداوة الى جانب حياة الحضارة التي تميزت بها . وان بدو اليمن قديماً كانوا على الاجمال من البدو الكمَّل أي رعاة جمال . أن حياتهم وحياة اهل الحضر كانتا في الوقت نفسه في حوار دائم ووصال مستديم وهو امر لا تخالف بلاد اليمن فيه غيرها من بقاع جزيرة العرب عموماً .

كندة في دهرها الأول

منذ ايام الجاهلية والناس يسمعون معلقة الشاعر امرىء القيس بن حجر الكندي وغيرها من اشعاره ومنهم من يحفظها او يردد بعضها وقل من لا يدهشه جمالها وجزالتها وحسن معانيها .. ولكن كثيراً من قارئيها وحافظيها وربما دارسيها قد لا يأبهون الى اسماء الاماكن التي وردت فيها بل ان منهم من لا يعرف تحديد مواضعها ، او من يحار بين ما هو منها في ديار كندة بحضرموت وديار كندة في نجد ، واذا ما عرف ذلك فأنه قد لا يعرف مواضع تلك المواقع معرفة دقيقة حتى وان استعان بكتب معاجم البلدان وشروح تلك القصائد الفذة وهي قصائد كما هو معلوم يعود تاريخها الى الثلث الاول من القرن السادس الميلادي ويختلف الناس في صحة روايتها ونسبتها وان كان اهل الشأن منهم يقررون بأنها ان لم تكن جاهلية فهي ولا شك تمثل روح عصرها ولا تبعد عنها في معناها ومبناها .. كما ان التاريخ قد اثبت شخصية صاحبها ورسم بعض ملامحها الدالة .. ومهما كان الامر فالناس لا يزالون يقرؤون تلك الاشعار ويرددون ابياتها باعجاب ولا يثنيهم عن ذلك جدل الدارسين ومعميات اسماء تلك الاماكن العديدة التي ترد في تلك الاشعار ودون أن ينقص من اعجابهم شيء كقول امريء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   يسقط اللوّى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لَم يعْف رسمها   لما نسجته من جنوب وشمأل

كـدأبـك من أم الحـويـرث قبلهـا — وجـارتهـا أم الـربـاب بمـأسـل

الا رب يـوم لي من البيض صالـح — ولا سـيـما يـومـا بـدارة جلجـل

الاعم صباحاً ايهـا الطلل البـالي — وهل يعمن من كان في العصر الخالي
وهـل يـعـمـن إلا سـعـيـد مخلد — قليـل الهمـوم مـا يبيت بـأوجـال
وهـل يعمن من كـان احـدث عهـده — ثـلاثـين شهـراً في ثـلاثـة احـوال

ديـار لسلمى عـافيـات بـذي خـال — الـح عـليهـا كـل اسحم هـطال
وتحسب سـلمى لا تـزال كعهـدنـا — بـوادي الخزامى أو عـلى رس اوعـال

وكان من الممكن ان يبقى المرء الى ما شاء الله يردد تلك الابيات وغيرها دون ان يلتفت الى تحقيق اسماء الاماكن فيها ودون ان يفقد شيئاً من جمال الابيات واعجاب القارىء .. ولكن الشعر كان وما زال مصدراً من مصادر الجغرافية التاريخية عند العرب وقديماً قيل الشعر ديوان العرب .. وكان الجغرافيون العرب الاوائل لا يطمئنون في وصفهم لديار العرب ومنازلهم الا اذا استشهدوا بأبيات من الشعر حتى أن الحسن بن احمد الهمداني قد انهى كتابه الفريد (صفة جزيرة العرب) بقصيدة طويلة لاحمد بن عيسى الرداعي سماها ارجوزة الحج ووصف فيها مسالك الحاج من رداع الى مكة وكأنها بمثابة استشهاد قاطع على بعض ما وصفه من دروب ومسالك في كتابه ..

ومنذ حوالي منتصف هذا القرن ـ العشرين ـ بدأت أضواء تاريخية خافتة تسلط على تاريخ كندة قبيلة الشاعر امرىء القيس وعلى مواطنها القديمة .. ويعود الفضل في ذلك الى نتائج بعثة المؤسسة الاميركية لدراسة الانسان التي نقبت ولو لفترة قصيرة في مارب عاصمة الدولة السبئية القديمة في عام ١٩٥٢ ، ثم الى نتائج الحفريات التي اجريت في قرية الفاو ولا تزال ابتداء من عام ١٩٧٣ م ..

وقد لا تفيدنا نتائج تلك التنقيبات الرائدة في معرفة مواضع تلك الامكنة التي وردت في شعر (امرىء القيس) معرفة دقيقة .. فمثلها كثير في الجزيرة واسماؤها تتشابه وتترادف فهي. أما دارة او واد او جبل او عين ماء او اطلال

عافية . . ولم تكن تلك الاماكن المتفرقة على الاجمال مستقرات دائمة لاهلها او مواطن حضرية بارزة تستهوي المؤرخ وتستحث عالم الاثار على التنقيب عنها غير ان تنقيبات مارب وقرية الفاو تجاوز تلك الاطلال الدارسة ودلت لأول مرة وبوضوح على اهم مركز حضري لكندة قبل الاسلام . . وهو مركز كان فيه لكندة عز وسلطان يسبق زمانه ما عرف عن كندة في كتب التاريخ والانساب سواء ابان مقامها في حضرموت بين واديي العبر ودوعن او حين كانت عائلة معاوية الاكرمين الكندية على رأس اتحاد قبائل معد في نجد بعد ذلك في القرنين الخامس والسادس الميلاديين . .

واسم هذا المركز الهام الذي كان قديماً حاضرة كندة هو (قرية ذات كهلم) او ما يعرف اليوم باسم (قرية الفاو).وقد تعرف بالاسم (قرية) فقط دون اضافة او تعريف . و « قرية » هذه بيت القصيد في موضوع هذه الدراسة ، وهي ايضاً موضوع كتاب جديد اسمه « قرية الفاو : صورة للحضارة العربية قبل الاسلام » ، تأليف الدكتور عبد الرحمن الانصاري ، منشورات جامعة الرياض . صدر عام ١٩٨٢ . ولهذا ينبغي اولاً تقديم هذا الكتاب توضيحاً للاطار الذي يضم هذه الدراسة .

وكتاب قرية الفاو كما قال عنه مؤلفه (مقدمة عن اعمالنا التي قمنا بها في قرية الفاو) اذ يعتزم قسم الاثار والمتاحف في كلية الاداب بجامعة الرياض دراسة نتائج المواسم الخمسة الاولى في حفريات قرية الفاو وطبعها في عشرة مجلدات . . المجلد الاول عن المعادن والثاني عن الاواني الحجرية والثالث عن المباخر وموائد القرابين . . والرابع عن الزجاج والحلي والخامس عن الفخار والسادس عن العمارة والسابع عن المسكوكات والثامن عن الكتابات والنقوش والمخربشات والتاسع عن موجودات اخرى والعاشر دراسة للتسلسل التاريخي .

ويمكن تقسيم كتاب (قرية الفاو) وهو كما سلف ذكره مقدمة لتلك المجلدات العشرة التي ستصدر تباعاً في المستقبل الى خمسة اقسام رئيسية : القسم الاول تقديم وتوطئة والثاني دراسة عامة عن قرية الفاو موقعها ومصادر دراستها واهميتها والثالث عرض سريع لآثار قرية الفاو وفق تصنيف مفيد يضم

العمارة والكتابات والرسوم الفنية والتماثيل والخشب والعظم والعاج والمنسوجات والصناعات المعدنية والمسكوكات والحلي والزجاج والادوات الحجرية والفخار . . والقسم الرابع مرجع مصور حشد فيه عدد من الصور المنتقاة التي تبرز نماذج لأهم اللقي الاثرية التي ورد ذكرها في القسم الثالث وهي مصنفة وفق الترتيب السالف ذكره . . اما القسم الخامس من الكتاب فهو مجرد نقل للمادة المكتوبة الى اللغة الانجليزية مع تكرار بعض الصور . . وقد صدر الكتاب وختم بخارطة تبين طرق التجارة القديمة في الجزيرة وموقع قرية الفاو بالاضافة الى صور خاصة توافق المناسبة التي صدر فيها الكتاب . .

ورغم ان الكتاب قد صدر ضمن مناسبة معينة مما قد يضفي عليه بعض السمات الاعلامية الا ان ذلك لا يقلل من اهمية الكتاب بالنسبة للدراسات الاثرية والتأريخية في الجزيرة العربية وكونه فعلاً مقدمة علمية للدراسات التي ينوى ان تصدر تباعاً في مجلدات عشرة ، خاصة وان تلك المجلدات التفصيلية قد يستغرق اعدادها سنوات من البحث والدراسة . . وقد يكون من السابق لأوانه ان نناقش مادة الكتاب التاريخية والاثرية ما دام الكتاب نفسه ليس الا مقدمة لدراسات مطولة لم تصدر بعد كما ان اسلوب الاجمال الذي اتبع في التأليف (طبعاً وفق مقتضى الحال وبحسب الغرض من نشره كمقدمة) لا يتيح مجالاً كافياً للدخول في تفاصيل دقيقة او حتى لجدل عام حوله فقد تغير المجلدات القادمة كثيراً من النتائج وتفصل كثيراً من الحقائق المجملة والغامضة.وربما كان من المفيد في هذه المرحلة ان يقتصر على تناول الصورة التاريخية التي اسعفت آثار قرية الفاو على تبيان ملامحها وصلة ذلك بمسار التاريخ العربي القديم وخاصة اليمني منه . . وهذا يقتضي ان يؤخذ في الاعتبار المصادر الاخرى وخاصة الاخبارية والنقشية.اذ انه في إطار تلك المعارف فقط يمكن تبيان تلك الصورة التاريخية وبالتالي ادراك اهمية المادة الجديدة الواردة في الكتاب الذي نحن بصدد قراءته . .

يقول الدكتور الانصاري مؤلف الكتاب في توطئته (ان كتابنا هذا صورة حية لما كانت عليه منطقة من مناطق وسط الجزيرة العربية من مستوى حضاري

في فترة ليست طويلة في عمر الزمن ولكنها ذات اهمية في التسلسل التاريخي لحضارة الجزيرة العربية).ويعني بتلك المنطقة قرية الفاو التي كانت في عز ازدهارها اشبه ما تكون باحدى دول مدن القوافل التي عرفت جزيرة العرب عدداً منها.فقد كانت (قرية) مدينة او محطة تجارية على ذلك الطريق الفرعي الهام الذي يربط جنوب الجزيرة بشرقها.وكان في الجزيرة العربية حينذاك طريقان تجاريان هامان هما طريق اللبان وطريق الحرير.وكان طريق اللبان يمتد من ساحل البحر العربية ابتداء من ميناء (قنا) ويمر عبر المدن اليمنية القديمة المشهورة مثل شبوة ومارب ومعين ونجران ثم يواصل مسيرته عبر الحجاز وشمال غرب الجزيرة حتى يصل الى غزة على البحر المتوسط.اما طريق الحرير فكان يأتي من الشرق عبر بلاد الرافدين ويسير بمحاذاة نهر الفرات حتى يصل الى تدمر ثم دمشق ومنه مرة اخرى الى البحر المتوسط وآسيا الصغرى . .

ويربط هذين الطريقين طريق فرعي يمتد من نجران الى هجر (الهفوف حالياً) في شرق الجزيرة ومنها الى وادي الرافدين او الى سواحل الخليج ومنه بحراً الى الشرق . . وتقع قرية الفاو على ذلك الطريق الفرعي الذي يمتد من نجران الى هجر ماراً بوادي الدواسر والافلاج.وقد ذكر الهمداني ذلك الطريق الذي بقى سالكاً بعد الاسلام وان لم يكن مزدهراً كما كان قبله في كتابه صفة جزيرة العرب لدى حديثه عن صفة العروض والبحرين ونجد.فبعد ان يذكر الفلج والطريق منه باتجاه الجنوب يقول :

«ثم رجعت الى الطريق من المقترب تريد اليمن قصد نجران فتشرب بحسي كباب . . فإن تيامنت شربت ماء عادياً يسمى قرية الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر» (الصفحة ٢٩٧).ورغم أن تلك اشارة واضحة من الهمداني لذلك الموقع الاثري الا ان الاهتمام به لم يبدأ الا في الاربعينات من هذا القرن حين اشار اليه بعض موظفي شركة أرامكو ، ثم قام بزيارته الرحالة المعروف عبد الله فيلبي مع العالم البلجيكي (جاك رايكنمز) عالم النقوش القديمة عام ١٩٥٢ . . وكان ان رسموا لموقع القرية خارطة مبسطة وذكروا بعض مقابرها ونقوشها ثم تبعهم عالم النقوش اليمنية المعروف (البرت جام) عام ١٩٦٩ فقام

بدراسة مجموعة من كتاباتها ومنذ عام ١٩٧١. والموقع هو محل اهتمام قسم التاريخ ثم قسم الاثار والمتاحف بجامعة الرياض الى اليوم . .

ولكن البرت جام نفسه لم يكن يعرف موقع (قرية) عندما نشر مجموعة النقوش السبئية من محرم بلقيس عام ١٩٦٢ والتي كانت ثمرة حصاد تنقيب البعثة الأميركية في مأرب عام ١٩٥٢ . وكان الموقع قد ورد في أربعة نقوش من تلك المجموعة باسم قرية او قرية ذات كاهلم وحاول جام حينذاك أن يحدد موقعها ولكنه لم يفلح ، وبإستثناء الهمداني كما سلف ذكره فإن كتب التاريخ وتقاويم البلدان قد اهملت ذلك الموقع وربما كان ذلك بسبب اندثار تلك المحطة التجارية وتقادم العهد عليها كغيرها من المواقع الأثرية القديمة التي اكتشفت في العصر الحديث بفضل علماء الآثار والجهود الأثارية .

غير ان اهل تلك (القرية) لم يهملهم التأريخ تماماً وان كان الاخباريون قد اختلفوا في نسبهم ومنازلهم وتواريخهم . . وبفضل تلك اللمحات التاريخية وبما ورد في النقوش اليمنية القديمة وبفضل تنقيبات بعثة جامعة الرياض الحالية ربما تمكن الباحث من رسم صورة تاريخية مقبولة لتلك القرية واهلها. وتاريخ تلك القرية واهلها قبل الاسلام هو بلا ريب تاريخ كندة بالدرجة الاولى. وكندة عند النسابة من قبائل قحطان تنسب الى ثور بن عفير بن عدي بن الحارث . وهي عند الاخباريين قبيلة كانت تسكن شرق بلاد اليمن مما يلي حضرموت ثم نزحت من حضرموت نحو الشمال فنزلت ارض معد بنجد . ولكن النسابه قد يختلفون فيذكرون ان كندة من قبائل عدنان والاخباريون قد يختلفون ايضاً فيذكرون ان كندة قد سكنت حضرموت بعد نزوحها عن البحرين والمشقر وغمر ذي كندة ثم نزحت من حضرموت ثانية فنزلت ارض معد. ومجمل اخبار هذه القبيلة عندهم انها أسست ملكاً وكان مرتع بن معاوية بن ثور اول ملوكها وان حجراً بن عمرو بن معاوية بن ثور المعروف بآكل المرار كان أول ملوكهم في نجد بعد نزوحهم من حضرموت ، وأنّ حسان بن تبع الحميري هو الذي ولاه على قبائل معد في وسط الجزيرة فكان ملكه بمثابة اتحاد قبلي توسع بالغزو والمصاهرة . وبلغ ملك كندة أوجه في فترة الملك الحارث بن عمرو الذي وصف بأنه كان

شديد الملك بعيد الصوت حتى اصبح ملكاً على الحيرة بتأييد من قباذ ملك فارس بدلاً من ملكها المشهور المنذر بن ماء السماء .

وقبل وفاته عين اولاده الاربعة ملوكاً على قبائل العرب الخاضعة لحكمه. وكان ابرزهم حُجْر اكبر ابنائه الذي ولاه على اسد وكنانة وغطفان.وكانت منازلهم عند وادي الرقة بين جبل شمر وخيبر في شمال غرب نجد . . وذكر الاخباريون ان بني اسد اجتمعت على قتل حجر فقتلوه لسؤ سيرتهم فيه فقام ابنه الشاعر امرؤ القيس ليثأر له من بني أسد وليحاول ان يعيد ملك ابيه وجده الذي انهار بعد موت الحارث . . وانتهت حياةامرىءالقيس كما انتهى ملك كندة على قبائل معد بمأساة معروفة في كتب الادب.اذ اخفق في استمالة ملوك العصر لنصرته واستعادة ملك آبائه عبر عنها بشعر ينسب اليه فيقول فيه :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن انــا لاحقــين بقيصــرا
فقلت لـه لا تبك عينـاك إنما ... نحـاول ملكاً او نمـوت فنعذرا

وكان ان مات وهو يحاول استعادة ذلك الملك الغابر . .

ولا تدل الاخبار على أنه كان لكندة مستوى راق من الحضارة المادية على أن صداهم ظل يتردد في كتب التاريخ والادب ولا سيما شهرتهم في الفروسية التي عرف بها رجال كندة في الجاهلية والاسلام.وربما كان اهم ما يقترن بذكر كندة في الاخبار هو انتاجها لابرز شاعر جاهلي هو امرؤ القيس مما يدل على ان الحركة الادبية ونظم الشعر كان راقياً فيها وربما كانت ايضاً موئل الشعراء وملجأهم.فلما انقرضت دولتهم توجه الشعراء صوب الحيرة يقصدون للمناذرة ثم صوب اسواق العرب المنتشرة عبر الجزيرة وخاصة سوق عكاظ قرب مكة (راجع صالح العلي ص ٩١ ـ ٩٢) . .

ذلك كان مجملاً لتاريخ كندة في كتب التاريخ والاخبار اما تفاصيله وان اختلف فيه كثيراً الا انه يكفي لتأليف كتاب كامل عنها كذلك الذى وضعه (أوليندر) في أواخر القرن الماضي بالالمانية وترجمه عام ١٩٧٣ م في بغداد عبد الجبار المطلبي .

اما ذكر ديار كندة ومنازلها في الاخبار فنجملها في ما يلي :

يذكر الهمداني في صفة جزيرة العرب ان بلد كندة من ارض حضرموت فإذا خرج الخارج من العبرلقي أول ذلك درب العجيز الكندي ثم هينن . . ثم صوران . . ثم قشاشة . . ثم عندل . . وفيها يقول (امرؤ القيس) بن حجر :

كـأني لم الـه بـدمـون مـرة ولم اشهد الغارات يوماً بعنـدل

ثم الهجران ، ودمون وساكن دمون بنو الحارث الملك ابن عمرو المقصور بن حجر اكل المرار . . وبلد كندة مرتفع كأنه سراة وتصب أوديته في حضرموت (اي وادي حضرموت) . . ثم حورة . . ثم قارة . . والعجلانة قرية كبيرة مقابلة لهينن الا ان هينن في وادي العبر . . والعجلانية في وادي دوعن . . ، وبلد كندة هي هذان الواديان اعلاهما الحصون واسفلهما الزرع النخل . .

كما يروي الاخباريون ان حرباً نشبت بين حضرموت والسكون وكندة انكسرت فيها كندة واضطرت الى الانسحاب . . وان مملكة حجر الكندي والتي تكونت بمساعدة حكام اليمن كانت بنجد ما بين طحية وهي هضبة بنجد الرحى خربة الى دارة جلجل ثم العقيق الى بطن نخلة الشامية الى حزنة الى اللقطة الى افيح الى عماية الى عمايتين الى بطن الجريب الى ملحوب وان مقر ملكه كان غمر ذي كندة (راجع ياقوت معجم البلدان) .

واذا ما اضيف الى هذه المواقع ما ذكره امرؤ القيس في شعره مثل سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة وقيمر ومأسل وقرقرى لوجدنا ان معظم هذه المواضع تكاد تكون في منطقة واحدة هي المنطقة الواقعة في عالية نجد الجنوبية جنوب خط المسافر من الرياض بعد تركه لجبل طويق الى الدوادمي ومن حولها حتى وادي الدواسر جنوباً، وهي تلك الاماكن الذي قضى فيها الشاعر امرؤ القيس الكندي اجمل ايامه (راجع مجلة العرب ج ١١ و ١٢ س ١١ ص ٨٦٧ - ٨٦٨) وراجع المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، عالية نجد القسم الثالث) (وكذلك بلاد العرب للاصفهاني) .

وما يمكن ان نستفيد من هذه الاخبار ان أصل موطن كندة هو ما بين وادي

العبر ودوعن رافدي وادي حضرموت وبعد انتقالها استقرت في نجد وبالأخص في عاليه نجد حالياً.وبعد محاولة تحديد منازل كندة رغم اختلافها وفق المصادر الاخبارية فإننا مازلنا نجهل تماماً مقر ملك كندة وهو غمر ذي كندة وإن كنا نعرف انه ينبغي أن يكون في عاليه نجد أو أنه موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين . . كما أننا مازلنا لا نفهم قول ابن الكلبي في كتاب الافتراق :

وكان لجندة بن معد الغمر غمر ذي كندة وما صاقبها وبها كانت كندة في دهرها الاول . . ومن هنا احتج القائلون في كندة لما قالوا لمنازلهم في غمر ذي كندة يعزز من نسبهم في عدنان (انظر ياقوت معجم البلدان مادة غمر ذي كندة) .

فأين كانت غمر ذي كندة التي كانت فيها كندة في دهرها الاول وهل كان لكندة دهران في نجد ؟ وهل كان لكندة دهران في منازلها بحضرموت ؟ بل ما هو تاريخ كندة الحقيقي ؟ . . وما هي الاضواء التي تلقيها آثار قرية الفاو والنقوش على تاريخ كندة ؟ وهل نحن امام صورة جديدة للحياة العربية قبل الاسلام تتبدى ملامحها كلما تحركت ريشة الآثاري أو قل معوله وهو يهوي برفق ليزيح التراب عن اطلال الماضي وحقائق التاريخ المطمورة . . ؟

إن أية محاولة للأجابة عن هذه الاسئلة بقصد ازاحة الغموض الذي يكتنف تاريخ كندة حسب ما ورد في الاخبار ينبغي ان تستند الى مصادر اخرى مكملة مثل الابحاث الاثرية الجديدة والى ما تقدمه من شواهد كاللقى الاثرية الدالة والكتابات النقشية . وليس في نية كاتب هذه السطور استعراض تلك الشواهد وتمحيصها وتبيان دلالتها ، فلذلك تفصيل آخر ويحتاج الى مجلد يمكن أن يضاف الى المجلدات التي يزمع القائمون على التنقيب في قرية الفاو اصدارها . وربما يفي بغرض المقام ان نوجز دراستنا واسهامات الدارسين غيرنا في هذا المجال على شكل صورة تاريخية مجملة تومىء الى الحقيقة وتغفل ضمن هذا الاطار تفصيل الحجة . .

ورد ذكر كندة في نقوش يمنية قديمة يقدر تاريخها في القرن الثاني الميلادي وتذكرها هذه النقوش ولها ملك في قرية ذات كهل أو ككيان سياسي على شكل اتحاد قبلي وعلى رأسه ملك. . ثم تشير النقوش بعد حين الى دور اهل كندة في

خدمة الاهداف العسكرية لملوك سبأ وخاصة دورهم كفرسان في فيالق الجيش السبئي . فنحن نعلم من النقش (جام ٦٣٥) ان الملك السبئي المعروف (شعر اوتر (عـاش ما بين اواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث) قد ارسل حملة عسكرية الى (قرية ذات كهل) ضد ربيعة ذي آل ثور ملك كندة وقحطان . . ويذكر نقش سبئي آخر (جام ٢١١٠) ان الملكين السبئيين (ايل شرح يحضب) واخاه (يأزل بين)[عاشا حتى حوالي منتصف القرن الثالث]ارسلا سفارة الى ملك الأزد (ازد السراة) الحارث بن كعب والي مالك بن بد ملك كندة ومذحج (يذكران معا ايضاً كاتحاد قبلي). ويعتقد ان ملك كندة ومذحج ذلك هو نفسه ملك كندة الذي ورد في نقش (جام ٥٧٦) باسم مالك وهو في هذا النقش يبعث برهينة هامة الى مأرب ليوالي بها الملكين السابقين السالفي الذكر . .

وتخبرنا النقوش اليمنية القديمة من عهد الملك شمس يهرعش (آواخر القرن الثالث) ان كندة كانت على وفاق معه بل شاركت ضمن جيوشه الغازية فوارس بدوية منها ومن مذحج (راجع مثلاً ص ١٥٥ ـ ١٦٥) المدونة الالمانية .

ويستفاد من نقش النمارة المؤرخ (٣٢٨م) ان امرأ القيس بن عمرو والملك اللخمي قد مد سلطانه على القبائل العربية في شمال الجزيرة ووسطها ولقب نفسه بملك العرب . . وامتدت غزواته حتى وصلت نجران مدينة شمّر كما اخضع قبائل معد والازد وهرّب مذحج . . ورغم ان النقش لم يشر الى كندة الا ان المرء يفترض ان كندة كانت ممن هُرّب ايضاً استناداً الى ما سلف ذكره من ورود كندة ومذحج في النقوش كاتحاد قبلي واحد وفي ظل ملك واحد . وحتى في المصادر المكتوبة ورد ذكر كندة ومذحج معا كقول الشاعر هبيرة بن عمر بن جرشومة النهدي : وكندة تهذي وبالوعيد ومذحج وشهران من أهل الحجاز وواهب الصفة ص ٦١ ـ ٦٢ . وفي كتب الانسان يتقارب نسب كندة ومذحج.فكندة هو ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد ، وينمى الى كهلان . . ومذحج هو مالك بن ادد بن زيد وينمى الى كهلان ايضاً . . وهذا ينبيء ايضاً ان (مذحج) ربما كانت القبيلة الرئيسية في ملك تتصدره كندة .

ويرى فون فيسمان ان chode aiathori عند بليني (يقصد بها حوطة آل ثور اي حاضرة آل ثورة) ويقابل ذلك ما يسميه الهمداني عين النقا. كما يرى فون فيسمان ايضاً ان (ملاجيتا) عند بليني ربما يقصد بها مذحج ويضع هذين المكانين المذكورين فيما بين الخرج والافلاج أي على الطريق بين قرية وهجر . . وفي خبر يورده الويسي في (اليمن الكبرى) ص (٢٤٥) ولست اعرف مصدره ما مؤداه ان مؤرخي العرب يقولون ان امرأ القيس بن عمرو كان عاملاً للفرس على مذحج بن ربيعة ومضر (هكذا) وعلى سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز . . ويؤيد ذلك ما ورد في تاريخ ابن خلدون نقلاً عن السهيلي ان امرأ القيس كان عامل سابور على عدد من القبائل العربية ومنها مذحج. وهناك نص ورد في تاريخ الطبري يصف حملة عسكرية كبيرة قام بها الملك الساساني سابور ذو الاكتاف ضد القبائل العربية في الجزيرة في حوالي الفترة نفسها وامتدت هذه الحملة لتشمل المناطق الشرقية ووسط الجزيرة بما فيها المناطق نفسها التي غزاها امرؤ القيس . .

ولما كان ملوك الحيرة على الاجمال ينعتون بانهم عمال للاكاسرة ودولتهم ليست سوى كيان سياسي لضبط تحركات البدو فانه من الجائز ان نفترض ان نص نقش النمارة ونص الطبري يتحدثان عن الحملة العسكرية نفسها وان الملك اللخمي أمرأ القيس كان على رأس تلك الحملة وبدعم وتوجيه من الدول الساسانية التي عرفت كدولة الروم في تلك الاعصر ، بكونها ضاغطة على مجريات الامور في الجزيرة . . واذا كان نص الطبري هذا لم يشر الى امرئ القيس فان الطبري وغيره قد ذكروا في مواطن اخرى انه كان عاملاً لسابور على العرب . .

ويذكر نص الطبري بوضوح ان الحملة شملت فيما شملت البحرين وهجر وبلاد عبد القيس واليمامة حتى وصلت المدينة . . وكانت الحملة من القسوة الى حد ان سابور افشى في غزواته القتل وسفك الدماء حتى كان الهارب من العرب يرى انه لن ينجيه منه غار . . في جبل ولا جزيرة في بحر . . كما انه لم يمر بماء من مياه العرب الا عوّره ولا جب من جبابهم الا طمّه. وتكرر في النص لفظة

هرب (بتشديد الراء) بمعنى طرد وهي اللفظة نفسها التي استعملت في نقش النمارة للدلالة على طرد مذحج من مواطنها . .

ولقد نجحت تلك الحملة الساسانية اللخمية في سد منافذ التحضر في شرق الجزيرة ووسطها بتدمير آماكن الاستقرار ومصادر المياه فهرب كثير منهم الى الاماكن الآمنة والخصبة على مشارف المناطق الحضرية مثل بلاد الهلال الخصب وجنوب الجزيرة . . وكان ان نزحت كندة ومذحج الى مستقرات جديدة في الجنوب نتيجة نجاح سياسة الضغط الساسانية ورأس حربتها سياسة الضبط اللخمية . . وكان ما كان من استقرار كندة فيما عرف بعد ذلك بديار كندة في حضرموت بين وادي العبر ودوعن . . ونزول مذحج في مشرق اليمن فيما اشتهر بعد ذلك بسَرْو مذحج . .

ويعتقد بعض الباحثين ان امرأ القيس كان على رأس حملة رومانية قام بها من مقره الجديد في بلاد الشام بعد خروجه عن طاعة الفرس ولحاقه بالروم . ومهما كان الامر فالثابت هو نزوح مذحج وسادتها كندة في تلك الفترة . . وليس فيما لدينا من المصادر العربية ما يناقض ذلك. . . بل ان كتب الاخبار والانساب تؤيد ذلك كقول الهمداني مثلاً في صفة جزيرة العرب (وكذلك سبيل كل قبيلة من البادية تضاهي باسمها اسم قبيلة اشهر منها فانها تكاد ان تتحصل نحوها وتنسب اليها . . رأينا ذلك كثيراً وكذلك سر ومذحج لم توطنه مذحج الا بآخره وهو من أوطان ذي رعين وسوقهم وقبور ملوكهم وقصورها وأثارها واكثر مواضعه سمي باسماء متوطنه من ال ذي رعين (١٨٠). ويشبه ذلك قول الهمداني في الصفة ايضاً (وفي حضرموت سكنت كندة بعد ان اجلت عن البحرين والمشقر وغمر ذي كندة في الجاهلية بعد قتل ابن الجون وكان الذي نقل منهم عن هذه البلاد الى حضرموت نيفا وثلاثين الفا (ص ١٧٥). ومن يتفحص انساب كنده ومذحج كما ورد عند الهمداني في كتاب الاكليل او عند ابن الكلبي في الجمهرة سيجد ان القبيلتين احتفظت بأنسابها بعد النزوح بل ابقت على انتساب بعضها الى مساكنها في ديارها الاصلية . . فمن بطون مذحج في السرو مثلاً (القريون) ربما نسبة الى قرية ومن بطون كندة في حضرموت (بنو الحارث

بن بدا) وهو الاسم نفسه الذي نسب اليه ملك كندة في عالية نجد (مالك بن بد) في نقش (جام ٢١١٠) السالف الذكر .

واذا ما استقر الرأي على نزوح كندة الى ديارها في حضرموت بعد ان هربت من ديارها الاصلية في الفترة المذكورة اي في مطالع القرن الرابع الميلادي فانه من الممكن منطقياً ان نقرر ايضاً ازدهار دولتها في قرية الفاو قبل ذلك .. اي ازدهارها في دهرها الاول على رأي الاخباريين . على ان مصادرنا التي نستقي منها اخبار كندة في هذه الفترة القديمة ليست هي الاخبار والانساب وانما هي اللقى الاثرية والنقوش .. واهم ما في تلك هي ولا ريب آثار قرية الفاو . وليس لدى الباحث شواهد اثرية او نقشية يمكن من خلالها معرفة اقدم تاريخ لكندة أو لحاضرتها (قرية) اما ما لديه من شواهد فانها تدل فقط على اقدم ما يمكن معرفته من ذلك التاريخ . على ان وجود قرية على طريق تجاري هام يمتد حوالي الف كيلومتر بين نجران وهجر ويربط جنوب الجزيرة بشرقها وبالخليج وبلاد الرافدين يفترض انها كانت منذ زمن بعيد قبل الميلاد محطة للقوافل للشروط الطبيعية نفسها التي جعلت منها بعد الميلاد احدى مدن القوافل المزدهرة وحاضرة لاتحاد قبلي ترأسه كنده على الغالب . ومما يدعو الى مثل هذا القول تلك القرائن التي اوحت بها الدراسات الجديدة التي نتجت عن التنقيبات في دلمون وقرية الفاو والمسح الاثري في مارب بالاضافة الى المحاولات العلمية الجادة التي نشرها العالم الالماني الكبير (فون فيسمن) وخاصة كتابه الجديد الذي صدر الجزء الثاني منه عام ١٩٨٢ ام اي بعد وفاته بثلاثة اعوام وعنوان كتابه (تاريخ سبأ) .

ويرى فون فيسمن ان مناطق شرق الجزيرة العربية الواقعة على الخليج تدخل في نطاق مراكز الحضارة القديمة .. ومستنده في ذلك هي اللقى الاثرية التي كشفت عنها تنقيبات البعثة الدنمركية في البحرين والتي بدأت بنشر دراستها في عام ١٩٥٤ والتي ابانت عن بناء مدينة منتظمة الشكل يعود اسفل طبقاتها الى ما بين ٢٨٠٠ ـ ١٨٠٠ قبل الميلاد ومعبد واسع يرجع تاريخ بنائه الى ما بين ٢٣٠٠ ـ ١٨٠٠ قبل الميلاد .

مما يدل على ان شرق الجزيرة لم تكن مركزاً ملاحياً فحسب وانما كانت في الوقت نفسه مركز حضارة مثل ارض دلمون التي ذكرتها الواح الطين في تلك الاعصر القديمة وخاصة تلك الالواح التي عثر عليها في (اور) في بلاد ما بين النهرين السفلي . كما ذكرت النقوش المسمارية ايضاً ومنذ حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد ان دلمون كانت ضمن المدن الواقعة تحت نفوذ حاكم هجر . . ويعود تاريخ الفخار الذي عثر عليه في الجبيل عام ١٩٦٨ الى الالف الرابع قبل الميلاد اي من عصر حضارة العبيد. يضاف الى ذلك شواهد التنقيبات التي قامت بها البعثة الدانمركية ايضاً في (ابو ظبي). وجميع هذه الشواهد من سواحل شرق الجزيرة تدل دلالة واضحة على وجود ملاحة آنذاك على مقربة من تلك السواحل بين بلاد ما بين النهرين ودلمون ومجن ارض النحاس (في عمان حالياً). وعلى وجود تجارة نشطة بين هذه المراكز وملوخا او غيرها على ضفاف نهر السند وسواحل الشاطىء الهندي . . مما يؤكد الرأي القائل بالتبادل الحضاري بين مراكز الحضارات الرئيسية القديمة وسواحل الجزيرة العربية . .

واذا ما اخذ هذا الرأي بعين الاعتبار يمكن ان يقرر المرء ان المعلومات المتوفرة عن هذه المناطق الساحلية في تلك الفترات القديمة تتعلق بالدرجة الاولى بحركة الملاحة اذ ليس لدينا معلومات كافية عن حركة الطرق البرية التي كانت تربط مناطق الجزيرة العربية وخاصة وسطها وجنوبها . . على ان مثل هذه الطرق البرية لا بد وان تكون قد وجدت وأن قوام هذه الطرق ينبغي ان تكون قوافل الحمير ، رغم امكاناتها المحدودة وقلة تحملها للعطش عبر المسافات الطويلة . وتنبيء معظم المعلومات المتوفرة الى الآن عن ان اكتشاف الجمل كان متأخراً . فقد تم في حوالي منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . . كما لم يستخدم الجمل في الحرب والتجارة وحمل الاثقال قبل تلك الفترة .

ويفترض فون فيسمن ايضاً استناداً الى ما سلف ان حركة القوافل البرية باستعمال الحمير اولاً وعلى نطاق محدد، ثم باستعمال الجمل على نطاق اوسع امتدت تدريجياً من مثلث المدن على ساحل الخليج الى داخل الجزيرة اي من دلمون وجرها وهجر عبر طريق التجارة أو طريق اللبان كما عرف فيما بعد . . ماراً

بالخرج والافلاج حتى جنوب الجزيرة . وهو طريق تتوفر فيه العيون والابار على امتداد طوله الذي يبلغ بين الهجر ونجران حوالي الف كيلومتر . . (تاريخ سبأ ص ١٣ - ٢٢)

ومن ناحية اخرى تبين النتائج الاولية للمسح الاثري المكثف الذي تقوم به البعثة الالمانية في منطقة مارب ان ترسبات وسائل الري وخاصة في وادي ذنة وحيث يقع سد مأرب تدل على وجود حضارة واستقرار وتقنية ري في الالف الثالث قبل الميلاد . فقد ورد في الدراسة المورفولوجية المفصلة التي نشرها (برونر) احد اعضاء البعثة هذا العام ما يلي :

استناداً الى لقى الرواسب ينبغي ان يفترض ان تاريخ الري يعود الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد.ومن أواخر الالف الثالث عثر الباحث على تراكمات الطمي والحصي في ارض الجنة اليسرى مما يدل على وجود ري منظم في تلك الفترة . . وفي وسط السد الاكبر (اي سد مأرب) بناءان قديمان ، تدل الدراسة الفاحصة لارتفاعهما انهما شيدا بغرض ضبط المياه في النصف الاول من الالف قبل الميلاد (برونر ص ١٢٣).وقد بعث اليّ الدكتور(ساور) من جامعة بنسلفانيا رئيس البعثة الاميركية التي عملت في مشرق اليمن في وادي الخانق من الجربة جنوب مأرب رسالة تقول ان تحاليل الكربون ١٤ التي عملت على عينات من اللقى الاثرية العضوية تنبيء عن وجود استقرار حضاري في تلك المنطقة يعود تاريخه الى ما بين ١٤٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد . .(رسالة خاصة في شهر اكتوبر ١٩٨٣م). يستفاد مما سبق ان بامكان المرء ان يفترض وجود وصال تجاري وبالتالي وصال حضاري بين مراكز الحضارة القديمة المعروفة في بلاد ما بين النهرين والسند وبين مثلث مدن شرق الجزيرة العربية دلمون وجرها* وهجر منذ الالف الثالث قبل الميلاد وكذلك مراكز الحضارة في مشرق اليمن مثل مأرب على الاقل من الالف الثاني قبل الميلاد . .

واذا كان هذا قد حدث بالفعل وهو ما تشير اليه الابحاث الجديدة ، وان كانت لا تقطع تماماً بالحجة فان هذا الوصال قد تم عبر الطريق التجاري الممتد بين هجر ونجران ومارب . وهو ما عرف بعد ذلك بزمن بطريق اللبان . . ولا

---

* ولعل جرها هي هجر نفسها .

شك ان هذا الطريق كان يمر عبر الخرج والافلاج ووادي الدواسر حيث تقع قرية الفاو .

واذا كانت الادلة المتوفرة ما زالت قاصرة عن توكيد هذه العلاقة قبل الالف الاول قبل الميلاد ،ربما بسبب قلة التنقيبات في اليمن على وجه الخصوص. فإن هناك بعض الشواهد الدالة على ذلك منذ الالف الاول ، ومن هذه الشواهد ان علماء الدراسات اليمنية القديمة يكادون ان يجمعوا على ان (أيت - أم - را - سابا) الذي ذكرته النقوش الاشورية مقترنا بسرجون الثاني ويقدم جزية له عام (٧١٥ ق م) هو نفسه (يثع أمر بين بن اسمه علي) مكرب سبأ الذي ذكرته النقوش اليمنية القديمة . . وكذلك (كا - ري - بي - ايلو - وتار - ماتاسا - با) الذي يرد اسمه مقترناً بسنحريب ويقدم له هدية عام ٦٨٥ ق . م هو نفسه (كرب ايل وتار بن ذمار علي) مكرب سبأ المذكور في النقوش اليمنية القديمة . .

ومن الادلة ايضاً ، ان النقوش القديمة والتي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد مثل المدونة الفرنسية (٣٩٤٥ ، ٣٩٤٦) تذكر ان (كرب إلي وتار بن ذمار علي) السالف الذكر قام بتحصين وتسوير ما يقرب من ٢٠ مدينة وقرية يمنية . . وترد في هذه النقوش اليمنية لفظة (هجر ن) وجمعها (اهجور) بمعنى المدينة . . وهو لفظ يطلق عادة منذ ذلك التاريخ على كل مدينة في اليمن . . وقد احصى الدكتور عبد الله الشيبه اكثر من سبعين مدينة يمنية (ذكرت في النقوش اليمنية القديمة حيث استعمل (بدلاً من مدينة) دوماً لفظ هجر (راجع اطروحة الشيبة (ص٧) فيقولون هجر ن مأرب وهجرن تمنع وهجرن صنعو وهكذا . . وتعني اللفظة المستوطنة المسورة والقرية المستقرة . قال الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل (ص ٣١٧) : « وسكن بعضهم الهجر وهو سور يجمع قصوراً ، والهجر بالحميرية القرية والقصور الملتفة » . . وفي كتابه صفة جزيرة العرب (ص ١٧٠) وهو بصدد ذكر كندة من ارض حضرموت يقول « الهجران . . تثنة الهجر فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان وهجر حصبة من مخلاف ذي مأذن . . » .

وهكذا فإن لفظة اساسية مثل (هجر) وتعني التحضر مقابل التبدي نجدها

تطلق على الواحة المسماة بالهفوف حالياً قبل الالف الاول قبل الميلاد ، كما ورد في النقوش المسمارية ، ثم تطلق بعد ذلك مطلقاً على مدن اليمن القديمة الامر الذي لا بد ان يكون له دلالة في دراسة الحضارات القديمة في الجزيرة وبناها الاساسية. ومن هنا لا بد ان تؤخذ هذه التسمية في الاعتبار عندما يتعرض الباحثون لتاريخ قرية الفاو القديمة وصلاتها الحضارية ، فهي من ناحية واقعة على طريق التجارة من هجر واليها وفي الوقت نفسه اسمها (اي قرية) دال عليها ، فالهجر كما قال الهمداني هي القرية ومكة كما قيل هي ام القرى اي ام المدن . . والهجرة في اللغة هي اصلاً الانتقال من البادية الى الحضارة والتهجير مصطلح معاصر في المملكة العربية السعودية ومعناها حسب علمي هو توطين البدو في المدن . .

وهناك دليل لغوي اخر يسعف على تكثيف هذا الرأي وهو تشابه بعض خصائص اللهجات في اللغة اليمنية القديمة باللغة الاكادية اللغة القديمة في بلاد ما بين النهرين . . حيث تشترك اللغة الاكادية مع اللهجات المعينية والقتبانية والحضرمية باستعمال السين بدلاً من الهاء في الضمائر ، وبدلاً من الهاء حرف التعدية في تصريف الفعل على وزن هفعل ، اي ان كلتا اللغتين المعينية والاكدية تنتمي الى لغة السين وليس الى لغة الهاء ، مما يعزز القول بعراقة الاصول المشتركة والعلاقات المميزة بين حضارة بلاد ما بين النهرين وحضارة اليمن القديم . . (راجع على سبيل المثال بعض هذه الوشائج اللغوية في كتاب موسكاتي ص ١٢٥) . .

ونختم هذه الاشارات الدالة على قدم العلاقات الحضارية بين بلاد ما بين النهرين وجنوب الجزيرة عبر طريق التجارة البري بالاشارة الى ما يمكن اعتباره اقدم كتابة بخط المسند عثر عليها في اليمن ، وهو ما عرف (بمونوجرام) هجربن حميد . ويتكون المونوجرام من أربعة احرف هي (ك هـ ل م) وهي الحروف نفسها التي يحملها اسم اله قرية الفاو وبهذه الاحرف نعتت قرية فصار اسمها في النقوش قرية ذات كهلم . . . وربما جاز ان نضيف فنقول ان جذر التسمية موجود ، ليس فقط في اقدم كتابة يمنية قديمة بل ان النسابة يقولون ان

اهل اليمن يتمون في انسابهم الى قحطان عبر ولديه حمير وكهلان والى كهلان تنسب عدد من القبائل اليمنية المشهورة مثل همدان ومذحج وكندة . . ولا يخفى ان الفرق بين الاسمين كهلم وكهلان يكمن في كون الاول نكرة والآخر معرفة كما هو معلوم في قواعد اللغة اليمنية القديمة . .

ومن هنا يجوز ان نفترض ان (قرية) وبحكم موقعها على الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيرة بشرقها ، وبالتالي بلاد ما بين النهرين ، قد لعب دوراً هاماً في عملية الوصال الحضاري والتبادل الثقافي بين تلك المناطق ، وان تاريخ قرية قد يتجاوز القرن الثاني الميلادي بزمن ليس باليسير* . كما ان حكم كندة في (قرية) ربما سبق ذلك التأريخ ايضاً . ومما يؤكد ما سبق تلك النقوش واللقى الاثرية التي عثر عليها في قرية الفاو . فقد عثر على معبد قديم تحت انقاض المعبد الجديد الذي واكب عصر ازدهار قرية بعد الميلاد ، وعلى درج هذا المعبد وجدرانه عثر على نقوش معينية تذكر معين وآلهتها مثل عثتار ذو قبض مع كهل اله قرية الاكبر ، مما يؤكد بأن قرية كانت محطة تجارية مزدهرة وعلى علاقة بدولة معين التي ازدهرت في الجوف فيما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد . . وليس بامكاني حالياً الاستشهاد بنصوص من هذه النقوش الهامة التي ينوي قسم الاثار بجامعة الرياض نشرها ضمن مجلد كامل خاص بالنقوش وان كان صديقي الدكتور عبد الرحمن الانصاري قد تكرم فاتاح لي رؤ ية بعضها . .

ومن فترة لاحقة عثر في قرية الفاو على شاعد قبر منقوش بخط المسند يذكر أن صاحب القبر هو معاوية بن ربيعة . . ملك قحطان ومذحج . . ويقدر الباحثون ان تارخ هذا النقش يعود الى ما قبل القرن الثاني الميلادي . . وجاء على كسر فخارية عثر عليها في قرية الفاو ايضاً كتابات بخط المسند تذكر اسم كهل اله (قرية) ويقدر الباحثون ان تاريخ ذلك الفخار قد يتجاوز القرن الثاني الميلادي الى فترة ما قبل الميلاد ، اذ يمكن مقارنته بفخار القرنين الاول والثاني قبل الميلاد الذي عثر عليه في هجربن حميد في وادي بيحان . وينطبق الامر نفسه على لقى الفخار اليوناني والروماني والنبطي والفارسي وخاصة المزجج منه ، مع العلم ان الدلائل تؤكد ان معظم اللقى الفخارية في قرية قد صنعت محلياً . . (راجع

الانصاري ص ٣١) . . ولما كانت قرية محطة هامة على طريق القوافل التجارية وان من المعلوم ان محطات القوافل الهامة في الجزيرة كونت دولاً مزدهرة ، نعتت باسم دول مدن القوافل عند المؤرخين وان فترة ازدهار تلك الدول في الجزيرة العربية كانت بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد ، مثل دول البتراء وتدمر والحضر ، فإنه من الجائز ان نعتبر دولة كندة في قرية واحدة من دول مدن القوافل تلك . ورغم ان المؤرخين قد اغفلوا هذه الحقيقة الا ان آثار تلك المدينة تنبيء عن ذلك ، فهي الى جانب كونها في موقع كأنه عنق زجاجة يسيطر على الطريق التجاري بحيث لا تستطيع القوافل ان تسير دون المرور بها ، فهي ايضاً تتمتع بخصائص تلك المدن الحضارية المذكورة مثل وجود المساحة الواسعة والمياه الوفيرة والعملة الخاصة بها ، والوسائل الدفاعية والسوق الكبير والقصر المشيد والمعبد والمقبرة الملكية والمساكن الشعبية هذا بالاضافة الى التركيب الاجتماعي النمطي والذي يتكون من الملك والنبلاء وعامة الناس. واخيراً وليس آخر السمات الدينية التي برزت بوضوح في نقوشهم وتماثيلهم ورسومهم الفنية . . واذا كانت البتراء وتدمر قد ارتبطتا ضمن منطقة ذلك العصر بالدولة الرومانية و نبطت الحضر بالدولة الفرثية فإن دولة (قرية) قد ارتبطت ولا شك بالدولة اليمنية السبئية الحميرية كما سلف وان ذكرنا في سياق الحديث عن ورود ذكر قرية في النقوش اليمنية القديمة .

وقد صور الدكتور الانصاري هذه العلاقة التاريخية الوطيدة بقوله (تعتبر الكتابة من أكثر ما يهتم به مواطنو (قرية) الفاو بل اعتقد ان الكتابة بالنسبة لهم كانت حاجة ملحة نظراً لدور قرية التجاري بين الجنوب والشمال والشرق ، كما ان دورها السياسي كعاصمة لدولة كندة يجعلها مرتكزاً لدور قيادي يحتم عليها الاهتمام بهذا الجانب الحيوي في علاقاتها مع الآخرين. ان القلم المسند كان القلم الرسمي الذي استعملته ممالك جنوب الجزيرة العربية سبأ ومعين وقتبان وحضرموت واوسان وحمير . . واذا كانت تظهر على لغتهم مظاهر الاجرومية الشمالية ، وحتى ما كتب من نصوص بقلم المسند الكلاسيكي (واقصد به ذلك المجرد من مظاهر مدرسة (قرية) من حيث الشكل) فإننا نجد ان لغة الشمال

كانت تظهر فيها بشكل واضح . . ولعل سبب ذلك انه رغم ان الحاكم كان جنوبياً الا ان المواطنين كانوا شماليين وجنوبيين أ. هـ (قرية الفاو ص ٢٣) والواقع ان حضارة الجنوب من خلال الآثار طاغية على قرية الفاو في فترة ازدهارها . . وليس ذلك من خلال عنصر الخط واللغة فحسب وانما ايضاً من خلال الدين والفن والعمارة وغيرها . . مع العلم ان لقرية خصوصيتها الثقافية ولا ريب بحكم الموقع والوظيفة ، تماماً كخصوصية دولة مارب ودولة معين ودولة شبوة من دول جنوب جزيرة العرب . .

ولكن هل كان طغيان حضارة اليمن على قرية الفاو بسبب كون حكامها كانوا من كندة الآتية من منازلها في حضرموت كما هو متعارف عليه ام ان سبب ذلك ان منازل كندة في الاصل كانت في عالية نجد كما تنبيء عنه الآثار والنقوش المكتشفة حديثاً وحيث تذكر في اقدم تاريخها وهي مرتبطة بقبائل مذحج التي تقترن بها في المصادر المكتوبة ايضاً ؟

ويبدو من خلال المصادر الاثرية والتي اوجزت شواهدها في الفقرات السابقة ان اقدم ذكر لكندة ولدولتهم وحضارتهم يتحدث عن موطنهم في عالية نجد . . ثم تأتي المصادر العربية لتذكر منازلهم ما بين العبر ودوعن في حضرموت ثم تؤكد المصادر الاثرية والنقشية والاخبار العربية معاً ان كندة الملوك او عائلة معاوية الاكرمين الكندية انتقلت الى نجد ، حيث كانت في دهرها الاول ووليت تلك العائلة حاكمة على قبائل معد في وسط الجزيرة بمساعدة من الدولة الحميرية لتكون على غرار الدول الحاجزة المعاصرة لها ، مثل دولة المناذرة التي تحجز بين القبائل البدوية ودولة الساسانيين ، ومثل دولة الغساسنة التي كانت تحجز بين القبائل البدوية ودولة الروم (بيزنطة) فكان همّ كندة ان تحجز بين القبائل البدوية والدولة الحميرية في عز دارها وان تقوم بدور الضبط لتلك القبائل الصحراوية في وسط الجزيرة المواجهة للدولة الحميرية الكبرى في جنوب الجزيرة تماماً كمثيلاتها من الدول الحاجزة التي تخدم دولتي « الضغط » الكبريان الدولة الساسانية في الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة والدولة البيزنطية في الطرف الشمالي الغربي منها . . على ان ما يميز كندة انها ظلت اجمالاً سواء في ملكها

الاول في عالية نجد او في ملكها الثاني في نجد عامة قبيلة مرتبطة باليمن ارتباطاً وثيقاً ، حكمها في ذلك حكم مذحج التي كانت في اتحاد قبلي مع كندة في دهرها الاول ، ولما هُرِّبت (مع كندة)انتقلت من عالية نجد الى مشرق اليمن وخاصة الى سَرْو مُذحج منه ، وهي باقية في تواترها هناك الى اليوم .

أما سبب انتقال كندة ومذحج الى منازلها في حضرموت وسَرْو مذحج فينبئنا عنه نقش النمارة الذي وجد على قبر امريء القيس بن عمرو احد ملوك الحيرة .

وكان هذا الحاكم اللخمي الذي لقب نفسه في النقش بملك العرب كلها ، وادعى انه لم يبلغ ملك مبلغه ، قد توغل في غزواته في الجزيرة العربية بدافع من الساسانيين ، وبدعم منهم كما سلف ذكره حتى وصل نجران مدينة شمّر (اي مدينة الملك شمر يهرعش الحميري).وفي طريقه هرَّب كثير من القبائل ، ويذكر منها مذحج التي تنبئنا النقوش اليمنية انها كانت انذاك في قرية الفاو ضمن اتحاد قبلي مع كندة.ويستدل من النقش وغيره من الاخبار أن القبيلتين هاجرتا على أثر ذلك الى مواطنها الجديدة في حضرموت وسَرْو مذحج . وليس لدينا أية معلومات تثبت وجود كندة ومذحج في هذه المواطن الجديدة قبل ذلك اللهم إلا الروايات الاخبارية التي قلّ أن تعنى بالتسلسل التأريخي الدقيق والتي تذكر في بعض رواياتها أيضاً ان كندة كانت تسكن غمر في كندة في دهرها الأول قبل هجرتها الى حضر موت . وهذا لا يعني أن قبائل كندة لم تكن ضمن أهل اليمن كما قد يخطر لأول وهلة في بال بعض من يقرأ هذا البحث ، اذ لا خلاف على كون كندة من أهل اليمن وقبائله ، بدليل أن آثار الفاو نفسها والنقوش اليمنية والمصادر العربية قبل الاسلام وبعده تؤكد ذلك . . وقد قرر الدكتور الانصاري ذلك بوضوح في كتابه المذكور . ولكن الجديد في الأمر هو السؤال عن مواطن كندة الأولى . . وربما كان من المفيد ، وتوضيحاً للصورة أن نضيف هنا أن كندة ومذحج والازد كانت بمثابة الجانب البدوي من الكيان السياسي للدولة اليمنية القديمة حتى وإن استقرت بعض هذه القبائل في المرتفعات ، إلا أنهم كانوا على صلة دائبة بالصحراء ونمط معيشتها ، بل يحيون حياة شبيعة

بالحياة البدوية ولهذا ارتبط ذكر تلك القبائل في التأريخ بالجمال والخيول ، حتى شاع ذكر مهور كندة في الاخبار . ويتكرر في النقوش اليمنية القديمة ذكر اعراب كندة ومذحج ثم إندراجهم ضمن فيالق الجيش الحميري ، بل إنهم كانوا حينئذ ملحقين صراحة باللقب الملكي الذي حمله ملوك حمير ، فكان لقب التبع اليماني المشهور ابي كرب اسعد بن ملكي كرب يهأمن مثلاً ، هو ، ملك سبأ وذي ريدان (حمير) وحضرموت ويمانة واعرابهم طوداً وتهامة . . والنقوش اليمنية القديمة تميز بين بدو بعض القبائل وحضرها ، وتستعمل مثلاً التعبير اعراب همدان وهجارهم (تشديد الجيم) أي بدو همدان وسكان الهجر منهم ، والهجر بلغة أهل اليمن القديم هي المدينة كما سلف ذكره . ونزعم أن شيئاً من ذلك ما زال قائماً الى اليوم . .

ومن هنا نجد ذلك الخليط من لغة حمير ولغة معد في المحطات التجارية بين مواطن الحضر ومشارف البادية وخاصة في نجران وقرية الفاو . . ويوضح هذه الحقيقة الدكتور الانصاري في كتابه بقوله : واذا كان سكان قرية قد كتبوا بقلم الجنوب فانهم لم يعبروا عن افكارهم بلغة الجنوب فقط وانما كانت لغتهم مزيجاً بين لغة الشمال والجنوب ، اذ كانت تظهر على لغتهم مظاهر الاجرومية الشمالية وحتى ما كتب من نصوص بقلم المسند . . فإننا نجد لغة الشمال تظهر فيها بشكل واضح (قرية الفاو ص ٢٣) . .

والغالب على لغة البداوة في النقوش العربية القديمة هي خصائص اللغة العربية الشمالية هي اللغة التي زامنت اللغة اليمنية القديمة دهوراً دون تدوين يذكر ، ثم دونت في النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية . . وبرزت لأول مرة وبصيغة واضحة في نقش النمارة في القرن الرابع الميلادي.وفي القرن السادس الميلادي ظهرت في اسواق العرب كلغة ادبية ثم لم تلبث ان تجلت بشكلها الراقي البديع في كتاب الله عز وجل عند بزوغ فجر الاسلام .

وكان بدو اليمن بحكم تنقلهم بحثاً عن الماء والكلأ في ارجاء الجزيرة يتحدثون في الغالب بهذه اللغة ، وبهذه اللغة دون عدد من نقوش قرية الفاو ونلمس هذه اللغة ايضاً في رسائل شمعون الارشامي عن (شهداء) نجران

والتي تحوي الفاظا واسماء عربية . . وهذا هو الذي دعا عرفان شهيد في كتابه (شهداء نجران) ان يتكلم عن اللغة النجرانية ، بينما هي في الواقع خليط من اللغة العربية الشمالية واللغة اليمنية القديمة ، تماماً كتلك النقوش اليمنية التي وجدت في نجران او كذلك النقش الذي عثر عليه حديثاً في الربع الخالي والذي يذكر حاكم نجران للدولة اليمنية وعاملها ويورد اسماء اشخاص بصيغها العربية الشمالية مثل بشر وسليم (بشرم وسليمم كورتلر ٢) وراجع ايضاً بهذا الخصوص : (قصة اصحاب الاخدود ، دراسة لغوية تاريخية . . ابراهيم الصلوي الجامعة اللبنانية ١٩٧٩) . .

وخير شاهد على هذا المزيج من اللغتين العربية الجنوبية والعربية الشمالية النقش الذي عثر عليه في حفريات قرية الفاو كشاهد قبر لشخص يدعى (عجل به هوف عم) والنقش مكتوب بخط المسند ولغته تجمع بين خصائص اللغة اليمنية القديمة وخصائص اللغة العربية الشمالية . . وابرز ما في هذا النقش من خصائص اللغة الشمالية هو وجود اداة التعريف (أل) في اول الاسم بدلاً من أداة التعريف الجنوبية (ان) في آخر الاسم في اللغة اليمنية القديمة . . ولا ريب ان اداة التعريف (أل) سمة مميزة تنفرد بها لغتنا العربية المحضة عن غيرها من لغات العرب في جزيرتهم قبل الاسلام شأماً ويمنا . .

وهذا هو نص النقش المذكور منقولاً الى الخط العربي من خط المسند :

١ ـ عجل / بن / هفعم / بن / لأخه / ربيل / بن / هـ
٢ ـ فعم / قبر / ولهو / ولو لدهو / وم
٣ ـ رأته / وولد هو / وولد / ولدهم
٤ ـ ونسيهم / حرير / ذو ال / غلون / ف
٥ ـ أعذ هـ / بكهل / وله / وعثر
٦ ـ اشرق / من / عززم / ووينم / و
٧ ـ شريم / ومرتهنم / ابدم
٨ ـ بن / وكسم / عدكي / تمط
٩ ـ ر / اسمي / دم / ولأر

١٠ - ض / سعر

واذا ما نقل معنى النقش الى اللغة العربية المحضة فانه يقرأ هكذا .

عجل بن هوف عم بنى لأخيه ربيب ايل بن هوف عم قبراً و (هو) له ولولده وامرأته وولده وولد ولدهم ونسائهم الحرائر من آل غلوان . . فأعاذه (اي النبر) بكهل ولاه وعثر الشرق من كل عزيز (قوي) ووان (ضعيف) وشار (اي مشتر) ومرتهن (اي راهن) ابد ما بنى واكس (و) عدة ما تمطر السماء ديما و (تنبت) الارض شعيرا . . (محاولة جديدة لقراءة النقش) .

راجع ايضاً قراءة الدكتور عبد الرحمن الانصاري (وهو اول من نشر هذا النقش في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الاول ج ١ ص ٨)،وقد اطلعت مرة على قراءة اخرى للدكتور الفرد بيستون ومحلها ليس مبلغ علمي الان . . وتنبغي الاشارة الى ان هناك بعض الاختلاف في نقل المعنى بين كل من القراءات الثلاث . .

ويمكن للمرء ان يقرر ان معنى النقش في مجمله مما يجري على السنة العرب سواء مفرداته او جمله . . انظر الى قوله : فأعاذه بكهل ولاه وعثر الشرق من كل عزيز ووان وشار ومرتهن .

وانظر ايضاً : قوله البليغ (عدة) ما تمطر السماء ديما و (تنبت) الارض شعيرا، اضافة الى ما سلف قوله من وجود (ال) اداة التعريف العربية المميزة شمسية او قمرية مثل (الشرق) و (الارض)،اما خلو النقش رسما من اصوات اللين وهمزة الوصل والتشديد والمد فأمر معلوم في الكتابة القديمة وخاصة في النقوش اليمنية القديمة والنصوص العربية المبكرة . .

كما ان اللهجة المحلية قد تملي بعض الخروج عن القاعدة مثل حذف الواو في (هوف عم) وحذف الياء في (ديم) رغم انهما هنا حرفان صحيحان وليسا بصوتي لين وهو معروف ايضاً في الكتابة اليمنية القديمة،فقد يكتبون (يم) اي يوم و (حضر مت) اي حضرموت والامثلة كثيرة . . كما يلاحظ ان الهمزة المكسورة ترد (ياء) في النقش مثل (حراير) اي حرائر او (نسايهم) اي

مائهم . . واطرف الامثلة بهذا الخصوص لفظ (اسمي) حيث قلبت الالف الهمزة في اخر اللفظ (السماء) الى (ي) . . وتعليل ذلك عادة ان الالف الهمزة تقلب واوا في اللغة اليمنية القديمة مثل صنعاء (صنعو) والالف المقصورة تقلب (ياء) وهكذا.ولكن يبدو لي ان سبب ابدال الالف والهمزة في السماء الى (اسمي) هو الاعراب حيث اعتبر السماء (خطأ) مجرورة فأبدل الهمزة المكسورة بالياء مثل (حراير) والشاهد هنا هو وجود الاعراب حتى وان كان كاتب النقش قد اخطأ في ضبط آخر الكلمة بالشكل . . اقول هذه الملحوظة وانا اعلم ايضاً ان عدداً من اسماء الاماكن او الاعلام التي نعرفها في العربية المحضة منتهية بالالف والهمزة ولكنها قد ترسم في النقوش (كالصفوية) بالياء مثل بلقاء وبلقي وزهفاء وزهفي . .

ولكن النقش يحوي ايضاً بعض سمات اللغة اليمنية القديمة فضلاً عن كونه منقوشاً بخط المسند ، منها ورود ميم التنكير التي تلحق الاسم في اليمنية القديمة مقابل التنوين في اللغة العربية المحضة مثل (عززم - ونيم - شريم -مرتهنم). وعلى نسق صيغ التسميات اليمنية القديمة يرد العلمان (هفعم) و (غلوان) كما يرد على نسقها ايضاً اسم اله الزهرة (عثتر شرقن) وهو في النص (عثر اشرق) . . ويوافق ما اسلفناه ما ذكره الدكتور الانصاري في كتابه عن قرية الفاو حيث قال : (واذا كان سكان قرية قد كتبوا بقلم الجنوب ، فانهم لم يعبروا عن افكارهم بلغة الجنوب المحضة وانما كانت لغتهم مزيجاً بين لغة الشمال والجنوب واذا كانت تظهر على لغتهم مظاهر الاجرومية الشمالية وحتى ما كتب من نصوص بقلم المسند الكلاسيكي . . فأننا نجد ان لغة الشكال كانت تظهر فيها بشكل واضح،ولعل سبب ذلك انه رغم ان الحاكم كان جنوبياً الا ان المواطنين كانوا شماليين وجنوبيين أ . هـ (ص ٢٣) .

وربما كان المفيد في هذا السياق اللغوي ان نورد نقشاً كتب بخط المسند وباللغة اليمنية القديمة عثر عليه في مارب . . ورغم أننا لا نعلم تماماً تاريخ هذا النقش الا انه ولا ريب قد كتب في عهد حكم شعر اوتر ملك سبأ وذي ريدان اي فيما بين اواخر القرن الثاني الميلادي واوائل القرن الثالث . . وهي فترة

تزامن ازدهار (قرية) ووجودها كمدينة هامة . . كما ان هذا النقش يذكر اسمها بالفعل ايضاً اي انه نقش « معاصر » اذا صح التعبير . .

وهذا هوالنقش بعد ان نقلنا رسمه من خط المسند الى الخط العربي ودون التقيد بالصورة الاصلية لترتيب حجم الاسطر (راجع جام ٦٣٤) .

شرحم / بن / خذوت / ورجلم / هقنى / المقهو /

ثهون / بعل / اوم/ صلمن/ بن / غنمهو/ بن /هجرن/ قريتم/ ذات / كهلم /

لسعدهمو / المقهو / حظي / ورضو / مراهمو

شعرم / اوتر / ملك / سبأ / وذريدن / بن

علهن / نهفن / ملك / سبأ / ولسعد همو / نعمتم / ووفيم / ولهعنهمو / بن بأستم بألمقه . .

ومعنى النقش منقولاً الى اللغة العربية الفصحى :

(شرح من بني خذوة ورجل) قدم الى المقه ثهوان بعل أوام صنما (تمثالاً) مما غنمه من المدينة (قرية ذات كهل) من اجل ان يسعدهم الاله المقه بحظوة ورضا سيده شعر اوتر ملك سبأ ومن اجل ان يسعدهم (ايضاً) بنعمة وعافية ومن اجل ان يعينهم على البأساء والضراء بجاه الإله ألمقه

وليس صعبا ان يتبين المرء الفرق الواضح بين المبنى اللغوي لهذا النقش الذي وجد في مأرب والنقش السابق الذي وجد في قرية الفاو مع العلم أن صاحب نقش مارب كان قد عثر على صنمه المذكور في احدى الغزوات التي صحب فيها ملكه الى (قرية) . .

وأمعانا في توضيح الصورة وتبيان أوجه الخلاف بين نقش قرية الفاو والنقوش اليمنية القديمة المناظرة او المعاصرة نضيف هنا نقشاً آخر عثر عليه بجانب احد القبور الصخرية في بيت الاحرق من مشرق اليمن . . اي انه شاهد قبر تماماً كنقش (عجل بن هفعم) الذي عثر عليه في قرية الفاو . . وهذا هو النقش مبنى ومعنى :

النص بالحرف العربي : ـ

١ ـ ذرحن / بن / أب ذخر / بن خبز . .

٢ ـ ن / وذرفت / ظرب / ورسعْ سْ / وبر

٣ ـ أ / وهقح / مقبرهو / صنعن / وكل

٤ ـ مسودهو ٣ / ومورتيهو/وجير

٥ ـ هو ومبرأتهو / لقتبرم . .

٦ ـ بهو / كل / أحرر / وحرتو / ب

٧ ـ يتهو / غيلن . .

ونقل معنى النقش بالعربية هو : ـ

(ذرحان بن ابي ذخر ، من آل خبزان وقبيلة رفه وقف وسوى وانشأ مقبرته صنعان ، وكذلك كل مباخر المقبرة ومدخليها وجيرها ومبناها ، وذلك ليقتبر بها كل احرار وحرات بيته (عائلته) غيلان . .

(راجع مدونة النقوش ، قبوريات بيت الاحرق ، دراسات يمنية عدد٢) .

واذا كانت اللغة اليمنية القديمة او لغة اهل اليمن القديمة كما نعرفها من النقوش اليمنية القديمة والمنقوشة بخط المسند هي اللغة السائدة في مراكز الحضارة وخاصة في مناطق الاستقرار التي ازدهرت فيها دول سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحمير ، فإن مناطق التبدي من اليمن وتلك المستقرات التي تقع على اطراف مراكز الحضارة ، وخاصة محطات القوافل على الطرق التجارية المتجهة نحو شمال الجزيرة وشرقها ، والتي تقع تحت تأثير حركة تنقل البدو بحثاً عن العشب والكلأ عبر صحراء الجزيرة ، لا بد وأن تتأثر بحركة النقل التجاري بين شمال الجزيرة وجنوبها وشرقها وغربها . مما ينتج عن ذلك التأثر اختلاط في اللهجات وتمازج في اللغات . ويتضح هذا المزيج اللغوي في تلك المناطق من النقوش التي عثر عليها في الربع الخالي . . وفي نجران وقرية الفاو . . هذا مع العلم ان نقوشاً يمنية اخرى نقشت باللغة اليمنية القديمة وبالخط المسند قد عثر عليها في مناطق شتى في الجزيرة مثل مأسل الجمح في نجد وقرية الفاو ونجران والعلا . كما كتبت آلاف النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية بخط مشتق من المسند ، رغم ان لغتها مزيج من اللهجات العربية التي هي اقرب الى لغتنا

العربية الفصحى منها الى اللغة اليمنية القديمة . .

ونلاحظ مثل هذا الخليط اللغوي من ناحية اخرى في النقوش التي كتبت بالقلم السرياني او النبطي او العربي والتي عثر عليها في شمال الجزيرة العربية . . حيث تقع البوادي واطراف مراكز حضارة بلاد الشام ومحطات طرق التجارة المتجهة الى جنوب الجزيرة تحت تأثير اللهجات البدوية بحكم انتشار البدو فيها ودورهم في نشاط القوافل التجارية .

فنجد في أن البتراء مثلاً النقوش النبطية والتي هي في اصلها مزيج من السريانية ولهجات البدو العربية . ونجد نقص النمارة في حوران يكتب في مجمله بلغتنا العربية الفصحى ويحمل سمات واضحة من لغة الانباط واللغة السريانية ـ كما انه كتب بخط وسط بين الخط النبطي المشتق من الخط السرياني والخط العربي الذي عرف في فجر الاسلام . وخط نقش النمارة يمثل عند الباحثين الى الآن حلقة الوصل بين الخط العربي والخط النبطي .

ولما كان نقش النمارة مؤرخا في عام ٣٢٨ للميلاد فإنه من المفيد ان نورده هنا على سبيل المقارنة وخاصة بالنقوش اليمنية القديمة والتي عثر عليها في اليمن ويعود زمنها الى القرن نفسه ، لنعلم مدى التباعد والتقارب والتمازج بين لغات جزيرة العرب شمالها وجنوبها في فترة بعد الميلاد وخاصة في نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الميلادي . .

وهذا هو نص نقش النمارة راجع : [جروهمن] لى نفس مر الوس بر عمرو ملك العرب كله دواسر السح وملك الاسدد وبررو وملوكهم وهرب محجو عكدي وحابرحى في حج بحرد مدنه سمر وملك معدو ونزل سة الشعوب ووكلهن فرس لروم فلم يبلغ ملك ميلغه عكدى هلك سب ٢٢٣ يوم ٧ لكسلول بلسعده دو ولده . .

ويختلف العلماء في قراءة هذا النقش اختلافاً يسيراً ومع ذلك فيمكن قراءته على النحو التالي : ـ

هذا قبر امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عصب التاج وملك الازدين ونزار وملوكهم وهرب مذحج حينئذ ودفع بجيشه حتى وصل نجران

مدينة شمر وملك معدا ونزل بنيه الشعوب ووكلهن الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه . . وكان ان هلك . . سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول فليسعد الذي ولده . . [يقابل تاريخ بصرى في النقش عام ٣٢٨ ميلادية]*

ورغم السمات الخطية واللغوية النبطية التي لحقت بهذا النقش العربي فان المرء يجد نفسه ولاول مرة امام جمل كاملة مكتوبة بخط عربي وبلغة عربية فصيحة لا تختلف عن لغة العرب في جاهليتهم قبل الاسلام بزمن يسير . .

ولا ادل على ذلك من تلك الجملة العربية الفصيحة التي ترد في خاتمة النقش وهي قوله : فلم يبلغ ملك مبلغه .

وهكذا يمكن للباحث ان يقرر انه في تخوم المناطق الحضارية في بلاد اليمن وبلاد الشام كانت العربية الفصحى موجودة منذ قرون قبل الاسلام-وكانت حينئذ لغة العرب البدو ثم اصبحت لغة تكويناتهم السياسية واتحاداتهم القبلية كما عرفت بعد ذلك لدى الدولة اللخمية على حدود العراق ودولة الغساسنة في اطراف بلاد الشام ودولة كندة في اطراف بلاد اليمن . . وهي المراكز نفسها التي عرفت في القرن السادس الميلادي شعراء العرب في الجاهلية مثل عدي بن زيد وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وامرؤ القيس الشاعر الكندي المشهور . .

وهكذا فإن هذا المزيج اللغوي الذي نلحظه في نقوش [قرية] هو في الواقع نتاج منطقي لعملية الوصال المستديمة بين حياة العرب في باديتهم وحياتهم في حاضرتهم . . ويتكاثف هذا المزيج في نقاط التقاطع والتماس لهذين النمطين من المعاش . . وكان الغالب على العرب منذ القدم في باديتهم لهجات خاصة ولكنها متشابكة ومتناثرة تنتظمها وحدة لغوية واحدة هي تلك اللغة العربية المحضة والتي تمثلت في آخر الامر في لغة الجاهلية من بلاد الحجاز ونجد وتبلورت في اسواق العرب ثم تجلت في ارقى مستوياتها في لغة القرآن الكريم . .

اما الغالب على العرب في حاضرتهم وخاصة في بلاد الشام وبلاد اليمن فكانت لهجات من العربية الاصل والارومة ما لبثت ان اتخذت عبر القرون قبل

---

* بعض ما في النقش قرىء ضمن محاولة جديدة غير منشورة للمؤلف .

الاسلام ابنية مختلفة واكتسبت خصوصية محلية ذات سمات معينة وفي شكل لغات متميزة ، ومثال ذلك اللغة اليمنية القديمة . .

وفي أطراف بلاد الشام الجنوبية واطراف بلاد اليمن الشرقية والشمالية وفي الواحات الواقعة على طرق التجارة عبر الجزيرة ظهرت باستمرار حياة هي مزيج من حياة الحضر والبدو وتحمل في مجملها عناصر التعدد والوحدة لدى العرب في الجزيرة مجتمعاً وثقافة . . وما [قرية] سوى مثال لهذا المزيج في اسلوب المعيشة ونمط الثقافة فأهلها في مجملهم من القبائل اليمنية وهي كندة ومذحج وقحطان ، ولكنها تختلف عن القبائل المتحضرة مثل سبأ وحمير ، بحيث تتميز بكونها امتداداً حضرياً وبدوياً في الوقت نفسه لقبائل اليمن عموماً . . اذ أن أهل اليمن ليسوا جميعاً سكان مدن وقبائل متحضرة خالصة ، تماماً كأهل الشام الذين لم يكونوا جميعهم حضراً ، فقد كانت لهم تلك الأطراف التي تجمع الخصائص البدوية والحضرية وتقطنها عشائر من قبائلهم نفسها في معظم الحالات . . وكثيراً ما نجد قبيلة واحدة تحيا حياتين مختلفتين ، يتحضر قسم منها ويستقر ويسكن المدن على حين يبقى قسم منها بادياً في أهل الوبر . . وقد استشهدنا فيما سلف ذكره بقبيلة همدان التي نصت النقوش على أن لها حضرها وبدوها . .

على ان بادية اهل اليمن هي غير تلك القبائل الموغلة في الصحراءالضاربة في الفيافي البعيدة عن العمران وانما هي تلك القبائل القريبة من مراكز الحضارة والمطيفة بقراها ومدنها والمتصلة بسكانها [فهم اهل باديتنا ونحن اهل قاريتهم] على حد تعبير الحديث الشريف . .

وهناك مثال آخر على هذا النمط من المعيشة تذكره النقوش اليمنية القديمة ولكنه اقدم عهداً . كان في اليمن في فترات ما قبل الميلاد اتحاد قبلي تراسه قبيلة أمير ، ويمتد هذا الاتحاد من منطقة برط [حالياً] الى شمال نجران . . وبقي ذكر قبيلة امير بعد الاسلام ، فذكرها الحسن بن احمد الهمداني في كتابه الاكليل الجزء العاشر [ص ٢٣٧] . .

وفي كتاب صفة جزيرة العرب [ص ١٦٢] فيقول : [ومن بلد وائلة وبلد امير اودية منها حلف وقضيب والذي بين الجوف ونجران من الاعراض

الكبار . .

وكانت طريق اللبان التجارية تمر عبر بلاد امير في تلك الازمنة القديمة فازدهرت امير نتيجة للخدمات التي كانت تقدمها للقوافل عند مرورها في المحطات التابعة لها وتميزت بتربية الجمال الوسيلة الاولى للنقل كما ارتبطت باحلاف من القبائل البدوية المجاورة وتمكنت بذلك من توفير الأمن ومادة [الجمالة] الضرورية للقوافل وهكذا صارت قبيلة امير تجمع بين سمات القبيلة البدوية المرتبطة بالجمل والبادية من ناحية والقبيلة المستقرة المزدهرة ذات العلاقة الوطيدة بالمجتمعات السبئية المتحضرة فاكتسبت ثقافة مميزة نوعاً ما هي مزيج من ذلك كله . . وخير مثال على ذلك ديانتها اذ كان لها اله يدعى [ذو سماوى] اي اله السماء وهي تسمية خاصة لا تشاركها فيها غيرها من المناطق اليمنية [راجع كتاب في سبيل جغرافية تاريخية لليمن ص ٨١ الخ . .] .

وليس في النية الاستفاضة في هذه المسألة ، وانما كان همنا هو الاستدلال على وجود هذا الخليط الثقافي والمزيج المعاشي الذي يعكس بدوره مزيجاً لغوياً ذا خصوصية معلومة ، نجد شبيهه في «قرية». فقد كان كيانها السياسي عبارة عن اتحاد قبلي لمناطق بدوية اذا ما قيست بمراكز الحضارة اليمنية ، على أن « قرية » كانت في الوقت نفسه حاضرة لذلك الاتحاد القبلي البدوي .

ومن هنا غلب على آثار قرية الفاو نمط هذا المزيج الذي يجمع بين عناصر البداوة وسمات الحضارة السبئية بما في ذلك اللغة .

في حدود هذه الدراسة نكتفي بما أوردناه من عرض قصير لكتاب « قرية الفاو » . . للدكتور الانصاري ، ومن دراسة متممة لا تخلو من قصور ، في سبيل رسم صورة تأريخية جديدة لتاريخ كندة القديم وملكها في قرية الفاو ، استناداً الى كتاب « قرية الفاو » واللقى الاثرية التي شاهدتها شخصياً في قرية الفاو او في متحف قسم الاثار والمتاحف بجامعة الملك سعود بالرياض.واعتماداً على المصادر المنقوشة والمكتوبة الاخرى وخاصة النقوش اليمنية القديمة التي عثر عليها خارج قرية الفاو . وأنا اعلم ان هذه الدراسة لن تغني شيئاً عن المجلدات العشرة التي ينوي قسم الاثار والمتاحف بجامعة الرياض اصدارها تباعاً عن آثار

قرية ، ولكني ازعم ان هذه المحاولة ربما كانت افقاً جديدا يفتح آفاقا اخرى للدارسين لحياة العرب قبل الاسلام في المستقبل . . وحسبي انه من يقرأ شعر امريءالقيس بن حجر الكندي آخر ملوك كندة في دهرها الثاني (وقد اقتصرت هذه الدراسة على كندة في دهرها الاول) ، وعلى ضوء هذه المعطيات الاثرية والتاريخية الجديدة ربما تمكن من ادراك كنه الدور الكبير الذي لعبته تلك الاماكن والاطلال التي ذكرت في شعره في وجدان الشاعر .

وقد كانت تلك الديار ، وجميعها في عالية نجد وعلى مقربة من مقر كندة في قرية الفاو ووادي الدواسر ، ملعب صباه ومهد شبابه ، وذكريات ملك قديم كان لقومه قبل ملك ابيه وجده في أرض نجد عموماً ، وما جاورها الى شرق الجزيرة وذلك بقرون عديدة . كما ان هذه المعلومات الجديدة اذا ما وضعت في إطارها الصحيح قد تسعف على تبين منابع تكوين امريءالقيس الثقافي وربما معرفة « سر » بكائه على الاطلال ، وهو امر جاراه فيه الشعراء من بعده زمناً طويلاً ، كما قد تفصح عن عمق مأساة الملك الضليل . وقد كان آخر حاكم لدولة قامت بآخر محاولة لتوحيد القبائل العربية قبل الاسلام في الجزيرة . وقد تكالبت على هذه الدولة قوى العصر الكبرى « الضاغطة والضابطة » . ورفضت جميعها مساعدة الشاعر الامير في إستعادة ملكه . ولقد كان سقوط دولته واستحالة استعادة ملكه محققين بعد ان انهار ملك اليمن وتدهورت حضارته. والتاريخ يؤكد ان ملك كندة قام بقيام الحضارة اليمنية وازدهار كندة متوقف استمراره على ذلك الكيان الذي سقط في أواخر الربع الاول من القرن السادس الميلادي على اثر الغزو الحبشي وانهيار مقومات حضارته وقبل تفكك اتحاد قبائل دولة كندة سنوات معدودة .

وحسبي انه عندما يقرأ الناس شعر امريء القيس اليوم . لا يكتفون بالوقوف معه والبكاء على الأطلال ، وعلى مرابع كندة في عاليه نجد وحضرموت مرددين قوله :

قفا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخّول فحومل
فتـوضح فـالمقـراة لم يعف رسمهـا	لمـا نسجتـه من جنـوب وشمـأل

أو قوله :

كـأني لم ألـهُ بدمون مرة ولم أشهد الغـارات يومـاً بعنـدل

أو قوله :

تـطاول الـليـل علينـا دمـون دمـون انـا مـعـشـر يمـانـون

وإننـا لأهلنـا محبـون

وانما يقف الباحثون منهم ايضاً على تلك الاطلال طويلاً ، مستنطقين آثارها ورسومها ، منقبين عما خفي منها بهمة عالية وعلم حاذق حتى تكتمل تلك الملامح ، لصورة تاريخية جديدة ، والتي بدأت تتكشف تباعاً في وادي الدواسر على سفح جبل طويق ،ومن بين تلك الاطلال التي لم يعف رسمها عبر الزمن ، لما نسجته من جنوب وشمأل .

---

* أظهرت التنقيبات في « قرية» عدداً من النقوش المعدنية التي ينبغي أن تعود إلى عهد ازدهار دولة معين ما بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد وانظر نقش (طلع مذقنت) الذي ينشر ضمن مجموعة نقوش الغار، وهي دراسة ونشر لنقش جديد للمؤلف .

بينون

اذا كانت الآثار هي الشواهد المادية على ماضينا المشرق وتاريخنا المجيد فان آثار هجر بينون من أهم تلك الشواهد واخلدها . وبينون مدينة يمنية قديمة ذكرها المؤرخون اليمنيون وتغنى بها الشعراء. قال الهمداني في الجزء الثاني من كتاب الاكليل : وهي هجر عظيمة وكثيرة العجائب ، وقال الشاعر : -

لـو ترى بينـون أنستـك أزالاً وظفـارا ورأيت الليـل فيه من سنـا العـز نهارا

وقال علقمه ذوجدن يرثي بينون :

لا تهلكن جــزعـا في إثــر من فـاتـا فــانـه لا يـــرد الـدهـــر مـــا فـــاتـــا

أبـعــد غـمــدان لا عــين ولا اثــر ام بعــد بينـون يبني النــاس ابيـاتـا

ورغم شهرة هذه المدينة وتردد ذكرها في مسامع اهل اليمن منذ اوائل العصور الاسلامية وبعدها الى حين. . فإن ذكراها انقطعت بعد ذلك وطمست من أذهان الناس ، ولم يعد يعرفها الا اهلها الذين ظلوا احفاداً اوفياء لتلك المدينة العريقة .

وقليل جدا هم العلماء الذين سمعوا بها في العصور الحديثة او اشاروا اليها في مؤلفاتهم ، وبلغ الجهل بها مبلغاً كبيراً ، حتى ان العلماء الاوروبيين واليمنيين

الذين شاركوا في إحياء ذكراها صرفوا وقتاً غير قليل في البحث عن مكانها . واذكر انني في اول رحلة قمت بها لزيارة هذه المدينة ظللت الطريق مرات ، لان الاهالي في « الحدا » لم يكونوا يعرفونها . ولم اهتد اليها الا بعد ان وصلت مشارف « ثوبان » مهتدياً بمعلومات قيمة ذكرها الهمداني والبعثة الالمانية التي سبقتني في الوصول اليها عام ١٩٧٠م[1] .

وبعد : - اين تقع مدينة بينون الاثرية ؟ يقول الهمداني ان بينون تقع في شرقي بلاد عنس ، مقابلة لكراع حرَّة كومان . وهذا التحديد صحيح ودقيق وفق تسميات عصره .

أما موقعها وفق التسميات الحديثة ، فهو في محافظة ذمار ضمن قضاء ذمار وناحية الحدا . اما العزلة فهي بنى ثوبان واسم القرية المجاورة لها النصلة . ويبدأ الطريق اليها من طريق ذمار - رداع - البيضاء فبعد ان يغادر المرء ذمار باتجاه رداع بعدة كيلومترات يتخذ طريق الحدا عبر قرى اللسى ، والهجر والمشاخرة . وتبلغ المسافة بين ذمار وبينون اربعة وخمسين كيلومترا . وبينون القديمة تتألف من واديين يتوسطهما جبل منفرج في وسطه ، وابرز قمم هذا الجبل هما « النصلة » حيث تقع القرية اليوم والداخلة حيث قامت مصنعة بينون قديماً . ويسمى الوادي الشرقي وادي الجلاهم ويسمى الغربي وادي غماره .

ولكن ، ما هي يا ترى اهم المعالم الاثرية في بينون ؟

في الموقع بقايا أثرية ولقى اثرية كثيرة كالحجارة المنقوشة بخط المسند او المزينة بزخارف جميلة ، وكسور الاعمدة المتوجة والكرواف المجصصة والطرق السالكة وأساسات البناء لمساكن كثيرة . ولكن اهم اثار بينون العجيبة (كما وصفها الهمداني) ثلاثة :

أولها : بقايا القصر الذي كان يمثل اروع مبنى في المدينة ويقع في تلة الداخلة كحصن منيع يحيط به اكثر من سور ، وتدل آثار القصر على انه كان

---

(١) كانت أول زيارة قمت بها الى هناك عام ١٩٧٧ . وكان رئيس البعثة الالمانية البروفسور والتر مولر هو أول من عني بنقوش هذه المنطقة .

مشيداً بحجارة مستطيلة جيدة التوقيص ومتعددة الانواع والالوان . ونحن نعرف اسم القصر من كتاب الاكليل للهمداني حيث يذكره باسم شهران ضمن أبيات شعرية ينسبها لأسعد تبع فيقول : -

وبينون مُنْهَمةٌ بالحديد ملازبها الساجُ والعرعَر
وشهران قصر بناه الذي بناه بينون قد يشهر

أما الأثر الثاني فهو المعبد ، ويقع في أسفل القصر ولم يتبق من جدرانه الا جدار واحد باربعة صفوف متراصة من الحجر الابيض الرخامي يبلغ طول الحجر منها أكثر من متر . وفي فناء المعبد بلاط مرصوف من الرخام يكاد المرء ان لا يصدق بأنّها سويت وهندمت دون آلة قطع حديثة . .

أما اهم تلك الآثار جميعها فهما : النفقان . وقد وصفهما الهمداني قبل ألف عام بقوله : وفيها « اي في بينون » قطعتان عظيمتان في جبلين ، نحتتا نحتاً في أصولهما حتى تعامى امرهما ولا تسلكها المحامل[1] . وفي كتابه صفة جزيرة العرب يذكر بين عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها « قطع بينون » ، « وهو جبل قطعه بعض ملوك حمير حتى اخرج فيه سيلاً من بلد وراءه الى ارض بينون » . وكلام الهمداني يفيد امرين اولهما ان في بينون نفقين او نقبين ، والجمع « نقوب » وهذان النفقان نحتا في جبلين ، والأمر الثاني أنَّ الغرض منهما ليس طريقاً تسلكه الدواب وانما مجرى لتحويل السيول من وادي الى واد اخر . وقد شاهدت هذين النفقين وتأكدت من غرضهما وهو تحويل « مساقط السيول » عبر جبل النقوب الى وادي الجلاهم . وتجمع هذه المياه مع سيل وادي الجلاهم لتجري وفق حساب هندسي دقيق الى نفق آخر يشق جبل بينون الى وادي ثمارة. ونفق جبل بينون مسدود بسبب انهيار في مدخله. أما النفق الأول فما زال مفتوحاً وعلى اوثق ما كان واحسن حال . ويبلغ طول النفق مائة وخمسين مترا وعرضه حوالى ثلاثة امتار اما ارتفاعه فاربعة امتار ونصف . وفي داخله فتحات

---

(١) راجع الاكليل ج ٨ .

جانبية كان يثبت فيها الواح خشبية او احجار لتنظيم سرعة تدفق السيول ، بالاضافة الى انكسار في النفق يساعد على الحد من سرعة تدفق السيول ، حتى تخرج الى ساقية الوادي وهي هادئة. وبذلك يمنع جرف جدران الساقية المؤدية الى النفق الآخر . اما الدليل القاطع على ان النفقين شقا في الجبلين لتحويل مياه الوادي الاول الى الوادي الثاني ومنه الى الوادي الثالث فهو النقش المحفور في أعلى مدخل النفق الاول . حيث يذكر النقش المكتوب بخط المسند باللغة اليمنية القديمة ان ذلك النفق عمل ليسقى وادي ثمارة . والعجيب في الامر ان وادي ثمارة ما زال موجوداً بالفعل بالاسم نفسه . وفي مدخل النفق نقشان احدهما قد انطمس والاخر ما زال يمكن قراءة معظمه . ويذكر النقش المقروء نذراً قدمه احدهم واسمه « لحيعثت بن زعيم » الى الاله « عثتار » بمناسبة افتتاح النفق[1] . وهذا يؤدي بنا الى تاريخ نقر ذلك النفق العظيم الذي اعتبره من أروع المنجزات اليمنية القديمة .

متى شق ذلك النفق وصنوه ؟ من الصعب تحديد تأريخ دقيق ولكن المصادر اليمنية واستناداً الى تقديرات تطور الخط تشير الى ان النفقين قد نقبا في القرون الاولى بعد الميلاد ، اي في بداية ازدهار الدولة الحميرية اي منذ الف وثمنمائة عام تقريباً . ويذكر الهمداني ان أبا كرب اسعد الذي عاش في مطلع القرن الخامس الميلادي كان يتخذ من بينون واحدة من حواضره .

اجل : بينون مدينة حميرية اسسها التبابعة لتكون واحدة من اجمل عواصمهم مثل ظفار وغيمان « وتدل آثار المدينة انها احرقت واخربت . ويعزي المؤرخون ذلك الى الحملة الحبشية التي دخلت اليمن في عام ٥٢٥ م وانهت دولة حمير وادخلت اليمن في احتلال الحبشة لسنوات طويلة » .

وتظل بينون وقصرها شهران وأنفاقها الباهرة شواهد مادية باقية على روعة انجاز الانسان اليمني وعلى هندسته البديعة وعمله الدؤوب وتحديه لقسوة الطبيعة وقدرته على انشاء الشوامخ .

---

(١) هذه المعلومات جميعها مستقاة من زيارات ميدانية قام بها المؤلف لدراسة هذه المدينة وآثارها .

غيمان

لا ريب أن الكثير يسمعون عن مدن يمنية تاريخية قديمة ومشهورة مثل «مأرب» عاصمة سبأ والواقعة في أرض سبأ ، وعلى ضفة وادي أذنة ، أو مدينة «ظفار» عاصمة دولة حمير بسند جبل ريدان وعلى مقربة من قاع الحقل وشرق مدينة يريم الحالية ، أو مدينة «صنعاء» التي كانت من المدن اليمنية القديمة المشهورة، غير أن بعضنا قد لا يكون ممن سمع بمدن يمنية قديمة أخرى تضاهي «مارب» و« ظفار» و(صنعاء) في روعة معمارها وعظمة مجدها وتليد تاريخها . . ومن يزور آثار تلك المدن اليوم يرى عجبا ، وقد يقف على أطلالها زمنا والدهشة تغمره . . والفخر يملأه مما يشاهده من ابداع إنساني رفيع . . وإنجاز بشري ضخم ، رغم تقادم السنين وفعل عوامل الطبيعة في تلك الآثار وعبث الإنسان بها قديما وحديثا .

ومن تلك المدن على سبيل المثال وليس الحصر مدينة «ناعط» قرب جبل ثَنَينْ من ناحية «ريدة» قضاء عمران في محافظة (صنعاء).

ومدينة صرواح «أرحب» قرب قرية «مدر» الحالية التي لا تبعد كثيراً عن جبل ريام ، حيث كان يقع واحد من أشهر المعابد اليمنية القديمة ومدينة «نعض» على سفح جبل كِنَن في سنحان، حيث تقع القرية الحالية التي تحمل

الإسم نفسه ومدينـة «وعلان» في المعسـال ، من ناحيـة «السواديـة» قرب طـريق ـ رداع ـ البيضـاء ـ أو مدينـة ـ غيمان ـ الى الجنـوب الشـرقي من ـ صنعـاء ـ في ـ بني بهلول ـ وغيرها من المدن اليمنية القديمة المشهورة .

ولكن قبل أن نتحدث عن غيمـان وآثارهـا ينبغي أن نعرض سـريعا لبعض المصطلحات التي تتعلق بالمدينة اليمنية القديمة وتسمياتها . وأول هـذه التسميات هي «الهجر» والهجر بلغة أهل اليمن قديما هي المدينة . وكانوا يكتبونها في لغتهم وبخط المسند «هـ ج ر ن » أي هجران والنون في آخر الكلمة تقابل أداة التعريف بلغتنا العربية الحالية . أما بدون أداة التعريف فتكتب «هجر» تماما مثل «هجـر» إسم المدينة الإسلامية المعروفة من قبل الإسلام أيضـاً في شرق الجزيرة العـربية وتسمى اليوم «الهفوف» في (المملكة العربية السعودية) وقد قيل في المثل «كحامل التمـر الى هجر» . أو مثـل هجر كحـلان في وادي بيحان أو هجـر «أم ناب» في وادي مرخة . والمصطلح الثاني هو محفد ، والمحفد بلغة اليمن القديمة هو دعامـة السـور الذي يحيط بـالمدينـة أو القصر أي ذلـك الكتف البارز من السـور الـذي يربط اجزاءه وقد يكون على شكل «نوبة» حـراسة . . وقـد استعملها (الهمـداني) وغيره بمعنى القصر أو المدينة التي يحيطها السور وذلك من باب اطلاق إسم الجزء عـلى الكُلّ . وخصص الجـزء الثامن من كتـابه الاكليل لذكـر «محافد اليمن» ومساندها وقصورها . والمصطلح الثالث هو «مصنعة» ويعني القلعة او الحصـن مثل مصنعة ريدان . قال علقمة ذوجدن :

ومـصنعـة بـذي ريـدان أُسّست بـأعـلى فـرع مُـتْـلِفـةٍ خَـلُوق

وفي اليمن أسماء أماكن كثيرة تحمل إسم مصنعـة أو تصغيرهـا «مصينعة» أو جمعها «مصانع» . وينسب الى أمرىء القيس الشاعر المشهور قوله :

الم يخـبـرك أن الـدهـر غـول خـتـور العـهـد يلتـهـم الـرجـالا
أزال عـن المـصـانـع ذا ريـاش وقـد مـلك السـهـولة والجبـالا

وأصل الكلمة «صنع» ومعناها حصن، وهذا هـو معنى أزال الاسم المشهور لمدينة (صنعاء) أي المدينة القوية الحصينة ، ومن ذلـك الاسم السبئي (يأزل) أو

اسم المدينة المعروفة «وعلان تازل» وهي تسميات على صيغة الفعل والدعاء.

وهكذا يطلق على أسم المدينة في اليمن القديم لفظة (هجر) وعلى سور المدينة بما فيه «محفد» وعلى القلعة الأساسية في أعلى الجبل التي تقع على سفحه المدينة (مصنعة).

وكانت غيمان وهي موضوع حديثنا هجراً ومحفداً ومصنعة، تجمع ذلك كله.

وتقع غيمان في الجنوب الشرقي من صنعاء في بني بهلول على جبل (غيمان). وعلى سفح الجبل يقع وادي غيمان. وترتفع المدينة عن الوادي حوالي (١٥٠ مترا). وتتكون مدينة (غيمان) الحالية المبنية بين أنقاض المدينة القديمة من مَحَلَّيْن منفصلين: أعلى الجبل حيث يمتد حصن غيمان المسوّر ويمتد من الشرق الجنوبي الى الشمال الغربي، ثم مجموعة المساكن غير المسوَّرة في منحدر الجبل من الناحية الغربية وتسمى «غيمان التحتاني». على أن أهم الآثار الباقية تقع في أعلى الجبل وأهمها ما يلي:

١ ـ حصن غيمان: وفي وسطه قصر قيل كان أسمه «المقلاب»، ويحيط بالحصن سور مدور يمتد حوالى ١٣٠ مترا، وبقايا القصر الأصلي والذي مر بناؤه، بفترات متكاملة ما زالت ماثلة للعيان. ففي الجهة الجنوبية يشاهد المرء ستة صفوف من الحجر «الموقَّص» توقيصا ممتازاً وفي الجهة الشرقية يشاهد المرء أحد عشر صفا من البناء نفسه. وأسفل هذه الصفوف أحجار ملساء من البلق والرخام وهذا النمط من البناء يذكره الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب الاكليل حيث يورد بيتا من الشعر كثيراً ما صحَّفه النساخ والمحققون المحدثون وذلك لدى وصف أحد قصور اليمن القديمة قال:

فأعلاه منّهمة رخام عال وأسفله جُروب

ويقرأ عادة مبهمه بالباء وهو خطأ. إن لفظتي منهمة وجروب (بمعنى الجزء الأعلى المزخرف من البناء بالحجارة البيضاء الموقصة ثم حجارة سوداء) تردان في النقوش بالمعنى نفسه.. ويقوم فوق آثار القصر اليوم (دار جبران همدان) ويمكن

تتبع جدران القصر السفلى في عرائش البقر والماشية الواقعة في الطوابق السفلى من الأبنية الحالية . وفي ساحة القصر يشاهد المرء الأرض المعبدة بأحجار البلق الملساء. ومنها الدرج المرمري الذي يدلف الى غرف القصر.

ومن آثار غيمان الباقية أيضاً الأسوار : ويروي الأهالي اليوم أنه كان (لغيمان) سبعة اسوار . على أن هذا القول يصعب التحقق منه . وكان المرء بإمكانه أن يرى آثار ثلاثة أسوار متداخلة تبدأ حول القصر مباشرة ثم تنحدر لتشمل (غيمان) العليا كلها تقريبا . وقد رأيت بنفسي صفوفا من الحجارة المتراصة الضخمة المهندمة بعض الشيء والمهترئة حاليا بسبب تكوينها الجيري الهشّ وذلك في الناحية الشرقية .

وكذلك يشاهد بقايا الأسوار في الجهة الشمالية والجنوبية الشرقية ، ونخاصة بقايا السور الثالث الذي كان يكتنف المدينة .

ومن آثار (غيمان) أيضاً بقايا الطريق المرصوفة بالحجارة الذي يُرى في الجهة الجنوبية من منحدر جبل غيمان . ويبلغ عرض الطريق حوالى اربعة امتار ويكتنفه جدار يبلغ ارتفاعه حوالى خمسة أمتار . وتؤدي هذه الطريق الى حصن (غيمان) وعلى يمين الصاعد منه تقع بقايا الجدار المحيط بحجارته السوداء اللامعة وبصفوفه المتراصة كأنه بقعة أرجوانية جميلة في ذلك الطلل الباقي من غيمان .

وقد يتبادر الى الذهن سؤال وهو كيف يشرب هؤلاء القوم وهم في تلك القلعة المنيعة التي ترتفع عن الوادي بحوالى ١٥٠ مترا وعن سطح البحر ٢٥٧٠ مترا .

كان أهل (غيمان) يستقون من تلك الخزانات العديدة التي حفروها وجصّصوها في منحدر القلعة وفي جميع الجهات. حيث يسوقون اليها المياه من كل مسافح الجبل وسقوف البيوت المجصصة.

وما زال الأهالي الى اليوم يعرفون أماكن تلك (الكرواف) والكريف هو

صهريج الماء بلغة «أهل اليمن» قديما وحديثا[1] .

وأكبر كريف رأيته في غيمان هو ذلك الكريف المنقور في الصخر في الجهة الشرقية وهو كريف مجصص وأحد جوانبه مبنى بالحجارة ثم طلي بالجص. وللكريف فتحة في الداخل تنفذ اليها كل المياه المجمعة من اعلى الجبل .

وعلى أن الأثر المشهور في (غيمان) والذي جذب اهتمام الناس في القديم والحديث هو مقبرة غيمان في التلة المقابلة الى الجنوب الشرقي من غيمان واسمها اليوم تلة يعوق . وهي مقبرة مستوية القبور وعبارة عن حُفَر مجصصة حوالى ثلاثة أمتار طولا ومترين عرضا، بخلاف المقابر اليمنية القديمة الشائعة والتي تكون عبارة عن «خروق» في الجبال تقع أسفل الحصن كتلك الخروق في جبل كوكبان أو وادي ضهر ، أو شبام الفراس[2]. وعلى تلة يعوق في (غيمان) عدد هائل من القبور المدفونة على سطح التلة . وقد قال لي أحد الأهالي هناك أن الحجارة التي كانت توضع غطاء للقبر كانت تنقل من جبل قروان المقابل، وهي إما حجارة بيضاء أو حمراء ، وقد حاول بذكاء اثبات هذا القول . واشتهرت هذه المقبرة لما تواتر من انها مقبرة عظماء الملوك من حمير وأن (اسعد الكامل) الملك الحميري الشهير مقبور هناك . وتروى ابيات شعرية بهذا الصدد على لسانه :

قولوا لحمير يقبروني قائما ... من حولي الحبلات والرمان
واقْطن لكاهنتي فان كلامها ... حق وان قبورنا غيمان

أو قوله :

و(غيمان محفوفة بالكروم ... لها بهجة ولها منظر
بها كان يقبر من قد مضى ... من أبنائنا وبها نقبر
اذا ما مقابرنا بعثرت ... فحشو مقابرنا الجوهر

---

(١) كريف 𐩫𐩧𐩰 مفرد والجمع 𐩫𐩧𐩥𐩰𐩩 وفي لهجات اليمن الحالية تجمع على صيغة فِعوال ومثلها طريق > طرواق ، بركة (حوض ماء) > برواك . وصيغة الجمع هذه معلومة في اللغة اليمنية القديمة مثلاً صرح > صرواح .

(٢) وفي شبام الفراس عثر على المومياوات المحنطة عام ١٩٨٣ .

قال الهمداني : يقول اذا عثر على قبر أحدنا وجد فيه الجوهر والمال .

واعتقاد بعض الناس ان قبور عظماء ملوك حمير في (غيمان) مملوءة بالجواهر والأموال هو الذي قاد الى «حفر السرقة» المنتشرة في المقبرة اليوم . وقد سبق ان نقب في هذه المقبرة الإمام احمد في عهد أبيه الإمام يحيى سنة ١٩٤٨ بحثا عن قبر أسعد الكامل ، والكنوز التي ظن أنه سيعثر عليها فيه . وغالب الظن أنه لم يعثر إلّا على بعض التماثيل التي توجد اليوم في متحف صنعاء. كما أن قبر اسعد الكامل لا يعرف الى اليوم فبعضهم يرى أنه قرب بناء القصر في أعلى ا لحصن وبعضهم يميل الى أنه في اسفل الأكمة .

ومهما كان الأمر فان تاريخ غيمان لا يكشفه إلّا مسح آثاري دقيق وتنقيب علمي منظم نرجو أن يتحقق قريبا وهو نداء نوجهه إلى القائمين على الآثار بسرعة التخطيط ولمشروعات التنقيب والحفاظ على الآثار ، ونوجهه إلى أهل غيمان بتجنب الحفر ونقل الأحجار والعبث بالآثار وهم أهل كرم ومروءة وأصالة .

ولا يتم الحديث عن غيمان دون سرد بعض المعلومات والأخبار التي تبرز أهمية غيمان وترجع صداها في التاريخ .

تنسبها كتب الأنساب الى ذي غيمان من أخنس بن كبر الى بن هامن بن أصبح بن زيد بن قيس بن صيفي ابن زرعة وهو حمير الأصغربن سبأ الأصغر .

وهذا النسب يعكس أن المدينة ازدهرت في الفترة الحميرية . وتؤيد هذا القول النقوش اليمنية القديمة التي ذكرت قبيلة ذي غيمان مقترنة مرة بقبيلة (حاشد) ومرة اخرى بقبيلة (همدان) ويعود تاريخ تلك النقوش الى القرون الأولى بعد الميلاد، أي فترة الصراع على لقب مُلْكِ (اليمن) وهو ملك (سبأ وذي ريدان)، (وذي ريدان) هم حمير .

وفي باب جامع غيمان نقش قد يستدل منه على أنّ من بناة قصر غيمان الملك «نشأ كرب يها من» (في حوالى منتصف القرن الثالث الميلادي) . أما أبرز

ما بقي عالقـا في ذاكرة التـاريخ عن (غيمـان) هو ارتبـاطها بـالملك الحميري أبي كـرب اسعد ، وكـونها إحدى المـدن الثلاث التي كـان يفضل سكناها : وهي (ظفار) العاصمة (وبينون) في الجِدا «وغيمان » . ويـذكر أن هـذا التبع قـد قبر بهـا . ومن طريف مـا يحكى أن يهود اليمن قـدموا احتجـاجا لـدى الامـام يحيى عندما بدأ ولي العهد أحمد بالتنقيب عن قبـر أبي كرب أسعـد في غيمان واعتبـروا ذلـك اقلاقـاً لواحـد من قديسهم في قبـره ، على اعتبـار ان اسعد الكـامل كـان موحداً واعتنق دين اليهودية .

وبعد ـ فان من يـزور (غيمان) اليـوم لا بدَّ وان يلحظ روعـة آثارهـا ، وقد نقلت بعض آثارها القليلة المكتشفـة الى متحف (صنعاء). وهنـاك بعض القطع في بعض المتاحف الأوروبية كالمتحف البريطاني وأهمها ذلك الرأس الكبير لتمثال غيمان وهوذي نمط يمني، مع بعض الأثر الهلليني . وهو الأثر نفسـه الذي لمسنـاه في خيل برونـزي آخر من (غيمـان) . وتظل تلك الآثـار المنقولة والباقيـة آثارا رائعة بكل ابعادها المحلية والخارجية وأنجازا ضخـما لشعبنا اليمني العـريق الذي خطَّ عـلى شوامـخ بلده مصانـع عـزة ونَقَـر عـلى صمّ احجـاره مسـانـد ثقافته وابداعه (*)

(*) استندت هذه الدراسة المكثفة الى زيارات ميـدانية قـام بها المؤلف والى المـادة المتوفـرة في النقوش اليمنية القديمة .

الجزء الثالث

الصورة التاريخية لليمن القديم
مدخل عام

ينبغي أن يسبق هذا المدخل ذكر لعصر التاريخ المبكر وعصر ما قبل التاريخ. وهما عصران لم تتضح بعد الصورة الأولية لهما نظراً لقلة العمل الأثري في اليمن بهذا الخصوص. وقد أنبأت الشواهد القليلة المتوفرة عن فترات العصر البرونزي والعصر الحجري؛ وهي العصور السحيقة التي ينبغي أن تسبق في العادة عصر التاريخ القديم أو فترة الحضارة الراقية. بل ويرجح أن بلاد اليمن قد شهدت مراحل التحولات الحضارية الأولى التي قامت في بقاع الحضارات المعروفة؛ مثل حضارة ما بين النهرين، وحضارة وادي النيل، وحضارة وادي السند، وحضارة بلاد الشام، فموقعها المجاور والملامس لتلك البقاع يقتضي أن تكون قد عرفت حضارة مبكرة تشكل امتداداً لها أو من بعض أصولها. غير أن اليمن لم تنل حظها من الجهود الأثرية التي نالتها تلك البقاع، ولم تكن بلاد اليمن يوماً من الأيام في بقعة الضوء الأثري منذ أن بدأ عهد الاكتشافات الأثرية في العصر الحديث، ولما كانت الدلائل الأثرية القليلة التي تومىء إلى تلك العصور السحيقة غير كافية، كتلك اللقى الأثرية التي عثر عليها في ريبون أو في وادي الجوبة أو في خولان. ولا بد من جهود كبيرة متضافرة ومسح آثاري شامل وتنقيب علمي منظم يتم في هذه البلاد، حتى يتسنى لها إبراز شواهدها الحضارية وكتابة فصولها التاريخية منذ أقدم العصور.

على أن هذا المدخل لا يهدف إلى تبيان ما توفر من شواهد العصر المبكر

والعصر الحجري، أو إلى ذكر ما جاء من الأخبار عن الأمم الماضية مثل العرب البائدة الذين جرى ذكرهم في التنزيل، وأبادهم الزمان وأفناهم الدهر فاندثرت أخبارهم لتقادم انقراضهم وذهبت عنا حقائق شتى من تاريخهم. ولعل فرصة أخرى تتاح لنا لتناول ما عنّ لنا من ومضات ولمحات تجلو شيئاً من غياهب تلك الحقب. وإنما مجال هذا المدخل هو محاولة لرسم إطار زمني لعصر ما يصطلح عليه بالتاريخ القديم، أي فترة تاريخ اليمن القديم أو فترة تاريخ الحضارة الراقية في اليمن القديم. وهي تمثل حيناً من الدهر برز فيها سكان بلاد اليمن من غسق التاريخ، إلى ضحاه، ودلت على دورهم التاريخي لقى أثرية مميزة وشواهد كتابية معلومة، ضمت حروفاً أبجدية خاصة صوتاً ورسماً، وتومىء إلى حضارتهم قرائن خارجية ثابتة، تدل أن أمماً أخرى في ذلك الزمان تناقلت طرفاً من أخبارهم وتبادلت شيئاً من سبل معاشهم. واستناداً إلى ذلك يمكن تقسيم الإطار الزمني لتاريخ اليمن القديم إلى عصرين رئيسين:

العصر الأول: ويبدأ من (فجر التاريخ) في مطلع الألف قبل الميلاد حتى ضعف مراكز الحضارة اليمنية في المشرق في أواخر الألف قبل الميلاد؛ أي ما يوافق: منذ بداية ازدهار طريق اللُّبان البري حتى ضعف هذا الطريق وبداية ازدهار طريق التجارة البحري (حوالي ألف سنة).

والعصر الثاني: ويبدأ بقيام دولة حمير وازدهار مراكز الحضارة في الهضبة حيث القيعان والجبال المنيعة، وينتهي بأفول نجم الحضارة اليمنية وانتهاء ملك حمير؛ أي منذ حوالي القرن الأول الميلادي حتى القرن السادس (حوالي خمس مئة سنة).

ويستند هذا التقسيم إلى معطيات تاريخية وجغرافية ليس هنا محل تفصيلها؛ ولكن القارىء سيتبيّن مجملها من خلال مطالعته لهذا المدخل. على أن المعوَّل عليه هنا هو التيسير بالدرجة الأولى؛ إذ أن العصرين يتداخلان، ومن الصعب رسم حدٍ فاصل بينهما. فقد تزامنت فترات من العصرين، كما لم يكن الانتقال من الأول إلى الثاني انقطاعاً وإنما امتداداً واستمراراً. وهذا هو تصورنا لتقسيم التاريخ إلى عصور؛ فالعصور ليست مساراتٍ زمنية مختلفة وإنما هي في حقيقة الأمر مظاهر مختلفة لمسارٍ زمني واحد.

العصر الأول

ليس بوسع المرء أن يقرر بثبات متى بدأ هذا العصر، ولكن أقدم المعلومات المعتمدة والتي وصلتنا إلى الآن، تدل على حضارة يمنية راقية، يعود تاريخها إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وتقترن هذه المعلومات بذكر سبأ التي ارتبطت بها معظم الرموز التاريخية في اليمن القديم، والتي هي بالفعل واسطة العقد في هذا العصر. ويمثل تاريخ دولة سبأ ،وحضارة سبأ فيه عمود التاريخ اليمني. بل إنه من الممكن أن يزعم المرء أن ليس في تاريخ اليمن القديم كله ما يضاهي تاريخ دولة سبأ وحضارة سبأ. فسبأ عند النسابة هو أبو حمير وكهلان ومن هذين الجَذْمَيْن تسلسلت أنساب أهل اليمن جميعاً. ومهما اختلف الناس في أمر الأنساب، إلا أنها ولا ريب جزء هام من علوم الإنسان. وهي وإن جانبت الدقة والصواب أحياناً، إلا أنها رغم ذلك تعكس مدىً مفيداً لمسار التاريخ. وهجرة أهل اليمن في الأمصار ارتبطت بسبأ، حتى قيل في الأمثال: تفرَّقوا أيدي سبأ. والبلدةُ الطيِّبة التي ذُكرت في القرآن الكريم هي في الأصل أرض سبأ، كما أن سد مارب، وهو أبرز رموز اليمن التاريخية القديمة قد اقترن ذكره بسبأ. وكان تكريمه بالذكر في القرآن، سبباً في ذيوع ذكر سبأ وحاضرتها مارب قال تعالى: **﴿ لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية، جنّتان عن يمين وشمال، كُلوا من**

رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِمِ وبدّلناهم بجنتيهم جَنّتَيْنِ ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل، ذلك جَزَيْناهم بما كفروا وهل نُجازي إلّا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القُرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرة وقدّرنا فيها السير، سيروا فيها لياليَ وأياماً آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديثَ ومزّقْناهم كلَّ مُمَزَّق، إنَ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبّار شكور﴾ [سورة سبأ الآيات: ١٥ - ١٩]

فتاريخ سبأ هو في الحقيقة سِنادُ التاريخ اليمني القديم وعموده. ودولة سبأ في العصر الأول هي أكبر وأهم تكوين سياسي فيه. وما تلك الدول التي تُذكر معها، سوى تكويناتٍ سياسية كانت تدور في الغالب في فَلَكِها، ترتبط بها حيناً، وتنفصل عنها حيناً آخر، مثل دولة معين وقتبان وحضرموت أو تندمج فيها لتكون دولة واحدة مثل دولة حِمْيَر، والتي لُقب ملوكها بملوك سبأ وذي ريدان؛ وذو ريدان هم حمير.

وأرض سبأ في الأصل هي منطقة مارب، وتمتد إلى الجوف شمالاً، ثم ما والاها من المرتفعات والهضبات إلى المشرق، مثل مناطق أَرْحَب وخَوْلان وقاع صنعاء وقاع البَوْن، وكانت دولة سبأ في فترات امتداد حكمها تضم مناطق أخرى بل قد تشمل اليمن كله.

وكانت مارب أشهر مدينة يمنية قديمة هي عاصمة سبأ. وتدل الخرائب والآثار المنتشرة والتي تكتنفُ قرية مارب الصغيرة اليوم، على الضفة اليسرى من وادي (أذنة) على ضخامة المدينة القديمة وكبرها.

وكانت مساحة المدينة لا تزيد على كيلومتر واحد مربع، ويحيط بها سور عرضه متر تقريباً، وله ثمانية أبواب. ويُرجح أن التل الذي تقع عليه قرية مارب اليوم هو مكان قصر سَلْحِين، والذي ذكره العلامة الحسن بن أحمد الهَمْداني قبل ألف عام، والذي ورد ذكره بالاسم نفسه في النقوش اليمنية القديمة.

وكان موقع مارب في وادي سبأ على مشارف الصحراء، يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان، وكان اللبان من أحب أنواع الطيوب

واغلاها في بلدان الشرق القديم وحوض البحر المتوسط. إذ أنّ استعماله آنذاك لم يقتصر على المعابد التي كانت تُوجب حَرْقَه بخوراً لدى تقديم القرابين للآلهة، وإنما كان يُحرق لدى القيام بمراسيم الدفن، وفي الاحتفالات العامة التي تقام لتكريم الأحياء. وكان يقدم أيضاً كهدية ثمينة وقد يدخل في تركيب الأدوية.

وكان أجود أنواعه تأتي من اليمن، حيث ينمو في الجزء الأوسط من ساحله الجنوبي في بلاد المَهْرة وظُفار. وذلك بسبب توفر الشروط الطبيعية اللازمة مثل التربة والمناخ الملائمين، وهي شروط لم تكن لتتوفر في تلك البلدان التي تشتد رغبتها فيه، وقد أدّى ذلك الطلب المتزايد إلى تطوير تجارة واسعة نشطة، تركزت حول هذه السلعة وامتدت إلى سلع أخرى نادرة عبر طريق التجارة المذكور.

وكان يمتد هذا الطريق بصفة رئيسة من ميناء قَنَا في مصب وادي مَيْفَعة على بحر العرب إلى غزة في فلسطين على البحر المتوسط مروراً بمدينة شَبْوَة ومارب ثم يمر بوادي الجوف، ومنه إلى نجران حيث يتفرع إلى فرعين، طريق يمر عبر (قرية) الفاو في وادي الدَّواسر ومنه إلى اليمامة وهَجَر في منطقة الخليج ثم إلى جنوب وادي الرافدين وطريق رئيس يمتد من نجران نحو الشمال، ماراً بيَثْرِب ثم دِدان في شمال الحجاز، ومنها إلى البَتْراء، ويتجه الطريق الرئيس من البتراء نحو ميناء غَزّة، بينما يتجه فرع آخر إلى دمشق وإلى مدن الساحل الفينيقي.

على أنه يتعذر ازدهار طريق طويل كهذا، دون وسيلة نقل مُجدية، ويعتقد أن استئناس الجَمَل بحيث يصبح قادراً على حمل الأثقال ولمسافات طويلة، كان نَقْلَةً هامة في ازدهار طرق التجارة عبر الجزيرة. ويرجح أن استئناس الجَمل بطريقة فعالة، قد تم في العصر البرونزي أي في القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد. وذلك أمر يتوافق مع ما ورد في التوراة من إشارات إلى زيارة ملكة سبأ للنبي سليمان عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد. وقد تقتضي هذه الزيارة وجود مثل هذا الطريق. ويمكن أن يُستدل أيضاً على ما يفيد بوجود

علاقات تجارية، كانت قائمة آنذاك بين بلاد الشام وبلاد اليمن، إذ تذكر الأخبار المرتبطة بتلك الزيارة أن ملكة سبأ أحضرت معها كميات كبيرة من الطيوب ومنها اللُّبان .

وتعتبر أخبار هذه الزيارة كما وردت في التوراة أقدم الأخبار التي وصلتنا عن سبأ وحضارتها. وقصة هذه الزيارة مشهورة، وقد طبَّقت شهرتها الآفاق، وملأت أسماع الدنيا وشغلت الناس عشرات القرون، وذكرتها الكتب السماوية وتواتر ذكرها في الأخبار وبقيت عالقةً في الموروث الثقافي لعدد من الأمم بصيغ مختلفة، وروايات متعددة، وخاصة موروث أهل اليمن، فمملكة سبأ عندهم رمزٌ تارخي لحضارة يمنية قديمة راقية، وقد كُرِّمت ملكة سبأ وقصة زيارتها للنبي سليمان بالذكر في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ **وجئتكَ من سبإٍ بنبإٍ يقين، إنّي وجدت امرأةً تَمْلِكُهم وأُوتِيت من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم، وجدتها وقومَها يسجدون للشمس من دون اللهِ وزيَّن لهم الشيطان أعمالَهم، فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألاَّ يسجدوا للهِ الذي يُخرج الخَبْءَ في السماوات والأرض، ويعلم ما تُخْفون وما تُعْلنون، الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم، قال سننظرُ أصَدَقتَ أمْ كنت من الكاذبين، اذهبْ بكتابي هذا فألقِه إليهم، ثم تولَّ عنهم فانظرْ ماذا يرجعون، قالت يا أيّها الملأ إني أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كريم، إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألاَّ تَعْلُوا عَليَّ وأْتوني مُسلمين، قالت يا أيّها الملأ أفتُوني في أمري، ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أُولوا قوة وأُولوا بأسٍ شديد والأمرُ إليك فانظري ماذا تَأْمُرين، قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزَّة أهلِها أذلّة، وكذلك يفعلون، وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظِرة بِمَ يرجعُ المرسلون** ﴾ ـ صدق الله العظيم - [سورة النمل الآيات من ٢٢ ـ ٤٤].

وإذا كانت التجارة ومورِدها المالي الوفير قد أسهمت بقسطٍ وافر في الناس والحياة العامة وازدهارها في مراكز الحضارة اليمنية القديمة، وخاصة في قلب تلك الحضارة، أرض سبأ وعاصمتها مارب، فإنَّ سد مارب هو أهم شاهد على أن اليمن شهدت أيضاً حضارة زراعية فائقة .

وتشير بعض الدراسات الأثرية الجادة التي أجريت ميدانياً على آثار السد أن أُسسه ينبغي أن تعود تاريخياً إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد على الأقل، وهو امر يتوافق أيضاً مع ما سلف ذكره من أخبار تنبىء عن حضارة يمنية راقية منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد.

وبعد مملكة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد، تذكر النقوش عدداً كبيراً من أسماء المُكَرّبين والملوك، الذين تولوا الحكم في دولة سبأ. وقد حاول أحد العلماء ترتيبهم زمنياً خلال الألف الأول قبل الميلاد، فبلغوا ما يقارب الخمسين، ابتداءً من القرن الثامن إلى القرن الأول قبل الميلاد. ومن هؤلاء الحكام يَثْعْ أَمَرَبَيَّن بن آسمه عَليّ، الذي تذكره الحوليات الآشورية حوالي عام (٧١٥ ق. م.) مقترناً بالملك الآشوري سرجون الثاني. وتذكره النقوش اليمنية مقترناً ببعض المنشآت المعمارية ومنها أنه سوَّر مارب (تاريخ سبأ، فَون فِيسْمَن، ١٩٨٢، ص ١٠٤).

ومنهم أيضاً كَرِب إِل وَتار بن ذَمار عَليّ، الذي بعث بهدية إلى الملك الآشوري سَنحَريب، حسب ما يذكر نقش بناء معبد (بيت أكيتو) في آشور، حوالي ٦٨٥ ق. م.، ويرجّح أنه هو نفسه صاحب نقش صِرْواح الكبير والذي يذكر أن هذا الملك قد قام بعدة حملات عسكرية داخلية خلال فترة حكمه، يهدف منها إلى تثبيت السلطة المركزية لدولته وتأديب مَنْ خرج عنه. وشملت حملاته مناطق أَوْسـان وغيرها من المناطق الجنوبية حتى باب المَنْدَب. كما شملت حملاته مناطق امتدت ما بين نجران والمَعافِر وبعض مدن وادي الجوف، مثل نَشان ونِشْق. ويذكر النقش أنه كافأ الجهات التي حافظت على الولاء له مثل حضرموت وقتبان، وأنه قام بإصلاحات واسعة في منطقة مارب ومنها في قصر سلحين، وسوّر عدداً من المدن اليمنية، وأصلح عدداً من سُبُلِ الريّ والأراضي التابعة لها.

ومن المفيد أن يذكر هنا أن هذا النقش الذي يعتبر من أقدم النقوش اليمنية يحوي أسماء عددٍ من الأمكنة القديمة التي ما زالت تحمل الأسماء نفسها إلى اليوم، مثل صِرْواح ونجران ودَثِينَة والمعافر وذُبْحان وشَرْجَب وحَبَّان وجِرْدان وغيرها.

ويستفاد من النقش أن ذلك الحاكم تمكن من إقامة دولة مركزية قوية انضوى تحت لوائها كل اليمن تقريباً. كما جمع قبائل سبأ وجدَّد ميثاقها وقارب بين آلهتها. ويستهلّ هذا النقش بما مؤدَّاه: « هذا ما تقدم به كَرِبْ اِل وتار بن ذمار عليّ مُكَرِّب سبأ، بكونه ملكاً، إلى الْمَقه (إله القمر عندهم)، إلى سبأ، وذلك يوم أن أخذ العهد على الناس ليكون لكل قومٍ منهم إله وراعٍ وميثاقٌ والتزام. . » أي إله خاص بهم يعبدونه وراعٍ إلهي يحميهم وَحبْلٌ يعتصمون به وحقٌ يؤدونه. « ويوم نظَّم لسبأ مجلس المعاشرة، ليأْتمَّ الناس بهم وليطيعوا أمرهم طاعة رجلٍ واحد. . وبهذه المناسبة تقرب المُكَرِّب إلى الإله عثتر (الزهرة) بأُضحيات ثلاث وغيرها من القرابين ». .

ويُرجّح أن المعاشرة في سبأ بمقام المَثامنَة في حمير، أي لا يصلح الملك، لمن مَلَكَ سبأ إلا بهم وحتى يقيه هؤلاء العَشَرة، وإن اجتمعوا على عزله عزلوه. وهم كالمثامنة أبياتٌ عشر يمثلها أشخاص بمؤهلات معينة يقومون بتنصيب الملوك وبمساعدتهم على الحكم وإبداء المشورة لهم والنصح.

ويعتبر المُكَرِّب يَدَعْ إل ذريح بن آسْمُهُ عليّ أشهر حكام سبأ في أمور البناء، فقد عثر على نقوش عديدة من عهده، تذكر منشآته المعمارية وخاصة المعابد، وقد ارتبطت باسمه معابد شهيرة باليمن القديم مثل معبد (أَوام) البيضاوي الكبير (محرم بلقيس)، ومعبد صرواح، ومعبد في (المساجد)، وغيرها من الأبنية التي تنبىء آثارها عن مستوى راق من الإتقان المعماري والإبداع الهندسي.

وظلت سبأ الدولة الكبيرة الأم حتى القرن الخامس قبل الميلاد، حين خرجت عن سيطرتها مناطق عدة، واستطاعت أن تكوّن دولاً مستقلة.

ودخلت هذه الدول في منافسة مع سبأ، وشاركتها نفوذها السياسي والتجاري، بل إن كل واحدة من تلك الدول لم تكن أقل شأناً من سبأ في أَوْج ازدهارها؛ وهذه الدول هي معين وقتبان وحضرموت.

ففي القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت دولة معين في الجوف بعد أن

تمكنت مناطق الجوف بقيادة مدينة (يثُل) براقش العاصمة الدينية، من السيطرة على طريق اللبان التجاري بمساندة حضرموت وقتبان. ثم اتجه المعينيون شمالاً واقاموا المحطات التجارية والمستوطنات المعينية على طرق التجارة مثل (قرية) في وادي الدّواسر على الطريق بين نجران والبحرين (أي شرق الجزيرة)، ومثل (دِدان) في وادي القُرى على الطريق بين نجران وغزّة.

ومن (قرنو) عاصمة الدولة المعينية انطلق أهل معين يرتادون الأسواق العالمية في فلسطين ومصر واليونان وغيرها، وقد عثر بمصر على قبر تاجر معيني نقش عليه اسمه (زَيْد إل بن زيد) ،وكان يتاجر بالمُرّ والقِرفة في مصر أيام بطليموس الثاني، حوالي ٢٦٤ ق. م.

وكان العالم القديم يعرف المعينيين، وذكرهم مؤلفو اليونان في كتبهم، وسموا اللُّبان باسمهم، على أن تلك المصادر لا تقصر الذكر على المعينيين، وإنما تذكر معهم أيضاً في اليمن السبئيين والحضارمة والقتبانيين.

وكان أول ذكر لِقِتْبان قد ورد في نقش الملك (كَرِب إل وتارْ) السَّبئي، وكانت حينها مواليةً لسبأ التي خلّصتها من سيطرة أوسان. على أن قِتْبان مثل معين استطاعت أن تخرج من سيطرة سبأ في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن تمدَّ نفوذها على حساب سبأ متحالفة مع حضرموت.

وكانت عاصمتها تَمْنَع في وادي بَيْسان وهو مقر قبائلها في الأصل، وفي القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد، بلغت قتبان أوج ازدهارها وشملت رقعتها مناطق أوسان القديمة حتى ساحل بحر العرب، ومدت نفوذها جنوباً لتشمل واحة الجُوبَة على بعد مسيرة يوم واحد من مارب العاصمة السبئية.

وتميز القتبانيون بنشاط زراعي هائل، فأقاموا مشاريع للري في الوديان وشقوا القنوات الطويلة، وحفروا الآبار وبنو السدود وأحسنوا استثمار موقعهم على طريق اللبان التجاري، فجنوا من الزراعة والتجارة الخير الوفير، وكانوا يعنون بسن الشرائع ووضع القوانين التي تنظم أمورهم الاقتصادية. وفي محل السوق القديم بهَجَر كُحْلان (تمنع العاصمة قديماً) تقوم إلى اليوم مَسَلّة نقش

على جوانبها تعاليم خاصة بسوق المدينة واسمه (سوق شَمَّر)، ويبين النقش إجمالاً الرسوم المفروضة ، وفئات التجار وغير ذلك.

كانت حضرموت في أقدم عهودها تابعة لدولة سبأ الكبيرة ثم موالية لها، وفي القرن الخامس ق. م. بانَ ضعف الدولة السبئية فخرجت عن سبأ كغيرها وكوّنت دولة مستقلة. وقد نَمَت قوتها تدريجياً، واكتسبت أهمية فائقة، خاصة لكونها تملك أرض اللبان في ظفار، وكانت عاصمتها (شَبْوَة) التي تقع في أقصى غرب وادي حضرموت على أطراف مَفازَة صَيْهَد، وكانت تشمل في عزّ ازدهارها ظفاراً أرض اللبان والنطاق الجنوبي الممتد حتى ساحل العرب. وتمتد شمالاً باتجاه الربع الخالي حتى العَبْر. بالإضافة إلى موطنها الأصلي وادي حضرموت. وتبرز أهمية هذه الدولة بوضوح من ذكرها وعاصمتها في المصادر الكلاسيكية، إذ تذكر أن شَبْوَة عاصمة حضرموت كانت مركزاً هاماً لتجارة اللبان .

وكان اللبان ينقل على الجمال إلى شبوة، فيفتح له باب خاص. وكان أيّ تهريب أو انحراف عن الطريق يعتبر جريمة وعقابها الموت. وكان الكَهَنة يطلبون العُشْر كيلا . . وجزءٌ من ذلك المال كان يصرف رِفادَةً للضيوف في أيام معدودة من السنة .

وكانت دولة حِمْيَر آخر دول اليمن القديم ظهوراً، وذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. وقد وافق ظهور هذه الدولة بداية التقويم الحميري والذي يرجح أنه بدأ (١١٥ ق.م.) ولكن حمير لم تبرز كقوة كبيرة إلا في القرن الأول بعد الميلاد. وبتاريخ حمير يبدأ العمر الثاني من تاريخ اليمن القديم .

العصر الثاني

في أواخر العصر الأول، وخاصة في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، أتى على أهل اليمن حينٌ من الدهر قلَّلوا فيه من اهتمامهم بالزراعة، واعتمدوا كثيراً على الرخاء الذي تدرُّهُ عليهم القوافل التجارية. وتكرست الفُرقة، فأصبح في اليمن خمس دول في آن واحد هي: سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وحِمْيَر، وأصبحت عواصمها باستثناء حمير أشبه ما تكون بدول مُدُن القوافل التي يخضع ازدهارها وسقوطها للأوضاع التجارية والأطماع السياسية، كما حدث للبتراء، ولتَدْمُر والحَضَر في شمال الجزيرة.

وتمكن البطالمة الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك من التعرف على أسرار الملاحة في البحر الأحمر، ومواقيت حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي، فشرعوا يتَّجرون بحراً دون وساطة اليمنيين الذين كانوا يسيطرون على طريق اللبان البري، وهو الطريق الذي كان يمر عبر عواصم الدول اليمنية في المشرق، وتحول النشاط التجاري بين حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندي تدريجياً من الطريق البري إلى الطريق البحري. فبدأ يخفُّ عطاء الطريق البري وتأثرت به الدول اليمنية القديمة كثيراً؛ مما أضعف من قوتها وأنقص من هيبتها. فطمع بها الناس دولاً وقبائل. فكانت حملة (ألِيُوس

جاللوس) الرومانية التي أخفقت عند أسوار مارب عام ٢٤ ق. م.، في محاولة للسيطرة على الطريق البري والاستيلاء على بلاد اللبان.

وطمعت القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء بحواضر الدول اليمنية ومحطاتها التجارية، خاصة بعد أن تضرر أهل البادية أنفسهم نتيجة نقص مواردهم التي كانوا يجنونها من الطريق كَجمَّالَةٍ أو حُماة قوافل. فكانوا يهاجمون المحطات والمدن كلما مسَّهم الجوع وآنسوا ضعفاً من أهلها. وساعدهم على ذلك اتخاذهم الفَرَس سلاحاً فعالاً في غزواتهم، حيث كانوا ينقضُّون بسرعة وقوة على ثغور تلك الدول ثم يعودون فارّين إلى قلب الصحراء، مما اضطر كثيراً من سكان الوديان على أطراف الصحراء إلى هجر ديارهم والاحتماء بالمرتفعات في الداخل.

وقد ساعد هذا الوضع على نمو قوة حمير التي حاولت الاستفادة من انتعاش الملاحة والتجارة على البحر الأحمر فأقامت لها موانىء عليه، وبَنَت لها أسطولاً.

كما أسست عاصمتها ظَفَار في قلب المرتفعات اليمنية بعيدة عن الصحراء وهجمات البدو، وذلك في قاع الحقل بِسَنَد جبل ريدان.

كما ازدهرت مدن الهضبة اليمنية في القيعان بعد أن كانت مدن الوديان الشرقية تحجب عنها المكانة والسمعة، وزادت سلطة الأَقْيَال بعد أن قلَّت هيبة السلطة المركزية في مارب حتى تمكن بعض هؤلاء من منافسة السلطة التقليدية فيها، وإعلان نفسه ملكاً على سبأ. ودخلت اليمن في فترة من الصراع على اللقب الملكي في سبأ أشبه ما تكون بفترة ملوك الطوائف. وبدخول حمير الصراع على اللقب أصبح كل حاكم ينشد أن يكون ملكاً على سبأ وحمير معاً. أو (ملك سبأ وذي ريدان)، مثل بني هَمْدان في ناعِط، وبني بَتَع في حاز، وبني مَرْثَد في شِبام، و(ذو جُرة) في نِعِض، بالإضافة إلى سبأ في مارب وحمير في ظفار وقتبان في تمنع وحضرموت في شبوة.

وكانت دولة معين في هذا العصر قد انتهت. كانت قد ضُمْت إلى سبأ في

القرن الأول قبل الميلاد، وبدأ الضعف يدب في قتبان خاصة تحت ضربات دولة حضرموت، منذ مطلع القرن الأول الميلادي. ثم ما لبثت أن انتهت في القرن الثاني الميلادي. وضُمَّ ما تبقى منها إلى حضرموت. وفي القرن نفسه انتهى حكم الأسرة التقليدية السبئية في مارب، علماً بأن مارب نفسها لم تفقد أهميتها كعاصمة أو مدينة حينذاك.

ومما زاد في الصراع حدة، بروز دولة أَكْسُوم في الحبشة، وهي الدولة التي قامت نتيجة استيطان يمني دام قروناً هناك، وساعد انتعاش الملاحة في البحر الأحمر على ازدهارها، ودخلت مع حكام اليمن في صراع أو تحالف حسب ما تقتضيه ظروفها. على أن فترة النزاع هذه ما لبثت أن تبلورت في محاولة توحيد السلطة وإقامة دولة مركزية واحدة.

وكان أول منْ قام بهذه المحاولة الملك (شَعِر أَوْتَر بن عَلْهان نَهْفَان) الذي حمل لقب ملك سبأ وذي ريدان، واتخذ من مارب عاصمة له، ومد نفوذه إلى كثير من بقاع اليمن بما فيها حضرموت. وذلك في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد. كما حاولت ظفار ومارب توحيد قواهما ضد الحبشة، بل وتوحيد السلطة إبَّان حكم الملك الشهير(إل شَرَحْ يُحْضِب) ،والذي شاركه الحكم أخوه (يَأْزَلْ بَيّن). وكان ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الثالث الميلادي.

وفي الربع الأخير من القرن الثالث انتهت حضرموت كدولة على يد (شَمَّريُهَرْعِش بن ياسِر يُهَنْعِم) وهو الملك الذي تنسب إليه الأخبار كثيراً من البطولات والأمجاد، بل من أبرز الشخصيات الملحمية في قصص أهل اليمن. وقد استطاع هذا الملك أن يوحد الكيانين السياسيين الباقيين، وهما سبأ وحمير في كيانٍ واحد؛ وأقام حكماً مركزياً قوياً؛ وحمل لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويَمَانَة. وانتهت مارب كعاصمة وحلّت محلها ظفار. وقد عرفت هذه الفترة ،التي تبدأ بتوحيد المناطق اليمنية في (وطن) واحد وسلطة (مركزيه) واحدة عاصمتها ظفار، بفترة حمير. وهي الفترة التي بقيت ذكراها عالقة في

أذهان الناس وتناقل الرواة أخبارها قبل الإسلام، أكثر من أية فترة سابقة من تاريخ اليمن القديم.

كانت حمير (أو دولة سبأ وذي ريدان. . . إلخ) آخر الدول اليمنية القديمة زمناً، ولكنها كما سلف ذكره، أبقاها ذكراً عند المؤرخين والإخباريين العرب وكان المؤرخ اليمني الحسن بن أحمد الهمداني قد أفرد لسيرتها ثلاثة مجلدات من كتابه الشهير (الإكليل)؛ ومما يؤسف له أن هذه المجلدات الثلاثة تعتبر من أجزاء الإكليل المفقودة، كما أن هذه الدولة اكتسبت سمعة كبيرة في عصرها، فقد وصفها صاحب كتاب (الطوَّاف حول البحر الأريتري) بأنها الدولة الأولى في بلاد العرب.

ويذكر نقش يمني أن عامل شَمَّر يُهَرْعِش في صعدة رَيْمان ذو خَزْفَر اشترك في عدة حملات وجهها هذا الملك إلى شأم اليمن، ثم استمر غازياً، أو في سريّة، حتى بلغ أرض تنُوخ. وتَنُوخ هو اتحاد القبائل العربية الذي كان أساس ما عُرف بعد ذلك بدولة (اللَّخْمِيِّين) في الحيرة. ويبدو أن امرأ القَيْس بن عمرو (من مؤسسي تلك الدولة) كان ممن وقف في سبيل الحملة اليمنية. ويذكر نقش النِّمارة الذي عُثر عليه على قبر امرىء القيس أنه قام بحملات عسكرية باتجاه جنوب الجزيرة بلغت (نجران) مدينة (شمَّر). وقد كشفت الدولة الساسانية عن أطماعها في جزيرة العرب من خلال غزوات سابُور ذي الأكتاف التي فَصَّلها الطبري في تاريخه. ويعتقد أنها حدثت في هذه الفترة نفسها.

وفي نفش يمني آخر، عُثر عليه في عَبَدَان منذ عهد قريب يدوِّن أقْيَالٌ حميريون من (الأيزُوُن) أخبار حملتهم العسكرية في منتصف القرن الرابع الميلادي. وتمثل هذه الحملات اندفاع الحميريين نحو الشمال بعد الأحداث السابقة بزمنٍ يسير. وأهمُّ حملات الحميريين التي يذكرها النقش هي تلك التي بلغت مناطقَ اليمامة والبحرين (شرق الجزيرة) وأرض الأَزْد (أَزْد عمان) ومناطق قبائل مَعَدّ ونزار وغَسَّان. . (هكذا).

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي تولى الحكم أبِي كَرِب أَسْعَد بن

مَلِكِي كَرِب يُهأمِن، المشهور بأسعد الكامل، ويعكس لقبه سعة نفوذ دولة حمير في عهده، فهو ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت، ويمانة، وأعرابهم طَوْداً وتِهامَة .

فقد كانت القبائل البدوية في المشرق مجتمعة في ظل رايته، وكان اتحاد كندة في وسط الجزيرة مملكة تابعة له. وفي وادي مَأْسَل الجُمْح قرب الدُّوادِمي، عثر على نقش باسمه، يذكر أنه حلَّ غازياً مع ابنه حَسَّان يُهأمِن في أرض سَعَدٌ وذلك يوافق ما ورد في كتب التاريخ والأخبار .

كما تروي الأخبار أنه مرَّ بيثرب (المدينة) واعتنق اليهودية، ومرّ بمكة وكَسا الكَعْبة المشرّفة .

والمعروف أنه لم يعثر على نقوش وثنية من عهده وعهد من خلَفَه . وكانت قبل ذلك كثيرة الانتشار. ويقال إن الناس في اليمن بدؤوا يهجرون عبادة الأصنام، فمنهم منْ دخل اليهودية، ومنهم منْ اعتنق النصرانية، ومنهم منْ بقي على وَثَنيّته . ويرى أهل العلم أن أسعد الكامل هذا هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَومُ تُبَّعٍ ﴾ وقد ارتبط بذكر أبي كرب أسعد كثير من الأخبار والأقاصيص تشكل في مجملها ملحمة تاريخية تمجد أعماله وفتوحاته داخل اليمن وخارجه، وتنسب إليه عدداً من المدن التاريخية اليمنية مثل ظفار وبَيْنُون وغَيْمَان وخَمِر وغيرها. وما زال الناس إلى اليوم ينسبون إليه الكثير من بقايا الآثار القديمة مثل السدود والجُروف (والكِرْواف) والطرق وغيرها. بل إن كل ما تقادم العهد عليه فهو عند بعضهم أَسْعَدي، كقولهم (عادي) أو من صَنْعَةِ قوم عاد، لكل ما هو قديم عامة .

وفي عهد ابنه شُرَحْبِيل يُعْفِر حدثت ثغرات في سد مارب، وهدد الجنتين بالخراب. فكان أن جُمِعَ الناس لإصلاحه، فتمَّ ذلك وأعادوه سوياً كما كان. وقد دُوّن ذلك الخبر والجهود التي بذلت في نقش ما زال موجوداً في مارب إلى اليوم. ويعود تاريخه إلى منتصف القرن الخامس الميلادي .

وكان سد مارب خلال عمره الطويل يتصدَّع بين الحين والآخر، لأسبابٍ

عديدة، منها السيـول الكبيرة التي تنتج عن أمطار غزيرة وفيضانات، مما يدخل عموماً في الكوارث الطبيعية، ومنها الزلازل، ومنها الإهمال وضعف السلطة المركزية .

وقد جرت العادة أن يهبَّ الناس عندما يحدث ذلك إلى مكان السد، بغية العمل والتعاون في إصلاح ما تهدم منه. وتتولى تنسيق عملهم وتمويلهم سلطة مركزية قوية، تجمع الإرادة وتحشد الإمكانات اللازمة. غير أن تفجُّر السد الأكبر والأخير لم يكن عادياً؛ بل كان خارقاً للعادة، وكارثة كبيرة، أتت على معظم بنيان السد، وجرفت معظم منشآت الجنتين؛ فكان أن شُلَّ نظام الري بأجمعه، وبُدّلت صورة الحياة في تلك الأرض تماماً. وقد ذُكرت في القرآن الكريم العِبرة الإلهية، والسبب في ذلك، قال تعالى: ﴿ **فأعرَضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبدَّلْنَاهم بجنّتَيْهم جَنَّتينْ ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل. ذلك جَزَيناهم بما كَفَروا وهل نُجازي إلا الكفور** ﴾

وقد تفجر السد نهائياً في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي، أي بعد تفجر السد في زمن شرحبئيل يعفر بما ينيف عن قرنٍ من الزمن، وهو غير التفجر الذي حدث عام ٥٤٢ في عهد أبرهة، والذي تمكن هو ومنْ معه من أهل اليمن من إصلاحه. ودُوِّن ذلك في نقش كبير فُصِّلَت فيه نفقات إصلاحه، والجموع التي شاركت في ذلك. وذُكرت فيه الوفود الأجنبية من فارس والروم والغساسنة والمناذرة التي وصلت للمشاركة في الحفل الذي أُقيم بتلك المناسبة .

وكان آخر منْ حكم من ملوك حمير قبل دخول الحبشة إلى اليمن عام ٥٢٥ للميلاد رجلٌ اسمه (أَسْأَرَ يَثْأَر) من العائلة اليزنية، واشتهر بذي نواس. ويقال إنه تسمى بيوسف بعد أن اعتنق اليهودية. وكان أهل الحبشة يدينون بالنصرانية. وفي اليمن دان أقوام بالمسيحية أيضاً منذ أن دخلت إليه في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي، ومن أُولئك نصارى نجران .

وكان النفوذ الحبشي قد اشتد في اليمن، فاشتبك ذو نواس معهم في

معارك طاحنة، كانت الغلبة فيها أول الأمر لذي نواس، حيث ألحق بهم الهزائم تلو الأخرى، وانتهت بحرق كنائسهم وتعقبهم في كل مكان. ولم يشأ أهل نجران أن يتركوا دينهم ويعتنقوا بدلاً منه دين ملكهم؛ فما كان من هذا الملك إلا أن دمّر كنائسهم وأحرقها وقتل المؤمنين منهم بالنصرانية وألقاهم في الأخدود.

ويجد المرء ما يوافق تلك الحادثة والعبرة في سورة البروج، قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **والسّماء ذات البُروج، واليوم الموعود، وشاهدٍ ومشهود، قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ، النارِ ذات الوقود، إذْ هم عليها قُعود، وهم على ما يفعلون بالمُؤمنين شهود، وما نَقَموا منهم إلاَّ أن يُؤمنوا باللهِ العزيز الحميد، الذي له ملكُ السموات والأرض والله على كلِّ شيءٍ شهيد** ﴾، صدق الله العظيم [سورة البروج الآيات من ١ - ٩]. وانسحب الأحباش بعد هزائمهم في تلك المعارك ليعودوا من جديد بعد سنوات لغزو اليمن، وتمكنوا بمساعدة إمبراطور الروم من إلحاق الهزيمة بذي نواس واحتلال اليمن. وكان ذلك عام ٥٢٥ للميلاد.

وكان ممن قام بالأمر في اليمن والياً لِنجاشي الحبشة شخص يدعى أَبْرَهة وهو نفسه الذي ذَكر نقشٌ تهدّم سد مارب في عهده فقام بإصلاحه، وذلك عام ٥٤٢ للميلاد. ولكنه ما لبث أن استبدَّ بالأمر وسمّى نفسه ملكاً على اليمن وقام بغزوات عديدة لإخضاع القبائل المتمردة عليه في الداخل، وبأخرى لمدّ نفوذه في الجزيرة. على أن دولته لم تدم طويلاً، إذ أن الفرس بدؤوا يتحيّنون الفرص للسيطرة على اليمن ضمن صراعهم الطويل مع الروم، وتنافس الطرفين على كسب مناطق نفوذٍ لهما. فكان أنْ أرسل الملك الساساني عن طريق ملوك الحِيرة قواتٍ فارسية إلى اليمن، تمكّنت بالتعاون مع قائد يمني من ذي يزن اشتهر باسم (سيف) من تقويض نفوذ الأحباش في اليمن وطردهم.

على أنه مما بقي عالقاً في أذهان أهل اليمن وتواتر أخبارهم قصة حملة أبرهة الفاشلة على مكة. وهي الحملة التي قصد منها هدم الكعبة واتخاذ القَلِيس في صنعاء كعبةً يحجُّ الناس إليها بدلاً منها. وقد أشار القرآن الكريم إلى

هذه القصة في سورة الفيل. قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيفَ فعلَ ربُّك بأصحاب الفيل، أَلَمْ يجعلْ كَيْدَهم في تَضْلِيل، وَأَرْسَل عليهم طيراً أبابيل، تَرمِيهم بحجارةٍ من سِجّيل، فجعلهم كَعصْفٍ مأكولٍ** ﴾.

وفي عام الفيل ولد النبيﷺ في مكة. وروي أن جَدّه عبدالمطلب بن هاشم كان في جملة الوفود التي وصلت إلى صنعاء لتهنئة سيف بن ذي يزن بانتصاره على الحبشة، وتوليه سدة الحكم في اليمن، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، فقد قرر كسرى الثاني (برويز) الملك الساساني أن يجعل من اليمن ولاية فارسية. وكان أن تم له ما أراد وعين والياً فارسياً في حوالي عام ٥٩٨ للميلاد .

وبينما كان أهل اليمن يعمهون في دوامة القهر والاحتلال والضلال، ويرتجون مخرج صدق، ظهرت دعوة نبي كريم في مكة، وبلغت مسامعهم تباشير الهدى الإسلامية فأجابوا الدعوة ودخلوا في دين الله أفواجاً. وما هي إلا بضع سنين ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾، حتى كان أهل اليمن في طليعة المجاهدين في سبيل الله والفاتحين لإمبراطوريتي الفرس والروم، وأضحت بلادهم اليمن جزءاً لا يتجزأ من دولة الخلافة الجديدة، ودرة غالية في عقد ديار الإسلام النضيد .

المدينة اليمنية التاريخية*

تمهيد:

لا تزال معارفنا عن المدينة اليمنية التاريخية قليلة، ولا تكفي الباحث إن هو أراد التحدث عنها بدقة وإحاطة، لا سيما إذا كان المتحدث عنها هو كاتب هذه السطور.

فهو وإن كان يهوى الحديث عن مدن اليمن القديمة ويطالع ما جد من دراسات حولها، إلا أنه في حقيقة الأمر ليس بالمتخصص بهذا الشأن وليس بأفضل مَنْ يكتب في هذا الموضوع.

وينبغي على القارىء المتخصص أن يضع نُصب عينيه هذه الملاحظة عندما ينظر في الصفحات التالية، التي تهدف في الدرجة الأولى إلى وضع تصور أولي ليكون بمثابة مدخل عام لدراسة المدينة القديمة موقعاً وخطة ووظيفة، استناداً إلى المادة الأثرية والتاريخية المتوفرة، وانطلاقاً من رؤية تاريخية خاصة.

ومن الضروري أن يقرر المرء منذ البداية، أن الأبحاث الأثرية والتاريخية والاجتماعية في هذا المجال لا تزال في أول أمرها، بل تسير ببطء، وأبرز الجهود التي بذلت في هذا السبيل هي أبحاث البعثة الأميركية لدراسة

(*) اليمن الجديد، يناير ١٩٨٧م.

الإنسان[١]، ودراسات فون فيسمن، وجروهمن ،والبعثة الفرنسية في شبوة، ورسالة الشيبة في أسماء الأماكن اليمنية القديمة[٢]. ومعظم هذه الأبحاث لا تعنى مباشرة بتاريخ المدينة اليمنية القديمة وموقعها وخطتها وفن عمارتها، وإنما تلمس هذه الأمور لمساً خفيفاً لدى الحديث عن الآثار والنقوش القديمة في اليمن، وقد تعرض لموقع ما وعوامل ازدهاره ومعالم آثاره، ولكن ينقص ذلك كله تنقيب علمي وأبحاث ميدانية مكثفة وفي مواقع متفرقة، وحينها قد تتكامل الشواهد والقرائن، ويسهل وضع تصور مفصل ومزود بالخطط والصور والرسوم ليكون أساساً يعتمد عليه لدى الحديث عن المدينة اليمنية القديمة، وليكون مرجعاً مفيداً لمن شاء المقارنة بين الحاضر والماضي، وتذكرة للعاملين في برنامج تخطيط المدن بضرورة استلهام الماضي في عملهم، حتى يؤسس بنيان الحاضر على أُسس من هدي الماضي ،ويكون استمراراً لنهج السلف وإبداعه وتعزيزاً للذاتية الثقافية، في زمن قد يغفل المرء فيه عن الكثير المفيد ويتوه في غمرة أحداثه ونشوة عمرانه.

عوامل نشوء المدن اليمنية القديمة:

يعتقد أن المدن اليمنية القديمة كانت كغيرها من مدن الشرق القديم، نقاط انطلاق هامة، في سلسلة التحولات الحضارية الأولى التي شهدتها بقاع مهد الحضارات، فاليمن، كما تومىء كثير من الشواهد الأثرية، ربما كانت إحدى بقاع مهد الحضارات تلك، وموقعها في جنوب غربي آسيا وضمن جزيرة العرب، التي قامت في أطرافها الشمالية، حضارات بين النهرين وبلاد الشام ووادي النيل، يؤهلها لتكون ضمن تلك البقاع التي شهدت تلك التطورات الرائدة في تاريخ البشرية، وينبغي أن تكون حواضر تلك البقاع قد أسهمت في صياغة معالم تلك الحضارات الراقية، ولعبت دوراً نشطاً في دفع حركة مجتمعها

---

(١) الدراسات التي صدرت عن تنقيبات تلك البعثة في تمنع وهجر بن حميد وغيره.

(٢) فون فيسمن في كتابه (في الجغرافيا التاريخية لليمن)، فيينا ١٩٦٤م (بالألمانية) - جروهمن في كتابه (بلاد العرب) دراسة للتاريخ الحضاري. ميونيخ ١٩٦٣م (بالألمانية)، وعبدالله الشيبة في رسالته عن أسماء الأماكن اليمنية في النقوش اليمنية القديمة صدرت بالألمانية في ماربورج١٩٨٢م.

إلى الأمام، وإبداع الأفكار فيها والقيم الجديدة وتوصيلها وتبادلها منذ فجر التاريخ، ولا سيما منذ حوالي مطلع الألف الأول قبل الميلاد، فمعلوماتنا عن حضارة اليمن القديم تزداد باستمرار، وتدلنا بوضوح على دور أرض اليمن بحكم موقعها الوسط في إنعاش الطرق التجارية وازدهارها في الشرق القديم، وكانت مدنها العديدة الواقعة على طرق التجارة تلك، مراكز نشطة في عملية الوصال المستديم بين بلدان حوض المحيط الهندي، وبلدان حوض البحر المتوسط عبر سلسلة من مدن القوافل المشهورة مثل شبوة ومارب ونجران، وكانت نجران هذه ملتقى طريقين تجاريين هامين أحدهما يصلها بشرق الجزيرة، والآخر يصلها بدمشق أو غزة عبر مدن يثرب وددان والبتراء.

ولم تكن وظيفة تلك المدن تقتصر على توفير خدمات القوافل وتسهيل نقل السلع النادرة مثل اللُّبان والطيوب والأحجار الكريمة، وإنما كانت وظيفتها تمتد لتبادل المعارف والخبرات والتصورات المتعلقة بأمور الحياة وشؤونها الثقافية المختلفة.

ويرجّح أن معظم المدن اليمنية القديمة كانت قد نشأت في أول الأمر على الوديان. وغالباً ما كانت تقوم على مرتفع في وسط الوادي أو على إحدى ضفتيه، مثل مدينة مارب وبراقش ونشق وتمنع، ثم بدأت تظهر المدن تدريجياً على الهضاب العالية وفي سفوح الجبال أيضاً.

وإذا ما ألقى المرء نظرة فاحصة على الخارطة التاريخية لليمن القديم لوجدَ أن معظم مراكز الحضارة اليمنية القديمة كانت قد تركزت في الوديان الشرقية.

وذلك في تلك المناطق الخصبة حيث تلتقي سفوح الجبال بمشارف فلاة اليمن (الربع الخالي) وخاصة حول ذلك (الخليج الصحراوي) الداخل في مرتفعات اليمن الشرقية، والذي عُرف في الموروث بمفازة صيهد ويُعرف اليوم برملة السبعتين.

وتدخل هذه المنطقة ضمن المناطق الجافة في اليمن والتي يقل فيها المطر عادة أو يأتي دون انتظام ويتراوح معدل نزول المطر بين (٥٠ - ١٠٠ مم).

بينما يصل الحد الأقصى لمعدلات نزول المطر عموماً في اليمن حوالي ١٨٠٠ مم، إلا أن وديانها تستفيد من السيول التي تتجمع في المساقط الشرقية للنطاق الجبلي الضخم الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال مكوناً الهضبة اليمنية، والذي يمتد عبره خط تقسيم المياه الذي يفصل بين المساقط الشرقية والغربية.

وقد اكتشف الإنسان في اليمن منذ القديم غزارة تلك السيول وأهميتها فهي تأتي موسمياً، مما يتيح له زراعة الأرض بعد أن تغمر، وهي تخصب التربة بالغرين الذي تحمله معها، على أن أهم ما اهتدى إليه الإنسان في اليمن قديماً هو ضرورة الحفاظ على التربة التي تجرفها السيول، وضرورة السيطرة على كمية أكبر من المياه، فكان أن فكر في بناء الحواجز والسدود التي تطورت لتشكل بعد ذلك شبكة منظمة من وسائل الري، وهي نقلة هامة في توفير أُسس المعيشة لتجمعات حضرية راقية.

وكان من أسباب قيام المدن اليمنية على ضفاف الوديان الشرقية أيضاً «هو مرور الطريق التجاري البري المعروف بطريق اللُّبان عبرها، إذ أن أنسب طريق للقوافل هو ذلك الذي يمر على موارد المياه، وخاصة حيث تسيل الوديان الهابطة من الجبال الشرقية باتجاه الصحراء، كما أن هذه المناطق الصحراوية السهلة ذات مناخ جاف صحي يخفف من انتشار الأوبئة التي تعهد في المناطق الساحلية الرطبة، وهكذا قامت على وادي أذنة مدينة مارب، وعلى وادي الجوف مدن مثل قرناو وكمنا ونشق ونشان، وعلى وادي بيحان مدينة تمنع، وعلى وادي عرمة - العطف مدينة شبوة، وعلى وادي الدّواسر مدينة (قرية) وغيرها.

وكان لهذه المدن وظيفتان رئيسيتان:

أولاً: هي عواصم أو حواضر رئيسية لكيانات سياسية كبيرة أو «صغيرة.

فمثلاً كانت مارب عاصمة لدولة سبأ، وكانت شبوة عاصمة لدولة حضرموت، وكانت قرناو عاصمة لدولة معين.

ثانياً: هي محطات أساسية على طريق التجارة، تستلم ضرائب وتقدم الحماية والخدمات للقوافل وتمتلك جزءاً من التجارة، ولهذا فيمكن تشبيهها من هذه الناحية بما عرف في جزيرة العرب بعد ذلك بدول مدن القوافل مثل البتراء (انتهت ١٠٦ م) وتدمر (٢٧٣م)، والحضر في جزيرة العراق (٢٤٠م).

وإذا كانت المدن اليمنية القديمة تختلف عن هذه لكونها لم تكن دولاً حاجزة أيضاً إلا أنها تضارعها في كونها لعبت دوراً أساسياً في حركة الوصال الدائب بين حياة البداوة وحياة الحضارة من ناحية، وبينها وبلدان حضارات العالم القديم من ناحية أخرى.

وإذا كانت مدن الوديان الشرقية في المرحلة القديمة هي التي ازدهرت أكثر من غيرها من مدن اليمن فإن مدناً أخرى ظهرت أو ازدهرت في المرتفعات في الألف الأول قبل الميلاد، ولا سيما في القيعان الخصبة التي تتخلل الهضبة اليمنية. وغالباً ما تكون تلك المدن على سفح جبل عالٍ تستند إليه وتحتمي بمصنعته (حصنه)، وعلى الرغم من قلة الأمطار التي تنزل على هذه القيعان إلا أنها أغزرُ من تلك التي تسقط في منطقة الوديان الشرقية، كما أنها تساعد على تكوين رواسب خصبة في تلك القيعان، وبذلك يمكن مزاولة زراعة كثيفة ومتنوعة فيها، إضافة إلى كونها تتميز بموقعها الجميل وطقسها الصحي المعتدل.

وعادة ما تكون مدن هذه القيعان في الأصل أسواقاً موسمية للقرى المحيطة بها، أو محطـات على طرق التجارة الجبلية، وقد ازدهرت الطرق الجبلية في اليمن في فترات بعد الميلاد، وخاصة في القرون القليلة التي سبقت الإسلام، ويمكن أن يذكر بهذا الصدد طريق التجارة البري عبر ما عُرف بدرب أسعد الكامل نسبة إلى الملك الحميري أبي كَرِب أسعد (عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين)، ويُقال إنه كان قد هيأ طريقاً رصفه

بالحجارة بين ظفار عاصمة حمير والطائف، ويذكر الأخباريون أيضاً طريق أصحاب الفيل.

وأشهر من ذلك طريق رحلة الشتاء والصيف والذي كان يمتد من عدن إلى بلاد الشام، وكانت دورة أسواق العرب تشغل معظم هذا الطريق، حيث كانت الدورة تمتد من مكة إلى دومة الجندل ومنها إلى هجر وصحار والشحر وعدن وصنعاء، ثم مرة أخرى إلى عكاظ قرب مكة، ويصف الحسن بن أحمد الهمداني (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) في كتابه صفة جزيرة العرب عدداً من الطرق الجبلية عبر الهضبة اليمنية. ولكن أشهرها هو درب الحجيج الذي يمتد من عدن عبر صنعاء إلى مكة، فهو يبدأ من عدن إلى لحج ثم تعوبة ثم ورزان ثم الجند ثم السحول ثم حقل قتاب ثم ذمار ثم خدار ثم صنعاء[٣].

ومن صنعاء إلى ريدة ثم أثافت ثم خيوان ثم العمشية ثم صعدة، ثم العرقة، ثم أرينب ثم سروم الفيض ثم الثجة ثم كتنة، ويستمر الطريق عبر تثليث وبيشة وتبالة إلى مكة[٤].

ويذكر الهمداني في كتاب (الصفة) محجات عديدة سواء من عدن إلى مكة أو من دمشق إلى مكة. ويبدو أن طريق رحلة الشتاء والصيف قبل الإسلام لم يكن يختلف كثيراً عما كان عليه الأمر في عصر الهمداني، فإذا بدأ الطريق من عدن فإن محطاته الرئيسية في الغالب كانت الجند وذمار وصنعاء وصعدة وجرش والطائف ومكة ويثرب وتبوك ومعان وبصرى ودمشق، ولا شك أن هناك مسالك ودروباً أخرى، كما أن بين هذه المحطات الرئيسية والثانوية سلسلة من المدن التي نشأت في القيعان الخصبة وفي سفوح جبالها، وازدهرت؛ ولكن نتيجة كونها إما محطة أو سوقاً أو عاصمة، ومثال هذه المدن صنعاء في قاع صنعاء على سفح جبل نقم، وظفار عاصمة دولة حمير في قاع الحقل، بسند جبل ريدان والجند على مقربة من جبل صبر وصعدة في حقل صعدة، وهناك

---

(٣) صفة جزيرة العرب دار اليمامة ص ٣٤٤.
(٤) المصدر نفسه ص (٣٣٩ - ٣٤٠).

مدن يمنية أخرى كانت تقع على سفوح الجبال في الهضبة مثل (شبام سخيم) بسفح جبل ذي مرمر، وشبام كوكبان (شبام أقيان) على سفح جبل كوكبان، ووعلان ردمان، على سفح جبل شحرار، ونعض على سفح جبل كَنِن ،وناعط بسند جبل ثنين، وإتوه بسفح جبل ريام، ومن مدن الهضبة اليمنية المشهورة أيضاً مدينة جبأ وهي مدينة المعافر ومدينة السواء التي ذُكرت في المصادر الكلاسيكية وجيشان والصهيب ومنكث ورداع وريدة وعمران وأكانط وغيرها .

ومنذ العصور القديمة نشأت مدن أيضاً في الوديان الجنوبية والغربية، إلا أن ازدهار معظم المدن على الوديان الغربية بلغ أوجه في العهـود الإسلامية، على أن بعض المدن الساحلية والتي لعبت دوراً هاماً كموانىء على البحر الأحمر أو البحر العربي فقد ازدهرت قبل الإسلام بزمان طويل مثل قنأ، وعدن والمخاء .

ويعتبر وادي حضرموت الذي يشق هضبة الجول والذي يصب في البحر العربي من أهم الوديان اليمنية التي قامت عليه أو ازدهرت فيه المدن مثل شبام وسيئون وتريم وهي من مدن وادي حضرموت القديمة التي تذكرها النقوش، ثم وادي ميفعة التي ازدهرت في مصبه مينا قنأ الشهير، ووادي بنا حيث قام تجمع حمير ووادي تبن الذي يقع ميناء عدن في مصبه (الدلتا).

أما الوديان الغربية التي تنحدر من الهضبة اليمنية وتسيل في سهل تهامة، وباتجاه البحر الأحمر فكثيرة، وعلى هذه الوديان قامت وازدهرت مدن يمنية كثيرة قبل الإسلام وبعده، إما كمرافىء أو مراكز أو قرى صيد، ورغم أن جو تهامة حار ومشبع بالرطوبة ولا تهطل فيها أمطار كافية إلا أن سهلها الممتد حوالي ٤٠ ـ ٦٠ كم بين الساحل والجبل تخترقه الوديان الخصبة التي تجري فيها السيول موسمياً وتكتنف هذه الوديان سهول شاسعة تصلح للزراعة الكثيفة أو المراعي وتربية المواشي [٥] فمن مدن تهامة الساحلية حلي وعثر والشرجة

---

(٥) (المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد) لعمارة بن علي اليمني تحقيق محمد علي الأكوع ـ ط ٢ (١٩٧٦م) (ص ٧٦ ـ ٨٠).

وغلافقة والمخاء، ومن المدن التهامية هجر على وادي ضمد، والكدراء على وادي سهام، والمعقر على وادي ذؤال (وقريبة منه حديثاً القحمة وبيت الفقيه) وزبيد على وادي زبيد، والمهجم على وادي سردرد، وموزع على وادي موزع، وبلحة على وادي مور وغيرها[٦].

وقد استحدثت في اليمن أو ازدهرت بعد أن كانت مغمورة عدد من تلك المدن في العهود الإسلامية، ولكنها لم تكن في بقعة الضوء بالنسبة لغيرها من الأمصار الإسلامية، كالمدينة ودمشق وبغداد، فهي مراكز أساسية للدولة الجديدة، ومع ذلك فقد كان في اليمن حينئذ مراكز علمية هامة تقوم بتعليم الناس الدين الجديد وثقافتهم فيه، كما اكتسبت بعض المدن القديمة والعهد الجديد ثوباً إسلامياً جديداً زاهياً، وخير مثال على ذلك مدينة صنعاء المشهورة قديماً، ثم صارت في العهود الإسلامية أيضاً وجهة كل عالِم وتاجر.

ويذكر (آدم ميتز[٧]) في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) أن العلامة التي تعرف بها الم .ينة الإسلامية هي أن يكون لها منبر. وقد شدد الحنفية بنوعٍ خاص في أنه لا تقام الجمعة إلا في الأمصار الجامعة التي تقام فيها الحدود، كما يذكر عمارة[٨] أن الحسين بن سلامة (توفي في الربع الأول من القرن الخامس الهجري) أنشأ الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة.

ثم يذكر الأماكن التي أنشأ فيها تلك الجوامع وأصلحها إلى حد أنه أقام في كل مسافة مرحلة جامعاً، فمثلاً ما بين ذمار وصنعاء مسافة خمسة أيام بنى خمسة جوامع، ومن صنعاء إلى صعدة عشرة أيام بنى في كل مرحلة من ذلك جامعاً وهكذا، وقد ذكر عمارة أسماء عدد من المدن التي بُني فيها جامع، ولكنه

---

(٦) صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد علي الأكوع، طبعة دار اليمامة (١٩٧٤) ص ٧٥.

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المجلد الثاني ١٩٦٧م ص ٢٦٨.

(٨) مرجع سابق ص ٧١ - ٨٠.

أغفل ذكر مدن كثيرة أخرى. وإذا ما أخذ المرء بعلامة المدينة عند آدم ميتز أي إن المدينة هي تلك التي يكون فيها منبر (أي مسجد جامع) ، فإنه ربما كان من المفيد لو تتبع المرء الطريق ما بين حضرموت ومكة عبر عدن، حسب رواية عمارة التي يقول فيها أن الحسن بن سلامة بنى بين كل مرحلة ومرحلة جامعاً، حتى يعرف عدد المدن التي كان يمر بها الطريق، وإذا ما اعتمد المرء تقدير عمارة فإن الحسين بن سلامة يكون قد بنى أكثر من خمسين جامعاً ما بين حضرموت ومكة غير عدن وصنعاء، ناهيك الجوامع الأخرى التي بناها عبر طريق تهامة أي إنه كان يقع على هذه الطريق أكثر من خمسين مدينة. وهو عدد كبير إذا ما وضع المرء في حسبانه بقية المدن اليمنية الأخرى التي تقع خارج هذا الطريق وهي كثيرة. مع ذلك فإن هذه الحقيقة تؤكد ما أومأ إليه سلفاً من دور الطريق التجاري، أو درب الحجيج في نشأة المدن اليمنية وازدهارها سواء كان طريق التجارة الصحـراوي أو الطريق الجبلي أو الطريق الساحلي.

ومن الملاحظ أن نشوء مراكز الحضارة الراقية لا يقتضي بالضرورة أن تكون مواقعها في مناطق هي الأنسب مناخياً، وتاريخ البشرية يؤكد مثل هذه الظاهرة، فلربما كانت عوامل النشوء الأخرى غير المناخ على أهميته هي الحاسمة، مثل عامل الأمان والحماية أو عامل النشاط التجاري، ولكن إذا ما أصاب حضارة ما تدهور وتفتت فإن مراكز الحضارة والقوة والثقل السياسي، قد تغادر موطنها وتنتقل إلى مناطق أخرى أكثر ملاءمة ،حيث تتوفر لها فرص أفضل للانتعاش.

وقد تأكد ذلك في اليمن حيث انتقلت مراكز الحضارة والثقل السياسي من منطقة الوديان الشرقية إبان الفترة السبئية إلى الهضاب الوسطى الداخلية في الفترة الحميرية والعهود الإسلامية، على أنه من الجدير بالذكر أن ذلك الانتقال إلى الهضبة لم يمتد دائماً إلى المناطق الأصلح مناخاً كمنطقة المنحدرات الغربية حيث تكثر الأمطار، وتتكثف فيها زراعة المدرجات[٩] أكثر من غيرها.

(٩) انظر مقال (فون فيسمن) حول مدينة صنعاء في كتاب (دراسات جغرافية ألمانية حول الشرق الأوسط) تحقيق يوجن فيرت، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت (١٩٨٣م) ص ٥٢ (بالعربية).

أنماط المدينة اليمنية التاريخية:

ويمكن للمرء أن يصنف المدن اليمنية التاريخية وفق اعتبارات عدة سياسية أو دينية أو جغرافية وغير ذلك، ولكن سنحاول هنا أن نصنفها إجمالاً وفق الوظيفة التي كانت تميزها، وتصنيف مثل هذا لا يمكن أن يكون قاطعاً مانعاً، إذ لا بد أن يكون فيه أكثر من التداخل والترادف، وفي مثل هذه الحالات تغلب الصبغة الغالبة، كما أن هذا التصنيف يمزج بين العصور التاريخية القديمة والإسلامية، على اعتبار أن المدينة القديمة إجمالاً لم تندثر كلها لتحل محلها مدن جديدة في العصر الإسلامي، وإنما غلبت على كثير منها سمة الاستمرارية حتى وإن اكتسبت ثوباً جديداً، وهناك أمثلة عديدة على مدن قديمة استمرت عامرة بالسكان في موقعها القديم نفسه ودون انقطاع، وربما لا تزال تحمل الاسم نفسه إلى اليوم، وتحتفظ بملامح حيّة من هويتها القديمة.

أولاً: المدينة عاصمة الدولة

وتقابل المصر في العصر الإسلامي وهي الحاضرة التي تكون مركز الدولة ومقر سلطانها، ويقيم فيها الحاكم، مثل مارب عاصمة دولة سبأ، وظفار عاصمة (دولة حِمْيَر) وصنعاء.

ثانياً: المدينة عاصمة الإقليم أو المخلاف

يكون فيها مقر الكبير أو القيل مثل شبام أقيان (شبام كوكبان) محل أحد كبراء سبأ من ذي مرثد، ووعلان (المعسال) مقر قيل ردمان، وذي خولان وشبام سخيم (شبام الغراس) مدينة أقيال بني سخيم أو نعض (على سفح جبل كنن) مقر أقيال مخلاف ذي جرة، وجبأ كورة مخلاف المعافر.

ثالثاً: المدينة الدينية

وهي المكان الآمن ومتنسك الناس ومحل احترامهم وقريب من ذلك (الهجرة) أو (الحوطة) مثل مدينة الحضر في جزيرة العراق (مدينة الشمس) أو مكة في الحجاز، وفي اليمن كانت براقش العاصمة الدينية للمعينيين.

ويذكر عمارة أنه لم يزل الناس يزورون مسجد مدينة الجند في كل سنة وفي أول رجب، حتى كثر ذلك وصار منسكاً للعامة. و(الهجرة) هي المدينة أو (القرية) التي يصطلح أن تكون حمى وملاذاً بعيدة عن خلافات القبائل، ويجري فيها حل الخصومات، والإصلاح بين الناس، وهي فعلاً كالحرم الآمن، ومركز علم يفد إليه الطلاب مثل: هجرة دبر في سنحان، وهجرة الكبس في خولان، وهجرة ظفار ذيبين، وهجرة حوث وهي كثيرة.

رابعاً: المدينة الثقافية

وهي المدينة التي تتيسر فيها سبل العلم وتصبح مركزاً علمياً يفد إليه العلماء والمعلمون، ويغلب عليها النشاط الثقافي والتعليمي وتدور الحياة العامة والخاصة إجمالاً حول ذلك مثل مدينة زبيد ومدينة تريم، ومثل هذه وإن كانت تكتسب أحياناً وظائف أخرى دينية واجتماعية وسياسية إلا أن صبغتها الثقافية تبقى هي الطاغية.

خامساً: المدينة السوق

وهي كثيرة ، وتقوم هذه المدينة في الأصل على التجارة، فهي تبدأ في الغالب على شكل سوق موسمي، ثم تتطور لتصبح السوق الرئيسية للمناطق المجاورة، ومما يساعد على ازدهار مدن السوق وقوعها على طرق رئيسية ينزلها المسافرون ويتزودون بحاجاتهم فيها وهم في طريقهم إلى غاياتهم، ومن هذه المدن ما يدل اسمها على مثل هذه الوظيفة كمدينة الخميس أي المكان الذي كان يقام فيها سوق الخميس، ومن المدن التي غلب عليها طابع السوق قديماً شبوة وتمنع والسوا. ومن المدن الأسواق الشهيرة الشحر وعدن وصنعاء، وكانت المدن الثلاثة هذه ضمن دورة أسواق العرب المشهورة، ومن هذه المدن في العصور الإسلامية على سبيل المثال جيشان وأثافت، وفي العصر الحديث بيت الفقيه والكدحة، ومن هذه المدن اليوم القاعدة والراهدة والنَّشَمة وغيرها.

سادساً: المدينة الميناء

وكانت (قنأ) على ساحل البحر العربي وفي مصب وادي مبفعة (بير علي) أشهر مدينة ساحلية في اليمن تقوم بدور المرفأ لتجميع البضائع الآتية من

حوض المحيط الهندي، لتصديرها عبر طرق التجارة البرية في جزيرة العرب. ثم عدن وقد بقيت تلعب هذا الدور إلى اليوم، وإن كانت تتألق في فترات وتضعف في فترات أخرى. ومن هذه الموانىء المخاء، وقد عُرف في الإسلام وذُكر في المصادر الكلاسيكية، فلربما كانت (موزا) هي مدينة المخاء نفسها التي ذكرتها النقوش اليمنية القديمة باسم (مخون).

واشتهرت المخاء أيضاً في العصور الحديثة حين كانت ميناء البن المخاوي الشهير خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ومن المدن الموانىء في العهود الإسلامية أوالحديثة: حلي وجازان وغلافقة والحديدة والشحر والمُكلا وغيرها.

سابعاً: المدينة الصناعية

اشتهرت بعض المدن اليمنية ببعض الأعمال الحرفية بجانب وظائفها الأخرى، مثل صعدة التي عُرفت بالصناعات الحديدية والجلدية وصنعاء بمسكوكاتها الفضية والذهبية والخناجر، وقد تحدث الهمداني في (الجوهرتين العتيقتين[10]) عن صنعة النقد في كل من صنعاء وصعدة بالتفصيل، واشتهرت بيت الفقيه بالمنسوجات، وحيس بصنع الأدوات الفخارية.

ولا ريب أنه من المتعذر رسم الخط الفاصل بين هذه الأنماط المتعددة من المدن كما سلف القول، فقد يجد المرء مدناً يمنية متعددة الوظائف، وتكون مثلاً المدينة السياسية والثقافية والتجارية في آنٍ واحد، وهذه عادة من خصائص المدن الرئيسية مثل مارب قديماً وصنعاء حديثاً وخاصة في فترات الازدهار.

وينطبق الأمر نفسه على كل من مدن صعدة والجند وتعز وجبلة وغيرها. إن المدن بوجه عام تتشابه في وظائفها وأنماطها فالمدينة اليمنية القديمة (هجر) قد لا تختلف في جوهرها عن الأوبيدوم أو المتروبوليس في العهود الكلاسيكية،

---

(١٠) راجع كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني تحقيق (تول) طبعة مشروع الكتاب لوزارة الإعلام والثقافة - صنعاء (١٩٨٥).

او عن المصر والقصبة في العهود الإسلامية، أو عن العاصمة والمركز في العصور الحديثة، ولكن الأطر الطبيعية والبشرية والاجتماعية والعوامل التاريخية لا بد وأن تؤثر في نشوء المدن وازدهارها.

ولما كانت تلك الأطر والعوامل متباينة النوع ومتفاوتة الأثر، فإن كل مدينة أو مدن كل حضارة أو قطر تتسم بخصوصيات محلية تميزها عن غيرها، كما أن مدى استجابة كل مدينة للتفاعل والتطور يخضع للظروف والعوامل المحيطة بها، وبالتالي ينعكس على مستوى أدائها للدورالوظيفي الذي تهيأت له، مما يكسبها سمات معينة تنفرد بها عن غيرها من المدن سلباً وإيجاباً، وينطبق هذا القول بطبيعة الحال على المدينة اليمنية القديمة والإسلامية والحديثة.

ولهذا يمكن القول: إن من سمات الهجر (المدينة اليمنية القديمة) أنها كانت رائدة على اعتبار الاعتقاد السائد أن اليمن كانت من بقاع مهد الحضارات، وكانت كغيرها من مدن الشرق القديم مركز انطلاق للنشاطات البشرية من ثقافة وزراعة وتجارة ودولة، وأسهَمت مع غيرها في صياغة معالم الحضارات الراقية الأولى، ثم لعبت دوراً هاماً في عملية الوصال المستديم بين حياتي البداوة والحضارة في جزيرة العرب من ناحية، وبينها وبلدان العالم القديم من ناحية أخرى، ومثال ذلك هجر قنا وهجر شبوة وهجر مارب وهجر قرناو، وقد تضمنت دراسة أحد الباحثين إحصاءً لأسماء الأماكن اليمنية التي حملت قديماً نعت (هجر) فوجدها (مئة وست هجر)، وتمكن الباحث أيضاً من تحديد مواضع (٧٣) منها[١١].

ويستفاد من هذا الإحصاء أن (هجر) أي المدينة وفق دلالتها القديمة، تشمل أنماطاً عدة من المستقرات مثل العاصمة والمركز الإداري، أي المدينة الرئيسية والمدينة الثانوية، وقد تمتد الصفة إلى مدن أصغر من ذلك، وإلا لما كان في اليمن القديم مثل هذا العدد الكبير من المدن، وهو إحصاء بطبيعة الحال لا يشمل كل المدن اليمنية القديمة وإنما ما تم اكتشافه حتى الآن.

---

(١١) راجع رسالة د. عبدالله الشيبة ماربوج (١٩٨٢م) (بالألمانية).

وعندما دخل الإسلام اليمن اكتست المدينة اليمنية القديمة والمستحدثة كما سلف القول، ملامح جديدة وثوباً إسلامياً قشيباً، كما هي الحال في المدن الأخرى خارج اليمن كيثرب (المدينة) ،ودار الهجرة. فقد كانت الهجرة النبوية من مكة إلى يثرب نقلة حضارية وحضرية، ولم تكن مجرد انتقال من مكانٍ إلى آخر، وإنما انتقال المؤمن من بلد الفتنة آنذاك إلى حيث يأمن على دينه، وانتقال المسلم من دار الشرك والجاهلية آنذاك إلى دار الإيمان والهدى، بل إن من معاني الهجرة في اللغة هو أن يخرج البدوي من باديته إلى المدن، والهجرة قد تحمل معه دلالات معنى التحضر والاستقرار، ومن قبيل التحضر أن يتحول المرء من حياة دنيا المعاش إلى نحلة أرقى في سبيل تأمين موارد الكفاية له وحسن الاستيطان وقد يكون لهذا السبب سميت يثرب (دار الهجرة) بالمدينة .

وقد أثرت المعطيات الإسلامية الجديدة، وخاصة التقاليد الدينية على بيئة المدينة اليمنية القديمة، ووسمت معالمها بالروح الجديدة وضمن الشروط الأساسية لإقامة مجتمع حضري بكل ما فيه من مقومات، وتوفر لبعض المدن وخاصة الرئيسية منها سمات بارزة مثل الجامع والمدرسة والحمّام بخصائصها الفنية الإسلامية، وكذلك دخول بعض العناصر المعمارية التي انتشرت آنذاك في شتى بقاع العالم الإسلامي، ورغم أن مدن اليمن كانت من مدن الأطراف، ولم تكن كمدن بغداد ودمشق والكوفة والبصرة، إلا أنها كانت في بداية الأمر من المنطلقات الرئيسية التي مهدت لصياغة معالم المدينة الإسلامية الجديدة، فقد انطلق أهل اليمن من مدنهم القديمة البالية ليسهموا في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة المحمدية، وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الفاتحة، وألفوا جزءاً كبيراً منها، وكان لهم الدور الأكبر في وضع خطط المراكز الحضرية الإسلامية الأولى في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا والأندلس، ومن تلك المراكز والأمصار التي استقروا فيها وأسهموا في تخطيطها وبنائها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، وقد حملت تلك المدن ولا شك نفساً يمنياً وكانت امتداداً للتجربة اليمنية وللهجرة القديمة، علماً بأن ذلك كان قد تم ضمن نطاق

حضارة الخلافة الإسلامية وأطرها، وظروفها الجديدة. ولذلك فإن المحصلة قد لا تعكس بوضوح تلك العناصر المعمارية اليمنية الرافدة.

الاستمرارية والحداثة في المدينة اليمنية التاريخية:

يذكر (آدم ميتز) في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) أربعة أنواع من المدن في الحضارة الإسلامية. :مدن على الطراز اليوناني في صورته الشرقية والمعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط، والمدن التي كانت تُشيد على الطراز المعروف في شرق السلطة الإسلامية كالمدن الإيرانية، ثم المدن التي على طراز اليمن مثل مدينة صنعاء، ومن هذا الطراز أيضاً مكة والفسطاط، وفي رأيه أن المدن العربية تختص بتقارب المباني وارتفاع الدور، ومثال ذلك أنه كان بالفسطاط (وهي على طراز المدينة اليمنية) دورمن طبقات كثيرة تبلغ الثمان، حتى كأنها المنائر، وأسفل الدور غير مسكون، وربما سكن الدار المئتان من الناس[(١٢)].

وضمن دراسة بعنوان (الحداثة والتراث): تأثير التنمية في العمارة والتخطيط العمراني، أصدرتها جائزة الآغا خان للعمارة حصاد الندوة بهذا الخصوص عقدت في صنعاء عام ١٩٨٣م ورد عن طراز اليمن المعماري ما يلي:[(١٣)] النمط العمودي هو الطراز الشائع للعمارة في المدن والأرياف اليمنية على حد سواء، فالأبنية متعددة الطوابق ويقطنها عدد من العائلات، ويتبع الاستيطان في المدن اليمنية النموذج التقليدي للمدن الإسلامية نفسه، نسيج كثيف متقارب من الأسواق والخانات والمساجد والدكاكين والسمسرات والبيوت السكنية. ومعظم المدن والبلدان اليمنية محصنة، وفي صنعاء تتوازن المناطق السكنية العالية الكثافة مع المناطق الفضاء المزروعة ضمن أسوار المدينة. فالأبنية الكثيفة المتقاربة يتراوح ارتفاعها بين خمسة وتسعة طوابق، تبرز الشوارع الضيّقة التي تحيط بها من الجانبين، وواجهات ارتفاعها ٢٠ إلى ٥٠ م.

---

(١٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص (٢٧٣).
(١٣) الجمهورية العربية اليمنية التطور الاقتصادي والمعماري ص ٣٤.

وتكون الأقسام السفلية من جدران الأبنية عماد من الحجر، بعدد قليل من الفتحات، ومطلية بالجير الأبيض لتصد حدة الشمس، ونوافذ مؤطرة بكسوة الجص التزيينية، والسطوح مستوية وممنعة ضد تسرب الماء تمنيعاً جيداً. وتطل واجهات المباني الخلفية على حدائق عامة وبساتين (مقاشم) وغالباً ما تكون ملحقة بأحد المساجد، وهي أكثر المدن على قدرها بيوت عبادة[١٤]. وتكثر فيه الآبار فيكون أقل منزل فيه بئر واثنتان وبستان، وبؤر الكنيف فيها طولٌ[١٥]. وتمتد مواد البناء ومزيجها المميز في الأرياف اليمنية إلى المناطق الحضرية: الطين والآجر في القسم الجنوبي من النجد الشرقي، الطين والآجر والحجر في الشمال. وبيوت صنعاء الطينية تلائم تقلّب المناخ على أفضل وجه[١٦] ويبرّد الرجل من قص (الجص) بيته أو عليته أو خلوته. فتصير حيطان بيته كأنها الفضة البيضاء.

ويخصص البيت بأيسر مؤونة وأخف نفقة[١٧]. وفي تعز تتطلب الأبنية نصيباً أكثر من الصيانة والتمنيع ضد المياه، لتقاوم فترة الأمطار الموسمية التي تدوم أطول ويفرض مناخ الحديدة الحار الرطب وجود مساحات خارجية مظللة وفسحات داخلية بارزة. ويمكن تحقيق ذلك بواسطة البناء بالطين والغضار والعشب[١٨].

إن مشكلة الإسكان الحضري ظاهرة جديدة بالنسبة لليمن، فقد أدى الضغط على الأراضي الحضرية إلى ارتياد الاستيطان في الأراضي بدون ملكية شرعية للمواطنين أحياناً، وأدى ازدياد الطلب في أحيان أخرى إلى رفع الأسعار ودفع بعض محدودي الدخل إلى سكن المناطق الخارجية التي قد لا تتوفر فيها الخدمات كما في السابق، والتي تقع عادة في خارج نطاق سوق الأراضي، وهو

---

(١٤) الإكليل للهمداني ج ٨ ص ٤٣.
(١٥) م. ن. ص ٤٤.
(١٦) ندوة الأغا خان ص ٣٥.
(١٧) تاريخ صنعاء للرازي ص ١٩٦ - ١٩٧.
(١٨) ندوة الأغا خان ص ٣٥.

ما تعاني منه الدول العربية غالباً، ولذلك تختلف أحجام وطرق بناء المساكن في المناطق الجديدة بين مدينة وأخرى تبعاً لتوفر مواد البناء[١٩]، وبسبب تلك الضغوط فإن تلك الأبنية الحديثة المرتجلة قد جلبت نماذج وتقنية معمارية تختلف اختلافاً كبيراً عن الأنماط والوسائل والمواد التقليدية. كما أن التطور الاقتصادي والزحف العمراني في غالب الدول العربية الإسلامية بما فيها اليمن جعل استخدام تقنية البناء الحديثة أمراً لا مفر منه. وانتقال السكان وتفكك بعض النماذج الاجتماعية للعائلة يؤثر تأثيراً سلبياً على تلاحم المجاورات السكنية.

لقد أصبحت المدينة الحديثة في البلاد العربية وكأنها هجينة ضعيفة الشخصية لا هي عربية ولا غربية نتيجة لقصور المهندس المحلي. ثم لتغلب التأثير الأجنبي على حساب الطابع التراثي. أليس من العيب أن تورث الأجيال القادمة مدناً ليس لها طابع محلي وهوية ثقافية متميزة، نتيجة لقصور المهندسين الملهمين في مجتمعاتنا العربية؟ إن المباني الحديثة والشوارع الرئيسة في المدن تنشأ بأساليب قد لا تختلف عن مثيلاتها في البلاد الغربية. وإذا كان القصور في العمارة واضحاً فهو في مجال التخطيط الحضري أوضح، وذلك أيضاً نتيجة طبيعية لافتقار البلديات إلى مهندسي تخطيط المدن (فالموجود منهم في الوقت الحاضر قليل جداً) وإلى كون تخطيط المدن كما هو معلوم في الوقت الحاضر حقلاً متسعاً وشاسعاً، يشمل كثيراً من النواحي العلمية والفنية، ويستقطب إليه كثيراً من المعارف الحديثة المعقدة[٢٠].

فالتخطيط اليوم لا يقتصر على إقامة المنشآت الضخمة وتجميل المدينة وتوسيع بعض الشوارع التي تترك أثراً في النفس فحسب، بل يهدف أيضاً إلى إنشاء بيئة أصلية وسليمة ونظيفة وهادئة، إن المعاصرة رغم جودة معطياتها ينبغي ألّا تتخلى عن القيمة التراثية الخاصة بها، ذلك لأنها إن نزعت إلى التخلي عن

---

(١٩) م. ن. ص ٤٣.

(٢٠) مرجع كتاب (تلوث البيئة وتخطيط المدن) تأليف د. حيدر عبد الرزاق كمونة، بغداد (١٩٨١).

قيمها التراثية على حساب المغريات الشكلية الجديدة، فإن الثمن سيكون باهظاً، وإن المحاولة الجديدة لا ريب أنها في جميع الأحوال ستكون قاصرة بل دون مستوى التفوق المطلوب[٢١].

ولهذا فإن الحفاظ على طابع المدينة التقليدي وتخطيطها بما يتناسب وروح القديم أصبح أمراً ملحاً، إن الحاضر يملي شروطه والحداثة أساس حياتنا العربية المعاصرة، على أن تعزيز الذاتية الثقافية المحلية والارتباط الوثيق بالتراث الحضاري العربي الإسلامي يقتضيان توازناً واعياً لدى تخطيط المدينة الحديثة بحيث يستلهم هدي الماضي ويراعي حاجة العصر، توازن بين الحداثة ومعطيات التراث، بين روح الأصالة وواقع المعاصرة، وبين حب الاتباع وفضول الإبداع.

وربما كان من المفيد أن نختتم هذه الدراسة بتوصية وردت ضمن التقرير النهائي للمؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية والذي انعقد في صنعاء بين ٢٢ - ٢٦ فبراير / شباط ١٩٨٠م، وقد جاء فيها ما يلي[٢٢]:

وإذا كنا نتحدث عن صيانة المدن العربية الحديثة المتنكرة، التي أصابها التنميط العالمي التكنولوجي وأصبحت غابات من الإسمنت المسلح، مما باعد بينها وبين الفـــن، مع المحافظة على المرتفعات الحديثة، وأن ذلك يتطلب جهداً يبدأ من التعليم الهندسي العربي، في سياق قومية واعية بالذات الحضارية العربية، تلتزم بها الحكومات في تأكيد الهوية وتحقيق الذاتية.

وإذا كانت ثورة سبتمبر / أيلول المجيدة قد نفضت غبار الماضي وقتر التخلف عن مدننا التاريخية، فإنها في الوقت نفســه ومنذ ما يقارب ربع قرن من الزمان قد مهدت سبل تطور هذه المدن بما يتوافق وتراث الماضي العريق، ولا أدل على ذلك من الجهود الطيبة التي تبذل حالياً لصيانة عدد من المساجد

---

(٢١) انظر المصدر نفسه، مقال عن البيئة العربية والتخطيط العمراني بين الأصالة والحداثة ص ٨.

(٢٢) التقرير النهائي للندوة ص ٢٤.

ويراجع البحث الجيد الذي نشره المهندس العراقي رفعة الجادرجي بعنوان (التراث ضرورة عند تطوير المعمار العربي)، مجلة المستقبل العربي ٣ / ١٩٨١ - ص ٢٠ - ٢٩.

التاريخية، ولتخطيط التوسع في عدد من المدن الرئيسية والثانوية تخطيطاً سليماً، وابرز من ذلك كله الجهود التي تبذل حالياً لصيانة المدينة القديمة في صنعاء وحماية تراثها الثقافي والمعماري ضمن خطة سليمة مدروسة، وبالتعاون الوثيق مع سكان المدينة وجهات الاختصاص، والاستفادة من نتائج حملتين، إحداهما محلية والأخرى دولية تحشد الإمكانيات وتيسر سبل تحديث هذه المدينة بما يكفل استمرار الماضي وانطلاق الحاضر.

المسألة الأثرية في اليمن

سأتناول في هذه الدراسة موضوع الآثار اليمنية. وهو موضوع قد يظن البعض أنه ليس من الأوليات التي ينبغي أن يتحدث عنها في مثل هذه الذكرى العظيمة. فقبل الآثار تأتي عشرات وربما مئات الصفحات التي دونتها الثورة بأحرف من نور، لتحكي قصة انطلاقة شعب، منذ أن أعلن وثبته الجبارة، في يوم الخميس ليلة السادس والعشرين من سبتمبر / أيلول ١٩٦٢م حتى يومنا هذا الذي تعيش فيه بلادنا أعياد تلك الثورة، احتفالاً بمنجزاتها، وتحدثاً بنعمتها، وتعزيزاً لمسيرتها وتوكيداً لمبادئها، وتصميماً على استمرارية نهجها.

كان اليمن قبل الثورة هو ذلك البلد المجهول المنعزل عن تيار الحضارة المعاصرة، وكأنه بانغلاقه ذاك يشير إلى انقطاعه عن مسار التاريخ الإنساني العام، فقد دخل الناس في القرن العشرين وبلاد اليمن متخلفة حقاً عن ركب التقدم ومسيرة العلم ونهضة العصر، بكل ما فيها من إنجازات حضارية وإبداعات إنسانية، بل إن اليمن دخل العقد الثاني من النصف الثاني من القرن العشرين وهو حين جاوز فيه الإنسان الحديث حدود المعمورة إلى آفاق الفضاء. وهو ما زال يرزح تحت وطأة الظلم والاستبداد والاستعمار مع كل ما يعنيه ذلك من عزلة وانغلاق وقهر وضعف وتخلف.

اما اليوم وبعد أن كُسرت أطواق تلك العزلة منذ أن قامت الثورة في ٢٦ سبتمبر / أيلول ١٩٦٢م، فقد تمكن الإنسان اليمني في ما يجاوز عقدين من الزمن من تثبيت أقدامه في مرابع الحياة الجديدة واستطاع أن ينشر أعلامه في آفاق العالم المعاصر، وكان أن بدأ الآخرون يحسون بوجوده وبعالمه الفتي الذي ينبض بروح القوة والحياة، وكان مما لفت أنظار الآخرين في عالم الإنسان اليمني الجديد معالم حضارة عريقة، تتكشف كل يوم عن الشامخ والرائد، وحاضر حي يسابق الزمن ويحقق الإنجازات الجليلة، واستمرارية عجيبة تستلهم روائع الماضي وتعبق بشذاه، وفي الوقت نفسه تجده حاضراً مفعماً بآمال المستقبل ورؤاه المشرقة.

وضمن الموسم الثقافي لكلية الآداب بجامعة صنعاءللعام الدراسي ١٩٧٦ /١٩٧٧ م ألقيت محاضرة عامة عن قضايا الآثار اليمنية، ولكنها لم تجد طريقها إلى النشر خلال السنوات العشر الماضية، ومن باب التوثيق تنشر هنا طبق الأصل، علماً بأن فحواها ما زال في معظمه ساري المفعول.، علماً بأنني كنت قد هذبت المقترحات الواردة في آخر هذه المحاضرة حسب مقتضى الحال ونشرتها في كتابي (أوراق من تاريخ اليمن وآثاره) وسأتبع هذه المحاضرة بتصور عام وموجز للعمل الأثري في اليمن يلخص مقاصد الهيئة العامة للآثار ودور الكتب ونهج العمل الذي ينبغي اتباعه للوصول للمقاصد المذكورة، من خلال ما توحي به القوانين واللوائح المنظمة لها، وقد أعددت هذا التصور خلال إعدادي هذه المحاضرة للنشر ليكون تتمة لها ومنطلقاً جديداً منها في الوقت نفسه:

* كنت أرغب في أن أقدم دراسة جديدة حول قضية من قضايا التاريخ اليمني القديم المهمة، في هذه الأمسية البهية، وضمن موسم كلية الآداب الثقافي الحافل، ولكن لي عظيم الرجاء أن تسمحوا لي هذه المرة بأن أعدل عن ذلك، فتتيحوا لي ضمن الوقت المحدد فرصة البكاء على الأطلال. . وصدقوني أن لا خيار لي اليوم في ذلك.

على أني لن ألقي عليكم قصيدة عمود الشعر مستهلاً بالوقوف على ديار

الحبيب الدارسة وآثاره، نادباً ذكرى الأيام الخوالي معه، شاكياً مرارة اللوعة وقسوة البين، ليس ذلك ما يشجوني أيها الإخوة، سأقف الأمسية هذه على أطلال اليمن وسأبكي آثارها.

* ما القضية؟ أيها الأصدقاء والزملاء!

يقين الخبر تنبئكم به التقارير والشهادات التالية:

- في نوفمبر / الماضي[١] قام أستاذ العمارة والفنون الإسلامية وطلبته في قسم التاريخ والآثار بجامعة صنعاء برحلة أثرية لكل من جوامع إب وجبلة والجند وتعز وعادوا بتقرير مؤداه: أن تشويهاً عظيماً وطمساً مستمراً للزخارف المحفورة في كل من جدران جوامع السيدة بنت أحمد والجند والمظفر بل امتد الطمس إلى الزخارف المعمولة بالألوان المائية في السقف الخشبي لجامع السيدة وبواطن القبب في جامع المظفر، وغطى الدهان الزخارف والكتابات المحفورة على المنبر الخشبي النفيس في مسجد السيدة والمنبر القديم لجامع الجند.

- وورد في تقرير الهيئة العامة للآثار ودور الكتب اليمنية والذي قدمته إلى المؤتمر الثامن للآثار، والذي عُقد في مراكش في شهر فبراير / شباط الماضي[٢] ما يلي:

« فعمران المساجد (بالجمهورية العربية اليمنية) وتوسيعها وترميمها يطمس كثيراً من الزخارف والكتابات الدقيقة المحفورة على الجص أو الخشب، ويغطي الطلاء الجديد ملامح الفن الإسلامي القديم. إن ترميم جامع معاذ بن جبل في الجند أفقده جزءاً كبيراً من تاريخه العريق، وإن إنزال منبر جامع مدينة زبيد واستبدال منبر آخر به لا يزال (عبثاً) ماثلاً للعيان.

ومن كلمة ألقاها سعيد ذو الفقار مندوب اليونسكو في المؤتمر السالف الذكر حول الآثار العربية يمكن اقتطاف ما يلي:

---

(١) نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٦م.
(٢) فبراير / شباط ١٩٧٧ م.

وإذا كان هناك إجماع عام في العالم العربي على أنه تجب المحافظة على تراثنا الخاص بالفترات السابقة للإسلام فإنه يؤسفني أن لا يوجد مثل هذا الإجماع فيما يتعلق بالمحافظة على تراثنا التاريخي الأكثر قرباً، وأقصد بذلك بقايا ماضينا الإسلامي العربي، كما يتجلى في المباني الأثرية والمدن التي أنشئت أثناء هذه الحضارة العظيمة. وإذا أخذنا كمثال: مدينة صنعاء في اليمن، فإنها تواجه خطر التعرض للتشويه والتدمير.

ـ وفي ديسمبر / كانون الأول زرت مع بعض أساتذة التاريخ والآثار، وطلبة فرع الآثار في هذه الجامعة. مدينة شبام الغراس الأثرية الواقعة في سفح جبل قهال، وتبعد شمال شرقي صنعاء حوالي عشرين كيلومتراً ـ فرأينا عجباً: أن مشروع شق طريق صنعاء ـ مأرب قد اخترق أطلال المدينة من الجنوب إلى الشمال، وطمس جزءاً كبيراً من معالم المدينة الأثرية وأتلف كثيراً من آثارها. بل واختفى بعد التخريب بالآلات الضخمة كثير من اللقى الأثرية.

أما الجزء السليم الباقي من المدينة فمملوء بحفر السرقة بحثاً عن القطع الأثرية.

إن شبام الغراس وتدعى قديماً شبام سخيم من ضمن المشهور من محافد اليمن ذكرتها كتب التاريخ اليمنية والشواهد النقشية، ودلت عليها كتب الرحالة الحديثة، والعجيب في الأمر أن الطريق ربما شق بهدف تسهيل رحلات السواح لزيارة مواقع الآثار في مارب والجوف[٣].

ـ ومن جملة ما قيل في مذكرة رسمية للهيئة العامة للآثار ودور الكتب منذ شهرين ما يلي:

« إن الخراب قائم على قدم وساق في منطقة سد مارب، وفي المناطق المجاورة، وفي صرواح خولان التي كادت تنتهي وتختفي معالمها إلى الأبد من وجه الأرض، وهي العاصمة الأولى للدولة السبئية، وفي قصر الخلرة في جبل

---

(٣) عدل الطريق بعد ذلك. وهو طريق هام يصل اليوم العاصمة بمارب. وأسهم في تيسير إنجاز مشروع سد مارب، وفي تسهيل أعمال التنقيب عن النفط والذي أصبح اليوم حقيقة واقعة.

عيال يزيد، وفي حاز همدان وبيت غفر وقصر عرين، وفي صرواح أرحب، وفي النخلة الحمراء، وبينون وحمة كلاب، والحطمة وغير ذلك مما لا يتسع ذكره .

ـ إن نص مذكرة الهيئة العامة السابق يسنده تقرير البعثة العراقية التي قامت في شهر أكتوبر / تشرين أول الماضي بمسح بعض المواقع الأثرية اليمنية هو تقرير قلَّ أن يذكر موقعا دون أن يشير إلى التخريب فيه والعبث به(٤).

ـ واختتم هذه التقارير بشهادتين: الأولى أدلى بها الباحث الأثري الفرنسي (كريستيان روبان) في تقرير رسمي، وذلك بعدما زار آثار الجوف ومارب في أكتوبر/ تشرين أول الماضي بقوله : « لقد سجل اليمنيون الرقم القياسي بين شعوب العالم في تخريب آثارهم » والشهادة الثانية أدلى بها العالم الأثري الألماني ومبعوث اليونسكو الدكتور (هاوبتمان) ،وذلك في اجتماع رسمي عني بمعالجة قضايا الآثار اليمنية عقد في يناير / كانون الثاني الماضي. وأفاد (هاوبتمان) بأنه لاحظ آثار جرارات بموقع صرواح كانت تقوم منذ حوالي أسبوعين بجرف آثار الموقع وحملها على شاحنات كثيرة، كما قال لي أنه وفق ما رآه من صور وما قرأه عن مدينة مارب سابقاً لا يغالي إن ادعى أن ثلاثة أرباع آثارها قد اختفت اليوم .

لن أطيل سرد مثل هذه التقارير والشهادات، ولن أطلب منكم شهادات مماثلة، ولن أضيف ما بلغني شفوياً من أخبار. الأمر واضح والقضية بادية للعيان: الآثار اليمنية، القديمة منها والإسلامية تخرب ويعبث بها، عمداً ودون عمد، إهمالاً أو لا مبالاة، جهلاً أو قلة وعي، ويتم ذلك بكثافة عجيبة وسرعة غريبة. تلك الآثار العريقة التي صمدت لمئات من السنين أمام عدوان الناس وعدوان الزمن والعوامل الطبيعية والتغيرات الجغرافية والحروب والبراكين والسيول، تدمر اليوم وتشوه، في وقت لم يُكتب تاريخ هذا البلد بعد، ولم تتوفر لدينا نماذج كافية محفوظة من آثاره، تدمر هذه الآثار في حين من الدهر تنال

---

(٤) نشر التقرير في كتيب بعنوان (دراسة ميدانية لمسوحات مواقع أثرية في شطري القطر اليماني)، ربيع محمود القيس، صباح جاسم الشكرية، المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٨١م).

الآثار فيه اهتماماً بالغاً لدى مؤسسات العالم الثقافية، ورغبة متزايدة من السواح، وفي مرحلة من تاريخنا نحن فيها في أمسّ الحاجة إلى ترسيخ الأسس وتثبيت الأصول التي تربطنا بهذا الوطن وتؤكد استمرارية وحدته.

معلوم أن تخريب الآثار كانت ولا تزال ظاهرة عالمية. وليست مقصورة على اليمن، بل الآثار اليمنية نفسها قد مرت بفترات حرجة في تاريخها كزمن الحروب الطويلة الضارية بين سبأ وحِمْير في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، أو فترة معارك الدفاع عن الثورة وحرب التحرير حديثاً. أو فترات أخرى مثل الغزو الحبشي في القرن السادس الميلادي أو دخول الأتراك اليمن في القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر.. وربما كانت الزلازل والبراكين قد دمرت كثيراً من آثار الحقة وخربة سعود ورغوان وأم عادية. كل ذلك حدث في اليمن وفي كثير من بقاع العالم. كما أن سرقة الآثار تمت في كل من متحف القاهرة ومتحف اللوفر في باريس ومتاحف إيطاليا.

وليس اليمن هو البلد الوحيد الذي يُتَّجَر بآثاره بل إن التنقيب عن الآثار علمياً هو بحد ذاته تدمير للآثار. إذ أن الحفر مهما كان، هو عبث بطبقات الموقع الأثري.

وإن ما يميز تخريب التنقيب عن غيره هو ملاحظة الشاهد الذي يُعثر عليه بين الطبقات بعناية، ثم تسجيله ونشره وبذلك لا تفقد قيمة الموقع الأثري حتى وإن خرب.

التخريب إذن حاصل لا محالة فما المسألة إذن؟ المسألة هي حدة هذا التخريب وكثافته وسذاجة هذا التشويه وسرعته في فترة يمكن إذا توفر حسن القصد وبعض المجهود المنظم تفادي الكثير من الأخطار التي تحدق بآثارنا.

المسألة هي حاجتنا إلى تاريخ مكتوب موثق وإلى صورة حيّة مادية، لشخصيتنا التاريخية ولاستمراريتها، ولا ندري في أي (شقفة) فخار أو حجر مرمر منقوش تكمن خطوط هذا التاريخ وملامح هذه الشخصية.

إن ضياع قطعة أثرية من (أكروبوليس) أثينا خسارة فادحة ولا شك لليونان

وللإنسانية، ولكن ضياعها لن يغير من حقائق التاريخ اليوناني شيئاً، فالقطعة معروفة ومدروسة وتاريخ اليونان القديم قد قطع شوطاً كبيراً في رسم خطوطه العامة وتفاصيله وليست الحال عندنا هي إياها هناك .

تلك هي قضية الآثار اليمنية، وإن شئتم تلك هي قضاياها: تخريب، تشويه، ضياع!

ما السبب؟

لماذا التخريب والتشويه والضياع وبهذه الحدة لآثار اليمن؟

كما سلف ذكره، عوامل كثيرة تشترك في تدمير الآثار بوجه عام.

ولكن الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى تخريب الآثار اليمنية يمكن حصرها في ثلاثة:

السبب الأول هو الزحف العمراني وبرامج التنمية .

تخوض بلادنا اليوم معركة البناء والتعمير والتنمية وذلك من أجل حياة أفضل، وفي سبيل إرساء بنيان اليمن الجديد جنباً إلى جنب معارك عديدة فاصلة يخوضها شعبنا العظيم، ولكن هذه المشاريع العمرانية الضخمة في بلاد غنية بآثارها كاليمن، تضع هذه الآثار في أحرج فترات تاريخها. طريق لا بد أن يشق ومشروع سكني ينبغي أن يُنجز، وحقل لا مفر من توسيعه، مدارس تشيد، وربما شبكات مجارٍ وإنارة تُمد، وحتى الملاعب والمرافق العامة والتشجير كلها أمور من صميم الحياة الجديدة.

والمدينة تنمو بحكم هجرة السكان من الريف، وتوسع نشاطاتها وأبنيتها القديمة قد لا تفي بحاجة سكانها الذين يميلون إلى متطلبات الحضارة الحديثة .

إن التعمير النمطي الحديث يغزو كثيراً من بلدان العالم الثالث، وأصبح أساساً في متطلبات الحياة الحديثة نتيجة الضغط الناجم عن النمو السكاني والهجرة من الأرياف إلى المدن، كما أن النماء الاقتصادي والرخاء قد شجعا

على المضاربة العقارية وتسخير الفن والذوق والتراث لحركة السوق، فنرى سكان المدن القديمة يسعون نحو تقليد الأنماط الأجنبية ونادراً ما يلاحظ هؤلاء الملامح القبيحة التي تدخلها هذه العمارة الجديدة الغربية.

أضف إلى ذلك، أن مواد البناء الحديثة المستخدمة كثيراً ما تكون أغلى ثمناً وغير ملائمة لطبيعة المناخ، خلافاً للعمارة التقليدية الجميلة التي إذا أُحسن تقليدها ربما كانت أقل تكلفة. وأكثر راحة، على أن أسوأ ما في الأمر هو هدم الأبنية القديمة الجميلة بدلاً من ترميمها وصيانتها بحذق ومهارة. لا أحد مثلاً، يطالب بالمحافظة على صنعاء لتبقى كما هي تماماً، ولا أحد يطالب بتجميد نشاط المدينة القديمة من أجل الحفاظ على طابعها الخاص.

إن ذلك غير مطلوب، بل إن ذلك طلب محال، المطلوب هو أن نعطي صنعاء القديمة وهي هذا المتحف العربي الإسلامي الرائع اعتبارها عندما يحاول أهلها التكيف لملاءمة معطيات العصر الحديث. إن الحفاظ عليها يكون بالحفاظ عليها بكامل حياتها، وكما هي دون تعديل أبنيتها وأزقتها لتكون على غرار النماذج الأوروبية والأمريكية. إن البيت الصنعاني التقليدي ربما كان يقدم مثالاً معمارياً صالحاً لمتطلبات العصر الحديث أكثر من البيت الحديث، ولا سيما من حيث اقتصاده في المساحة ومراعاته لظروف المناخ.

اسمحوا لي أن أقتطف مرة أخرى بعض ما قال مندوب اليونسكو في المؤتمر العربي للآثار السالف ذكره حول مدينة صنعاء.

إن صنعاء نموذج معماري فريد لم يزل في حالته البكر، ولن نستطيع أن نجد في أي مكان آخر مثل هذه الدرجة العالية من الكمال المعماري.
إن صنعاء والمدن الثلاث المقدسة مكة والمدينة والقدس تستحق أن تعتبر مساوية لمدن مثل البندقية وفلورنسا في النظر إليها كجزء لا يتجزأ من التراث الثقافي العالمي (طبعاً من حيث المعمار بالدرجة الأولى إذ أن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف مدن تشد إليها الرحال شوقاً وعبادة، وليس سياحة فحسب).

ليس السبب الرئيسي للمحافظة على الصورة المرئية للماضي في شكل مبانٍ أو مدن تاريخية هو الجمال الذاتي والتناسق اللذان تتمتع بهما فقط، وإنما بالدرجة الأولى الكيان الذاتي للشخصية التي تمنحها إيانا هذه المباني. إن هذا الشعور باستمرارية الشخصية مهم جداً في فترة الاستقلال والوحدة، فترة البقاء على ذاتيتنا الثقافية وحضارتنا العربية الإسلامية والثبات عليها أمام القيم والمنتجات الأجنبية.

ولكن مع الأسف، نادراً ما يلاحظ سكان المدن عندنا أو سكان الريف مثل هذه الأمور، التعمير قائم وتهديم الآثار قائم.

ما العمل إذا شق طريق وتم العثور فجأة على مبانٍ أثرية هل نستمر في شق الطريق أمْ نحافظ على الأثر؟

ما العمل إن انتزع فلاح أحجار مبنى أثري ليبني بيتاً؟ إن كثيراً من القبائل والمواطنين يدعي ملكية المواقع الأثرية، ولا يسمح بالتدخل في شؤون ما يملك، وأنّى لهم أن يعرفوا ما تنص عليه قوانين الآثار؟

فتلك أرضهم وهناك ولدوا وعاشوا. وأنّى لهم أن يعلموا أن تكسير أحجار تلك المباني هو اجتثاث لجذورهم وعبث بشخصيتهم وطمس لدلالة عمق تاريخهم، إن من الصعب لوم هؤلاء المواطنين وخاصة سكان المناطق الفقيرة النائية في شرق اليمن حيث قامت حضارتهم العظيمة. إذ ربما لا يملك المواطن ثمن أحجار جديدة لبناء بيته، منْ يوفر له حاجته إذن؟ ويرشده إلى الصواب؟ منْ ينشر بيننا الوعي الآثاري أيها الأخوة؟

إن ضعف الوعي الآثاري في بلادنا هو السبب الثاني للتخريب الحاصل.

لقد آن لنا في اليمن أن ندرك أن بناء المجتمع الحالي يقوم على أصول الماضي، وكلما حسنت معرفتنا بهذه الأصول حسن تهيؤنا وبشكل أفضل للتغلب على العوائق التي تحد من انطلاقنا، إن دراسة الماضي تسهم في فهم الحاضر، وإن ملاحظة أعمال الأجداد في الماضي تضيف إلى خبرتنا، وبذلك نعيش أعماراً

إلى اعمارنا. فنحن كما قيل نعيش تجربة إعمار منْ سبقونا، وإذا كان للإنسان ذاكرة يهتدي بها في معاشه، فإن التاريخ هو ذاكرة الإنسانية مجتمعة، إن التاريخ يساعدنا على أن نضع ظواهر الحاضر في إطارها الصحيح ويهبنا القدرة على التوقع السليم لآمال المستقبل.

إن تاريخنا لم يُكتب بعد كما قلت، وما زال يرزح تحت عبء الأسطورة بل ما زال تحت التراب، وبين جنبات الأطلال القديمة. تاريخنا ما زال غسقاً نلمح حقائقه دون جلاء، وكأننا نلمح ضوء القمر من خلال أوراق الدالية.

متى نتيح الفرصة لشعبنا أن يعلم أن الآثار ملك للأجيال وتراث حضاري للأمة، فلا يجوز الاتجار به، وضياعه ضياع جزء من ممتلكات الشعب الثقافي، وتسربه إلى الخارج خسارة لا تعوض.

إن الآثار هي جذورنا التاريخية والتعبير عن كياننا وذاتنا وتطلعاتنا الوحدوية. وإن الآثار قيمة حضارية تربطنا بالإنسانية جمعاء. وإنه من المعلوم بالضرورة اليوم أن الآثار قد أعطت هذا العصر الكثير من تقدمه. ولا شيء يأتي من لا شيء واليوم هو نتاج الأمس.

إن خير ما يمكن أن تستقى منه مادة التاريخ هي تلك الحقائق المادية التي نعثر عليها في شقفة فخار أو نقش على حجر، أو رقم بخطوط، أو لقية بين ثنايا تل من التراب أو سحنة على جبين فلاح مثابر.

إن ضعف الوعي الآثاري تركة من مخلفات الاستبداد والاستعمار في بلدنا، فلا بد من أن نعمل على تعميق الوعي الأثري بين جماهيرنا، وإشاعته في مجتمعنا ،ليكون رديفاً للبناء والتنمية، حتى تنسق الصلة بين المواطن وتراث شعبه، ليقوم عن قناعة ورضا بصيانته والمحافظة عليه، على أن خير وسيلة لنشر الوعي الآثاري هو سرعة تحرك المسؤولين والمشتغلين بهذه الآثار في مجالات البحث والتنقيب والصيانة الأثرية وتعميم المتاحف.

إن إبطاء اليمن وتردده في مجال البحث والتنقيب والصيانة الأثرية هو السبب الثالث في تخريب الآثار اليمنية. ويمكن تبيان ذلك بجلاء لو علمنا أنه

لم تتم في اليمن أية حفائر علمية كاملة إلى الآن وأن كل منْ اهتموا بالآثار اليمنية من أجانب وعرب ومحليين كانوا هواة وليسوا بعلماء آثار:[٥].

(فنيبور) عام ١٧٦٢ م كان رحالة، و(أرنو) عام ١٨٤٣ م، و(هاليفي) عـــام ١٨٧٠م، و (جلازر) بين أعوام ١٨٨٢ ـ ١٨٩٤م، كانوا مجمعي نقوش. حتى (را، اثينز، وفون فيسمن) اللذان نقبا في الحقة عام ١٩٢٧ م لم يكونا أثريين، فالأول كان أستاذاً للجغرافيا في جامعة توبنجن في ألمانيا الغربية، والآخر كان معنياً بتخصص آخر.

(كاتون ثمبسن) عام ١٩٣٨م في حريضة، و (البرايت) مع بعض المشتغلين بهذا العلم في تمنع عام ١٩٥٠م، أقرب المحاولات العلمية التنقيبية في اليمن. أما (محمد توفيق) ١٩٤٤م، و (أحمد فخري) ١٩٤٧م، فقد كان لهما فضل تصوير عدد كبير من النقوش لأول مرة، وأخيراً (طيب الذكر) (ويندل فيلبس، والبرت جام) في مارب عام ١٩٥٢م، إذ كان أحدهما مغامراً والآخر لغوياً ،هذا فضلاً عن المحدثين (براين دو) المهندس وأستاذة الفنون الجميلة (جاكلين بيرين) وعالم الساميات (والتر مولر).[٦]

إن أكثر هذه السلسلة المختصرة كانوا من الرحالة والعلماء الذين زاروا اليمن واشتغلوا بآثارها، ولم يكونوا في حقيقة الأمر علماء آثار أو متخصصي

---

(٥) نقب في شبوة تنقيبا علميا منظماً كما يبدو وما زال التنقيب جارياً. ولم يكتمل التنقيب في أحد المواقع في مارب عام ١٩٥١ / ١٩٥٢م، وإن كانت التجربة أفضل بالنسبة للبعثة الأميريكة لدراسة الإنسان في هجر كحلان وهجر بن حميد، والمسح الآثاري في اليمن قائم على قدم وساق. وإن كان المرء يجهل ما الذي يجري تماماً أهو مسح أو مجسات أو حفر أو تنقيب أو (تنظيف)، وكل بعثة أجنبية يبدو أنها أقطعت منطقة، ونظام الإقطاعيات في العمل الأثري ينبغي أن يُعاد النظر فيه ويستبدل بتحديد الموقع الأثري ونظام المواسم في الموقع نفسه. ولا بد من أن تترك أهم المواقع الأثرية للأثريين من أهل اليمن الذين يتزايدون يوماً بعد يوم، ولن تمضي سنوات قليلة فقط حتى يشهد اليمن عناصر آثارية قادرة على العمل مستقلة، والعمل باقتدار مع البعثات الأجنبية. وسيعود إلى أرض الوطن قريباً إن شاء الله خريجان من امريكا وفرنسا على مستوى عالٍ من التأهيل الأثري بجانب خريجي جامعة صنعاء الكثيرين.

(٦) تشمل البعثات الأجنبية الحالية عدداً من الأثريين المتخصصين مثل (يورجن شميدت) الألماني (ودي مجريه) الإيطالي و (جيمس ساور) الأمريكي، والدكتورة (سلمى الراضي) العراقية.

تنقيب، وإنما كان بينهم الهاوي والفنان والمهندس واللغوي وربما المغامر، ومع ذلك نحن نحمد لهؤلاء جهودهم الجمة، إذ ربما كنا بدونها قد حرمنا بعض معالم تراثنا، وخير دليل على ذلك أن الورق النشاف الذي كان يضغط على أحجار النقوش في أواخر القرن التاسع عشر لتظهر عليه حروف النقوش بارزة ما زال محفوظاً في خزائن مكتبة في فيينا، ويُنشر تباعاً إلى يومنا هذا، أما الأصل (الحجارة نفسها) فقد تكسرت واختفت معظمها، ورغم ذلك المجهود، فإن هدف أولئك الرحالة لم يكن بالدرجة الأولى حماية الآثار اليمنية والتنقيب عنها والمحافظة عليها ونشرها .

وإنما كانت أغراضهم متعددة، فمنهم منْ كان يبحث عن تفسير لآية في التوراة، ومنهم من كان البحث عن النقوش ستاراً يخفي وراءه اتصالات مريبة، ومنهم منْ كان ينشد الشهرة والثروة، ومنهم منْ كان مبعوثاً لمكافحة الجراد .

قليل جداً هم الذين كانوا يسعون (كما يُقال) في طلب العلم. فقد كان بعضهم يزيل الأحجار والأتربة من على أثر محدود بحثاً عن لبانته. ولا يضيره ما يحدث لبقية أجزاء الأثر من تلف، يبحث عن نقش فيهدم جداراً أو موقعاً أثرياً قديماً، وسبب ذلك محدودية الغرض، وربما جهل بعلم التنقيب الصعب، إن اليمن لم يعرف بعد علماء الآثار، وربما عرف فقط هواته، وقد كانت نتائج سوء تصرف بعض هؤلاء الرحالة في هذا المجال وخيمة على علم الآثار في اليمن، فبصمات تنقيب (ويندل فيليبس) في مارب ماثلة للعيان، ونلمحها في تردد مسؤولي الآثار في هذا البلد حيال مشاريع التنقيب .

إن إنشاء الهيئة العامة للآثارودور الكتب منذ بضع سنوات[7] كان إنجازاً مهماً، وإن إنشاء قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بجامعة صنعاء هي بداية حسنة[8]، وإن وجود المتحف الوطني واستجلاب ذوي الاختصاص للعناية به خطوتان جديرتان بالتنويه.

---

(٧) كان ذلك قبل عشر سنوات.. وقد أُنشئت الهيئة قبل حوالي ستة عشر عاماً .

(٨) أُنشيء قسم مستقل للآثار في العام الجامعي ١٩٨٢/ ١٩٨٣م.

إن صدور قانون الآثار عام ١٩٧٢م نص على:

«أن تحافظ الجمهورية العربية اليمنية داخل حدودها على الآثار القائمة فيها، وعلى تراثها الثقافي الذي تركته عصور ماضيها المتعاقبة» والذي ينص أيضاً على «أن يمنع منعاً باتاً إتلاف الآثار المنقولة أو غير المنقولة، أو إلحاق الضرر بها، أو تشويهها بالكتابة أو الحفر عليها، أو تغيير معالمها أو فصل جزء منها أو تزييفها، ويمنع لصق أية إعلانات أو أوراق على جداران الأماكن الأثرية كالمساجد وغيرها».

وإن صدور مثل هذا القانون أعطى الغطاء الشرعي لحماية الآثار اليمنية، وإن اهتمام أولي الأمر بإيفاد وفود رسمية إلى مارب، وعقد اجتماعات علمية لمناقشة قضايا الآثار وطريقة حمايتها، أمور تفرح القلب، ولكن الخطر داهم ومفاجىء، والداء مستفحل وخطير، ولا يكفي أن يُقاوم بأدوية مسكنة، وإنما العبرة بالدواء الناجع الذي يجرع باستمرار وبدقة وانتظام.

القضية ليست بالدرجة الأولى التنقيب عن الآثار وهو مجال خصب، وبالتالي الانتظار والسكون، فقد لا يتوفر علماء آثار مختصين بالتنقيب وترميم الآثار في اليمن، ولكن حماية الآثار تحتاج إلى أقل من ذلك، تحتاج إلى اهتمام وغيرة، ومجهود ومال، وكفايات أعتقد وفرتها. كل ذلك يصاغ ضمن مخطط طويل النفس لحماية الآثار اليمينة. كما أن التنقيب لم يعد علم شركات، وإنما تقوم به مؤسسات علمية تعتبر آثار اليمن جزءاً من التراث الإنساني الذي يربطنا جميعاً.

وقد أقرت مؤتمرات الآثار العربية الاستفادة من البعثات العلمية الأجنبية في أعمال التنقيب في البلاد العربية، بعد التأكد من هويتها وأهدافها، وتخصص أفرادها في موضوع التنقيب، والتأكد كذلك من قدرتها المالية، ومراقبتها عن طريق مشاركة عناصر فنية وطنية. ومراعاة الاستفادة من وجود البعثات الأجنبية الأثرية في تدريب وتأهيل أُطر وطنية في العمل الأثري.

أي أنه بالإمكان عمل حفريات باليمن، شريطة أن تكون محدودة،

وضمن إمكانيات اليمن، والأهم هو التأكد من هوية البعثات الأجنبية التنقيبية وكفاءاتها، فربما كانت مثلاً ممن نقب في الأراضي العربية المحتلة، واشتركت في تشويه الآثار العربية الفلسطينية ،وربما كانت بعثات قليلة الخبرة في هذا المجال. على أن هناك في معظم البلاد العربية بعثات أجنبية ومنذ فترات طويلة تشتغل بالتنقيب وتسجل نجاحاً مرموقاً.

إن في الهيئة العامة للآثار بعض الفنيين اليمنيين والعرب المتدربين، وإن قسم الآثار يأمل أن يخرج كل عام عدداً لا بأس به من الأثريين المتخصصين[٩]، كل من هؤلاء يمكنه أن يرافق بعثة أجنبية، ويستفيد من خبراتها، على أن بعثة التنقيب الأجنبية لن تحمي كل آثار اليمن، وإنما مجالها البحث والتنقيب، نحن الذين يجب أن نحمي آثارنا، وحمايتها لا تحتاج إلى علم غزير، وإنما إلى رغبة صادقة وعمل منظم، وضمن مخطط طويل المدى.

فإذا كان بالإمكان عمل شيء للمحافظة على الآثار اليمنية، وبعد أن حاولت أن أعرض المشكلة والسبب، فحينئذ ربما جاز طرح السؤال المنطقي:

ما الذي ينبغي أن نعمله بهذا الخصوص؟ ما الحل أيها الإخوة؟

* في القسم الأخير من حديثي هذا سأحاول أن أضع تصوراً لحل قضية الآثار اليمنية.

ولكن قبل أن أعرض مخطط الحل؛ اسمحوا لي أن أضع ثلاث ملحوظات:

١ ـ هذه محاولة فردية أرجو أن تكون منطلقاً لمقترحات منكم وممن يهمهم شأن هذه الآثار.

٢ ـ رغم شدة جزعي على الآثار، فإني تأنيت في وضع هذا المخطط، فهو يهدف إلى حماية الآثار اليمنية لبضع سنوات قادمة، وليس لإجراء خطوات سريعة قصير مداها وقاصر فعلها.

---

(٩) يخرج قسم الآثار بجامعة صنعاء عدداً طيباً من الأثريين ويعتبر قسم الآثار اليوم من الأقسام الأولى التي يرغب الطلاب بالانضمام إليها في كلية الآداب.

٣ ـ سأعرض فقط الخطوط العامة للحل، وأرجو أن يتيسر لي نشره بتفاصيله[١٠].

أ ـ البحث العلمي المنظَّم في مجال الآثار، وذلك وفق ما يلي:

١ ـ دراسة تحضيرية تستقصى فيها المعلومات الدقيقة من الكتب والمراجع التاريخية والجغرافية، مثل كتب الهمداني وخاصة (صفة جزيرة العرب)، وكتب الرحلات، وتقارير موفدي اليونسكو الأثريين، وتقرير بعثة المسح العراقية، وخرائط فون فيسمن التاريخية، وخرائط الجمعية الجغرافية البريطانية، وخرائط هانز اسطفان السويسري الجوية، مع الاستعانة بمعلومات الجهاز المركزي للتخطيط الخاصة بالتعداد السكاني، وربما بمعلومات مصلحة الثروة اليمنية الجيولوجية، وذلك لتحديد كل المواقع الأثرية وحصرها في شكل معجم وأطلس[١١].

٢ ـ اعتماد منهج المسح الآثاري الشامل: وذلك بوضع مخطط لبرنامج يهدف على المدى الطويل إلى حصر وتسجيل كافة الآثار في أنحاء البلاد بطريقة علمية ومنظَّمة ضمن محيط هذه الآثار وبيئاتها[١٢]، وهي خطوة ضرورية تسبق التنقيب، فلا يُسمح لأية عملية تنقيب في موقع أثري دون مسح المنطقة مسحاً شاملاً وهي طريقة يعمل بها في البلاد العربية كالعراق والسعودية. فالمسح الآثاري هنا هدف بحد ذاته إذ يُبرز حقائق جوهرية وأساسية عن بعض أوجه الحياة القديمة ،وفي الوقت نفسه تمهيد وتنظيم لمجال التنقيب.

---

(١٠) نُشرت بعض التفاصيل في كتابات متفرقة وفي كتاب أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، راجع أيضاً بهذا الخصوص مقترحات للزميل الدكتور عبد الحليم نور الدين في كتاب (مقدمة في الآثار اليمنية). منشورات جامعة صنعاء (١٩٨٥ م).

(١١) راجع أوراق في تاريخ اليمن وآثاره بحثاً بعنوان: (في سبيل معجم جغرافي تاريخي لليمن. راجع رسالة عبدالله الشيبة (أسماء الأماكن في النقوش اليمنية القديمة)، ماربورج (١٩٨٢) وراجع أيضاً (مجموع بلدان اليمن وقبائلها) لمحمد بن أحمد الحجري، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع، مشروع الكتاب، صنعاء (١٩٨٤) و(معالم الآثار اليمنية)، للسياغي، وكتاب إبراهيم المقحفي بهذا الخصوص، وغيرها من المراجع التي تسعف على تنفيذ مثل هذا المشروع.

(١٢) بالنسبة لمركز تسجيل الآثار اليمنية راجع مقترح د. عبد الحليم نور الدين في كتابه (مقدمة في الآثار اليمنية) ص ١١٥.

٣ ـ الشروع بالتنقيب كمرحلة أولى ويكون فقط في المواقع المهمة والمهددة مثل مارب صرواح، براقش السوداء، ويتم ذلك بعد أن يجري مسح في هذه المناطق ووفق قوانين الآثار العربية والقوانين اليمنية .

٤ ـ أن تبدأ محاولة يمنية في مجالي المسح والتنقيب يشترك فيها كل من فنيي الهيئة العامة للآثار وخبرائها الموفدين، وقسم الآثار بجامعة صنعاء، ضمن التدريب العملي لطلاب الآثار، ويوضع حالياً مخطط وميزانية لذلك[١٣].

٥ ـ عمل أرشيف لتصوير وتدوين وتسجيل التراث اليمني والنقوش، ويتم نشر هذا التوثيق تباعاً في نشرة دورية[١٤].

ب ـ إعداد العناصر البشرية اليمنية وتدريبها:

وذلك يقتضي ما يلي:

١ ـ تشجيع طلبة التاريخ في جامعة صنعاء على دراسة الآثار، وذلك بتنظيم رحلات منتظمة لزيارة مواقع الآثار القديمة والإسلامية. وتقديم بضع منح على طريقة مشروع تطوير التعليم لمنْ يتقدم لدراسة علم الآثار[١٥].

٢ ـ توظيف منح للدراسات العليا لمنْ ينوي التخصص في الآثار كالتنقيب ودراسة ما قبل التاريخ والعمارة الإسلامية، والنقوش وغيرها .

٤ ـ تنظيم دورات تدريبية للعناصر البشرية الأثرية في مجالات رسم الخرائط والتصوير والترميم وغيره. ويمكن أن تفيد المنظمة العربية للتربية والعلوم في هذا المجال، أو المركز الإقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية في العراق. ويمكن أن نفيد مثلاً من عرض الدانمرك وإيطاليا

---

(١٣) في الأصل قسم التاريخ والآثار. . ولم يتحقق هذا المشروع المقترح إلى اليوم .

(١٤) ينبغي أن تصدر بهذا الخصوص مجلة متخصصة بالآثار والنقوش على غرار مجلة (ريدان) التي كانت تصدر في باريس وتوقفت الآن. ويزمع قسم الآثار بالجامعة إصدار مثل هذه المجلة .

(١٥) كان ذلك عندما كان الطلاب يعزفون عن دراسة الآثار وعندما كانت (الآثار) فرعاً من قسم التاريخ والآثار .

وربما هولندا فيما يخص استعدادها لقبول فنيين يتدربون في مجال صيانة المحفوظات والقطع الأثرية[١٦].

ج ـ صيانة الآثار:

ويقتضي ذلك ما يلي:

١ ـ إقامة متحف جديد يتفق ومواصفات المتحف الحديث، كأن يكون هناك قسم للعرض وقسم للصيانة، وضمن ظروف مناخية معينة والأمر جارٍ بهذا الشأن[١٧].

٢ ـ استجلاب خبراء بشؤون صيانة القطع الأثرية والمخطوطات الموجودة في المتحف أو دور الكتب، وتدوينها وتصويرها وفهرستها، والخبراء يروحون ويجيئون دون خطط موضوعة تكمل إحداها الأخرى. بل الغريب أن يبدأ كل واحد منهم حيث بدأ الآخر. والتقارير الجديدة منها أسوأ من القديمة.

٣ ـ الشروع بإقامة متاحف صغيرة ومكتبات في مدن اليمن الرئيسية وفي بعض المدن الأثرية المهمة: تعز، الحديدة، زبيد، مارب، وذلك لجمع الآثار والعادات والمأثورات الشعبية، والأعراف، وتسجيل الأغاني الفولكلورية والموسيقى الشعبية، والمظاهر المادية للحضارة اليمنية كالألبسة والأدوات الحرفية وغيرها[١٨].

٤ ـ رصد مالية خاصة لشراء وتصوير ما يقتنيه المواطنون من نقوش ومحفوظات وغيرها.

---

(١٦) ولألمانيا الغربية خبرة طيبة وتعاون لا بأس به بهذا الخصوص، تم على شكل مشروع لصيانة أوراق من القرآن الكريم لمصاحف تالفة، وضمن اتفاقية مع الهيئة العامة للآثار ودور الكتب. أما عرض الدانمرك فلم يتم شيء بشأنه كما أعلم.

(١٧) لم يتحقق المشروع المقدم آنذاك. وما يجري الآن هو إعداد أحد المباني القديمة لهذا الغرض.

(١٨) ويمكن أن يتبع مثل هذا العمل وزارة الإعلام والثقافة حسب الإطار الإداري الذي يقرر اتباعه.

٥ ـ تطبيق مواد قانون الآثار فيما يتعلق بتجارة الآثار وتصديرها: مادة (٣٩) حظر الاتجار بالآثار، ومادة (٥٠) العقوبات الخاصة بذلك[١٩].

٦ ـ إنشاء مجلس دائم خاص يعنى بصيانة مدينة صنعاء القديمة أبنية وطراز معمار وسوراً، ويمكن تكوينه من ممثلين للمؤسسات الثلاث الهيئة العامة للآثار، محافظة صنعاء، وزارة الأشغال[٢٠].

د ـ حماية الآثار:

ويمكن عمل ما يلي:

١ ـ إعلان بعض المناطق الأثرية مناطق محمية، وكل ما فيها ممتلكات وطنية بآثارها المنقولة وغير المنقولة، وهي المناطق التي يتجمع فيها كثير من المعالم الأثرية مثل مارب وظفار ومدن الجوف: براقش ونشق وغيرها. وتنشأ فيها مراكز حراسة دائمة.

٢ ـ إعلان مدينة صنعاء القديمة معلماً أثرياً إسلامياً وكل ما يتم فيها من عمران وتغيير يخضع لمراجعة مجلس المدينة الخاص المشار إليه سابقاً[٢١].

٣ ـ شق الطرق يجب أن تخضع تصاميمها لموافقة الهيئة العامة للآثار ودور الكتب.

٤ ـ أن يُطلب من هيئات التعاون الأهلي أن تراقب وتقدم التقارير حول المحافظة على الآثار في مناطقها.

٥ ـ أن يُطلب تعاون الشرطة والقوات المسلحة في حماية الآثار اليمنية حسب تواجدها في المناطق الأثرية.

---

(١٩) قانون رقم ١٢ لسنة ١٩٧٢ للآثار.

(٢٠) أنشىء حالياً مجلس أمناء المحافظة على مدينة صنعاء. قرار جمهوري رقم ٧٦ لسنة ١٩٨٤م بشأن قيام حملة لحماية تحسين مدينة صنعاء القديمة. ويتبع المجلس رئيس الوزراء وهو رئيسه ومعه ١٤ عضواً وللمجلس مكتب فني يتولى حالياً الإشراف العلمي والفني والإداري على المشاريع والأعمال الخاصة بصيانة وتحسين المدينة القديمة.

(٢١) انظر الهامش السابق.

٦ ـ أن تطبق مادة ٤٤ من قانون الآثار الخاصة بموظفي الجمارك وسلطات الأمن ومصادرة الآثار المسروقة في نقاط الحدود البرية والبحرية والجوية.

٧ ـ حصر المساجد باستثناء مساجد صنعاء التي تدخل ضمن صيانة المدينة والأبنية ذات الطابع الأثري أو التي بنيت على مواقع أثرية. ويعهد إلى سلطات الأمن والبلديات تبليغ القائمين عليها بأن لا يتم أي تغيير فيها إلا بموافقة الهيئة العامة للآثار ودور الكتب.

هـ ـ نشر الوعي الآثاري:

وفي هذا المنحى يمكن عمل الكثير مما أقرته مثلاً الدورات والمؤتمرات العربية والدولية الأثرية وقد يركز على ما يلي:

١ ـ إسهام المدرسة في كل أنحاء اليمن في نشر الوعي الآثاري عن طريق تأليف وتدريس كتب تاريخ تعنى بالآثار والتراث اليمني، بأسلوب شيق، ومزودة بوسائل الإيضاح، والإكثار من الرحلات المدرسية لمواطن الحضارة القريبة. وتكوين جمعيات أصدقاء حماية الآثار في المدارس. وتزيين جدران المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بلوحات ونماذج وصور فوتوغرافية للآثار، وتشجيع الطلبة على رسم هذه الآثار وتنمية الصلة الحميمة بها.

٢ ـ إقامة جسوروطيدة بين المواطنين والمتاحف. عن طريق إقامة المعارض في المتاحف والندوات والأفلام التسجيلية والنشرات الدورية عن الآثار. وعمل دليل مصور لمحتويات المتحف وبعض الآثار خارجه.

٣ ـ إعلان سنة من السنوات القريبة القادمة سنة لحماية الآثار اليمنية وتنشط فيها الهيئة العامة للآثار ودور الكتب وجامعة صنعاء والأجهزة الإعلامية ضمن مخطط مدروس يمكن وضعه في حينه.

٤ ـ تعريب ونشر كل ما يُكتب عن آثار اليمن، وتوصيل هذه الكتب إلى الجماهير.

٥ ـ تخصيص زوايا بالصحف اليومية والمجلات الأسبوعية للتراث الوطني .

٦ ـ الإكثار من البرامج والأحاديث الإذاعية حول الآثار بطريقة مشوقة .

٧ ـ الإكثار من الندوات العلمية التلفزيونية الخاصة بتراث اليمن مع التركيز على الجوانب الإبداعية في هذا التراث عن طريق عرض صور وأشرطة للآثار. وتترك في هذا الحال القطع الأثرية تحكي قصتها من خلال الصورة .

٨ ـ إنشاء لجان شعبية تتولى العناية بالمناطق الأثرية وبتوعية الناس للحفاظ على الآثار .

٩ ـ زيادة العناية بأمور المواطنين في مناطق الآثار النائية، وذلك عن طريق بناء المدارس وإيصال النور وتوفير المياه وغيرها من الخدمات التي تنهض بهم، وبالتالي تتم توعيتهم عن طريق هذه الخدمات .

١٠ ـ تشجيع قيام جمعيات أصدقاء الآثار اليمنية والتراث اليمني على مستوى اليمن وعلى مستويات عربية ودولية[٢٢].

١١ ـ تشجيع السياحة الداخلية وتيسيرها لكافة المواطنين وبمصاريف زهيدة .

١٢ ـ تشجيع الصناعات والحرف الشعبية التي لها صلة بالتراث اليمني، وتوفيرها للمواطنين وللسائح بأسعار معقولة.

١٣ ـ إقامة صلات علمية حميمة حول الآثار بين شمال اليمن وجنوبه .

وإقامة صلات علمية أثرية مع إخواننا علماءالآثار والتراث في الجزيرة العربية والخليج. إذ من الصعب دراسة حضارة الجزيرة العربية مقسمة دون خطة أثرية متكاملة .

---

(٢٢) تُبذل حالياً جهود لتأسيس الجمعية الوطنية للمعالم والمواقع الأثرية وربطها بالإيكومس (الجمعية الدولية للمعالم والمواقع الأثرية) ونتمنى لهذه الجهود كل توفيق .

١٤ ـ إقامة ندوات وعقد مؤتمرات عربية ودولية للآثار في اليمن، ونأمل أن يكون المؤتمر العربي التاسع للآثار الذي تقرر عقده بمدينة صنعاء عام ١٩٧٩م بداية مفيدة في هذا الاتجاه.

وبعد، تلك هي قضية الآثار اليمنية، حاولت أن أعرضها ،وأن أبين أسبابها، وأن أقترح حلاً لها، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، فبعض ما اقترحت ، لا ريب وأنه قد قيل ودوّن في سجل ما، وربما ضاع هذا السجل من جملة ما ضاع من تراثنا، ولا بد من مخطط لإنقاذ الآثار اليمنية نشترك في عمله جميعاً، مخطط يصلح لمدى بضع سنوات قادمة. إننا لن نستطيع أن نحمي آثارنا بجرة قلم أو إلقاء محاضرة. لا بد من خطة متكاملة، ولفترة محددة من الزمن، قادرة على أن تستجيب بقوة لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الآثار، التي ربما لم يشهد مثلها في الماضي ولن تتكرر في المستقبل.

فبعد عشر سنوات لسنا محتاجين لخطة إذا ما تركنا الأمور على ما عليها الآن[٢٣]. فالأمر سواء، لن تكون هناك آثار تستحق الجهد. إن هذا الإحساس بالخطر على الآثار هو الذي أملى حديثي هذه الأمسية، وهو مسوغ الوقوف أمامكم والبكاء على الأطلال.

وتكملة لما سبق نورد هنا تصوراً موجزاً للعمل الأثري في اليمن قصداً ونهجاً فلعل في الزيادة إفادة:

أولاً: مقاصد الهيئة العامة للآثار ودور الكتب:

١ ـ بعث التراث الحضاري اليمني والكشف عن الحضارة اليمنية الضاربة أطنابها في أعماق التاريخ.

٢ ـ الحفاظ على المعالم الأثرية القديمة والإسلامية.

٣ ـ العمل على نشر الوعي بهذا التراث الحضاري والإعلام عنه.

---

(٢٣) ما زال في الوقت متسع لإنقاذ الكثير علماً بأن ما ضاع في العشر سنوات الماضية وما تخرب من الآثار فيها كثير جداً، وإن كان قد تم فعلاً إنقاذ بعضها.

٤ ـ حصر الآثار القديمة والإسلامية المنقولة وغير المنقولة وتسجيلها وتجميع المنقولة منها.

٥ ـ حصر وتجميع المحفوظات الموجودة بالبلاد والعمل على اقتنائها واسترداد أو تصوير ما كان خارج البلاد منها.

٦ ـ العمل على نشر العلم والثقافة وتشجيع كافة أفراد الشعب على الاطلاع والتزود بالمعرفة.

ثانياً: نهج العمل الذي ينبغي اتباعه للوصول للمقاصد المذكورة:

١ ـ إيجاد العناصر البشرية المؤهلة تأهيلاً علمياً وفنياً للعمل. ويتم ذلك عن طريق ما يلي:

أ ـ الاستفادة من خريجي الآثار في جامعة صنعاء وغيرها وتطوير خبراتهم.

ب ـ تدريب الكوادر الفنية تدريبات قصيرة المدى أو طويلة المدى حسب الحاجة في الداخل والخارج.

ج ـ الاستعانة عند الحاجة بخبرات عربية وأجنبية ولفترات قصيرة محدودة.

٢ ـ تنظيم الهيكل الإداري وفق ما هو منصوص عليه في قرار (٥١) ١٩٧٧م، وإصدار لائحة تنفيذية ولوائح داخلية تبين المهمات والاختصاصات وتحديد سير العمل وطبيعته.

٣ ـ إنشاء المجلس الأعلى للآثار ودور الكتب (راجع قانون الآثار رقم ١٩٧٢/١٢م)؛ لتنسيق عمل الهيئة بالجهات المعنية مثل الجامعة ووزارة الإعلام والثقافة ووزارة الداخلية ووزارة الأوقاف ووزارة الأشغال وغيرها.

٤ ـ وضع خطة عمل طويلة المدى تكون أساساً لخطط العمل السنوية والطارئة على اعتبار أن العمل الأثري والثقافي عمل علمي لا يمكن أن يتم دون الاهتداء بالسياسة الثقافية للبلد، ودون برامج واضحة تكفل سير العمل ودون التمويل الكافي لإنجازه، وتشتمل الخطة على العناصر الرئيسية التالية:

أ ـ تدريب العناصر البشرية وتأهيلها وتطوير خبراتها .

ب ـ حصر جميع الآثار اليمنية المنقولة وغير المنقولة وتسجيلها تسجيلاً علمياً حديثاً .

ج ـ إعلان المعالم الأثرية المسجلة ممتلكات وطنية، ووسمها بالطرق المناسبة مثل التسوير ووضع اللافتات، وتبليغ الجهات المعنية .

د ـ إقامة المتاحف الحديثة التي توفر فيها قاعات العرض الواسعة وأماكن الخزن الكافية، وغرف الترميم والصيانة والإشراف، بحيث تضمن سلامة الموجودات الأثرية من الضياع والتلف .

هـ ـ إقامة نقاط المراقبة الأثرية في مناطق تجمع المواقع الأثرية وتعيين مراقبين أثريين ذوي خبرة يعملون جنباً إلى جنب مع مفتشي آثار الهيئة .

و ـ وضع تصور واضح لموضوعي المسح الأثري والتنقيب الأثري بحيث يسعف على استيعاب الجهود المحلية والعربية والأجنبية في سبيل البدء بعمليات المسح الأثري والتنقيب الأثري المنظمين والمنسقين دون تضارب وتداخل وتكرار، وضمن قانون الآثار اليمني، وشروط الترخيص المعلومة، وتحت إشراف ومشاركة العناصر اليمنية القادرة. إذ أنه قد حان الوقت لتدخل اليمن بقعة الضوء الأثري كغيرها من بقاع مهد الحضارات في الشرق .

ز ـ إعادة صياغة العقوبات في قانون الآثار بحيث تستوعب كل المخالفات وإنشاء قسم خاص بالهيئة للمتابعة . مثلاً في حالة التنقيب بدون إذن أو سرقة أحد الآثار أو السطو على آثار مطمورة أو تشويه أثر ومنطقة أثرية . أو تهريب أثر إلى خارج البلاد أو شروع فيه أو عدم تسجيل الأثر الذي في حوزة شخص أو هيئة . . . إلخ .

٥ - إصدار حولية الآثار اليمنية بحيث تعنى بنشر الثقافة الأثرية وتعمل على خلق الوعي الأثري، وفي الوقت نفسه تكون مرجعاً للباحثين والمهتمين بالآثار اليمنية .

٦ - إنشاء مكتبات عامة (دور كتب) في العاصمة ومراكز المحافظات وغيرها، تعتمد الطريق السهلة والحديثة كالإعارة المنظمة في تزويد المواطنين بالكتب والمجلات المفيدة .

مرة أخرى
صنعاء القديمة ولماذا الحفاظ والإحياء؟

ربما كان من المفيد أن أحاول في مستهل هذه الدراسة أن أبين ما الذي يُقصد بمصطلحي الحفاظ والإحياء لدى الحديث عن المدن والأحياء والمباني التاريخية .

الحِفاظ في مصطلح أهل الشأن يعني صيانة المنشآت التاريخية والحِفاظ عليها دون أن تعديل أو تغيير يمسّ جوهرها أو يخالف طرازها . والإحياء يعني صيانة تلك المنشآت التاريخية وإعادة توظيفها توظيفاً نافعاً . إما وفق ما كانت عليه أو استعمالها لأغراض جديدة مشابهة ، ومثال ذلك ، كأن يحافظ على (سَمْسَرة [1]) قديمة ؛ وذلك عن طريق ترميمها وصيانتها ، وتنظيفها . ثم تحويلها إلى مركز عمل حرفي أو مكتب سياحي أو ما شابه ذلك . ويقول المهندس المعماري رفعة الجادرجي[2] : إن وظيفتي الحفاظ والإحياء في التخطيط الحضاري تتخذ ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: هو الحفاظ على معالم التراث كمرجع لدراسات آنية ومستقبلية .

---

(١) السمسرة في لهجة أهل اليمن نُزُل في السوق أو على الطريق يستريح فيه المسافر .
(٢) (التراث ضرورة عند تطوير المعمار العربي)، مجلة المستقبل العربي ٣ / ١٩٨١م ص ٢٨ .

الوجه الثاني: هو الحفاظ على معالم التراث كموجودات تراثية لغرض لمتعة وإشباع الحنين إلى الماضي، وتكوين عُقد (مراكز) تراثية متنوعة في المدينة الجديدة، وذلك لتلافي الملل وخلق نبضٍ حيّ فيها.

الوجه الثالث: هو الحفاظ على تلك المعالم التراثية باعتبارها تمثل خلفية لتكويننا وكياننا الحضاري.

أي أن الحفاظ والإحياء عمليتان متكاملتان. إذْ لا يُقْتَصر على أبقاء المباني القديمة بحالتها الأصلية وصيانتها وترميمها، وإنما ينبغي إعادة تنمية تلك المباني في إطار بيئتها، وتجديد وظائفها، وتحبيب سُكْناها للناس، وإنعاش الحياة فيها، والمحافظة على عناصر الأصالة من خلال استمرارية عملية الإبداع في التخطيط والمعمار.

ولقد حرصت على أن أُمهّد لهذه الدراسة بالتعريف السابق، حتى لا يظن بي القارىء الظنون إن هو قرأ العنوان؛ إذ إن لكل من لفظتي الحِفاظ والإحياء معاني عدة، لغةً واصطلاحاً، وظلال معانٍ مختلفة. وقد حدث قبل فترة وجيزة أن شاركت في مناقشة مُخَطّط موضوع دراسة اجتماعية تُزمع إحدى طالبات الدراسات العليا بجامعة صنعاء القيام بها وتقديمها كرسالة علمية، للحصول على درجة الماجستير من قسم الاجتماع. وكان موضوع الدراسة يُعنى بالتحضّر وأثره على الأسرة في المجتمع اليمني. وكانت الطالبة تنوي أن تتخذ من مدينة صنعاء العاصمة حالةً تطبيقية ضمن دراستها. فكان أن اقترحت عليها بحضور أستاذها المشرف أن تتخذ مدينة صنعاء القديمة، وليست صنعاء العاصمة ككل، مجالاً للتطبيق، فلعل ذلك يكون أوضح في الدلالة. كما أن الدراسة قد يُستفاد منها في تنفيذ المشروعات المعدة للحفاظ على مدينة صنعاء القديمة وإحيائها؛ خاصة وأن معظم الدراسات التي تمّت بهذا الشأن قد اقتصرت على الجوانب المعمارية، وأهملت المناحي الاجتماعية. وهي في تصوري جوانب هامة ولا تتم محاولات الحفاظ والإحياء دونها. وما أن أكملت اقتراحي بهذا الشأن حتى انبرى الأستاذ المشرف محتجاً، ووجّه إلي سؤالاً على الفور، «ما الذي تعنيه بقولك: الحِفاظ على المدينة القديمة وإحيائها؟ إن الجديد يحلُّ محلّ القديم،

والجديد أنفع من القديم، والحيُّ أفضل من الميت ؟ » فأجبته بإيجاز، مستعيناً بشيء مما سلف ذكره عن الحفاظ والإحياء. ثم أردفت قائلاً: «نريد أن نحتفظ بمدينة صنعاء القديمة حيّةً بسكانها عاجّةً بأسواقها، عامرةً بمساجدها نشطة بحرفها فخورة بتقاليدها. . » فقاطعني بقوله: « هل ذلك ممكن؟ هل تقدرون على إيقاف التقدم؟ هل يستمع الناس لمثل هذه الأقوال الرومنطيقية، ويصرفون النظر عن الانتقال من المدينة القديمة إلى خارج الأسوار، لينعموا بخيرات المدينة الجديدة ووسائل الحياة الحديثة؟ هل تريدون أن تتخذوا من مدينة صنعاء القديمة متحفاً أثرياً!! إن دراسة هذه الطالبة قد تفيد في رصد حركة الانتقال من المدينة القديمة إلى المدينة الحديثة، ولكن لن تفيد في إعداد مشروعات الحفاظ على مدينة صنعاء القديمة وإحيائها، لأن ذلك لن يتمّ أبداً، فأهل المدينة القديمة سينتقلون بأسرهم وتقاليدهم إلى حيث يجدون سبل العيش الحديثة وخدمات الحياة الجديدة ورفاهيتها. إنهم يتوقون إلى الماء النقيّ والكهرباء والمطابخ والحمامات على أحدث طراز، ويتعشقون الأسواق الحديثة وصخب المدينة ووسائل التَّرف واللهو وغير ذلك. ولن يبقوا قابعين في تلك الأحياء العتيقة التي تعكس مظاهر حياة العصور الوسطى».

كان صاحبي يتحدث بصدق وثقة، وهو العارف الخبير بمشكلات التَّحضُّر المعاصرة، وكنت أستمع إليه، وأهز رأسي بين الفينة والأخرى، مشجعاً له على الاستمرار في طرح أسئلته وشرح موقفه. ذلك لأني أيقنت أنه لا يقصد من أسئلته إحراجي شخصياً، ولا يَرمي إلى تثبيط عزيمة العاملين على إنجاز مشروعات الحفاظ والإحياء لمدينة صنعاء القديمة، وإنما رغب أن يُقدم وجهة نظر معينة يراها هو صواباً، وضمَّنها تلك الأسئلة الصعبة. كما أنه أحب أن يبصّر الباحثة بعملها، وهَدَفَ إلى حُسن توجهها. على أنني بدلاً من أن أردّ على أسئلته، وجهت إليه أولاً بعض الأسئلة، سألته مثلاً: هل زرت مدينة صنعاء القديمة؟ وهل أنت على بيّنة من برامج الحملة الوطنية والحملة الدولية لصيانة المدينة ؟ » ولم تدلّ إجابته على حسن اطلاع وإحاطة. والحقُّ يُقال، فله العذر في ذلك! فهو ضيف كريم وأستاذ قدير، ولكنه قريب العهد بصنعاء، ولم يتسنَّ

له التعرف عليها والإلمام بقضاياها. وكان يتحدث أمامي بحيادٍ تام. وأزعم أن وجهة نظره تنطبق على كثير من مدن العالم المتقدم والنامي؛ فقد رأينا كثيراً من المدن الأوروبية تتحول إلى أنقاض بسبب الحرب العالمية الثانية، واستبدل كثير منها بعد الحرب بمدن جديدة تختلف في طرازها وتخطيطها عن سابقاتها تماماً.

ورأينا في كثير من البلاد العربية مدناً تختفي وتقوم على أثرها عمارات حديثة لا تمتُّ إلى المدن السابقة بصلة. وإذا ما بقي شيء من تلك المدن القديمة فهو حيٌّ أو حيَّان على سبيل الذكرى فقط.

إن التطور الحاصل في حياتنا المعاصرة يتعارض في الظاهر من حيث المبدأ، مع بقاء التقاليد المحلية والخصوصية الثقافية. فأسلوب الإنتاج المعاصر الذي يتّسم بطابع الإنتاج الإجمالي يتناقض مع صيغ الأشكال التراثية، والأشكال التراثية تستمد أصولها من صناعة يدوية حرفية تختلف مقوماتها وظروفها الإنتاجية اختلافاً تاماً عن التكنولوجيا المعاصرة[٣]. وإن التحديث عن طريق التخطيط العلمي أو العملي لمشروعات التنمية والتطوير يقتضي شق الطرقات الواسعة وبناء العمارات العالية، وإقامة المجتمعات السكنية والأسواق الكبيرة، واستعمال مواد البناء التي تصنع على نطاق واسع، والإسراع في تنفيذ المشروعات السكنية والاقتصادية والخدمية، وكل ذلك يقتضي إجمالاً إلغاء القديم الذي لا يوافق طبيعة العصر المتفتحة، واستحداث الجديد الذي يخدم عمليات النموّ والتطور الضرورية. وما على المرء إلا أن يلقي نظرة سريعة على ما يمكن رؤيته من مدن العالم المتقدم أو النامي، فلا ريب أنه سيجد مدناً متشابهة أصابها التنميط العالمي، فكأنها (غابات) من الإسمنت المسلح، وسيجد أيضاً مدناً هَجينة الشخصية ليس لها طابع أو هويّة ثقافية واضحة، وتكاد تشبه بعضها بعضاً، ولا يحتاج المرء في هذا الصدد إلى ضرب أمثلة وذكر أسماء فهي كثيرة، وكثيرة جداً.

---

(٣) م. ن. ص ٢٠.

إن التطور الاقتصادي والزحف العمراني جعلا استخدام تقنيّة البناء الحديثة أمراً لا مفرّ منه، كما أن انتقال السكان من المدينة القديمة إلى الأحياء الحديثة، بالتالي يؤثر بطبيعة الحال تأثيراً كبيراً على ما كان معهوداً لديهم من تقاليد سكنية، كتلاحم المجاورات السكنية، وتكافل ساكنيها وتماسك النماذج الاجتماعية للأسرة، وهو كما يبدو أمر لا مفرّ منه في مسيرة عالمنا المعاصر.

الا ترى يا عزيزي القارىء أن (صاحبي) أستاذ علم الاجتماع كان محقاً في وجهة نظره؟! أجل! الواقع يؤيد قوله. ولكن القصة لم تنتهِ بعد، إذ أنني ما لبثت أن استويت على مقعدي، ثم التفت إليه قائلاً: « مهلاً يا صاحبي! تلك وجهة نظرك، وللأمر وجهات نظر أخرى. واسمح لي أن أبدي لك إحداها. فربما كان فيها أو في بعضها الإجابة عن أسئلتك. ولربما قَصرَت الحُجّة فيها فلم تبلغ حدّ الإقناع،؛ ولكنها قد تنجح في استمالتك لتكون واحداً من أصدقاء صنعاء القديمة. وقد يَحْدوك مثل هذا القول إلى مراجعة النفس فتسمح (لتلميذتك) الواعدة بتوظيف بحثها الاجتماعي الذي تَنوي إعداده، بإشرافك، بما يخدم أهداف الحملة الوطنية والدولية للحفاظ على مدينة صنعاء وإحيائها ».

سأبدأ عرض وجهة نظري هذه مستشهداً مرة ثانية برأي للمهندس رفعة الجادرجي حيث يقول:[٤].

« إن التناقض بين الإنتاج المعاصر والتراث هو تناقض مرحلي بحدّ ذاته، فقد أخذ الإنتاج الكمي يتطور نحو ذلك المتنوع، وبموجب (برمجة ألكترونية) ولذلك فإن الظروف التي ولدت التناقض هي وقتية زائلة. واليوم تبذل جهود جبارة وتمرّليال مضنية من السهاد والسهر في سبيل تهيئة المتطلبات المادية والمعنوية للمواطن، بما في ذلك المسكن والمأكل والتعليم ووسائل الراحة. فهل نقبل بعد هذا الجهد الكبير أن تكون حصيلة هذا كله وضعاً اجتماعياً يفتقر إلى السمات الخصوصية؛ أي يفتقر إلى حضارة، لا تمتلك طابعاً خاصاً أو لوناً معيناً؟ هل يمكن أن نسمّي ذلك بالحضارة ما دامت تفتقر إلى السمات

---

(٤) م. ن. ص ٢٢.

الخصوصية المُمَيِّزة؟ نحن لا نقبل هذا المسار، إن صورة المدينة جزء من شخصية أهلها، وملامح الصورة تتجلّى من خلال ملامح أصالتها فهل يمكن أن تقبل أي أمة أن تتخذ من مدينتها وعاصمتها وعاءً فارغاً تستورد إليه كل شيء، ويرعى فيه أيّ شيء على حد تعبير مهندس غربي؟[٥] فإذا كان الرد بالإيجاب فلا شك أن مثل هذه التجارة لا ريب بائرة. أيّة تجارة هذه التي تقايض التراث الأصيل (بالموضة) العابرة ؟ إنها كمثل ذلك المسكين الذي يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. نحن لا نقبل بهدم تراث الماضي كيفما اتفق، لنقيم الحديث على أنقاضه حسب (الموضة). ولا نقبل بأن نعمل على مَحْوِ سِمات شخصيتنا أولاً، ثم نلهث بعد ذلك وراء اكتساب شيء مجهول كسرابٍ بقيعة يحسبهُ الظّمآن ماء. إن وجدناه في آخر المطاف فقد يكون أي شيء آخر إلا نحن. نحن لا نقبل مسار الحضارة الذي يكون على حساب تقاليدنا وقِيمنا ومعتقداتنا وآثارها ومعمارنا. ولا نقبل أن تكون عملية التنمية والتطور في بلادنا على حساب معالمنا الآثارية وشواهدنا التاريخية. فالحداثة بالنسبة لنا ليست بديلاً عن الأصالة، وتنمية الحاضر لا تعني أبداً إفقار الماضي. غير أن هذا الموقف لا يمثل دعوةً إلى الانغلاق والتقوقع. أو محاولةً لإيقاف حركة التقدم ومسيرة العلم، وإنما يهدفُ في حقيقة الأمر إلى العمل على استلهام المشرق والمفيد من تراثنا، وصهره بصدق وإبداع على الدوام، بحيث نتمكن من الاحتفاظ بهويتنا الثقافية حيَّة مُتَجدّدة ، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تسقط أوراقها في الخريف ولكنها لا تشيخ، وإنما تُجدّد شبابها في كل موسم، وتُورق من جديد، كما تُؤْتِي أُكُلها كل حين بإذن ربها .

الحفاظ على التراث وإحياؤه ضرورة. ولكن من المستحيل أن نحافظ على كل تراث الماضي، بل ينبغي دوماً تقليم الشجرة، وتحديد صفات التراث الفعّال، ووضع أولويات للمعالم التراثية التي ينبغي أن يحافظ عليها، والعمل على إبداع الصور الجديدة الممكنة من قلب التراث نفسه، بحيث تواكب روح

---

(٥) Preservation and Inner City Rshabilitation, ARNOLD ICOERT محاضرة في كلية الهندسة، جامعة صنعاء مارس / آذار ١٩٨٧م.

العصر الوثّابة، ولا تتنافر مع الذوق السائد، ذلك لأن الخصوصية لا تعني إنكار الغير. خصوصية الثقافة وعالميتها لا تتناقضان بل ينبغي أن تكونا وجهين لحقيقة ثقافية واحدة. والقيم الثقافية هي (أصوات مختلفة ولكنها لِعالم واحد) على حد تعبير أدبيات اليونسكو(٦).

• إن ثقافة أيّ مجتمع ليست تراثاً جامداً، ولا مجرد سجل جامع للتقاليد؛ بل هي ديناميّة داخلية وعملية مستمرة يواصل فيها المجتمع دوماً إبداع ذاته وشرطٌ لازم لتقدمه. والدفاع عن الهوية الثقافية ومكوناتها ينبغي أن لا يُفسر على أنه مجرد التمسك بالماضي البالي وبعثٌ للقيم البالية والقديمة، بل ينبغي أن يُفهم على أنه توكيد واعٍ للأصالة وتعزيز ضروري للتضامن الداخلي والوحدة الوطنية، وخطوة نحو استعادة الملكات الإبداعية لدى الأمة وشَحَذٌ لقدراتها على الابتكار. إنه دفاع عن منجزات الماضي الحضارية، وفي الوقت نفسه بحث عن مشروعات حضارية جديدة قادرة على الاسترسال في رد الاعتبار للماضي عن طريق الشعور بمسؤولية متزايدة تجاه المستقبل.

والحفاظ على التراث ليس من معوقات التنمية كما يُقال أحياناً، بل إن الاعتقاد يترسخ أكثر فأكثر، في عالم اليوم بأنه لا يمكن للتنمية أن تَقصُر نفسها على المجال الاقتصادي وحده، وإنما ينبغي لها أن تحدد أهداف النُّموِّ من الناحية الثقافية، وتعمل على صيانة تراث البيئة في الوقت نفسه. وهما أمران حيويان لبني الإنسان لا غِنى له عنهما؛ فالإنسان ليس صانع التنمية فحسب، وإنما هو موضوعها أيضاً.

وقد أجمع علماء الآثار والمهندسون المهتمّون بتطوير التراث المعماري العربي الإسلامي وخبراء الثقافة، في المحافل الدولية على أنَّ مدينة صنعاء القديمة واحدة من مدن العالم الإسلامي الذي ينبغي أن تُعلَن معلماً تاريخياً هاماً على المستوى المحلي والدولي(٧). فصنعاء مدينة ذات نوعية فريدة في الجمال

---

(٦) وثائق المؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية (موندياكلت) المكسيك ٢٦/ ٧ ـ ٦ / ١٩٨٢/٨، وإعلان مكسيكو بشأن الثقافة.

(٧) راجع وثائق ودراسات عديدة بهذا الشأن منها: تقرير جيرالداريرباخ، (التخطيط الثقافي لمدينة صنعاء) توصيات المؤتمر التاسع للآثار العربية صنعاء ٢٦ / ٢ / ١٩٧٧) ووثائق المؤتمر العام =

المعماري، وهي نموذج للمدينة التاريخية الإسلامية داخل الأسوار القديمة، وما زالت إلى اليوم باقية إجمالاً على صورتها القديمة، وتحتفظ بوحدتها وتكاملها معمارياً وبشرياً. كما أن سلبيات الحياة الحديثة لم تطغَ عليها كثيراً. ولم يغمرها طوفان الحياة الغربية وأنماطها الغربية. غير أن ذلك الإيقاع المريح الذي حفظ نسيج هذه المدينة خلال عملية التزاوج بين أصالة الماضي وحداثة الحاضر، قد بدأ يُصاب ببعض الخلل. وشرع وحش (الحضارة الجديدة) يمدُّ أظافره ليخدش جمال تلك المدينة، وبدأ يتهيأ للانقضاض عليها. والخوف كل الخوف أن تخفق هذه المدينة الوديعة في إتقاء شر هذا (الوحش) الذي طال تربُّصه بها.

ولهذا، فإن جمعاً كبيراً من أهل اليمن الكرام انبروا مدافعين للذود عن حاضرتهم والاستبسال أمام أسوارها. واستثارت صنعاء خيال المنظمات الثقافية الدولية بجمالها وحسن هيئتها، فأُعلنت هذه المدينة معلماً تراثياً إنسانياً. ودعت تلك المنظمات إلى حملة دولية للمحافظة عليها، ووضع دراسات وبرامج تكفل حمايتها وصون معالمها التاريخية وترميمها وإحيائها. وقد أصدر الأخ رئيس الجمهورية العربية اليمنية العقيد علي عبدالله صالح قراراً جمهورياً رقم ٧٦ لسنة ١٩٨٤م بشأن قيام حملة دولية ووطنية لحماية وتحسين مدينة صنعاء القديمة[٨]. وينص القرار على تشكيل مجلس أمناء لهذا الغرض يرأسه الأخ رئيس مجلس الوزراء ويضم عدداً من المسؤولين الكبار وخيرة المهتمين بأمر الحفاظ على هذه المدينة. وقد عَزَّز كل ذلك نداءٌ وجهه أحمد مختار أمبو المدير العام السابق لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية، في شهر ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٨٤م، من داخل مدينة صنعاء إلى المجتمع العالمي، من أجل التعاون

= لليونسكو ٢١ / م ق ٣٨٦ بلغراد ١٩٨٠)؛ حملة الحفاظ على مدينة صنعاء القديمة) تقرير لرونالد ليكوك، اليونسكو، باريس ١٩٨٢م (توصيات المؤتمر الخامس عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية في صنعاء) ١٨ - ٢٢ ديسمبر / كانون الأول ١٩٨٤م، وقد أُقيم معرض لمدينة صنعاء ضمن مهرجان العالم الإسلامي في لندن عام ١٩٧٦م.

(٨) وثائق لدى مجلس أمناء حماية وتحسين مدينة صنعاء القديمة

والإسهام في تلك الحملة الدولية للحفاظ على مدينة صنعاء القديمة وإحيائها، وقد جاء في هذا النداء العالمي ما يلي:[٩]

« صنعاء عاصمة اليمن السعيد، المدينة الفاتنة وواحدة من أقدم مدن العالم. كانت حاضرة سبئية وحِمْيَرية قبل الإسلام، ثم صارت من ألمع المراكز الإسلامية. وصنعاء اليوم من عواصم القرن العشرين حيث نرى فيها اليوم أحدث إنجازات العصر جنباً إلى جنب المساجد العتيقة والمدارس والأسواق والمساكن التقليدية، مما يضفي على المدينة طابعها الفريد، غير أن أنشطة المدينة تتجه إلى الانتقال تدريجياً إلى خارج الأسوار التاريخية؛ الأمر الذي يهدد المدينة القديمة بخطر الاندثار. وقد اعتمد المؤتمر العام لليونسكو في دورته الحادية والعشرين قراراً يأذن لي بإعداد خُطة عمل بالتعاون مع الجمهورية العربية اليمنية من أجل صون صنعاء والحفاظ عليها.

« وتستهدف خطة العمل هذه صون الطابع الفريد لصنعاء، ليس مركزها التاريخي فقط، بل بإدخال العناصر الكفيلة بتهيئتها لشروط الحياة الجديدة، وستتضمن هذه التدابير ترميم المباني، مثل المساجد والمدارس والمساكن والحمّامات وغيرها من الآثار التاريخية.

« كما تتضمن تحديث البُنَى الأساسية كشبكات المياه والكهرباء والهاتف ووسائل النقل، ومن المقرر أن تستكمل هذه المشروعات بتحسين المعدات الاجتماعية والطبية وتشجيع الحرف التقليدية، بالإضافة إلى إنشاء مراكز ثقافية ومتحف جديد. غير أن الصعوبات المالية والتقنية التي تعترض تلك الأهداف هي من الأهمية بحيث تتطلب جهداً متظافراً على الصعيد العالمي.

وإنني أدعو جميع الدول الأعضاء في اليونسكو حكومات وشعوباً، والمؤسسات العامة والخاصة والمنظمات الدولية والحكومية وغير الحكومية، وكذلك المؤسسات والهيئات المالية إلى المشاركة عن طريق تقديم المساهمات الطوعية سواء كانت نقوداً أو معدات أو خدمات، تضاف إلى الجهود الهائلة التي تبذلها الجمهورية العربية اليمنية في هذا السبيل.

---

(٩) م. ن.

وأدعو المتاحف وأروقة الفن والأكاديميات والمكتبات وكل المؤسسات المعنية بحماية التراث وبقضايا التقدم ونشر الثقافة إلى تنظيم معارض عن صنعاء وتقدم هبات لصونها وترميمها.

وأدعو الأطفال والشباب كافة، لا سيما في الجمهورية العربية اليمنية وفي الدول المجاورة، للإسهام في صون مثل هذا التراث الذي أصبح جزءاً من التراث العالمي. وكذلك في جمع التبرعات بكل الوسائل للمشاركة في إنجاز هذا العمل الوطني والدولي لصالح مدينة صنعاء القديمة..».

ولكن هل يا تُرى بالإمكان الحفاظ على هذه المدينة وإحياؤها؟ هل نستطيع أن نقف ضد التيار، وأن نمنع تراث المدينة من الاندثار؟

أجل! إن ذلك ممكن! بشرط أن نَعِيَ تماماً المنطلقات الأساسية التي بني عليها هذا الرأي المتفائل. وأبرز هذه المنطلقات في رأينا هو ما يلي:

أولاً : إن التناقض بين التراث والزحف العمراني الجديد مرحلي. وإذا كنا قد مررنا بفترة حرجة شهدت فيه العاصمة زحفاً عمرانياً هائلاً، كان الطلب فيها على البناء يزداد كل يوم بكثافة غير عادية، مما أخضع المعمار اليمني لمضاربات السوق، فإننا بحمد الله نمرُّ الآن بفترة إيقاع مريح تتيح لنا فرصة التفكير فيما يتجاوز مجرد إشباع الرغبات الثلاث الأكل والملبس والمسكن، أي إننا في وضع لا بأس به، يتيح لنا أن نحسن الاختيار ونصطفي المفيد والأجمل من تراثنا قدر الإمكان، وأن نتجنب أمر استبدال الذي هو أدنى بما هو خير.

ثانياً : إن مدينة صنعاء القديمة لم تعدْ تراثاً وطنياً فحسب، وإنما هي قد أُعلِنت فعلاً مَعْلماً تراثياً عالمياً، وأُدرجت ضمن قائمة المدن التاريخية التي يجب الحفاظ عليها في أسرع وقت ممكن. وبالتالي شئنا أمْ أبينا (ونحن نشاء والحمدلله) فإلى تكاتف كل الجهود الدولية لعمل شيء ما، يضمن الحد الأدنى من جهود الحفاظ والإحياء، وسنجد أنفسنا في وضع لن نُحسد عليه إن نحن تهاونا في

الأمر وتخلفنا عن الركب، ولم نُمسك بزمام المبادرة .

ثالثاً : مدينة صنعاء القديمة بشكلها الحالي ليست موقعاً أثرياً، إذ أن معظم ما فيها من منشآت حديثة نسبياً. ولكن تاريخية المدينة تأتي من كونها تناقلت طرازها وخطتها عبر القرون دون انقطاع. وكل ما يحدث فيها من تعديل وتحديث كان ينبع من الداخل، وانطلاقاً من الاحتياجات المحلية. وكانت العناصر الفنية الدخيلة لا تطغى على ما هو قائم فيها أصلاً، وإنما تنصهر فيه، فيتشكّل الجديد وهو موائم للقديم، بل إنه استمرارية له. ولا أعتقد أن خيار الحفاظ والإحياء، إن هو وضع بوضوح أمام أهل المدينة، سيُجابه بالرفض. فالمرء لا يتنكر لذاته، وكل ما ينشده سكان المدينة القديمة هو أن لا يُحرموا من لوازم الحياة الجديدة، وأن تتاح لهم فرصة الكسب الحلال الطيّب داخل أسوار مدينتهم. وهذا هو بالفعل ما يهدف إليه مشروع الحفاظ والإحياء. إن المشروع يهدف في جوهره إلى استمرار نَبْض الحياة وتنشيطه داخل المدينة؛ عن طريق إدخال سُبُل الحياة الجديدة إليها، وإنعاش أسواقها وتحسين مستوى معيشة أهلها. أي تحديث المدينة بدراسة وبصيرة، بحيث يكفل استمرارية حيويتها وبقاءها عامرة ضمن إطارها الحضري، بعماراتها العالية الجميلة ومناراتها السامقة وجوامعها البهيّة، بدلاً من أن يهجرها أهلها وتقوم على أنقاضها (غابات من الإسمنت) و (صناديق علب الكبريت) المتراصّة .

رابعاً : إن الحفاظ والإحياء ينبغي أن يقوم على مصالحة بين عملية التنمية والتطوير التي تقتضي تنمية الحاضر وفق إيقاع التغير السريع، وعملية التأصيل والإحياء التي تشدُّ إلى قوالب الماضي وشواهده ورموزه، والتي تحتاج إلى زمنٍ كافٍ يُتَمثَّل فيه الجديد ببطء وهدوء، بحيث ينبت غرسه ويشتد في تربة القديم. ويعتقد كثير من الناس أن المصالحة ممكنة إذا ما جرى فرزٌ واعٍ وذكي للأهداف

الاجتماعية والقيم الفنية والإمكانات المادية. على أن ذلك كله يحتاج إلى اتباع منهج سوي يُتيح تقويم الأمور وفرزها وفق الأولويات والمميزات بحيث ينتج عن ذلك في نهاية الأمر ما يخدم المصالحة المرجوة. إن ذلك لا يتم دون معرفة كافية وموهبة مبدعة وقناعة صادقة تكوّن موقفاً متكاملاً وإيجابياً من مسألة التراث، يكفَلُ الحرية ويهيىء الفرصة ويقدم المال(١٠). ولهذا كان من الضروري أن تشارك في هذه المهمة خبرات عالمية، وتساهم معنا جهات دولية، وما دام قد حصل فعلاً شيء من ذلك بالنسبة لمدينة صنعاء القديمة، وواكبه مثله أو يزيد على الصعيد المحلي، فإن الأمل كبير في إنجاز تلك المهمة وتحقيق أهدافها، لا سيما وأن الأمر إلى الآن يقتصر على مدينة صنعاء القديمة، ولا يشمل العاصمة كلها أو مشروعات مدن أخرى في اليمن. ويتركز فقط في هدف المحافظة على استمرار طراز البناء وصيانة المباني القائمة، وتشجيع الحرف اليدوية، ورصف الشوارع بالحجارة، وترميم السور، وإنعاش الأسواق القائمة، والمحافظة على مرافق المدينة، ومتنزهاتها، وإدخال وسائل الحياة اللازمة من كهرباء ومجارٍ ومياه، وفق أنظمة ملائمة بحيث لا تضرُّ هياكل المدينة القديمة. وفي الواقع ليست صنعاء هي أول مدينة يتم فيها مثل ذلك أو ينوى أن يتم فيها كل ذلك، بل إنها ضمن قائمة طويلة من المدن التاريخية العالمية أو المدن العربية والإسلامية التي تحتاج إلى حفاظ وإحياء مثل مكة والقدس ومراكش والبندقية وحلب ودمشق واسطنبول وأصفهان ولاهور وسمرقند. غير أنها تتفاوت في القيمة والحاجة. وظروف كل مدينة تختلف عن الأخرى، ومشروعات الحفاظ والإحياء فيها تختلف وفق ذلك(١١).

---

(١٠) (التراث ضرورة ...) مصدر سابق ص ٢٨ - ٢٩.

(١١) راجع مثلاً كتاب اليونسكو:

خامساً : إن صنعاء القديمة تراث يمني عربي إسلامي إنساني، ولهذا فينبغي المحافظة عليه حاضراً ومستقبلاً. فطرازها المعماري عموماً يحمل شهادة صادقة على إبداع الإنسان ونضاله المستديم ورؤياه الفنية، بل إن صنعاء القديمة كغيرها من روائع التراث البشري تؤكد قدرة الإنسان على تجاوز نفسه والبحث دوماً نحو الأفضل والأجمل والأكمل؛ وبقاء معالمها هو بقاء لشواهد هامة تلهم القدوة الحسنة والعبرة الصادقة، ومنها ينطلق الخلف الخيّر نحو إبداع جديد يضاف إلى منجزات السلف الصالح، ويهديه ثمرةً طيبة إلى الأجيال القادمة. هي أمانة تاريخية يحملها الخلف عن السلف وتتجدد في كل حين إلى ما شاء الله.

إن مَثَل صنعاء القديمة ومشروعات الحفاظ عليها كَمَثَلِ مخطوطة ثمينة وُفّقنا إلى اكتشافها. وهي مخطوطة تروي بين طياتها قبساً من علم الماضي وفنه، فإن نحن أهملناها أكلتها الأرضَة وخسر الناس كنزاً ثميناً، وإن نحن تَعهّدناها بالحفاظ والصيانة، وحققنا مكنونها بعلم المحقق العارف والناقد البصير، ونشرنا معارفها بين الناس، نكون بذلك قد خدمنا التراث وانتفع الناس بعلمها وبتجربتنا معها. ولنا فوق ذلك ثواب العمل الصالح عند الله والذكر الحسن عند الناس. وقد تَبْلى المخطوطة بعد حين، ولكن جهدنا في الحفاظ عليها وإحياء علمها باقيان تجربةً متواترة بين الناس جيلاً بعد جيل تُؤتي أُكُلها كلَّ حين، وكأنها في كل مرة نسخة جديدة محققة ومنقحة تحكي قصتها على ممر الدهور.

سادساً : إنه من المتعذر الحفاظ على مدينة صنعاء القديمة حفاظاً مُجدياً، دون تعاون حقيقي من أهلها ودون تفهمهم المخلص لمشروعات

= ALEGACY FOR ALL; THE WORLD'S MAJOR NATURAL CULTURAL AND HISTORICAL SITES,

صدر عام ١٩٨٢م

الحفاظ والإحياء ومشاركتهم الفعالة فيها. فأهل مكة أدرى بشِعابها. وقد قيل في المثل (ما حكَّ جلدك مثل ظفرك). والأمل كبير في أن أهل المدينة القديمة يتابعون باهتمام الخطوات المدروسة التي يسير بها مجلس أمناء الحفاظ على المدينة وإحيائها، ويقدرون روح الجهد غير العادي الذي يبذله المكتب التنفيذي التابع للمجلس. ويلمس المرء ولا ريب في الفترات الأخيرة اتجاهاً واضحاً لسكان المدينة القديمة يدلُّ على قدرٍ كبير من الوعي بأهمية الموضوع والتفهم لأهداف الحملتين الدولية والوطنية والرغبة المتزايدة في المشاركة الفعلية في إنجاح برامج العمل داخل أسوار المدينة. إن مثل هذا التجاوب عامل أساس في إنجاح مشروعات الحفاظ والإحياء. ولنا وطيد الأمل في أن يستمر التجاوب وتزداد الرغبة وتتكثف الجهود من قِبَل أهل المدينة.

سابعاً : إن العمارة الإسلامية - (وصنعاء القديمة من نماذجها الهامة) قضية أساسية على حد تعبير أدبيات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) ،وهي صورة من ثقافة الأمة وتجسيد لها. وإن صون المدينة ما هو إلا دفاعٌ عن التراث، والتراث هو خير لِبنَةٍ لبناء صرح وحدة الأمة[١٢].

وبعد يا صاحبي! ألا ترى أن هناك أكثر من مُسَوِّغ للقيام بمشروعات الحفاظ والإحياء داخل أسوار مدينة صنعاء القديمة؟ ألا ترى أن صورة ما نحن

---

(١٢) راجع توصيات حلقة العمارة العربية، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، الحمامات، تونس ٣/١٢/ ١٩٧٧م.

(*) وأحيل القارىء إلى عدد من المصادر والمراجع عن مدينة صنعاء القديمة وأهميتها التاريخية منها: (كتاب تاريخ صنعاء)، أحمد عبدالله الرازي، حقَّقه ونشره حسين عبدالله العمري وعبد الجبار زكار (أكثر من طبعة).

SANA'A AN ARABIAN ISLAMIC CITY, EDITED BY R. B. SERJEANT AND R. LEWCOCK; THEWORLD OF ISLAM FESTIVAL TRUST, LONDON (1983). =

عليه الآن ليست سوى صنيع الماضي، وأن ما نفعله حاضراً هو محاولة لرسم صورة تاريخ المستقبل. إن التاريخ لا يرحم، ولا بد أن يقول كلمته يوماً ما فيما نحن اليوم بتراثنا فاعلون. والله على ما نقول شهيد.

حوالي ٦٣٠ صفحة من القطع الكبير بالخرائط والصور.
- مجلة الإكليل العددان الثاني والثالث - السنة الثانية ١٩٨٣م، عدد خاص بصنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء.
- الهمداني (لسان اليمن) دراسات في ذكراه الألفية، تحرير الدكتور يوسف محمد عبدالله، منشورات جامعة صنعاء ١٩٨٦م.

الماضي يحيا في الحاضر:
الفنون والآثار والتقاليد
أمثلة ونماذج

إن ما بذله الإنسان، في اليمن من جهد خلّاق وثقافة أصيلة وما أبدعه من فنون عبرالعصور، لهوَ من الكثرة بحيث لا يمكن رصده في هذه العجالة. وربما كان من المفيد أن يقتصر المرء على إيراد بعض من ذلك. ويمكن الإشارة إلى ثلاثة ملامح تركز فيها عطاء الإنسان اليمني. ومن خلالها تمكن من رسم شخصيته، وتعزيز ذاته الثقافية ضمن إطار ثقافة الشرق القديمة، وفي إطار هويته العربية الإسلامية بعد ذلك، وهي النشاط المعماري والإبداع الفني الذي صاحبه، ثم الآثار التاريخية التي خلفها في مواقع الحضارة، وأخيراً الموروث الثقافي كالعادات والتقاليد ثم استمرارية ذلك وبقاؤه حياً إلى اليوم.

* * *

تحت السماء الزرقاء، وفي أحضان الجبال اليمنية، والتي تتراءى بألوانها وظلالها المتعددة، كلما غمرتها أشعة الشمس صباحاً ومساء، تنتشر القرى والمدن اليمنية ،ويخيل للمرء وهويلمحها من بعيد أن تلك المستوطنات العامرة، وبما تضمه من بيوت ومساكن ليست سوى بقع خافتة وتلال صغيرة، إذا ما قورنت بتلك الشوامخ من الجبال العالية والمرتفعات الوعرة، وفي الواقع، أنه إذا ما اقترب المرء منها فإنه لا شك سيشعر بعظمة الجهد الإنساني الذي بُذل في بناءالبيوت، مما يضيف الجلال والروعة إلى تلك الجبال التي تحتضنها. إذ أن

تلك القرى والمدن ليست سوى قطع فنية قُدّت من الصخر المحيط بها وشُكّلت بقلائد من أحجاره الثمينة .

وسيلحظ المرء في قمم تلك الجبال ،وثنايا تلك الصخور الوعرة وفي بطون الهضاب والأودية بيوتا مبنية بالحجر الموقّص، وجدرانها مرصّعة بألوان من الحجارة ذات المحاجر المختلفة؛ بيوت حسنة الهندسة والتفصيل، وبطوابق عدة تتراقص بعضها جنب بعض وبتلاحم عجيب لتشكل كل مجموعة منها، أو قل كل قرية، قلعة شماء يتوفر لها كل شروط الحماية والدفاع وكل مرافق البقاء والحياة، أو تجدها دوراً أسافلها مشيدة بالحجر الأسود حسن الهندام، وأعاليها مبنية بالطوب والياجور، مزينة نوافذها بالزخارف ومطلية بالألوان يعلوها (قمريات) من الرخام أو العقود الجصّية والزجاج الملون. كل ذلك في إطار تخطيط ثقافي معلوم، يكفل الراحة والمنفعة وملائمة الطقس وإطار البيئة والطبيعة. وكثيراً ما يسجل الإنسان اليمني ما بذله من جهد وفن في بناء بيته أو قصره على لوحة، ينقشها بخط جميل توثيقاً لحقه وافتخاراً بعمله. ثم يضعها في أعلا باب الدار أو في مكان بارز منه. ويتفاوت فن المعمار اليمني، وتتعدد أنماطه قديماً وحديثاً وفق مادة البناء ومستوى البناء، وإمكانات صاحب البيت وظروف المكان. غير أن ذلك لا يخرج عن التقليد المعماري الذي يتميز به أهل اليمن؛ فقد احتفظ اليمن بعدد من أنماط المساكن التقليدية وأساليب البناء المختلفة التي لم تمسّها التأثيرات الحديثة مسّاً كبيراً، وتعكس مستوى راقياً من فن المعمار. والواقع أن في اليمن تشكيلات قروية وسكنية كثيرة تشترك كلها في كونها تلائم تقلب المناخ وتنوعه، ومهيأة لسبل العيش المختلفة كحياة الاستقرار وحياة البداوة وحياة المدنية وحياة الريف. ومادة البناء على الاغلب محلية مأخوذة من جيولوجية المنطقة وطوبغرافيتها،فإلى جانب الدور المبنية من الحجارة، وهو النمط الشائع في المرتفعات ـ كذلك الذي نجده في جبل صبر وقرى المحويت وقرى مناخة وحراز وشهارة وحجة وريمة ويُرع ومِلحان ـ هناك أيضاً أنماط أخرى من المساكن اليمنية مثل المنازل المبنية من الياجور وهو الطوب المحروق، وعمله يحتاج إلى مهارة وصنعة، وتكثر هذه المنازل في

المناطق كثيفة السكان نسبياً مثل صعدة وصنعاء والحديدة وزبيد وبيت الفقيه وغيرها. ونمط آخر من المباني مبني بالطين المضغوط أو الصلصال (ويسمونه الزابور أو الحبال) ويوجد هذا النمط في أماكن قليلة مثل بَرَط وكِتاف وصعدة ووادي خَبّ والبيضاء. وقد يبلغ البيت منه ستة طوابق وزخرفته جذابة وحسنة، ويمكن القول إن هذا النمط من المساكن الطينية ربما يمثل أروع الأساليب المعمارية اليمنية التقليدية. ومن بيوت الطين أيضاً نمط آخر يُبنَى من اللبن وهو منتشر في قيعان الهضبة الوسطى في لواء صنعاء مثل عمران في قاع البون، ومَعْبِر في لواء ذمار، ومثل خريب في لواء مارب.

وفي ساحل تهامة وحيثما تشتد الحرارة وتزيد الرطوبة، يقيم الناس أيضاً مساكن مبنيّة على أُطُرٍ من الأعواد ومغطاة بطبقات من القَصَب والقشّ يسمونها العُشَش. وقد يخدع مظهرها الخارجي البسيط إلا أنها في الداخل قد تكون هُيئت بأجمل الأثاث وأفخر الزخارف. ومن أبرز هذه التشكيلات السكنية تشكيلات بلدة عَبْس وقرى وادي مور وغيرها. ولا ننسى أن سكنى الخيام المقامة على أعمدة والمغطاة بنسيج من شَعَر الماعز أي سكنى الخيمة العربية التقليدية، قائماً بشكله البدوي إلى اليوم. ويشاهد مثل هذه الخيام (بيوت الشَّعر) في مناطق مارب والجوف والبيضاء. على أن أكثر ما يخشى ضرره على المعمار اليمني هو استعمال مادة الإسمنت الذي بدأ يزحف ليحلّ محل المواد التقليدية المستعملة في البناء وخاصة في المدن، ففي المناطق الشرقية من اليمن وفي مواقع الحضارة اليمنية القديمة، درس علماء الآثار والمهندسون الأثريون بعض عناصر فن البناء في اليمن القديم، فوجدوا أن طراز العمارة يتجلى فيه الأناقة والترف والزخارف والدراية بالأساليب المعمارية، مع وجود تقاليد معمارية تتميز في جوهرها بشخصية وخصائص أصيلة، وتكون في الواقع طرازاً قائماً بذاته، ويقرر بعضهم أن الأعمدة الباقية في معبدي المقه (إله القمر) عند السبئيين، بلغت في هندستها كمالاً قد لا يجاوزه أي مهندس آخر إن شاء أن يعملها اليوم، بل إن الإبداع الهندسي في تشييد المعابد والقصور يعكس أصالة محلية نابعة من صميم الوجود اليمني والتجربة التاريخية المحلية،

وكان ذلك في عهد يسبق الإنجازات المعمارية في العالم الهلليني، كما أن ما بُني بعد ذلك ودخله بعض التأثير الهللينستي قد لا يفوق في إبداعه وأصالته وجماله ما بناه السبئيون قبل ذلك .

وبوسع المرء أن يتحدث بهذا الخصوص عن تلك المدن والحصون والقصور والمعابد التي شيدت في اليمن قبل الإسلام. فقد أفرد لها العالِم اليمني (الحسن بن أحمد الهمداني القرن ـ العاشر الميلادي ـ الرابع الهجري) معظم فصول الجزء الثامن من موسوعته الحضارية المسماة بالإكليل ، بالإضافة إلى الأعمال الهندسية التي تمثلت في بناء وسائل الري: كالسدود ولا سيما سد مارب. وقد وصف الهمداني عدداً من المدن والحصون والقصور اليمنية القديمة، مثل مارب عاصمة سبأ، وظفار عاصمة حمير، ومدينة ناعط قرب قاع البون، ومدينة بينون في (الحدا) من لواء ذمار، ومدينة غيمان في الجنوب الشرقي من صنعاء؛ وآثار هذه المدن ما زالت تدل عليها إلى اليوم. وقد ذكر الهمداني عندما وصف بينون أنها كانت مدينة عظيمة وكثيرة العجائب، وأنه استُعمل في بناء القصر: الحديد والساج والعَرعر. وأن حيطان القصر قد نُطّقت (عُمِلَ لها نطاق) بالدر والجواهر. ورغم أن المرء يشك في ذلك إلا أن المبالغة هنا صدى بعض الحقيقة. وذكر الهمداني أيضاً أن مدينة ناعط كانت مصنعة (قلعة) بيضاء مدورة منقطعة في رأس الجبل، ومن قصور هذه المصنعة قصر ذا شكل مكعب، وأن بعض حجارته طولها أكثر من ثلاثة أمتار، وأن في هذه المدينة ما يزيد على اثنين وعشرين قصراً كبيراً .وكان يحيط بها سور ملتصق بالصخر المنحوت، وتحت كل قصر كريف (صهريج) للماء مجوف في الصخر أو مجصص. ويزيد طول بعض الأعمدة التي استعملت في هذه المدينة على عشرة أمتار، ولا يحضن الواحد منها إلا رجلان .وقد عثر في بعض هذه الأعمدة الباقية على مسامير من حديد. كما استعمل في البناء المرمر والرخام، وزخرفت الواجهات بالتماثيل الحيوانية المنحوتة. ومن أشهر القصور اليمنية والتي ظل ذكرها عالقاً عند الأخباريين (قصر غُمدان) والقَلِيس ،واعتبر عندهم من المباني العجيبة، فقد قيل أنه كان لقصر غُمدان عشرين سقفاً، وهو أمر قد نلمس صدق

القول فيه إن نحن شاهدنا بعض بيوت صنعاء (القديمة) هذه الأيام. كما يبالغ أهل الأخبار في الحديث عن القَلِيس (الكنيسة) التي بُنيت في صنعاء في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي فقالوا: كان سقفها من الساج المنقوش مسمراً بمسامير من الذهب والفضة، ولها منبر من الأبنوس المرصَّع بالعاج المصفَّح بالذهب والفضة، وقد اختلفت آثار هذين البنائين. ومع ذلك فقصر غُمدان والقليس كلاهما معلمان بارزان يحكيان قصة معمار مدينة صنعاء واليمن عبر التاريخ

واستمر التقليد المعماري اليمني القديم في العهود الإسلامية وتكيّف مع الشروط الأساسية الجديدة لإقامة مجتمع حضري إسلامي بكل مقوماته، ومن جامع لتأدية الصلاة ومدرسة للتعاليم الدينية، وحمّام للنظافة والطهارة، وسوق متعدد الأغراض، وسور للمدينة يحميها ويصد الغزاة عنها. وواصل الناس بناء الحصون والقلاع ضمن ظروف الحياة الجديدة. وقد تميزت العهود الإسلامية بعمارة المساجد والقباب، والمنائر والمدارس، وتعتبر تلك العمائر إسهامات رائعة ليس فقط لليمن، وإنما بالنسبة لفن العمارة الإسلامية على الإجمال. وتعتبر صنعاء من المدن العربية الإسلامية التي احتفظت بروعة المعمار فيها واستمراريته عبر العصور أصالة وفناً راسمة بذلك خطاً بارزاً في ديمومة الحياة الإنسانية، والاستمرارية الثقافية للأمة العربية والإسلامية جمعاء.

وصنعاء هي المدينة (الفاضلة) وحاضرة اليمن، وأعرق مدينة، وليس بين مدن الشرق ما يضاهيها سحراً وجمالاً. مساجدها البديعة، تسامق منائرها أجواء الفضاء، وأسوارها المنيعة تحصّنها الأبراج وتحميها الأبواب، خضرة أشجارها فسيحة بساتينها، دورها الفخمة المنيفة تنبىء طوابقها عن زخرفة دقيقة، وعندما تسطع الشمس تبدو صنعاء تحت أشعتها وكأنها نسيج فني يبرز إلى جانب سورها بألوانه الرتيبة الحمراء والصفراء: دور زاهية، نوافذها مزينة بصحاف الرخام الملونة، مزخرفة أطرافها الجيرية بألوان بهيجة، أبوابها الخشبية السميكة تكشف عن صنعة بهية تتألف من خلال حَفْرِها الثَّرِي. في كل ما في تلك المدينة الأسطورة يوحي بسحر قصص ألف ليلة وليلة، حتى أسواقها بمصنوعاتها الملونة

تصمد أمام جاذبية المصنوعات الأجنبية التي تكاد تغمرها. فما زال الأجنبي يجد أمامه في حوانيتها عَرضاً غنياً متعدد الألوان والجوانب. ومنذ القِدم ودون انقطاع ما زالت تتدافع كل يوم أفواج الزوار بين أزقة صنعاء الضيقة وتتزاحم وتتعالى أصواتها. ومن سحيق القرون منذ حكم ملوك حِمْير والأحباش والفرس وولاة الخلفاء وسلاطين الترك وعبر الزمن الطويل شهدت المدينة حروباً وثورات وخراباً، ولكن مجدها وفخار معمارها ما زال إكليلاً على رأسها إلى اليوم.

فهي اليوم نموذج معماري فريد، قلّ أن تجد له مثيلاً على مثل ذلك الكمال المعماري والنسيج المتجانس، وعلى حالته البكر، غني بالآثار الإسلامية، كالجوامع والأسواق، والحمّامات والدور، وغيرها.

ويعتبر طراز بناء المساجد والمدارس الإسلامية من أهم المنجزات المعمارية في اليمن. وهو وإن كان في الأساس جزئاً من الطراز العربي الإسلامي إلا أنه يملك خصوصية تتجلى في التصميم ومواد البناء، وفي بعض المبتكرات المعمارية والعناصر البنائية. ويلمس ذلك في المحراب والمئذنة، والقبة والعقود، والزخارف الداخلية والخارجية. ومن هذه الجوامع التي بنيت وفق طراز معماري رفيع: الجامع الكبير بصنعاء، وجامع الجند قرب تعز، وجامع السيدة في جبلة، وجامع ظفار ذيبين، وجامع الهادي بصعدة، وجامع الأشرفية في تعز، وجامع الأشاعر في زبيد، وجامع العامرية في رداع، وجامع شبام كوكبان. ومن الجدير بالذكر أن هذه الجوامع لم تكن أماكن للعبادة فقط، وإنما كانت تدرس فيها التعاليم الدينية وعلوم الأوائل ،وقد يلحق بالجامع مدرسة تنفق الدولة والأوقاف على طلابها، ويختار لها خيرة العلماء. وهذه الوظيفة التعليمية للجامع أعطت لِفنّ عمارة المساجد في اليمن بُعداً جديداً. وكثير من هذه الجوامع ما زال على حالته القديمة أو المتجددة، وهي اليوم بحاجة إلى صيانة وترميم. أما الحصون والقلاع فقد احتفظت ببعض خصائص المعمار اليمني القديم، على أن كثيراً منها قد تأثر في القرون الأخيرة بطراز الحصون والقلاع التركية. والقلاع والحصون في اليمن كثيرة وتحتاج إجمالاً إلى عناية. كما أن دراستها تاريخياً ومعمارياً أمر مفيد ومشوق. ولا شك أن

صيانتها وتسهيل الوصول إليها يستجذب اهتمام الكثيرين. ونذكر منها على سبيل المثال حصن المطهر في ثلا، وحصن كوكبان وقلعة حجة وقلعة السنارة في صعدة، وقلعة العامرية في رداع، وقلعة سمارة وقلعة القاهرة في تعز، وقلعة بيت الفقيه، وقلعة الزيدية، وقلعة المخافي في تهامة، وقلعة المقاطرة في الحجرية، وغيرها.

ومن السمات الثقافية الأساسية لليمن آثارها القديمة والإسلامية والتي هي بحق من أهم الآثار في الشرق القديم. وهي بقايا فترة حضارة مزدهرة من تاريخ الشعب اليمني تنيف على أكثر من ألف وخمس مئة عام قبل الإسلام، وما يقارب الألف وخمس مئة عام بعده، أي ثلاثة آلاف عام من الحضارة. إن تلك الآثار هي التعبير المادي المستمر عن أصالة الشخصية اليمنية عبر العصور، والأصالة في اليمن ليست فقط الماضي، وإنما تعني الصلة الحية بالحاضر، وإن تلك الشواهد الأثرية الباقية هي مما يمنح أهل اليمن الشعور بقوة الاستمرار نحو صياغة الحاضر في سبيل مستقبل أفضل. وتكتسب الآثار اليمنية قيمتها الكبرى بكونها نتاج حضارة عريقة أسهمت بنصيب وافر في بناء الحضارة الإنسانية. ولذلك فهي تراث إنساني ينبغي على كل منْ يهتم بتراث الإنسان أن يشارك في البحث عنه ودراسته والمحافظة عليه. وهي للسبب نفسه مثار اهتمام كل الزوار الذين يفدون إلى اليمن. ولن نغالي إذا قلنا إن تلك السمة الإنسانية كانت سبباً من أهم الأسباب التي دفعت الأوروبيين إلى محاولات اكتشاف الآثار اليمنية. وتبدأ حركة اكتشاف الآثار اليمنية في الواقع قبل حركة الكشوف الأوروبية بزمن طويل، وذلك في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي عندما طاف اليمن عالِم الآثار اليمني (الحسن بن أحمد الهمداني) وسجل مواقعها، وعُني بالكتابات القديمة التي دونت أخبارها. وحركة الاكتشاف عند الأوروبيين تبدأ في العصور الحديثة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي. تبدأ (بلودفيكو دي فارتيما البحار الإيطالي) الذي زار دمشق والمدينة ومكة وعدن وذمار وصنعاء بين عامي ١٥٠٠ م و١٥٠٥ م وكتب لأول مرة تقريراً عن اليمن، نقل إلى أوروبا رغم أنه عبارة عن انطباعات شخصية ويخلو من أي مشاهدات علمية. وكان

القس (بيز) البرتغالي الذي زار ظفار وحضرموت ومارب وصنعاء هو أول من أشار إلى وجود آثار مارب. وكان قد بقي سجيناً في صنعاء عدة سنوات من ١٥٨٩ إلى ١٥٩٤ ، كما كان من الأوائل الأوروبيين الذين نقلوا إلى أوروبا ذكر القهوة وشجرة البن كما رآها في اليمن. وتلا هؤلاء في القرن السابع عشر عدد من الرحالة الأوروبيين زاروا في اليمن أماكن مثل صنعاء وتعز والمخاء، ولكن ليس منهم منْ كان على مستوى الرحلة الكبرى التي بدأت في عام ١٧٦٢ م والمعروفة برحلة (كارستني نيبور) الدانيماركي. وبالرغم من أن أربعة من الباحثين من أعضاء هذه البعثة لاقوا حتفهم خلال هذه الرحلة، إلا أن النتائج التي وصلت إليها اعتبرت حينذاك أهم نتائج علمية جاءت بها بعثة أوروبية من بلاد العرب إلى أوروبا، فقد أتت بملاحظات جغرافية وتاريخية وأثرية كثيرة. وربما كان (نيبور) هذا أول أوروبي يرى نقشاً يمنياً قديماً مكتوباً على الحجر. وقد ظل كتاب رحلة (نيبور) من أهم ما ألّفه المكتشفون الأوروبيون عن اليمن .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر زار اليمن عدد من المهتمين والرحالة والعلماء، كان لهم الفضل في تعريف الأوروبيين بتاريخ اليمن وآثاره. وبفضل أولئك تمكن العالم الألماني (جزينيس) من جامعة (هاله) وتلميذه (رودجر) من إعادة إكتشاف حروف المسند. وكان الهمداني يعرف هذه الكتابة قبل ذلك، إلا أن كتبه وصلتنا متأخرة، وبعد اكتشاف هذين العالمين لأبجدية النقوش اليمنية القديمة حوالي منتصف القرن التاسع عشر. ومما هو جدير بالذكر أن الخط الحبشي المعاصر مشتق في معظمه من الخط اليمني القديم (خط المسند) والذي كتبت به تلك النقوش اليمنية القديمة، وكان هذا الخط هو أساس الخط الذي كُتبت به اللغة الحبشية القديمة لسان (جعز)، اللغة الحبشية الكلاسيكية. ومنذ ذلك الحين بدأ في العصر الحديث ما عُرف باسم (علم النقوش اليمنية القديمة). وتوالى الرحالة والعلماء الأوروبيون على زيارة اليمن. وما أن دخل القرن العشرون حتى كانت بعض جامعات أوربا تدرس علم النقش والآثار اليمنية القديمة. أما اليوم فتعتبر النقوش اليمنية القديمة والآثار اليمنية القديمة المصادر

الأولى التي مكنت العلماء من رسم الملامح الأولى للصورة التاريخية في اليمن القديم.

وفي اليمن اليوم هيئة مسؤولة عن الآثار وتدريس هذه الآثار بجامعة صنعاء، ويعمل في اليمن بالاشتراك مع البحاثة اليمنيين عدد من البعثات الأجنبية، وهي تقوم بإجراء مسح آثار يشمل المواقع الأثرية ودراسة سماتها، فضلاً عن العناية بالنقوش اليمنية القديمة.

كما تعنى هذه الدراسات بمواقع الآثار الإسلامية وخصائص المعمار اليمني وصفات المدينة اليمنية. وتُبذل جهود محلية ودولية لصيانة آثار مدينة صنعاء الإسلامية، وآثار بعض المساجد ذات الطراز الفريد، مثل: جامع ظفار ذيبين إلى الشمال من صنعاء، ومدرسة الأشرفية في تعز، وجامع العامرية في رداع.

وبحكم أن اليمن احتلت مكانة هامة في العهود الإسلامية في مجال العلوم الدينية والدنيوية، فإنها تملك ثروة هائلة من المخطوطات الثمينة، وهي تجمع في مكتبات متخصصة، وفي (دار الكتب اليمنية) في العاصمة، ولبعض هذه المخطوطات العلمية قيمة فنية بجانب قيمتها العلمية، وتهم بصفةخاصة الدارسين لتطور الخط العربي وفن الكتابة الإسلامي. ويقوم فريق من المتخصصين بالعناية بتلك المخطوطات وترميمها وصيانتها والمحافظة عليها. وتعرض عدد لا بأس به من الموجودات الأثرية في متاحف أُعدت لذلك منها (متحف صنعاء الوطني) ومتحف مدينة تعز، ومتحف في كل من ظفار ومأرب، وهناك أيضاً متحف يتبع قسم الآثار بجامعة صنعاء. ومن اللقى الأثرية التي يحرص الزائر على مشاهدتها في هذه المتاحف، تمثال ذمار علي، وتمثال ابنه، وهما تمثالان من البرونز فوق حجم الإنسان العادي صنعا بمهارة فائقة للملكين (ذمار علي يُهَبِر) وابنه (ثأران يُعَنِعم) من الملوك الحِمْيريين المشهورين، وقد عاشا في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي. وقد تم ترميم هذين التمثالين بالتعاون مع متحف (ماينز) بألمانيا الاتحادية، ولهذين التمثالين قيمةتاريخية خاصة إذ إنهما صنعا من قبل نحاتين أحدهما يوناني

والآخر يمني كما هو مبين في نقش عليهما، الأمر الذي يعكس الصلات الحضارية بين اليمن والعالم الهللينستي في ذلك الوقت.

وتعتبر المومياوات المكتشفة حديثاً من اللقى الأثرية النادرة، والتي تدل على معرفة أهل اليمن قديماً بالتحنيط، وربمابالمستوى نفسه الذي عرفه المصريون القدماء. وقد عُثر على هذه المومياوات في مقبرة صخرية في (شبام الغراس) على بعد عشرين كيلومتراً شمال شرقي العاصمة.

أما الآثار الثابتة وغير المنقولة القديمةمنها والإسلامية فتنتشر في طول البلاد وعرضها، لذا فإن حركةالتعمير والبناء ومشروعات التنمية الحديثة، وخاصة شق الطرق واستصلاح الأراضي الجديدة، وازدياد الحاجة إلى المساكن، كلها أعمال تشكل أخطاراً على هذه الآثار، وبالتالي تزيد من هموم القائمين على الآثار خاصة في هذه الفترة. ولهذا كان لا بد من عمل خطة تواكب الزحف العمراني ومشاريع التنمية تكفل المحافظة على الآثار وتحديد أولياتها، ومنها وضع خارطة أثرية شاملة.

ومن أهم المواقع الأثرية في العهود القديمة مدينة مارب وسدها العظيم. وكانت مارب أشهر مدينة يمنية قديمة، وهي عاصمة دولة سبأ لقرون عديدة ويتحكم موقعها في السهل السبئي على مشارف صحراء اليمن الشرقية بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان، والذي كان يمتد من مينا قنا على ساحل البحر العربي عبر الوديان وحضرموت ومارب والجوف إلى نجران ومنها إلى ديدان (مدينة العلا اليوم في شمال غرب السعودية)، ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط. وتدل الخرائب والآثار المنتشرة التي تكتنف اليوم قرية مارب الصغيرة على الضفة اليسرى من وادي (ذنة)، على ضخامة المدينة القديمة وكبرها؛ تلك المدينة التي اعتبرها (بطليموس) الجغرافي الإسكندري وسط الإقليم المناخي الأول على الأرض. وكانت مساحةالمدينة حوالي كيلومتر مربع ويحيط بها سور عرضه متر وبثمانية أبواب هي نفسها أبواب المدينة. ويرجح أن التّل الذي تقع عليه قريةمارب اليوم هو مكان قصر (سلحين) الذي ذكرته الأخبار بأنه قصر ملكة سبأ (الملكة بلقيس) والذي قيل إن الجن بنوه

في مدى سبعة وسبعين سنة. واسم القصر هذا مذكور في النقوش اليمنية القديمة.

وقد بقيت المدينة عاصمة لسبأ قروناً طويلة، وشهدت الحملة الرومانية على اليمن عام ٢٤ قبل الميلاد، وهي الحملة التي أخفقت أمام أسوار مارب، واضطرت بعد أيام للانسحاب كما ذكر مؤرخ الحملة (استرابو)، وانتهت مارب كعاصمة تقليدية في القرن الثاني بعد الميلاد، ولكن مارب لم تنتهِ كمدينة، بل بقيت محتفظة بمكانتها الدينية ومقامها الخاص المرموق زمناً. ولما احتل الأحباش اليمن عام ٥٢٥ م أمر نجاشي الحبشة (كالب) أن يسجل نقش نصره في مارب، وبنى في عهده كنيسة فيها.

ومن آثار مارب معبداها المعروفان بمحرم بلقيس وعرش بلقيس، وهما معبدان كبيران شيدا للإله القمر (المقه)، وكان يفد الناس إليهما من كل مكان، وقد نقبت بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان في مدخل أحد المعبدين ولفترة قصيرةعام ١٩٥٢ م بحثاً عن كنوز ملكة سبأ، فتم العثور على مئات الأحجار المنقوشة بخط جميل، والتي قدمت قديماً مصحوبة بالقرابين لإله المعبد. ولا ريب أن التنقيبات في المستقبل ستزيح الستار عن موجودات أثرية كثيرة. على أن أشهر آثار مارب هو السد، الذي يقع على بعد عدة كيلومترات من المدينة، وبين جبلي البلق الشمالي والجنوبي، حيث يحجز وادي (ذنة) كله والذي تتجمع إليه سيول مساقط المياه من المرتفعات الشرقية. وذاع حديث السد في التاريخ لما ناله من تكريم بالإشارة إليه في القرآن الكريم: قال تعالى: **﴿ لقد كانَ لِسبأٍ في مسكنِهم آية جنتان عن يمين وشمال كُلُوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربٌ غفور﴾**.

وكان الغرض من السد بالدرجة الأولى احتواء المياه المتدفقة من السيول ورفعها إلى مستوى يمكن منه سقي الحقول. فالسد ليس إلا حاجز تحويل للوادي كله بواسطة مصرفين محكم بناءهما ووطيدان في أساسيهما. وبعد تصريف المياه تتولى شبكة من القنوات الرئيسية والفرعية توزيع المياه إلى

الحقول بمـرونة وسهولة. ويختلف نظام الري هذا عما يماثله من أنظمة الري القديمـةفي بلاد ما بين النهرين ووادي النيل، إذ إن أنظمة الري في تلك البلاد قد خططت لتوزيع مياه الأنهار دائمةالجريان، بينما تتركزعبقرية نظام الري في مارب على تجميـع ميـاه وديان كثيرة إلى وادٍ واحد كبير بحيث يحجز الـوادي سد عظيم صمم بطريقة معينة يمكن بواسطتها احتواء كمية متفاوتة من المياه تأتي في فترة محدودة من السنة، وضمن مواسم معلومـة، وبكثافة قد لا تكون متوقعة أحياناً، ثم تصـرف هذه المياه في أسـرع وقت ممكـن إلى الجنة اليسرى وإلى الجنـة اليمنى على ضفتي الواديْ لتتوزع وفق قـوانين معلومة ومقادير محسـوبة إلى أكبـر عـدد من الحقـول. ويعتقد أنه كان يزرع في سهل مارب أكثر من سبعين كيلومتراً مربعاً. على أن الأخبار القديمة تذكر مساحات أوسع من ذلك بكثير. ولم يتم إلى الآن تقدير علمي دقيق للأراضي المزروعة قديماً، ولم يعرف إلى الآن المساحة التي طمرتها حركة التصحر وزحـف الصحراء المستمـر. ويقدر العلماء حالياً ضمن الشروط الحالية أنه بالإمكان زرع حوالي عشرة آلاف هكتار بعدما أُعيد بناء السد من جديد.

وكان طـول جـدار السـد حوالي ٧٢٠ متراً، ويبلـغ ارتفاعه حـوالي خمسة عشـر متـراً. أماسمـك جـداره فيقـارب العشرين متراً. وتدل الدراسات الأثرية والجيومورفولوجية التي تمت حديثاً في أرض السـد، على أن عملية استصلاح الأراضي استصلاحـاً بسيـطاً بعـد أن تغمرها السيـول يمكن أن يكون قدبدأ منذ الألف الثالث قبل الميلاد. أما بناء السـد وبشكلـه المتطور فإنه قد تم في بداية الألف الأول قبل الميلاد على أقل تقدير.

وقـد أنجـز مشـروع حديث لإعـادة بناء هذا السـد وفق أُسس علميـة حديثة، وبما يضمن سلامـة المواقـع الأثرية بحيث تبقى آثار المـاضي شامخـة وشاهدة، وفي الـوقت نفسه ينعـم أهـل اليمن بخيرات سـد حديث يربـط الحاضر بالماضي، ويحيي مدينةمارب العتيقة وذكرى حضارة سبأ.

وإلى الشمال من سهل مارب تقع مدينـة يمنيـة أخرى قديمـة تعرف باسم

(براقش)، وكـان اسمها القديم كماورد في النقوش اليمنية القديمةوالمصـادر الكلاسيكية (يثُل) وهي إحدى المدن الأثرية الهامة في اليمن وما زالت إلى اليوم محتفظـة بأسـوارها وأبراجهـا والنقـوش التي حفرت ووضعت في جدرانها لتحكي قصة بنـاء تلك المدينة ونشاطها الحضاري. كانت براقش المدينـة التي تولـت قيادة تأسيس الـدولة المعينية. وهي الدولة التي ازدهـرت في وادي الجوف إلى الشمال من مناطق سبـأ في حوالي النصف الأخيـر من الألف قبل الميلاد. ورغم أن دولة معين اتخذت من (قرناو) في وادي الجـوف عاصمة لها إلا أن بـراقش بقيت محتفظة بأهميتها نظراً لكونها العاصمة الدينية لدولة معين.

وكان المعينيون يشتغلون بالتجارة بالدرجـة الأولى وقد تمكنوا لعدة قرون قبل الميلاد من السيطرة على طرق التجارة وخاصة طريق اللبان ومدوا نفوذهم شمـالاً عبر الجـزيرة وأقـاموا المحـطات والمستوطنـات على الطريق التجاري. ومن آثارهم مدينة (ديدان) وهي العلا اليوم في شمال غربي السعودية، ومن آثارهم في العلا اليوم نقوش ومقابر صخرية وغيرها، وهي لا تبعد سوى خمسة عشر كيلومتراً عن آثار مـدينة (الحجر) و(مدائـن صالح) التي تزخـر بالمقـابر الصخريـة المنحوتة والمزخرفـة بما يشبه آثار (البتراء)في وادي موسى،جنوب الأردن. وتذكر النقوش أن المعينيين كانوا على صلة بحضـارات حوض البحر المتوسط ووصـل تجارهم جزر اليونان ومصر. وقد عثر في مصر على قبر تاجر معيني كان يتاجر بالمر والقرفة في عهد (بطليموس الثاني) حوالي ٢٦٤ قبل الميلاد. كما أن المؤرخين اليونان يـذكرون المعينيين ومدينتهم براقش (يثُل) ويسمـون اللبان الآتي من العربية السعيـدة باللبـان المعيني. ويتوقـع من التنقيـب المزمع إجراؤه في موقـع مدينـة براقش الكشف عن بعض الصـلات التاريخية الهامة بين حضارة اليمن القديم وحضارات حوض البحـر المتوسط، وهو أمر تشير إليه الآثـار والنقـوش التي اكتشفت حتى الآن في المدن الأثرية الهامة في اليمن مدينة ظفـار التي ذكرتها المصـادر الكلاسيكية في جملة من ذكرت من مدن العربية السعيدة، فقد ورد ذكرها في الكتاب السادس من كتاب (التاريخ الطبيعي) للمؤلف الكلاسيكي (بلينيوس) في النصف الثاني من القرن

الأول الميلادي، واعتبرها قاعدة للملك في اليمن. وهي في الواقع عاصمة الدولة الحِمْيَرية التي ورثت ملك سبأ في المشرق وورثت مأرب العاصمة. وظفار هي أحدث عواصم الدول اليمنية القديمة. والحِمْيريون هم أول من أسس بنيانها وتقع آثار هذه المدينة اليوم حيث تقوم قرية صغيرة تحمل الاسم نفسه، وذلك في المناطق الوسطى من الهضبة اليمنية على بُعد حوالي ٢٠ كم جنوب مدينة يريم الحالية، وإلى شرق الطريق المتجه من تعز إلى صنعاء عبر نَقِيل سُمارة. وعلى سفح جبل اسمه (ريدان) نسب إليه الحِمْيريون أنفسهم بعد ذلك. ويقع قصر الملكة بظفار والذي تسمى بقصر ريدان أيضاً على جبل ريدان نفسه. وبجانب القصر مباني فخمة أخرى تحدثت عنها النقوش اليمنية القديمة، وتغنى بذكرها الشعراء في العهود الإسلامية الأولى. وينقل الهمداني في الجزء الثاني من كتاب (الإكليل): أنه كان لمدينة ظفار تسعة أبواب وينعتها بأسمائها. واسم أحد أبوابها هو (باب الحقل)، والحقل هو اسم القاع الخصب الذي يذكره الشاعر القديم، ويسميه الجنة الخضراء حينما قال بلسان ملك حِمْير (أبي كرب أسعد):

وريدان قصري في ظفار ومنزلي بها أَسَّ جَدّي دورنا والمناهلا
على الجنة الخضراء من أرض ِ يَحْصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

ومن المفيد أن يذكر هنا أن ظفار كانت قد لعبت دوراً مهماً في محاولات نقل المسيحية إلى اليمن، حيث يذكر مؤلف (تاريخ الكنائس اليونانية)، أنه عهد إلى (ثيوفيلوس) أسقف (سقطرة) أن يصل إلى بلاط حِمْيَر عام ٣٥٤ ميلادية بمهمة إنشاء طوائف مسيحية وبناء بعض الكنائس، ومن ضمن ذلك تشييد كنيسة في ظفار. وقد اندثرت ظفار كعاصمة في الربع الأول من القرن السادس الميلادي وحلت صنعاء محلها كعاصمة لليمن.

ورغم أن الجغرافيين العرب ظلوا يتناقلون أخبار ظفار في العصور الإسلامية إلا أن التاريخ كان قد سبق إلى تسجيل نهاية واحدة من أشهر المدن اليمنية قبل الإسلام. حتى أن الموروث الملحمي لليمن يروي أن

ملك ظفار المشهور أبو كرب أسعد قد قال مفتخراً: «بنفسي أن أنطح الصين بخيل أقودها من ظفار».

ورغم هذا النفس الملحمي الذي نجده في هذا الشعر المنسوب إلى الملك الحِمْيَري إلا أن الحقيقة تبقى ساطعة. وهي أن ذكرى هذه المدينة ورونقها قد ظل يشيع عبر الزمن. ومنْ يَزُرْ موقعها اليوم لا بد وأن يلمس بقايا ثرائها في الحقول الممتدة، وفي اللقى الأثرية الرائعة التي تتزين بها مباني قرية ظفار، وتلك الموجودات التي يحتويها متحف ظفار الجديد.

واليمن بلد غني بآثاره الإسلامية أيضاً، وخير مثال على ذلك، هي المدن التي أُنشئت في العهود الإسلامية ومنها ما بقيت آثارها شاخصة ونابضة بالحياة إلى اليوم، حيث نجد أن تقاليد بناء المدن تتراكم عبر القرون. وما زالت المدينة اليمنية تجمع بين تقاليد الماضي وجلالها، وبين وظيفتها الحضارية كمدينة عامرة وحية. ويلحظ أن هناك انسجاماً وتوازناً بين القديم الباقي والأصيل المدهش، وبين الحاضر الجديد واللازم لعمليات التطور ومشروعات التنمية. وخلافاً لكثير من البلدان لليمن تراث مستمر، فالمدينة فيها، تجمع بين كونها أثرية وفي الوقت نفسه كثيراً ما نجد معالمها الأثرية ما زالت جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة الجديدة ووظيفتها العصرية، وتدخل ضمن حركتها التنموية الدائبة .

والمدن الإسلامية في اليمن كثيرة، ومنها ما كان عامراً قبل الإسلام أيضاً، وبعضها جمع جميع الفترات التاريخية المعروفة حيث وجدت قبل الإسلام وفي العهد الإسلامي وما زالت باقية إلى اليوم. وفي هذه المدن صنعاء العاصمة، والتي تحدثنا عنها وعن معمارها الجميل في مكان آخر من هذا العرض. وصعدة من تلك المدن العريقة أيضاً؛ فقد ذكرتها النقوش السبئية، وكانت مركزاً حرفياً معروفاً. كما كانت محطة تجارية نشيطة. وهي اليوم قاعدة المحافظة الشمالية التي تحمل الاسم نفسه، وتبعد عن صنعاء باتجاه الشمال حوالي ٢٤٣ كم، ويربط المدينتين طريق معبد حديث. وقد لعبت صعدة دوماً دوراً تاريخياً مهماً، فهي بجانب كونها محطة تجارية على

طريق التجارة القديم وقلعة حربية مهمة قبل الإسلام، فقد أصبحت أيضاً محطة للقوافل على طريق الحج إلى مكة في العهود الإسلامية، كما أصبحت مركزاً سياسياً ودينياً نشيطاً امتد صيتها داخل اليمن وخارجه، واستهوت الكثير من طلاب العلم، ونبغ فيها عدد من العلماء اليمنيين، وشهدت مساجدها حركة فكرية خصبة. وكانت محطة على طريق التجارة بين شمال الجزيرة وجنوبها وسوقاً تجارياً تتوسط بين صنعاء ونجران. وقد اشتهرت بعمل النعال ودباغة الجلود، وعمل أدوات الزراعة والأواني الحجرية، وكل ذلك من الحرف التقليدية التي اشتهرت بها اليمن عموماً على مستوى الداخل والخارج. وما زالت هذه المدينة العتيقة تحتفظ بمعالمها الأثرية الإسلامية، كالمساجد، وأشهرها: (جامع الهادي) بكل طرازه المعماري الفريد وعناصره المتميزة، وكذلك عدد من القباب والأضرحة التاريخية المشهودة. ثم سورها المبني من الطين، والذي يشبه السور الذي يحيط بمدينة صنعاء، إلا أن سور صعدة ما زال قائماً محتفظاً بصورته الأولى ويعتبر من أبرز معالم المدينة. ومن معالمها الأثرية أيضاً ذلك الحصن الذي يعلوها، وهو حصن (السُّنارة)، وهو من الحصون المنيعةفي اليمن.

ومن المدن التي ازدهرت في العهود الإسلامية الأولى مدينة زبيد التي اختطت على وادي (زبيد) أحد وديان تهامة، وذلك في مطلع القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، عندما اتخذها والي دولة الخلافة العباسية (ابن زياد) عاصمة لحكمه، بعدما استقل عن الخلافة العباسية في بغداد، وساعد على ازدهارها موقعها الرحب في سهل تهامة وعلى وادي زبيد الذي يتدفق بالمياه والخيرات من الحبوب والثمار والفواكه، وكذلك قربها من شاطىء البحر الأحمر، ذلك البحر الذي تزخر موانئه بنفائس البضائع الآتية من الهند والصين وشرق إفريقيا. فهي أولاً تتمتع بموقع جميل، وثانياً تقع على طريق التجارة البري، وتقرب في الوقت نفسه من تجارة البحر. ولذلك صارت حاضرة لتهامة، بل إحدى المدن الكبرى في اليمن. وكانت في العهود الإسلامية ملتقى العلماء والمتعلمين، تزخر بالمعاهد والمدارس والعلوم والآداب، وكان

بهاجامعة إسلامية معروفة. وفيها مَغنم للتجار، وأرباب البضائع والحرف. وقد زارها الرحالة العربي المشهور (ابن بطوطة) في القرن الثامن الهجري/الرابع الميلادي، وذكرها في رحلته المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) فقال: «هي إحدى قواعد بلاد اليمن، مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، وأملح بلاد اليمن وأجملها. ولأهلها لطافة الشمائل، وحسن الأخلاق، وجمال الصور، ولنسائها الحسن الفائق. وهي اليوم من أهم مراكز محافظة الحديدة، وينشدها الزوار للتفرج على معالمها التاريخية، وكأنها من حيث الشكل مدينة من مدن العصور الوسطى، حيث ما زالت تحتفظ وإلى حد بعيد بملامح المدينة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، ومن أشهر معالمها جامع الأشاعر الكبير، وحصنها الجميل، ثم تلك المباني المبنية من الياجور، بحيث تخلق أنماطاً فريدة ومتعددة، حتى وإن كانت من لون واحد. وترتبط مدينة زبيد اليوم بالذهن ليس فقط بكونها أخرجت عدداً وافراً من علماء اليمن، وإنما أيضاً بالمخطوطات النفيسة التي تركها أولئك العلماء في شتى أنواع العلوم والفنون من علوم الفقه حتى الرياضيات وعلوم الفلك.

ومن المدن التي اختطت في العهود الإسلامية مدينة (ذي جبلة)، وتسمى اليوم (جبلة)، وذلك في حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إبان حكم الدولة الصليحية. وأصبح للمدينة شأن كبير عندمااختارتها الملكة اليمنية (السيدة بنت أحمد) من ملوك الدولة الصليحية، لتكون عاصمة لها بدلاً من مدينة صنعاء، وفي عصر شمل حكم هذه المملكة اليمن كله. وتقع في موقع وسط في اليمن، وقرب أراضي خصبة، ومنطقة تتمتع بهواء طيب، وذلك في سفح حصن التعكر بين جدولين موسميين على بعد حوالي ١٠ كم إلى الجنوب من مدينة (إب) قاعدة محافظة المناطق الوسطى (محافظة إب أو اللواء الأخضر). وهي مدينة جميلة ما زالت عامرة وآهلة بالسكان، وقد تغنى بوصفها الشعراء لطيب المقام فيها، كما اشتهرت بمدارسها وعلمائها، وتمتد قربها سهول خصبة تزرع فيها

الحبـوب والخضروات والفواكه وغيرها. وقد بنيت على ربوة شملت عدة بنايات ومساجـد، على أن أبرز ما بني فيها هـو قصر السلطان المسمى (دار العز) وكان يتبعه بستان جميل، والمسجد الجامع، المعـروف حالياً بجامع السيدة، وفيه قبرها. وما زالـت هذه المـدينة محتفظـة بكثير من ملامح الماضي وفي وضع حسن. على أنه لم يتكـرر اتخاذها عاصمة كما هي الحال بالنسبة لصنعاء وزبيد.

* * *

إن اليمن كبلد عـربي مُسْلِم، يرى أن ثقافتـه تعبيـر عن عقيدته وأفكاره، وتجاربه ومواقفه واتجاهه، وهو يستلهمها قولاً وفعلاً، ويعتبر أن الثقافة ذات مـدلول واسع، تشمل جملة السمات الروحية والماديـة والعقليـة والوجدانية التي تميز مجتمعه؛ وفي الوقت نفسه في جزء لا يتجزأ من الثقافة العربية الإسلامية، كما يرى هذه الهُويّة الثقافيـة هي بمثابة النواة الحيّة والمبدأ الدينامـي الذي يـواصل به المجتمع اليمني عمليـة إبداعه المستمرة، استناداً إلى ماضيه المشرق، متغذياً من طاقاته الكامنـة، ومستقبلاً على نحوٍ اصطفائي لما قد يعـرض له من روافـد خارجية. بل إنه يعتبر أن ثقافتـه هي الحصن المنيع الـذي يحتمي به للمحافظـة على شخصيته وهويته، وهي المـورد العذب الذي يستقي منه مـواقف نضاله وأركان ثباته عبر تاريخه. ولهذا فإن اليمن تعتبر أن التبادل الثقافي عامل من عوامل التقارب بين البشر، والتفاهم فيما بينهم، وتنطلق من منطلق احترام كل الثقافات وإعطائها حقها من الكرامة، وليس فقط حظها من الإعجاب دون أن يصاحب ذلك نظرة استعلاء أو استصغار، ذلك لأن اليمن تؤمن بقيمة التراث الروحي، كمـا تؤمن بقيمة التـراث المادي، وتهتدي بنـور ذلك التراث الذي يلهمها دوماً بالمبادىء الراسخـة للسلـوك الإنساني السوي، قال تعالى في محكم كتابه: ﴿**يا أَيُّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا، إنّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكم**﴾. وقد اهتمـت اليمن بإنشـاء مؤسسات مختصة تضطلع جميعها بمهمة تنمية الثقافة عن طريق إقامـة المراكـز الثقافية في شتى أنحـاء البلاد، ورعايـة الآداب والفنون، وتطـوير الأنشطـة المسرحية والغنائية والاستعراضية والموسيقية، والعناية

بالفولكور وتشجيع السياحة. وتقيم تلك المؤسسات أسابيع ثقافية تحييها في البلاد العربية والصديقة، حيث تذهب الفرق اليمنية المتعددة لإقامة أسابيع ثقافية في تلك البلدان حرصاً على تبادل الثقافة وتواصل المعرفة، ومد جسور الصداقة، وتشمل أنشطة هذه الأسابيع عادة معارض للكتب والرسم والحرف التقليدية، كما تضم فقرات متنوعة من الرقص والغناء، والأمسيات الشعرية التي يبدع فيها الشعراء اليمنيون، وشعب اليمن معروف بحبه للشعر. وكثيراً ما يتداولونه ويتساجلون به في مجالسهم وأنديتهم.

وفي اليمن مؤسسة متخصصة بالسياحة هي (المؤسسة العامة للسياحة) تتولى القيام بخدمة السائح، وتوفر له الراحة والمعلومات، وتضمن له قضاء وقت ممتع ومفيد في اليمن.

وليس من السهل على الزائر العابر أن يلمَّ من أول وهلة بشخصية أهل اليمن وأن يتعرف على ثقافتهم، وأن يحكم على سلوكهم. وأن ينقل معه ذكريات مميزة عن عاداتهم وتقاليدهم، ذلك لأن ما سيلتقطه الزائر العابر هو غيض من فيض إذ إن ثقافة أهل اليمن متواترة ومستمرة من الماضي إلى الحاضر، وهي شديدة التنوع ومتعددة الألوان، وتعكس دراية عميقة بالحياة وشؤونها. ومن هنا ينبغي على المرء أن يقرأ شيئاً عن اليمن، وأن يتيح لنفسه الوقت الكافي للتعرف عليه أو التردد على زيارته، خاصة وأن أهل اليمن يحبون الغريب ويرحبون بالضيف. وأهل اليمن يتذكرون بالعرفان ما قاله (نيبور) الدانيماركي في القرن الثامن عشر،والذي ارتبط اسمه بأهم رحلة علمية أوربية إلى اليمن عندما قال: «يستطيع المرء أن يتنقل في بلاد اليمن بأمان كما يتنقل في أوربا أو أحسن من ذلك». وإذا كان ذلك القول قد قيل عن اليمن في أيام عزلتها، فإن هذا القول يسري مفعوله أكثر ما يسري على يومنا هذا الزمن الذي يعيش فيه اليمن فترة انفتاح على العالم أكثر من أي فترة سابقة. وربما كان من المفيد أن يعرف زائر اليمن العابر طرفاً من تلك السمات الثقافية كالحرف التقليدية والحلي والعادات والفنون. فقد تعينه على التقاط لحظات من الفائدة والمتعة خلال رحلته، وربما يستدل بها على انتقاء ما شاء له من أشياء للذكرى.

الحــــرف التقليديــــة:

لم تَطْـغَ أسـاليب الصناعـة الحديثـة بكل زخمهـا على أسـاليب الصناعة التقليدية في اليمن، وبقيت أسواق مدنها الرئيسية وفي أمـاكن متعددة من القرى والبادية تزاول كثيراً من الحرف والمهن التي اشتهر بها اليمن منذ القِدم. فقد وصف أهل اليمن في المصادر العربيـة بكونهم دبّاغين مثلاً وعـد ذلك من مثالبهم، ضمن ما وصفوا به من كونهم شعباً حضرياً غير بدوي يمارس شتى أنواع الحرف والصناعات. فقد قيل: وما منهم إلا دابغُ جلد أو ناسج بُرْد، أو راكب عِرْد (دابة)، كنايـة عن كونهم يشتغلون بصناعة الجلـود والملابس والتجارة. وقد كانت النعال اليمنية الجلدية من المصنوعـات التي يتوق إليها العرب في أمصارهم. كما يبدو أن دباغة الجلـود في اليمـن كانت صناعـة راقيـة حتى في القرون السابقة للميلاد. فقد دلَّت جلـود البقر التي كُفِّنت بها المومياوات علىٰ إتقان فوق مستوى العادي لدبغ الجلد وتَلْيينه. ودلّت الأحذية التي عُثر عليها مع هذه المومياوات على تخريز دقيق وخياطـة جلدية متقنة. وما زال أثر هذه الصنعة يلمس إلى اليوم في صنع بعض الصدريات والمعاطف الجلدية للوقاية من برد الشتاء في المناطق الباردة، والأحزمة التي يتنطق بها، إما لربط (الجَنْبِيّة) أو لحفظ الرصاص. كما تستعمل بعض هذه الجلـود بُسُطاً تفرش في المنازل، ويُتَّخـذ منها أوعيةلحفظ الماءوالسمن والعسل كالقِرَب و(المَمَّات)، وأكياساً تخـزن بها البـذور وما شابه ذلك. وفي اليمن تنمو شجرة (القَـرَظ) وهي التي غالباً ما كانت تستعمل لدبغ الجلـود نظراً لمادتها الحادة واللاذعة.

واشتهرت اليمن أيضاً بالمنسوجـات الصوفيـة والكتانية والقطنيـة. وقد تردد في الأسواق قديماً اسم (البـرود اليمانية). وهي أقمشة غالباً ما تكون من الكتان، وتصبغ بأصباغ محليـة وخاصة (الوَرْس). وهو نبات يُعطي صفرة فاقعة. وكان الورس من الأصباغ النـادرة التي تأتي من اليمن. واشتهـرت أيضاً في اليمن الثياب المعافرية والتي تنسب إلى بلاد المعافر (الحجريـة حالياً من

لـواء تعز). وقيل إن النبي محمـد ﷺ عندمـا مات كُفِنَ ببـرود يمانية. وقد وجد أن المومياوات التي عُثر عليها ملفوفة بشرائـط من الكتان الـذي نسج نسجـاً جيداً. وتعتبر اللُّحافات التهامية التي تُصنع غالبـاً من الحـرير والقطـن ذات الألوان الزاهية والحواشي (المحظيَّة) من أجمـل المنسوجـات اليدويـةالتي يقتنيها اليمنيون. وما زالت أعمال الحياكة منتشـرة في القرى اليمنية إلى اليوم. كما يحرص أبنـاء مشرق اليمن على اقتنـاء (الحَبْوَة)، وهي منسوج محلي زاهي الألوان يتخذه الناس مُتَكأً عندما يفترشون الأرض ويجلسون القرفصاء ويتسامرون في الليالي الدافئـة. وفي المشـرق أيضاً ينسج البـدو كثيراً من حاجاتهم من صوف الغنم والماعـز وخـاصة تلك البُسُط المزركشة (RUGS) و(الفـردات) (مفردها فردة) والحنابـل والشملات وغيرها.

ولما كانت اليمن معروفـة بالمعادن أيضاً فقد زاول الناس صناعة التعدين منذ القِدم. فكانوا يستخرجون الذهب والفضـة والرصاص والنحاس والقصدير والحديد؛ حيث صبوا ونحتوا التماثيل المعدنية وبنوا جدران مصرفـي سد مارب مستعملين الرصـاص والحـديد. واستعملـوا الحـديد في صنع أدواتهم الزراعيـة وغيرها. ولكنهم تميزوا بصناعة الأسلحة كالسيوف والنصال والرمـاح. وكان للسيـود اليمانية صيت ذائع. فكثيراً ما يذكـر الشعـراء العرب أسلحتهـم ويفتخـرون بنسبتها إلى اليمن. وواقـع أن صناعة الأسلحة التقليدية ما زالت موجـودة. ونذكر منها على سبيل المثـال (الجَنْبيـة) بأنواعهـا المختلفـة، وهي بجانب كونها في الأصل سلاحاً يستعمل عند الحاجـة، فإنه يحلو لليمنيين أن يتزينوا بها. بل إنها في بعض الحالات بمثابة رمز اجتماعي. وربما كان أول ما يجذب نظـر الزائر إلى اليمن عندما يصل إلى مطـار صنعاء هو منظر بعض اليمنيين من حوله وهم متنطقون بتلك الجنابي المعقوفة الأنيقة. وصناعة الجنابي في اليمن صناعة رائجة نظراً لحاجة أهل البلاد إليها كحلية ولازدياد الطلـب عليها من ضيـوف اليمن. وبقدر ما تتفاوت دقة الصنعـة ومادتها وقِدمها تتفاوت أيضـاً أثمان هذه الجنابي. إذ بإمكـان المرء أن يشتري واحـدة منها بحزامها الجلـدي المزخرف بمبلغ زهيـد لا يزيد عن خمسين دولاراً. أو قد تُعْرض له

جنبيَّة نـادرة يتعذر عليه دفع ثمنها الباهض لو جاز بيعها، إذ يتجـاوز سعرها حينئذٍ آلافاً من الدولارات. والواقع أن صنعة الجنبية هي مجموعـة حرف يدوية، يشترك في صنعها عدد من الحرفيين؛ فمقبض (الجنبية) وهو أغلاها يعمل عادة من القرن أو الفضة. وأغلاها قد يكون من قرون الزرافة أو من قرن وحيـد القـرن. وقد يُطَعَّم ويزخـرف المقبض بالـذهب أو الفضة وهو عمل يحتاج إلى صائغ ماهر، تماماً كما يحتاج نصل الجنبية إلى حـداد متمرس بطرقها طرقاً دقيقاً بحيث تصبح سلاحاً ماضياً. أما غمدها وهو يصنـع عـادة من الخشـب والجلـد فيحتـاج إلى صانع آخر وكذلك الحـزام. والخناجـر معروفـة في كثير من بلدان العالـم وتختلـف أشكالها من مكانٍ إلى آخر. وقد يختلف الناس حول أصـل الجنبيـة تاريخيـاً، خاصة وأن أشكالاً منها منتشرة في دنيا الحضارة الإسلاميـة. فقد يراهـا المـرء في البلقان أو في الهنـد أو في شمال إفريقيـا أو شرقهـا، أو حتى في أندونيسيا. ولكنها مع ذلك قد ارتبطت في الغالب بالتاجـر العربي. وكان أهـل اليمن قديماً هم أكثر العرب اشتغالاً بالتجارة. ومن يـزر متحف صنعاء الوطني اليوم فإنه لا بدَّ وأن يشاهد تمثالاً قديمـاً ليمني وهو يشدُّ وَسَطَه بحـزام واضعاً جنبيـة عليه. على أن الجنبية التي كانت سلاحاً ماضياً فتاكـاً بيد المحـارب، قد اكتسبت اليوم وظائف اجتماعية أخرى، فهي ترمـز إلى بعض القيم المحببـة، كالرجـولة والمروءة والشجاعـة، وربمـا إلى المـركز الاجتماعي أيضـاً. فهي لذلك تشكل في اليمن ملمحـاً فلكلورياً بارزاً.

وقد استخدم اليمنيون المعادن الثمينة والأحجـار الكريمـة، كما تدل على ذلك كتب الهمداني، وخاصـة كتابه عن الذهب والفضـة ومناجمهما، حيث ذكر الهمداني الـذي ألف كتابه هذا في القـرن الرابع الهجري/العاشـر الميـلادي أنه ليس كمثل مناجم اليمن ولا حتى بخراسان (في إيران). ومثل ذلك منجم الرضراض الذي يقـع في ناحيـة نهم من مشرق اليمــن. كما ذكر أن قرية المعدن في نهم عظيمة وبها غيل ونخل. وكانت القوافل ترد إليها من البصرة، عبر طريق التجارة الذي يمتد من اليمن إلى شرق الجزيـرة عن طريق الفلج

واليمامة والبحرين إلى البصرة. وقد قدِّر إنتاج المنجم من الفضة حِمل جَمَل في الأسبوع أي ما يزيد على مليون درهم في العام. كما ذكر أنه كان في القرية أربع مئة تنور. وكان الطائر إذا حاذى قرية السعدن سقط ميتاً من نار التنانير. ويبدو أن هذا المنجم كان مستعملاً قبل الإسلام أيضاً. ولكنه ازدهر كثيراً في صدر الإسلام، وهو الآن قيد الاستعمال من جديد. وذكر الهمداني في مؤلفاته الأخرى معادن الأحجار الكريمة ونصف الأحجار الكريمة مثل الجزع والعقيق. واشتهر على وجه الخصوص العقيق اليماني (ONYX) وأنواعه كثيرة كالبقراني والعرواني والسعواني. وقد وصف العقيق البقراني بقوله: «هو نفيس، ومعدنه بجبل آنس، ويكون ألواناً وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ويبلغ المثلث من فصوصه مبلغاً كبيراً». وكانت العملة الفضية والذهبية تُسَكُّ في اليمن إبان العصور السبئية والمعينية والحِمْيرية. وقد عثر من تلك العهود على عملات فضية وذهبية كثيرة. وفي العصر الإسلامي كان يُسكُّ في اليمن الدنانير الذهبية والدراهم الفضية وغيرها من العملات البرونزية. واستعمل الناس قديماً هذه المعادن والأحجار الكريمة في صنع الحلي بأنواعها مع غيرها من الخرز الصدفية والعاجية. كما صنعوا من المعادن أيضاً الأواني للطعام والشراب وأدوات الزينة. والأسواق اليمنية مثل سوق الملح في صنعاء أو السوق القديم في تعز تحفل بأنواع الحلي اليمنية المصنوعة من الذهب والفضة. وكانت إلى وقت قريب تجارة الحلي الفضية رائجة. ومن اشتغل بها اليهود اليمنيون. ومن هذه الحلي التي تستعمل لتزيين معظم أجزاء الجسم عند المرأة، عصبة الرأس أو التاج أو حلقات الأنف وحلقات الأذن، واللَّبَّة واللازم والدُّقة وجميعها سلاسل مختلفة الطراز تُحلَّى بها رقبة المرأة وصدرها. وكذا أحزمة الوسط والمداور والخواتم وأساور اليد (الحداود) و(الشُّميلات) وأساور الزند والحجول وغيرها. ومعظمها تصنع من الفضة والذهب، وتتميز بصنعة دقيقة وطرز جذابة تتسم بالطابع المحلي. وقد يضاف إلى ذلك الحُلي المعمول من الأحجار الكريمة وحبات الكهرمان واللؤلؤ وأنواع الخرز المختلفة. وتحرص العروس على أن يقدم لها عريسها (فِضَّتها)

كاملة عند الزواج. والمرأة اليمنية بوجه عام تلبس كمية كبيرة من الحُلي وخاصة في الريف. ويصاحب لبس هذه الزينة ملابس تُطَرَّزُ محلياً مثل الملابس المُسَهَّمة والمشجرة. وقد يكون التطريز في الملابس كثيفاً لكثافة الحلي. وتضع المرأة اليمنية في العادة خماراً خفيفاً منقشاً تسميه المقرمة. وبدخول عناصر الحياة الحديثة تتغير كثير من عادات اللبس والزينة تدريجياً.

على أن أبرز العادات اليمنية التي بقيت رغم الزمن هي تعاون الناس في إنشاء المرافق العامة، وفي المناسبات، وخاصة في حفلات الزواج والولادة. ومن عادات القبيلة اليمنية أن يلبي المرء دعوة المستضيف والمشاركة في الدفاع عن الحمى والتكافل الاجتماعي. وقد اسهمَت العقيدة الإسلامية كثيراً في توطيد هذه القيم الحميدة ونبذ العادات المقيتة. وقد يختلف الناس ويذهبون إلى القضاء لحل خصوماتهم، ولكن من العادة اليمنية أن يصلح الناس وأبناء القبيلة أو الجيران فيما بين المتخاصمين (العُرف). وكثيراً ما يجتمع الناس في مجالس خاصة لحل الخصومات أو لتبادل الآراء. ويسمون هذه المجالس (دواوين) أو (مفارج)، ويكون المفرج عادة مهيئاً تهيئة حسنة للجلوس، ويطلُّ على منظر جميل، ويمضغ الناس فيه أوراق شجرة اسمها (القات). وهو نبات محلي إذا ما مُضِغَتْ أوراقه الغضة والطرية والطازجة تبعث على النشاط وتنبه الحواس. والمفرج عادة يمنية يجتمع فيه الناس دون رسميات وبقلوب مفتوحة ودون تمييز بين مستوى المراتب والأعمال. فهو يجمع الأصدقاء والضيوف لمدة تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات يخلد الناس فيه إلى الراحة، وفي الوقت نفسه ينشدون المتعة والفائدة. ومما يساعد على خلق هذا الجو المريح والهادىء هو نمط بناء المفرج الذي يكيف لتلك الحاجة وفق الطقس واتجاه الشمس. وقد يصاحب هذه الجلسات إنشاد التوشحات الدينية أو الغناء والعزف.

ومنذ القدم واليمنيون مولعون بالغناء والرقص، وقد تعودوا على ذلك، فهم عندما ينشؤون مرفقاً عاماً يغنون ويسمون ذلك (الهَجل)، بل إن لكل موسم من مواسم الزراعة عندهم نشيدة وغناءه. وعندما يتهيؤون للحرب

والدفاع عن الوطن ينشدون الأغاني الجماعية، ويسمون أناشيد الحرب (بالزّامل). ولهم تراث معروف في الموسيقى والغناء والشعر الشعبي المسمى بالحُمَيني. . ويقال أن بعض هذا الموروث قد انتقل مع الهجرات اليمنية وموجات الفتوحات الإسلامية إلى شمال إفريقيا والأندلس. كما انتقلت ألوان منه في العصر الحديث إلى شتى أنحاء الجزيرة العربية وأهم آلة يعزف عليها باليمن هي (العود) وقد يصاحب العزف على العود طبلة للإيقاع. ويشتهر في اليمن نوع خاص من هذا الغناء يسمى بالغناء الصنعاني، ويستلهم الفنانون المحدثون روائع هذا الفن الغنائي. وقد كونت في اليمن حديثاً فرق لإنشاد الأغاني الشعبية، وفرق لإحياء موروث الرقصات الشعبية المتعددة، ويشتهر من هذه الرقصات نوع يسمى (البَرْع) يؤديه مجموعة من الرجال ملوحين بأيديهم النصال الحادة. ويصاحب هذه الرقصة نقر قوي على نوع من آرب الضرب تسمى (الطاسة)، ولأهل تهامة رقص متميز يعتمد على المهارات الفردية وإبراز القوة الجسمانية، ويكون عادة مصحوباً بسلاح الحرب كالسيف والخنجر والرمح.

وتعتبر رقصة الشرح والرقصة الصنعانية من أحب الرقصات الشعبية في المناسبات، ويرقصها الرجال والنساء على السواء.

وعلى الإجمال، فأهل اليمن يميلون إلى الفنون، فهم يقرضون الشعر ويلتذون بسماعه، ويرتلون القرآن، وينشدون الأناشيد الدينية، ويهوون الغناء والرقص، يحبون زخرفة مبانيهم، ويعشقون الملابس الزاهية في ملابسهم، ويأخذون بأسباب الزينة، ويحبون البخور والعطور، ولا غرابة فاليمن منذ القِدم وهو معروف بالطيوب النادرة. ويكفي أن نذكر أنه كان بلد اللبان الأول، وكما كان اليمن يزخر بالطيوب والبهارات في الماضي فهو ما زال يفوح في الحاضر بعبق منها. وخير شاهد على ذلك هي المآكل الشعبية التي يتفنن اليمنيون في صفها، مضيفين إليها خبرتهم العريقة بالبهارات المحلية والشرقية. ففي اليمن أنواع شتى من الخبز مثلاً وذلك بحكم أنواع الحبوب التي تنبت في أرضه إلى جانب خبز البر والشعير ويصنعون خبزاً طيباً من الذرة

بأنواعها (MILIET SORGHUM)، ولهم أنواع عديدة من العصيدة، والتي تقدم مع المرق والسمن البلدي، وكذلك أنواع من الفتة (الخبز المهروس بالسمن أو المرق)، وتعد شوربة اللحم البلدي المعمولة من لحم الضأن المسلوق من أكثر الوجبات الشعبية انتشاراً. على أن أشهر الوجبات الشعبية اللذيذة وأرخصها ثمناً هي (السَّلتة) وهي طبق خليط يُقَدم ساخناً بإناء من الفخار أو الحجر على شكل شوربة قوامها الأساسي هي الحلبة مضاف إليه اللحم المفروم والبيض، وبعض الخضروات المحلية، والتوابل الخاصة بها. ويؤكل الرز أيضاً بأطباقه المختلفة (الرز باللحم) ويسمونه (الزُربيان) وهو طبق يشبه (الكَبسَة في الجزيرة أو المقلوبة في بلاد الشام، ولكن عمله أكثر تعقيداً، وله وصفة خاصة من البهارات. وكذلك الرز بالسمك وهو معروف في المناطق الساحلية ويسمونها (صيادية). أما الحلويات عديدة الأصناف يذكر على سبيل المثال (بنت الصحن). وهي حلوى تشبه (البقلاوة) ولكنها ذات مذاقٍ خاص وتقدم مع العسل بنكهته المحلية.

وإذا كانت الحضارة اليمنية في التاريخ القديم قد احتلت مكانة هامة ومتقدمة بين حضارات العالم الأخرى واستطاعت أن تسهَم بثراء في مسار التاريخ البشري، فإن اليمن اليوم وبعد مرور ما يقرب من ربع قرن من عمر ثورته الخالدة ثورة ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٩٦٢ م قد حققت قفزات متتالية في مختلف جوانب الحياة وتمكنت من كسر طوق العزلة الرهيبة التي فُرضت عليها قبل الثورة إبان حكم الإمامة المستبد والاستعمار الغاشم. فقد شهدت البلاد حركة عمرانية وتنموية نشطة وسريعة. وأحرزت تطوراً كبيراً في مجالات تحديث الإدارة وبناء العناصر البشرية، وتأهيلها تأهيلاً كافياً لمواجهة متطلبات العصر، وتلبية احتياجات التنمية. وقد اتبعت حكومة الثورة أسلوب البرمجة والتخطيط لعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد نفذت خطط تنموية طموحة كان أولها البرنامج الإنمائي الثلاثي ١٩٧٣ - ١٩٧٦ م الذي وضع المؤشرات الأولى لاتجاهات التنمية واللبنات الأساسية لبناء صرحها. ثم كانت الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٦ - ١٩٨١ م والتي ركزت على بناء الهياكل

الأساسية، حيث تم ربط معظم المدن اليمنية بشبكة طرق حديثة، وأدخلت وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية المتطورة محلياً ودولياً. وتم استكمال بناء محطتين مركزيتين للكهرباء. وتم إنشاء مئات المدارس والمعاهد الفنية المتخصصة. ويدرس اليوم في مدارس الجمهورية العربية اليمنية حوالي مليون تلميذ وتلميذة دراسة مجانية بالإضافة إلى جامعة صنعاء، والتي تعتبر من أبرز منجزات الثورة، وتشمل حالياً تسع كليات علمية ونظرية متخصصة. كما توفرت الرعاية الصحية المجانية لكل المواطنين، حيث تم إنشاء العديد من المستشفيات والمراكز الصحية في مختلف المدن والقرى اليمنية، بالإضافة إلى توفير سُبل الوقاية الصحية، وفي مقدمتها توفير الماء النقي، واجتناب تلوث البيئة. وانفتحت اليمن على العالم، فشجعت الحركة السياحية العالمية، ووفرت التسهيلات اللازمة، وأقامت المرافق الخدمية، بالإضافة إلى تطوير الموانىء والمطارات، ودعم الخطوط الجوية اليمنية (اليمنية)، والتي تربط اليمن بالعديد من دول العالم، ولها رحلات منتظمة إلى أوربا وغيرها. وتعيش اليمن اليوم منجزات الخطة الخمسية الثانية (١٩٨٢ - ١٩٨٦ م) والتي احتلت فيها القطاعات الإنتاجية مكانة هامة، وخاصة القطاع الزراعي، وإحياء أرض اليمن الخضراء، ثم التنقيب عن المعادن والثروات الطبيعية، وقد بدأت الخطوات الأولى لإنتاج البترول في المناطق الشرقية، وفي حوض مارب الجوف وتصديره إلى الخارج.

ومن عجيب المصادفة ومما يبعث على التفاؤل أن يبني أهل اليمن الآن مرة أخرى سد مارب في المشرق، رمز حضارتهم القديمة، جنباً إلى جنب مع الجهود الجادة للتنقيب عن المعادن والبترول في المنطقة القديمة والأرض الطيبة نفسها التي عُرفت في الماضي بالعربية السعيدة؛ وهو مؤشر دالّ على طريق الحياة التنموية الجديدة، وأمر يبغث على الأمل، ويبشر بمستقبل ينضج بالخير والسعادة؛ وكأن التاريخ يعيد نفسه، والماضي ما زال يحيا في الحاضر.

مصطلحات عربية في المعايير والأوزان
من كتاب
(الجوهرتين العتيقتين) للهمداني

تمهيـــــد:

عهـد إليّ أستاذي الكبيـر العلامة الشيخ حمد الجاسـر بنقل هذا المقـال من اللغة الألمانيـة إلى اللغـة العربيـة، فلعل ما فيه يلقي ضـوءاً على بعض المصطلحات في المعايير والأوزان التي ذكرها الحسن بن أحمد الهمداني (القـرن الرابع الهجري) في كتاب (الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء) (الذهب والفضة).

وكان الشيـخ حمد الجاسـر من أوائل من نبّـه إلى أهميـة هذا الكتـاب، ويدين له أهل العلم بكثيـر من المعـارف والتصويبـات والإحالات فيما يخص هذا الكتـاب؛ وفضلـه في غير هذا ذائع ومشهـود، أطال الله عمره ونفعنا بعلومه.

والـدكتور (كرستوفر تول) هو عالم محقـق من السويـد، وأستاذ للدراسات العربية في إحدى جامعات الدانمارك، وتلميـذ نجيب للعالم السويدي المعروف (أوسكار لوفجرن) الـذي قضى سنين طويلة ينقب عن المخطوطات اليمنية ولا سيما آثار الهمداني، ولا يزال يعمل في هذا السبيل إلى اليوم، ونتمنى له دوام الصحة والعافية.

وكان الـدكتور (تول) قـد حقـق كتاب (الجوهرتين) عام ١٩٦٨ م ونقلـه

إلى الألمانية، وقدم له بدراسة نقدية جيدة. إلا أن الكتاب نُشِرَ بنسخ قليلة، وبخط المحقق في نصه العربي، وبالآلة الكاتبة في النص الألماني، ولم يتسنّ له أن يُصفّ بالمطبعة مما أعاق سهولة تداوله.

وفي عام ١٩٨٢ م أصدر الأخ الصديق محمد الشعيبي طبعة جديدة للكتاب اعتماداً على كتاب الدكتور (تول)، ولكن طبعة الشعيبي والتي تنمّ عن جهد طيب تناولت النص فقط وأغفلت ما عدا ذلك. وكنت قد التقيت بالدكتور (تول) خلال حضوره الندوة العلمية العالمية بمناسبة الذكرى الألفية للهمداني في صنعاء ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٨١ م، واتفقت معه على إصدار الكتاب ضمن منشورات مشروع الكتاب التابع لوزارة الإعلام والثقافة في الجمهورية العربية اليمنية. وفعلاً عهدت لجنة مشروع الكتاب بالوزارة إليّ بالمهمة، فكان أن نقحتُ النص ونقلتُ الدراسة التي تتصدره عن الألمانية إلى العربية، وأثبت الهوامش الأصلية والفهارس الملحقة كما هي، خوفاً من مزالق الطبع، وحفاظاً على ترقيم صفحات المخطوطة الأصل والنص المحقق، وصدر الكتاب في عام ١٩٨٥ م.

وكنت أعلم أن هذه الطبعة لن تغني عن طبعة أخرى ينوي إصدارها أستاذنا العلامة القاضي محمد علي الأكوع، أو عن طبعة جديدة بتحقيق الشيخ حمد الجاسر الذي تدين له الطبعات السابقة بالفضل وتحمل الكثير من بصماته، ولكني كنت أعلم أيضاً أن كتب الهمداني تحتاج دوماً إلى تحقيق جديد.

وما ضرَّ لو تداول الكتاب عالمان، فلربما كان الجهد أبلغ في الإفادة. وقد حقق كتاب (صفة جزيرة العرب) إلى اليوم ثلاث مرات، وصدر حسب مبلغ علمي في طبعات أكثر من ذلك. ولا أظن أن أحداً من أهل الشأن لا يتمنى أن يحقق الكتاب من جديد على ضوء المعارف الجغرافية الجديدة. وأن يلحق النص بخرائط دقيقة مفصلة. وتبرز الحاجة إلى ذلك كلما أكثر المرء من استعماله، أو سلطت عليه جهود الباحثين الجدد المتزودين بأدوات صناعة العلم الحديث. راجع مثلاً، أطروحة الدكتور روبرت ويلسون (كامبردج

١٩٨٢م)، وأطروحة الدكتور عبد الله الشيبة (ماربورج ١٩٨٢ م)، وكِلتاهما تعنيان بجغرافية اليمن التاريخية.

لقد قصدت بهذا التمهيد أن أضع مقال الدكتور (تول) في إطاره العلمي وسياقه التاريخي، إذ أنّ عمله هذا هو تكملة لجهده السابق، ولربما تكون فيه فائدة لعمل لاحق. ومنْ يتأمل كتاب (الجوهرتين) لا ريب أنه سيجد ألفاظاً ومصطلحات أخرى تحتاج إلى دراسة وتحقيق، وفجوات ما زالت تنتظر مخطوطة جديدة حتى يعمل على سدها.

وسواء اتفق المرء مع تخريجات الدكتور تول ومناقشاته اللغوية أم خالفه إلا أنه سيغبطه على حسن اطلاعه على المصادر، وقدرته على التحليل اللغوي وإلمامه بذلك العدد الوافر من اللغات الحديثة والقديمة.

ولقد حَرْصت على نقل النص دون تصرف؛ ولكني حاولت أن أنقل معظم الإحالات إلى اللغة العربية، وكذلك الألفاظ والتعابير والنصوص التي أثبتها الكاتب بلغاتها أو كتاباتها الأصلية في ثنايا النص الألماني، تيسيراً للقارىء العربي وتجنباً لمزالق الطبع، وهي عندنا كثيرة والحمد لله.

أما ما عنّ لي من ملحوظات، فهي إما موضوعة بين قوسين مربعين في ثنايا النص أو موسومة بنجمة في الهامش(*).

* * *

يورد كتاب (الجوهرتين العتيقتين)، والذي نُشر في أبسالا ١٩٦٨ م[1] مصطلحات عديدة أصولها غير عربية، في مجالي المعايير والتعدين. وموضوع هذا المقال هو بحث بعض تلك المصطلحات التي وردت في كتاب الهمداني المذكور الذي يُعنى بالتعدين وصنعة النقد.

(*) نُشر هذا المقال بالألمانية بعنوان بعض المصطلحات العربية في المعايير والأوزان في مجلة: ORIENTALIA SUECANE, VO: XIII uppsala 1970

(١) نُشِرَ منقحاً في طبعته الثانية ضمن منشورات مشروع الكتاب، بوزارة الإعلام والثقافة في الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء ،بإشراف د. يوسف محمد عبدالله (١٩٨٥م) وسيكون المعوّل على هذه الطبعة في الإحالات الواردة في المقال ـ المترجم ـ

(١) القفلـــــة:

يرد اللفظ قفلة منصوباً بمعنى دفعة واحدة (على الجملة)، (بالجملة) في قوله: «وكان لعله ينفق من الصّرة الكبيرة الثلاثة دراهم قفلة»(ص ١٣١). وفي قوله: «وكان وزنه قفلة أربعة دراهم» (ص ١٦٨). واللفظ بهذا المعنى معروف، فقد جاء في (اللسان): (والقفلة) إعطاؤك إنساناً شيئاً بمرة، يقال: أعطاه ألفا قفلة (ابن دريد): ودرهم قفلة أي وازن والهاء أصلية، قال الأزهري هذا من كلام أهل اليمن، قال: [ولا أدري ما أراد بقوله الهاء أصلية][٢].

وقد يرد اللفظ بصيغة (درهم قفلة) في قوله: فكان يقع المطوّق من الفضـة عشرين درهماً قفلة. والدينار المطوّق يعادل عشرين درهماً قفلة من الفضة (انظر مادة مطوّق أدناه) وقوله: يكون وزنه من درهم قفلة إلى مثال (ص ١٤٥). وقوله: وهو يحتاج من الإعادة إلى ما ينقص من كل مئة درهم قفلة درهم[٣]. وفي حالة الجمع تكون الصيغة: (دراهم قفلة) كقوله: «يخلّص منها عشرة دراهم قفلة» (ص ١٩٨) وقوله: «وأما ربع حبة في جميع العيار الذي هو أربعة دراهم قفلة» (ص ١٧٠). ويمكن أن يكون اللفظ قفلة في المثال الأول في حال النصب أيضاً. ولكن الأمر يختلف تماماً عندما يكون اللفظ معرّفاً، كقوله: سعة الدرهم القفلة (ص ١٧٩)، وقوله: «غلظ الدرهم القفلة الوسط» (ص ١٣٤) أي في سُمك درهم قفلة.

إن معنى اللفظ واضح. فصاحب (اللسان) وصاحب (تاج العروس)، وابن سيدة في كتاب (المخصّص) ١٢/ ٢٩، ينقلون عن ابن دريد قوله: «درهم قفلة أي وازن والهاء أصلية». ويضيف صاحب (اللسان): قال الأزهري: هذا من كلام أهل اليمن، قال: ولا أدري ما أراد بقوله «الهاء أصلية». وقوله «إن الهاء أصلية» يفيد أنها غير تاء التأنيث وهو قول صحيح، إذ إن الاسم درهم مذكّر. أي أن اللفظ (قفلة) ليس نعتاً مشتقاً للفظ (درهم) وإنما هو اسم جامد،

---

(٢) ما بين معقوفتين من زيادة المترجم.

(٣) في الطبعة المنقحة: ما ينقص: في كل مئة درهم قفلة درهم، انظر ص ١٦٣.

ومحلّه من الإعراب بدل من درهم[٤] وفيها قرىء اللفظ: (درهم قفلة) وهي قراءة غير ممكنة، لأن للفظ استعمالان، فيقال (درهماً قفلة) في حال كون اللفظ نكرة، ويقال (الدرهم القفلة) في حال التعريف.

والجذر (ق ف ل) من الجـذور المألوفة في اللغة العربية. وله كما يبدو معنيان، الأول: (قفل) بمعنى (رجع)، ومنه اشتق اللفظ المعروف قافلة، وهو بهذا المعنى يشترك مع الجذر نفسه في اللغة الآرامية والمندائية والحبشية بمعنى (تحوّل)، (ردّ) (نقل) المعنى الثاني: (قفل) بمعنى (يبس) وهو معنى شواهده ضعيفة في اللغات السامية الأخرى. ويتناول (فرنكل) الجذر نفسه في كلامه عن الألفاظ الآرامية الدخيلة رقم ١٦: انكمش النبات = يَبُس. ويبدو أن المعنى الثالث للجذر وهو أغلق مشتق من الاسم (قُفْل)، (مزلاج)، عبر اللفظ الآرامي قفلا (لم يوردها فرنكل) من اللفظ COPULA. وبهذا المعنى يقـال (الرجل قُفَلَة) أي حافظ لكل ما يسمع. (انظر اللّسان)، وراجع الصيغة في (٣٥٢: BROCKELMANN, GRUNDRIS 1).

ليس فيما سلف من معانٍ ما يسعف على تبيان اشتقاق اللفظ الذي نحن بصدده غير أن هناك (قفلة) أخرى، قد تؤدي مناقشة لفظها إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي للّفظ، وهو قفا الرأس، فربما كان أصل اللفظ آرامي (قفايثا) من اليونانية (قَفَلِيس)، قَفَلدوس (وهو تصغير قَفلي) (إمالة) بمعنى الرأس أو بمعنى مؤخرة الرأس[٥].

وفي الآرامية ألفاظ تُشتق من قِفَلِي (إمالة) اليونانية، ويجد المرء واحداً منها في الحيثية كفل = رأس، وفي بعض اللهجات السريانية العربية (قفّل الشجرة) أي قطع رأسها، غير أن ما يهمنا في هذا السياق هو اللفظ السرياني (قِفَلِيون) من اليونانية (قِفَلَيُون) ومعناها مبلغ من المال. وقولهم في السريانية (بكفليون) من اليونانية (ان قفليو) بمعنى بالجملة، وفي هذه الأخيرة يكمن أصل معنى

---

(٤) H. L. FLEISCHER , KLEINERE SCHRIIFTEN 2:1, LEIPZIG 1988, 44 ff. A. GROHMANN, SUEDARABIEN ALS WIRTSCHAFTS GEBIET. I, WIEN, 1922, 201 FUSSN. 1

SIFAT GAZIRAT AL CARAB, HRSG. VON D. H. MUELIER)LEIDEN, 1884, 1:194

(٥) J. LEVY, NUEHEBER. UND CHALD. WOERTERBUCH.

(قفلة) في قولهم (درهم قفلة)، وفي حالة النصب (قفلةً) بمعنى بالجملة بالكامل.

وفي اللغات الأوربية ألفاظ دخيلة تعبّر عن مثل هذه المصطلحات أي مثل جملة وبالجملة بكامله.

فدرهم قفلة يعني: درهم جملة، أي درهم كامل دون نقص، ويشبه هذا المعنى ما قرره (بيستن)[٦] حيث اعتبر قوله تعالى: ﴿دراهم معدودة﴾في سورة ١٢ الآية ٢٠ مأخوذاً من التعبير اليوناني (إرتميا نُمِسْمتيا)، قارن أيضاً التعابير المشابهة مثل (دينار عدد)، (عين معدد)[٧]. فقد كانت النقود المعدودة توزن أيضاً (راجع المصدر السابق نفسه). وقد ورد في اللسان وغيره (انظر أعلاه): (درهم قفلة) أي: وازن.

أما قيمة درهم واحد قفلة فيمكن أن يستنتج ذلك بالتقريب من خلال إشارة للهمداني في (صفة جزيرة العرب) ص ١٩٤[٨]: (ويكون العسل هنالك ستة أرطال بالبغدادي وسبعة وثمانية بدرهم قفلة). وانظر أيضاً فيما يلي: دينار مطوّق[٩].

(٢) مُطَــــوَّق:

يذكر المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) تحقيق دي خويه في ليدن ١٨٧٧.. أن أهل مكة كانوا يستعملون الدنانير المطوَّقة، ويشبهها بالدراهم اليمانية فهي كالمكية تقبض عداً. (انظر أعلاه: درهم قفلة)، ويساوي الدينار منها ثلثي مثقال. ويؤيد ذلك ما أورده، الهمداني في (صفة جزيرة العرب) حيث قال: إن الدرهم المُطَوَّق يعادل الدهم القفلة (ص ١١٤)[١٠].

(٦) ARABIC AND ISLAMIC STUDIES IN HONOR H. A. R. GIBB, LEIDEN, 1965, 103.

(٧) GROHMANN, EINFUERUNG UND CHRESTOMATHING ZUR ARABISHEN PAPY RUSKUNDE, 1, PRAHA 1955, 187.

(٨) هذا في طبعة ليدن، وفي طبعة دار اليمامة ص ٣٥٠.

(٩) وقريب مما يرمي إليه الكاتب ما يقال عادة في سجلات العقود والبيع والشراء: اشتراه بثمن قدره خمسون ريالاً حجراً أو صحيحاً. وقد لفت انتباهي الأخ المقدم علي المؤيد إلى أن اللفظ، مستعمل في كتب الفقه، ولا يزال يستعمل في أسواق الذهب بصنعاء إلى اليوم، وفي الحالين يدل اللفظ على معيار وزن وليس ما يراه الكاتب.

(١٠) هذا في طبعة ليدن. وفي طبعة دار اليمامة ص ٢٤٩: «ربما وقع فيها القَرَظ من ألف رطل إلى خمس مئة بدينار مطوق على وزن: الدرهم القفلة»

وكتاب (الجوهرتين العتيقتين) أدق في تحديده للقيمة، حيث يقول: «المُطَوَّق ثلثا مثقال وحبتان والعشرة المطوقة وقيّة وهي سبعة مثاقيل»(**). ومن المعلوم أن قيمة الدرهم إلى الدينار (المثقال) ثلثا مثقال بينما هي في الشريعة أعشار المثقال[11].

ونعلم من كتاب العلوي نسبة القيمة بين الدينار المُطَوَّق والدرهم الفضة، نقلاً عن آخر[12]ففي عام ٢٩٢ هجرية الموافق ٩٠٥ ميلادية كان الدينار المُطَوَّق يساوي ١٢٠٦/١ درهم أي «عشرين درهم». وفي (الأعلاق النفيسة) لابن رستم، طبعة دي خويه، ليدن ١٨٩٢ م وهو معاصر تقريباً يذكر أن الدينار المُطَوَّق يساوي ٦٠ إلى ١٠٠٦/١ الدرهم، أي ١٦٣/٢ من الدرهم. ويروي الهمداني في (الجوهرتين العتيقتين) أن ٢٠ درهماً قفلة من الفضة كان يعطي دينـــاراً مطَوَّقاً. أما عندما انقطع معدن الرَّضْراض سنة ٢٧٠ هـ/٨٣٣ م صارت الفضة بصنعاء إلى وقيّة بدينار مُطَوَّق أي عشرة دراهم فضة. وفي عام الحطمة (سنة القحط الشديد) سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م عادت النسبة إلى دينار مُطَوَّق بعشرين درهم فضة ويلحظ المرء، مثل هذا التقلب في جداول جروهمان التي أوردها في كتابه السالف الذكر (ص ١٩٠ فما بعدها).

ويساوي الدينار المُطَوَّق ٢٤ درهماً مزبّقاً عند المقدسي ويذكر البيروني الزيبق (أو المزبّق) إلى جانب الدينار المُطَوَّق، (الجماهر في معرفة الجواهر، تحقيق كرينكوف، حيدرآباد ١٣٥٥ هـ صفحة ٢٣٠، الترجمة الروسية لبلينتسكي ولِملاين، لينينجراد ١٩٦٣ م ص ٢١٦). ونقله المترجم بمعنى الدينار الزئبق أو المطلي أو المزيف. وظن أن «المطوّق» كما يفهم من السياق مأخوذ في معناه من زيبق. أما نص المقدسي فينبغي أن يقرأ (الدرهم) المزبّق. وأما معنى مزبّق هنا فلا أعرف. غير أنه يصعب عليّ اعتبار اللفظ بمعنى مُزأبق أو

(**) الجوهرتين ص ١٢٧.

(١١) W. HINZ, ISLAMICHE MASSE UND GEWICHTE, LEIDEN, 1955, Ho ERG. BD.1:1,1

(١٢) GALS 1:1230, SIRAT AL « HADI, (FROM): c. van arendonk, de opkomst van het zaiditische immamat in yamen, leiden 1919, 215, FUSSN.10.

مزيبق؛ إذ أن هذا النوع من النقود مزيف حقاً مثلها مثل المكحّلة (قارن سوفير رقم ١٥٣ وكتاب (الجوهرتين) ص ٢٣٩ وكذلك مرتكية في المصدر نفسه). أما المزبقة التي تساوي المُطَوَّقة الذهب فهي عملة متداولة، بل تُعد المُطَوَّقة، من أجود النقود الذهبية التي سُكت في الدولة الإسلامية. ومع ذلك فلربما كانت صيغة اللفظ مزبق هي في الأصل صيغة اللفظ مُطَوَّق نفسها، كما سيأتي - ومن الجدير بالذكر أن أبا مخرمة ذكر المُطَوَّق أيضاً (ألف كتابه في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي) انظر (تاريخ ثغر عدن)، تأليف أبا مخرمة، وتحقيق لوفجرن، أبسالا ١٩٥٠ ص ١٢٩.

لقد عُرف منذ زمن ليس بالقريب أن اسم المفعول مُطَوَّق مشتق من الفعل طوَّق. فقد نقله سوفير إلى الفرنسية بمعنى مدوّر، وترجمه دنلوب منذ عهد قريب فقال: يظهر أن، معناه دينار بحدّ أو طرف»[١٣]ولكن دي خويه اقتصر على القول أنه (DENARIUS MECCANUS) ولذلك في معجم الألفاظ لكتاب المقدسي (BGA 4:292) ومعنى طوَّق عند (LANE) أي في قاموسه «كل شيء يحيط بشيء آخر».

والطوق معروف كما قيل في المثل: كبر عمرو عن الطوق. أي لقد شبّ عمرو ولم يعد يلبس طوقاً، راجع كتاب (الجوهرتين) ص ٢٠٢. وزاد دوزي فقال: إن معناه (حافة) كأن يقال حافة الإسطرلاب، حاشية قماش (دائرة المعارف الإسلامية مادة إسطرلاب). ويشتق من (طوق) صيغة الفعل طوّق، ومعناه حلّي بطوق. وفي كتاب (شذور العقود) للمقريزي، تحقيق تيكسن «TYCHSEN»، روستوك ١٧٩٧ م، ص ١٥، وتحقيق الكرملي في النقود العربية القاهرة ١٩٣٩م ص ٣٦. ورد ما يلي: «وطوق الدرهم على وجهه بطوق وكتب في الطوق الواحد».. أي أن (طوق) في النقود تعني إطار يكتب عليه. وهذا المعنى يتكرر في كتاب (الجوهرتين ص ٢٢٥ - وما بعدها وص: ٢٣١ وما زال يستعمل بهذا المعنى إلى اليوم مقابلاً للفظ مركز مرادف للفظ

---

(١٣) الهامش رقم ٣ في: STUDIA ISLAMICA 8/1957

هامش. راجع ناصر محمود النقشبندي: (الدينار الإسلامي في المتحف العراقي)، الجزء الأول، بغداد ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م ص ٥٦ وعبد الرحمن فهمي (موسوعة النقود العربية)، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٥م عندما وصف النقود في الكاتلوج .

وهذا يقودنا إلى السؤال: لماذا سمي الدينار اليمني (المحلّى بطوق) بالدينار المُطَوَّق؟ فالدنانير الأخرى يكتب عليها أيضاً. دعونا إذن ننظر في اشتقاق الكلمة وتطورها إذ يبدو أن لا علاقة للفظ (طوق) بأي من الجذور العربية. وما زالت صيغة (فعّل) تحمل المعنى المجازي للفظة الأصلية. كقولهم طوّقه بالصعاب أو الثناء أوالعتاب أو الطاقة ويأتي من طوق بمعنى قوة من الفعل طَوَق وأطوق (طاق، أطاق) ما معناه أعطاه القوةأو مكّنه، والمطوق هو الممكن لعمل شيء. وقد جاء في كتاب (الجوهرتين) ص ٢١٩ (مطوق بالنار) مقابل صليب على النار. وفي (الصفة) للهمداني ص ١٢٦ (تحقيق موللر - ي. م.) طائق / طاق اسم جبل ..(؟ - ي. م).

ويبدو أن الجذر طوق غير معروف في بقية اللغات السامية. وتقديري أن اللفظ صيغة مأخوذة عن الإيرانية (طبق) من البهلوية (تابك) وهي في الفارسية الحديثة (تاب)[١٤].

ومعناه في الأصل وعاء مدور. قارن (تابيدن) يدوّر. ويشبه إبدال الباء بالواو ما نعرفه في لفظ كبكب / كوكب ويؤيد ذلك في السريانية (طوقا وطبقا) واللفظان في السريانية بمعنى واحد أي طبق .

وجاء في كتاب (GROHMANN, EINFUERUNG, 183) إن (دينار) في اللغة القبطية أصله من اليونانية ومعناه (بدائرة كاملة) ولهذا فإن اللفظة الإيرانية ربما كانت أيضاً نقلاً عن اليونانية .

أما عن شكل الدينار المُطَوَّق فنفيد من مصدرين، أولاً: وصف الهمداني

---

(١٤) راجع: P. HORN, GRUNDIS NR 372, H. HUEBSHMANN, PERSICHE STUDIEN 46

في كتاب (الجوهرتين) للنقود وصناعاتها؛ ولكن وصف الهمداني في ص ٢٣٤ يتعذر قراءته في (المخطوطة) مع الأسف، والطبع (على طوق) (على ثلثي طوق) و (على نصف سوق)، ما كان الدينار والدرهم أفسح من الطوق فحُزَّ منه جميعاً، وذو الثلثين ما وقعت حروفه في نصف الطوق فامتد فصار تاماً وسُمّي المردود، وذو النصف يكون قصيراً يأخذ حروفه أداني الطوق، فإذا مدّ في الحديد أخذ الطوق أكثر من نصفه إلى ثلثيه والمدور حفرها .

ويبدو أن الختم قد اتسع بغرض ضرب النقود ذات ثلثي الطوق. ونصف الطوق. ووفقاً لذلك فإن مساحة سطح الدينار المُطَوّق اتسعت بحيث صارت تقريباً بشكل الدنانير المعهودة، ورغم أنها أقل منها بالثلث. ولهذا فإنه من الممكن أن يفهم معنى المصطلح (دينار مُطَوّق) كالآتي: دينار مُحلى بطوق نتيجة لاتساع لدى الضرب .

وأخيراً نود أن نَنْقُدَ النقود نفسها، حيث نعرض قائمة بالنقود اليمنية التي ضُربت في الفترة بين (٢٢٢ ـ ٣٤٠ هـ). ونعرف من كتب النقود أوزانها وأقطارها. وجميع هذه النقود ضُربت في صنعاء باستثناء تلك التي ضُربت في صعدة عام ٢٩٨هـ .

السنة/ هجرية	القطر	الوزن	المصدر في كاتلوج النقود
٢٢٢	٢٢مم	٣,٤٥ جرام	فهمي ٢٠٠٣
٢٢٤	١٩مم	٣ , ٢٢٥ جرام	المصدر نفسه .
٢٢٤	٢٠,٦مم	٤ , ١٥٤ جرام	النقشبندي ١٤١ أ
٢٢٤	١٩,٤مم	٣ , ٤٨ جرام	المصدر نفسه ب
٢٢٤	١٨,٥مم	٣ , ٣٤ جرام	جي سي مايلز، نقود إسلامية نادرة ، نيويورك ١٩٥٠. هوامش وأشكال ١١٨ و١٣٩
٢٢٨	١٩مم	١ , ٨٧ جرام	فهمي ٢٠٤٧
٢٢٩	٢٠,٥مم	٣ , ٤٨ جرام	مايلز ١٤٣ .
٢٣٧	١٩مم	٣ , ١٧٥ جرام	ب. م. لين بول ٩:٦٢، ٢١٧ب
٢٣٨	٢٠مم	٣ , ١٦ جرام	برلين،نوتزل ١٤٦٢ (مقصوص بشدة)

السنة/ هجرية	القطر	الوزن	المصدر في كاتلوج النقود
٢٤٩	١٨مم	٢,٨٧جرام	ب ن لافوا ٩٧٣
٢٤٩	١٨مم	٢,٩١ جرام	ب ن ٩٧٤
٢٥٦	١٧,٥مم	٢,٩٥ جرام	برلين ١٥٢٧
٢٥٦	١٨مم	٢,٩ جرام	ب ن ٩٩١
٢٥٧	٢٠ مم	٢,٩١ جرام	مايلز ١٥١
٢٥٩	٢٠مم	٢,٩ جرام	المصدر نفسه ١٥٧
٢٦٥	٢٠مم	٢,٩١٥ جرام	ب م :٩:٦٩، ٣٥٥ك
٢٨٠	٢٠مم	٢,٨٦ جرام	فهمي٢٣٩٣
٢٨٣	١٨مم	٢,٩ جرام	ب م ٣٧٨
٢٩٨	٢٠مم	٢,٧٨٥ جرام	ب م ٣٦٠ - ٢٠٠
٢٩٨	٢١مم	٢,٨٢ جرام	فهمي ٢٤٦٢ مقصوص
٢٩٨	٢١مم	٢,٨٥ جرام	المصدر نفسه٢٤٦٣
٢٩٩	٢٠مم	٢,٨٢ جرام	مايلز ١٧٧
٣٠٤	١٧,٥مم	١,٩٩٤جرام	ب م ٩:٧٥، ٤١١ وما يليه
٣٠٦	١٧,٥ مم	٢,٩١ جرام	برلين ١٦٤٤
٣٠٧	١٨مم	١,٩٥ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٤٠
٣١٣	١٨ مم	١,٨٧٩ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٤٥
٣١٤	١٨مم	١,٩ جرام	ب ن ١١٢١
٣١٥	١٨مم	١,٩٢ جرام	ب ن ١١٣٣
٣٣٥	١٨مم	١,٨٧٩ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٦٣
٣٣٨	١٨ مم	١,٨١٤ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٦٣
٣٣٨	١٨ مم	١,٧٤٩ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٦٤
٣٤٠	١٩ مم	١,٧٤٩ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٦٧
	١٨	١,٨١٤ جرام	ب م ٣٦٠ - ١٦٨

إن الوزن العادي للدينار (٢٥ , ٤ جرام) . ولم يبلغ هذا الوزن أي من الدنانير المذكورة في القائمة من الفترة ٢٢٢ ـ ٢٣٨، بل إن معظمها تقلّ عن ذلك كثيراً، وقد استعمل الدينار المُطَوّق بين عامي ٢٣٨ و ٢٤٩ كانت بوزن الدرهم، أي (٩٨ , ٢ جرام) وبقي مقدار مساحته دون تغيير يذكر ـ وكان معدل تنقيص القطر (٧٥ , ٢ مم) وكانت النقود لا تنقص في وزنها عن الدرهم إلا قليلاً. وفي عام ٣٠٧ بدأت تحِلّ الدنانير محل الدنانير المُطَوّقة التي كانت تقل في وزنها عن جرامين، وينقص قطرها ملمتر واحد، (في المتحف البريطاني وضعت النقود في الكاتلوج تحت عنوان (أنصاف الدنانير)، ولكن النص على النقود هو : (ضُرب هذا الدينار وليس هذا النصف) . أما نقصان الوزن فلا يمكن الحكم عليه دون أن تفحص النقود نفسها. فقد يكون بسبب الطرق الذي يُرِقّها، كما يفهم من الهمداني أو قد يكون بسبب تغيير العيار .

وأخيراً ينبغي ذكر ما أورده المقدسي من أن المُطَوّقة مساوية للعثّرية (أحسن التقاسيم) ٩٩، قارن ابن حوقل (BGA2. 20,) والنصان ترجمهما سوفير رقم ٩٠؛ قارن لوفجرن في دائرة المعارف الإسلامية، مادة (عثر) . وكذلك النصوص العربية نفسها وثبتَ الألفاظ. ومبلغ العلم أن هناك دينارين عثّريين فقط، أحدهما من عام ٣٤٢ ووزنه ٤٧ , ٢ جرام (ب. ن ١٢٦٨)، والآخر من عام ٣٤٨ وقطره ١٦,٥ مم ووزنه ١,٣ جرام (ب م ٤٧٨) ولكن ذلك لا يخرج عما ذكره المقدسي .

(٣) سقوم:

حسب علمي أن اللفظ (سقوم) ورد في كتابين فقط. جاء في كتاب (الجوهرتين) ١٧٦ ما يلي : « الوزن يصحّ على وجهين: إما برأسين وإما بسقوم . . وأما السقوم فأن لا يكون المال مما ينقسم مثل القطعة الواحدة والدينار الواحد والدرهم الواحد، والوجه في ذلك أن تعمد إلى القطعة من المال فتصيرها في الكفة اليمنى وتجعل مثقالها في الكفة الثانية ما تشاء من أوزان أو حديد أو حجارة أو ملح أو غير ذلك من الرصاص والصفر وما أمكن. فإذا قام المُلَسِّن أو اعتدال عمود الشاهين واستوت ووقعت الكفتان معه أخرجت قطعة

المال ونظرت ما يقوم مقامة في الميزان من الأوزان المعروفة . فما كان فهو وزنها بالصحة، لأن قطعة المال تصير وكأنها تلك الأوزان في كفنها، والذي في الكفة الأخرى هو السقوم وبه شبهت رمانة القرسطون . . »

أما الكتاب الأخضر الذي يرد فيه هذا اللفظ فهو مقالة في الأوزان والمكاييل لإيلياء (إلياس ابن سنايا) مطران نصيبين. وتوجد مخطوطات من هذا المؤلف في باريس (BIBL. NAT. ARABE 206 BL. 1648 - 1848) غير كاملة . و (GOTHA) (١٣٣١) والقاهرة (التيمورية رياضة، ٣٤١).

وقد ترجم المخطوطة الباريسية هـ .سوفير إلى الفرنسية في مجلة (JIRSAN. S. 9/1877, 293-313) وترجمت الفصول الناقصة في المخطوطة الباريسية عن مخطوطة (GOTHA) في مجلة (JRSAN. S., 12/ 1880, 110 - 125) .

جاء في مخطوطة باريس BL. 182 A ما يلي: « فإن كان السعر أقل من عشرة دراهم للدينار تركنا الكفة التي هي الرّمانة على ذلك المقدار من العمود وجعلنا في الكفة اللطيفة التي في الطرف الأطول من السقوم ما يعتدل معه الكفة الكبيرة والعمود. ثم تجعل الذهب في الكفة التي هي الرمانة وتضع في الكفة الكبيرة من الدراهم ما يستقيم معه الوزن ويوازي العمود للأفق ».

وفي BL. 183 A جاء أيضاً ما يلي: « ثم أخرج الدراهم من الكفة واعزلها، واجعل الكفة التي هي الرمانة من العمود على علامة تمام مبلغ السعر وعدلها بالسقوم » .

ويفهم معنى اللفظ من السياق، فهو عند الهمداني الوزن الذي يكون في إحدى كفتي الميزان ويعادل تماماً الوزن الذي يكون في الكفة الأخرى من الذهب الموزون. وهو عند إيليا الوزن المقابل الذي يقوم به اعتدال الميزان، أي الذهب الذي يوضع في كفة الميزان المتحركة، لتستقيم معه الوزن، ويوازي العمود للأفق بوضع عدد من كِسر الدرهم على الكفة المقابلة التي يجعل فيها السقوم .

ويبدو من قراءة حروف اللفظ المُصَوَّتة أنه لا لَبْس فيه ولا غموض، على أننا نجد في مخطوطة الهمداني (أبسالا رقم ٥٥١، كاتلوج تسترشتين ٢٠٤) أن اللفظ قد ورد مرتين بحروف مهملة (سقوم) وثلاث مرات بإعجام القاف (سقوم). وفي مخطوطة إيليا جاء في المرتين (السقوم). ولي عود للحديث عن الضبط بالحركات ، إذ أن قراءة اللفظ برفع السين ممكنة من حيث المبدأ سَقِم وسَقُم، والمصدر سَقْم وسُقْم وسقامة وسقام، تعني في العربية مرض (انظر قاموس لاين واللسان)، وليس من مصادر الفعل سَقوم. وفي (دوزي) سَقوم يعني جُمَّيز. ووهو في (لاين) سوقم، وفي ثَبْت لاندبرج للهجة دثينة سُقُم.

أي أن لفظتنا هذه يبدو وكأنها غير عربية. ولما كانت مصطلحات الأوزان إجمالاً تـؤخذ عن اليونانية فإنه من الممكن أن يفترض الفرض أن سقوم لفظ دخيل أُخذ عن اليونانية. وفعلاً يبرز لنا دون عناء لفظ يوناني (سكوما) ومعناه الوزن المُعايَر، الوزن المقابل. ويرد اللفظ في السريانية سقوما بمعنى مقياس، ويشتق منه الفعل سقم بمعنى قاس. وللفعل نفسه في اللغة المندائية (الصابئة) معنى آخر هو يُوفّي يُتمم .

ويتوقع المرء أن يصاغ من اللفظ اليوناني (سكوما) الصيغة العربية (ساقوم). وينبغي أن يكون اللفظ (سَقُوم) أصله ساقوم. وكان سوفير قد اعتبرها جمعاً (سُقوم) ومفردها (سَقْم) ونقلها إلى الفرنسية بمعنى « أوزان صغيرة» JRAS 9, 1877, 311 وكذلك الهامش واحد .

وصنع مثله ث. إبل في رسالته : (الميزان في العصور القديمة والوسطى)، أرلنجن ١٩٠٨ ص ١٠٢ حيث ذكر أن معناها « قطع وزن صغيرة »، إلا أن قول الهمداني : « هو السقوم وبه شبهت رمانة القرسطون) يدل على أن اللفظ مفرد وليس جمعاً. وخلافاً للسريانية يبدو أنه لم يشتق فعل من (سقوم) كما أني لا أعرف الفعل سَقَم في العربية (فيما يخص الفعل سقم في الدارجة انظر أدناه .).

ويمكن أن يشتق المصدر سقوم من الفعل سَقَم، ويكون في هذه الحالة

فعلاً مزيداً من قام[١٥]، ويؤدي معنى فعل التعدية أقام (مثل أقام وزنه) أي وزنه. انظر كتاب (الجوهرتين) ص ١٦٦ وما بعده، ويتشابه أيضاً الفعلان (استقام) من سقم، و(استقام) من قام. وتعتبر بعض المزيدات بالسين هي في الأصل من صيغة استفعل[١٦] وتسمى عملية الوزن بالسقوم تقسيم، انظر كتاب (الجوهرتين) ١٦٩، و١٧٦. ويتبادر إلى الذهن أنه اشتق من (سقوم) المصدر (تسقيم) من الفعل المشدد (سقّم) (كما جرى في السريانية). وهذا المصدر يستعمل عادة في تسمية الأعمال التقنية والفعل سقّم موجود في اللهجة المغربية. وفي اللغة (سقّم) تعنى نظّم ومسقّم تعني صحيح، مستقيم[١٧].

ويكون اسم العمل من (سقّم) تستقيم. وإذا ما اعتبر المرء أن قلباً حدث في اللفظ، فإن اللفظ يبدو أقرب وأسهل، علماً بأن معناه قد يوافق أيضاً المعنى في هذه الحالة.

(٤) **الزرسيم:**

يرد في كتاب (الجوهرتين) لفظ لم يفهمه الناسخ فكان أن رسمه في مواضع عدة بأشكال مختلة (ررسم وررسّم ودرسم ودرسّتم).

وينبغي أن يقرأ اللفظ (زرسيم) ،فهو يتألف من كلمتين فارسيتين (زر) ومعناها ذهب و (سيم) ومعناه فضة. ونجد مثل هذا التركيب المزجي في السريانية ولكن يقصد به عادة الأول منه.

ويتحدد اللفظ قراءة واشتقاقاً من معرفة معناه. فإذا ما أراد المرء استخلاص المعدن النفيس من خام الذهب ـ الفضة، يعمد إلى التلغيم بالزئبق. وإذا ما سخن الملغم هذا يقطر الزئبق ويتبقى خليط من الذهب والفضة، ويسمي الهمداني ذلك بفضة الزرسيم. وكذلك يحصل المرء على الزرسيم عن

---

(١٥) يتعدّى الفعل في اللغات العربية القديمة (السامية) إما بزيادة الألف أو الهاء أو السين كقولك (أحدث) و (هممث) في اللهجة السبئية و (سحدث) في اللهجة المعينية.

(١٦) راجع : BROCKLEMANN, GRUNDRIS 1: 522

(١٧) راجع : M. BEAUSSIER, DIET. PRATIQUE ARABE - Francais Alger, 1887

طريق عملية (الفصل) بالكبريت، كتاب (الجوهرتين - المقدمة) ص: ٢٨، ٣٠ ـ ٣٢ طبعة ثانية.

والزرسيم يقاوم النار، ولكنه يلين تحت مطرقة الصائغ - فالأساور والحجول التي تصنع من الزرسيم لا تعمر كثيراً بسبب ليونتها. أما الزرسيم الذهبية (الزرسيم مؤنث) فله درجة انصهار أعلى من فضة المعدن (الخام). ولا يحتاج المرء إلى أن يجربه فهو يتنظف خلال علمية الفصل بالكبريت ، وينتج في الأصل من فضة خالصة .

على أنني لم أعثر على هذا اللفظ في أي نص عربي آخر. فهو عند ابن بعرة سرسيم في كتابه (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) ، نشره عبد الرحمن فهمي في القاهرة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م ص ٥٣. وهو عنده نتيجة لعملية الفصل بالملح . ولعل خليط الفضة هذا هو ما عناه ابن بعرة بقوله: فضة ذهبية. الفضة التي تأتي من الذهب وتعود إليه. وإذا ما بقي في معدنه، فإنه حسب نظريته ليس إلا ذهباً غير ناضج (ابن بعرة ص ٥٤.)

ولكن الإبدال بين الزاي والسين لا يحول دون تبّين كل من اللفظين إذ أن مثل هذا الإبدال شائع في اللغة العربية. ونجد في كتاب (الجوهرتين) نفسه مثالين على ذلك. زحق (في ص ١٨٤) = سحقَ (في ص ٢٠٨و٢١٢) والمعنى (دقَّهُ حتى صار ذرّات) والتـزق (في ص ١٣٤ - التصق (راجع المصدر نفسه)[١٨].

ويزعم (إيرين كرويتز) في تحليله لكتاب ابن بعرة في[١٩] صفحة ٤٢٨ ورد أن سر سيم (هكذا يقرأها) مصحّفة من سر السّيم أي جوهر الذهب أو لبُّه، واستشهد بما أورده ابن سيدة في كتاب (المخصص) ١٢ / ٢٢: سيتم تعني مذهب. ومبلغ العلم ما أورده ابن سيدة هو لفظ (سِيَم) جمع (سامة) وليس اللفظ (سِيم).

---

(١٨) انظر أيضاً لزق/ لسق/ لصق في H.FISCHER IN WZKM وهناك أمثلة عديدة أخرى في BROKLEMANN, GRUNDRIS 1:156, H. FLEISCH, TRAITE DE PHILOLOGIA ARABE 1080 LANDBERG GLOSSAIRE GLOSSAI DATIONIS 401, 1815, 1833, صندوق/ زندوق/ سندوق LANE.

الهمداني
في صورة الحضارة العربية الإسلامية
في القرن الرابع الهجري

مقدمة:

شهد محيط الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - نفراً من العلماء والرّواد، تمكنوا من تقديم معارف جديدة ومناهج علمية مبتكرة، أسعفت على صياغة صورة الحضارة العربية الإسلامية الزاهية كما عرفت في عصرها الذهبي، تلك الحضارة التي احتلّت مكاناً مرموقاً في تاريخ الحضارة الإنسانية، وكان لها دور رائد في دفع عجلة التقدم العلمي إلى الأمام. وهذه المقالة تُعنى بأحد أولئك العلماء الرواد وهو الحسن بن أحمد الهمداني وهو عالم كبير لم ينل حظه من الذكر كغيره من معاصريه.

إلا أن القرن الرابع الهجري هذا كان قد شهد أيضاً انقسام دولة الخلافة الإسلامية، وانحسار سلطان الإسلام في بعض البلاد. وبدأ الإطار السياسي الذي كفل نمو تلك الحضارة المزدهرة يتفكك تدريجياً، ونشأت في ديار الخلافة الإسلامية دول صغيرة منفصل بعضها عن بعض... وتغلّب كل رئيس على ناحيته وانفرد بها، وأصبح في كل قطر ومخلاف أمير للمؤمنين ومنبر. ولم يعد للخلافة في بغداد إلا اسمها. وإن كان شبح لسيادة الخليفة ظلّ ماثلاً في الأذهان، وحكام الأطراف ما انفكوا يعترفون بالسيادة العليا للخلافة، ويقدمون للخليفة الدعاء في الجوامع، ويشترون منه الألقاب ويرسلون له الهدايا كل

عام .[1]ويعتقد أن السبب في تراخي قوى تلك اللّحمة وتفكك عرى ذلك الكيان السياسي يكمن بالدرجة الأولى في ذلك الخلاف المرير الذي نشأ واشتد أواره حول قضية الخلافة[2] على مستويين، مستوى العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، إبان عهد الخلافة الأموية، ومستوى الشعوبية بين العرب والعجم إبان عهد الخلافة العباسية، وأزعم أن الحسن بن أحمد الهمداني كان واحداً من أولئك النفر من العلماء والأدباء الذين تأثروا بذلك الخلاف، ودخلوا حومة الصراع السياسي والثقافي الذي نتج عن ذلك وجمعوا في حياتهم مستوييه العربي والإسلامي معاً.

ولكن قبل أن نتناول الهمداني، كصورة للعالم العربي المسلم ولا سيما في القرن الرابع الهجري، الذي تأثر بذلك الخلاف المشهود حول مسألة الخلافة واكتوى بناره، وخاض الصراع حوله بمجاليه السياسي والثقافي، ينبغي أن نتناول مسار حياته في إطار بيئته التي شهدت تكوينه الثقافي وذلك على قَدْر ما بلغنا من أخباره، وما لَمْلَمناه من مصادر متفرقة واستنتجناه منها، منوّهاً على وجه الخصوص بجهود القاضي محمد علي الأكوع والشيخ حمد الجاسر والأستاذ أُوسكار لُوفجرن في هذا السبيل[3].

---

(١) انظر كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» آدم ميتز، ت. عبد الهادي أبو ريدة، ج ١، ط ٣ (١٩٥٧)، ص ١-٣

(٢) راجع بهذا الخصوص مصادر مراجع عدة مثل كتاب: الملل والنحل للشهرستاني ومقدمة ابن خلدون، ودائرة المعارف الإسلامية مادة خليفة، دراسات في النظم العربية الإسلامية لتوفيق سلطان اليوزبكي، ط ٢، جامعة الموصل (١٩٧٩) وكتاب تراث الإسلام، تأليف شاخت وبوزورث، القسم الثالث، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقي العميد، ومراجعة د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ديسمبر (١٩٧٨) ص ٣٣ - ٧٣. والفصل الأول من كتاب الفكر العربي في عصر النهضة لألبرت حوراني، دار النهار للنشر ط ٣، بيروت، (١٩٧٧) وغيرها من الدراسات في اللغة العربية واللغات الإفرنجية مما لا مجال لحصرها الآن.

(٣) مقدمة حمد الجاسر لكتاب صفة جزيرة العرب، للحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة (١٩٧٤)، ومقدمات طبعات الجزاين الأول والثاني من كتاب الإكليل للهمداني، تحقيق القاضي الأكوع نفسه، وانظر أيضاً مادة الهمداني لأوسكار لوفجرن في دائرة المعارف الإسلامية النسخة الانكليزية، وراجع سيرة الهمداني مفصلة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الهمداني في محيطه المحلي:

ـ المولد والمنشأ:

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان. الأرحبي البكيلي. كان أهله يقطنون المراشي من شرق اليمن. وهي منطقة تقع في الجزء الأعلى من مساقط الجوف، يجمع سكانها بين عيشة التبدي والتحضر قديماً وحديثاً. وتكوّن اليوم ناحيةً من قضاء بَرَط وتتبع إدارياً محافظة صنعاء. وقد نسب بعضهم الهمداني إلى آل الدِّمنة ،والأرجح أن يقال آل الدُّمَيْنة وهم إلى اليوم من سكان ناحية المراشي، وفرع من ذي محمد القبيل الكبير هناك. وقد انتقل جده داود وابنه يوسف إلى الرَحَبة شمال صنعاء؛ ثم سكن يوسف صنعاء في آخر عمره وسكن أولاده من بعده. ويستدل من (المقالة العاشرة) أنه ولد بصنعاء يوم الأربعاء ١٩ صفر سنة ٢٨٠ هجرية، أي حوالي ٨٩٣ ميلادية[٤]. ويوافق سنة مولده خروج الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من الرسّ في أرض الحجاز إلى اليمن في خرجته الأولى بدعوة من بني فَطِيمَة من خولان صعدة[٥]؛ وهي الخرجة التي وصل فيها إلى الشرفة من بلاد نهم، شمال شرق صنعاء، ويبدو أنه في السنة نفسها كان علي بن حسين المعروف (بجفتم) عاملاً بصنعاء من بني العباس وذلك إبان خلافة المعتضد العباسي .

ولا نعرف شيئاً عن أول حياة الهمداني سوى أنه حدثت به عِلّة ليست بشديدة وهو في الخامسة من عمره. وأنه منذ بلغ السابعة بدأ يحادث النفس بالأسفار[٦]. وكان أبوه رحّالة دخل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان ومصر. كما كان لأجداده بَصَرٌ بالإبل منذ أن كانوا في مشرق اليمن. ولما تركوا البداوة

---

(٤) المقالة العاشرة ص ٩٦، تحقيق محمد الأكوع (١٩٧٩).
(٥) غاية الأماني ص ١٦٦ ـ ١٦٧، ليحيى بن الحسين، ت: عاشور (١٩٦٨)، إتحاف ذوي الفطن ص ١٦، لعبد الملك الأنسي ملحق مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء عدد ٣ (١٩٨١)
(٦) المقالة العاشرة ص ١٠٦.

واستقروا في صنعاء اشتغلوا بالجمالة، وإن كان منهم منْ عُني بالصناعات كالتعدين[٧].

ـ التعليم والخبرة:

ويستدل من بعض المصادر أن بعض أهله حلّ بصعدة وحيث كانت الجمالة مزدهرة، بحكم موقع المدينة على طريق التجارة والحجيج. ويبدو أن الهمداني شارك أهله في عملهم، وهو نقل الحجيج والتجار إلى مكة من صعدة، ثم انتقل واستقر بها وهو آنذاك في الخامسة عشرة من عمره[٨]. وبعد زمن (أي حوالي عشرة أعوام من استقراره فيها، وحوالي ١٥ عاماً من اتخاذه صعدة محطة ينزل بها في قُدُماته إلى مكة مع أهله إبان صباه) ـ ارتحل إلى مكة طلباً للعلم. وكانت رحلته إلى مكة في سبيل العلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره أي حوالي عام ٣٠٥هـ. وفي مكة أطال الإقامة وجاور بها أكثر من ست سنوات. وكانت فترة مكة من أخصب سني التحصيل لديه حيث تفتحت له آفاق المعرفة، وانفتح له باب نفيس من المنطق فازداد منه، وانكشط عنه كثير من الجهل، واتسعت بسطته في العلم. فعلم شيئاً من علم الأخبار وكتب صدراً من الحديث والفقه ورواه، ومال إلى مذهب الجماعة، كما قال ذلك بنفسه في المقالة العاشرة[٩].

وكانت مكة في ذلك العهد من مراكز العلم حيث يَفِدُ إليها كثير من علماء البلدان الإسلامية لأداء فريضة الحج أو للمجاورة، فتسنّى للهمداني أن يتلقّى العلم عن بعضهم مثل (الخضر بن داود). وذكر الهمداني في شرح قصيدة الدامغة أنه اجتمع به سنة ٣٠٧ هـ[١٠] وقد روى عنه السيرة عن ابن إسحاق. ومنهم (أبو علي الهجري) الذي أشار إلى الهمداني في (النوادر والتعليقات)، ويرى حَمَد الجاسر أن الهمداني نقل عنه بعض النصوص الشعرية في (صفة

---

(٧) مقدمة الصفة ص ٧ ـ ٨

(٨) المقالة العاشرة ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٩) المقالة العاشرة ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(١٠) الدامغة ص ٢٩٥ (كتاب قصيدة الدامغة) تحقيق الأكوع، القاهرة (١٩٧٨).

جزيرة العرب)، ويظهر أنه أثناء مجاوراته بمكة اقتنى بعض الكتب كدواوين الشعر ومؤلفات (ابن الكلبي) في الأنساب وغيرها[11]. وفي حوالي ٣١١هـ هجرية رجع إلى اليمن ونزل صعدة مرة أخرى، وهي إذ ذاك كورة بلاد خولان[12] وقاعدة أئمة الزيدية، ومحطة هامة على طريق التجارة الممتد من أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام، ونقطة تجمع الحجاج من مختلف الجهات اليمنية، فحبّذ الهمداني سكناها مرة أخرى ومال إلى الاستقرار فيها. وعمر داراً وامتلك عقاراً، واستطاب المقام بها. وكان قد توفر لصعدة استقرار نسبي خلال فترات الهادي وابنيه المرتضى والناصر، خاصة إذا ما قورنت بصنعاء في الفترة نفسها، حيث شهدت صنعاء آنذاك اضطرابات سياسية وتعرضت للنهب والعدم، وكثر تناقل الحكام فيها على السلطة.

- النشاط الفكري والأدبي:

وقد أدى الاستقرار في صعدة إلى استقطاب كثير من الناس العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم، وكذلك التجار من داخل اليمن وخارجه، فقامت فيها حركة أدبية وفكرية[13] وانتعشت فيها التجارة، فكان أن أفاد الهمداني من فنون العلم التي كانت تزخر بها كما أسهمَ فيها بنصيب وافر ولا سيما في علوم الأخبار والأنساب والشعر. ولم تكن صعدة قبل ذلك من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث كصنعاء فلم تنتشر أخبارها، وقَلّ وقوف النسابة

---

(١١) مقدمة الصفة ص ٩ - ١٠.

(١٢) مقدمة الصفة ٩ - ١٠، ونجده ينقل عن ابن الكلبي وغيره في كتب الهمداني كذكره مثلاً ابن خرداذبه في الإكليل (ج ١) ص ٢١٠، إلا أن من الصعب إثبات كل ما استقاه الهمداني من محابر معاصريه وخاصة علماء الجغرافيا مثل قدامة وابن الفقيه والهمذاني. إذ لا ذكر لأسمائهم في كتبه حسب علمنا. راجع أيضاً: «الهمداني وصفة جزيرة العرب» لأرنهيلد شولتن، ترجمة يوسف محمد عبدالله، في كتاب «أوراق من تاريخ اليمن وآثاره» مشروع الكتاب، صنعاء (١٩٨٥) ويذكر لوفجرن في مادة «الهمداني» دائرة المعارف الإسلامية، بعض منْ أخذ عنهم الهمداني مثل القاسم بن محمد الأنباري (ت. ٣٠٤ هـ) والحسن بن أحمد بن خالويه، (ت ٣٧٠هـ) والأخر من كبار النحاة. وقد زار اليمن وأقام بذمار وشرح ديوان الهمداني والمعروف أن الديوان والشرح مفقودان.

(١٣) معتزلة اليمن ص ١٣١ لعلي محمد زيد، بيروت - صنعاء (١٩٨١).

على أنسابها وقبائلها وبطونها من خولان. فأطل الهمداني فيها على أخبارها وأنسابها ورجالها إطلالة العارف المتمكن فقرأ بها سجل (محمد بن أبان الخَنْفَري) المتوارث من الجاهلية[١٤]. وأخذ عن علماء صعدة ومما خبره رجالها ورووا له واستنشده منهم، لذلك وُسِم الهمداني بالعلم بين أهلها وعرض جاهه ورفع قدره، واكتسب رضا رجال القبائل من خولان وما جاورها من همدان وحِمْيَر[١٥].

وكان استقرار الهمداني في صعدة أيام الإمام الناصر بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين (تولى الأمر بعد تخلي أخيه المرتضى عام ٣٠١هـ) والذي بقي في الحكم حتى وفاته عام ٣٢٢ هـ. وكان يحكم صنعاء في الفترة نفسها آل يعفر من آل ذي حوال الحِمْيَريين وأميرهم هو (أبو حسان أسعد بن أبي يعفر) وكان مقره بكُحلان وهي (كحلان) خُبان في شرق مدينة يريم الحالية. وأما زبيد فكان يحكمها (ابن زياد) ولعله (إسحق بن إبراهيم بن زياد).

وإلى جانب هؤلاء الحكام كان هناك عدد من زعماء القبائل الأقوياء وخاصة آل الدعام من بكيل وآل الضحاك من حاشد. قال الهمداني في آل الدعام: « إن سؤددهم عظيم وأخبارهم كثيرة» .ونعت أبا جعفر أحمد بن محمد ابن الضحاك بأنه « سيد همدان في عصره». وقال عن حاشد وبكيل: إنهما « قبيلا همدان العظيمان». أما في صعدة نفسها فكان نفوذ القبائل للفطيميين والإكليليين، وكِلا القبيلين من خولان.

- الخلاف السياسي:

وكانت تلك القوى كلها تنازع السلطة في اليمن. وقد شهد اليمن في أواخر القرن الثالث الهجري ومطلع القرن الرابع الهجري اضطراباً سياسياً شاملاً شاركت فيه كل القوى المذكورة بما فيها ما سُمّوا في اليمن بالقرامطة[١٦]. ورغم القضاء على القرامطة إلا أن ذلك الانقسام السياسي استمر إلى الفترة التي

(١٤) الإكليل (ج ١) ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥، تحقيق محمد علي الأكوع ص ٢ (١٩٧٧).
(١٥) المقالة العاشرة ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(١٦) معتزلة اليمن ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

نحن بصددها، وهي فترة الهمداني في صعدة. ولم يكن الشتات في اليمن غير امتداد للتمزق والخلاف السياسي الذي اعترى الدولة الإسلامية كلها؛ حيث انحسرت سلطة الخلافة وضعف أهلها، فاستقل كل بما لديه حسب قوة نفوذه. وكانت صعدة من المراكز التي ورثت ذلك الخلاف السياسي والتنازع على السلطة. واتخذ ذلك الصراع في صعدة صوراً متعددة، منها عودة ذلك الخلاف الذي نشأ في القرون الأولى للهجـرة، نتيجة عدم اختفاء العلاقات القبلية القديمة ضمن بُنية الدولة الإسلامية الجديدة. وكان الإسلام قد دعا بشدة إلى حلها وتجاوز أصولها. وكان أهل اليمن قد شاركوا في الدعوة إلى الدين الجديد والإسهام في موجة الفتوحات وفي تمصير الأمصار وفي إرساء ثوابت الدولة الإسلامية. وعندما نشأ ذلك الخلاف كانوا أيضاً في قلب دوّامته. وكان خلافاً معلوماً يدور حول مسألة الخلافة وأحقيتها، وقد تنازع فيها الناس بالسنان وتجادلوا بالحجة واللسان. فأدى ذلك إلى بروز موروث تاريخي ملحمي عن حياة العرب قبل الإسلام وخاصة عن عرب اليمن. وقد انعكس ذلك الصراع على الحركة الأدبية والفكرية في صعدة وأذْكت عودةُ الخلاف القديم أوارَه .

- السجن والمحنة:

ولم يكن بوسع الهمداني أن يتجنب مثل ذلك الصراع إذْ كان في صميم الأمر. فهو شخصية أدبية مرموقة، وعالم شغوف باستقصاء أخبار وطنه، وله صلات عديدة برجال خولان في صعدة وهمدان في أرضها. وقد جمع كثيراً من أخبارها ووقائعها، ومفاخرها، فخاض ذلك الصراع المحتدم الذي كان قائماً في صعدة، منذ أن وطّد الإمام الهادي مركزه فيها. وكان أبرز ما في المجال الأدبي من صراع هو كتابة الأشعار التي تُذكي الحمية وتُحيي من العصبية. ويبدو أن الأمر تفاقم بين الهمداني وبين بعض الشعراء، فكتب قصيدته التي ينحو فيها منحى قصيدة الكُميت بن زيد الأسدي الموسومة بالمُذَهَّبة ،ويجيب بها عنه، وسماها (الدامغة)[١٧] واستغلها خصمة ضده، فكان أن فتحت عليه أبواب

(١٧) مصدر سابق .

الطعن وسُبل الاتهام، « وأثار على نفسه السلطان والناس » كما قال الهمداني نفسه في المقالة العاشرة. وسجن الهمداني على إثر ذلك. وكان سجنه نكبة عظيمة ومشهورة ولكنها خفيفة ومتجاوزة ولم تعدُ عشرة أيام وذلك يوم الثلاثاء يوم أحد عشر من رجب سنة ٣١٥ هـ[١٨].

وقد عَمِل على فكّ الهمداني من سجن الإمام الناصر بصعدة بعض كبار رجال القبائل من خولان، على أن الإمام الناصر توعد الهمداني إن عاد إلى مثلها. فخرج على إثر ذلك من صعدة إلى صنعاء مسقط رأسه، طامعاً في أن ينعم بحِمَى أميرها بالجاه العريض والقدر الرفيع. وكان أن تأتى له ذلك إلى حين. ومن الجائز أن اتصاله الوثيق بأبي نصر محمد بن عبد الله اليَهَري قد تمَّ بصنعاء في هذه الفترة. وهو العالم الذي وصفه الهمداني بقوله: «شيخ حِمْيَر وناسبها وعلاّمتها وحامل سِفرها ووارث ما ادخرته ملوك حِمْير في خزائنها من مكنون علمها، وقارىء مساندها والمحيط بلغتها..». ويشتهر بصنعاء واليمن بأبي نصر الحنبصي. ويستدل من بعض الإشارات على أن الهمداني ربما كان مؤلف (شرح الدامغة) وأنه كتب ذلك بصنعاء بدءاً من ٣١٦ هـ[١٩].

وكان الإمام الناصر قد توعد الهمداني إن عاد إلى ما أُتهم به سلفاً (أي تفضيل عرب الجنوب على عرب الشمال) . ولكن يبدو أن الهمداني لم يأْبَه إلى ذلك في مُقامه الجديد، فانطلق يكتب الأشعار ويجمع مفاخر قحطان، وألف (شرح الدامغة)، وظن أنه في حمى آل يعفر الحِمْيَريين وأنهم لا ريب مانعوه. ولما بلغ الناصر أن الهمداني لم يكف؛ وقيل إنه تنقّصه أيضاً في بعض أشعاره، كتب إلى أسعد بن أبي جعفر يعرّفه بما بلغه من ثَلْب الهمداني له. وكان بين الناصر وأسعد مودة شديدة ووفاق عريض. فورد كتاب أسعد إلى أبي الفتوح الخطاب ابن أخيه أمير صنعاء يأمره فيه أن يأمر بحبس الهمداني وتَحدِيدِه فَحُدِّد

(١٨) المقالة العاشرة ص ٩٦ - ٩٨ الإكليل (ج١) ص ٧٦.

(١٩) شرح الدامغة ص ٥٤١. يذكر الشارح (وهو في رأينا الهمداني نفسه) عدد السنين السالفة وفق حسابه، « إلى الشمس من يوم الجمعة يوم اثنتي وعشرين من شهر رمضان من سنة ست عشر وثلثمائة من الهجرة». وهو تاريخ حدث بعد سجنه الأول في صعدة، وانتقاله إلى صنعاء، ويرجح أنه في هذا التاريخ شرح الدامغة. وهو المصدر الذي نستقي منه الإشارة السابقة.

وضَمّن الحبس. وقد اختلط الأمر على الرواة في أمر سجن الهمداني حيث مزجوا بين سجنه لمدة قصيرة في صعدة، على يد الناصر وبين سجنه الطويل في صنعاء على يد آل يعفر، أي بين سجنه عام ٣١٥ هـ وسجنه عام ٣١٩ هـ، وقد بادر إلى نجدته بعض رجال القبائل فطالبوا به بالحسنى والشدة.

- الاستقرار والتأليف:

وأُذن بإطلاق الهمداني من السجن في حوالي ١٧ ذي القعدة عام ٣٢١ هـ، بعد أن قضى فيه (٢١) شهراً و (١٩) يوماً[٢٠]. وكان مأمنُه على الأرجح (ريدة) من بلاد قاع البون؛ وهي شمال صنعاء، على الطريق إلى خَمِر وصعدة، وبها قضى الهمداني بقية عمره. وقد يكون أهم سبب دعاه للبقاء في ريدة هو وجود سند عائلي وقبلي فيها؛ فقد كان سكان ريدة من اللَّعويين؛ ومنهم آل القاسم العثاريون، أصهار آل جد الهمداني الأوَّل، (يعقوب بن يوسف بن داوود بن سليمان) الذين نعتهم الهمداني برهطه[٢].

ورهط الهمداني من بكيل وينمون وفق سلاسل النسب عنده إلى همدان. وكانت قاع البون آنذاك هي همدان. ومن اسباب استقرار الهمداني في ريدة أيضاً وقوعها على مقربة من كثير من مواقع الآثار اليمنية القديمة التي عُني بزيارتها واستقراء مساندها[٢٢]. وفيها اشتغل بالتأليف الغزير، حيث كتب (الإكليل) بأجزائه العشرة ليكون موسوعة الحضارة اليمنية القديمة. وتفيد الإحالات في كتاب (صفة جزيرة العرب) إلى أجزاء الإكليل أنه قد ألف بعد كتاب الإكليل. أما كتبه الأخرى مثل (اليعسوب) و (الأيام) و (القُوى) و (الزيج)، فيستدل من الإحالات أيضاً أنها أُلِّفت قبل عام ٣٣٠ هـ. ورغم أن بعض كتب الهمداني قد رُويت عنه مختصرة أو منقّحة مما قد يبعث الريبة حولها في بعض الحالات، إلا أنه من الثابت أنه ألَّف كثيراً، وأن إقامته في ريدة كانت أغنى فترات التأليف عنده، بعد أن شغل قبل ذلك في مكة وصعدة وصنعاء بالجمع والتحصيل.

---

(٢٠) المقالة العاشرة ص ١١٥ .

(٢١) الإكليل (ج١) ص ١١٧ ـ١١٨.

(٢٢) الصفة ص ٩٦، الإكليل (ج ١٠) ص ١١١ .

وتوفي الهمداني في ريدة وبها قبره وبقية أهله. وقبره اليوم مجهول، وتاريخ وفاته غير مؤكد وفيه خلاف. ونحن نرى أن الهمداني عاش إلى ما بعد ٣٣٤هـ بعد ٣٣٦ هـ بسنوات ولكن ليس لدينا دليل قاطع بذلك(٢٣).

ـ الهمداني في إطار عصره:

كان الهمداني واحداً من أولئك العلماء العرب المسلمين الذين برزوا في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي كخلاصة جيدة لذلك الازدهار العلمي الذي شهده محيط الحياة العربية الإسلامية وكمثالٍ حسن لرواده. كان يعيش في أطراف دار الخلافة وليس في مركزها، ومع ذلك فإن إحساسه بها كان عميقاً. فلقد كان في الأطراف بالنسبة لديار الإسلام ولكنه كان في القلب بالنسبة لديار العرب، ولذلك فقد حمل الهمَّ نفسه كغيره من علماء العصر. إذ كان الهمّ واحداً والثقافة واحدة وكان الهمداني تمثيلاً صادقاً لعصره، يعكس التفوق الحضاري للأمة من خلال تكثيف الإبداع والابتكار، ويحمل همّ الدفاع عن التراث ضد منْ يحاول ثَلْمَه، أو يقلل من شأنه، ويعمل على تعزيز الهُوية وتعميق الأصالة من خلال إحياء التراث وتتبع أخباره وآثاره.

ولهذا فإنه كغيره من علماء عصره قد تأثر بالخلاف المعلوم حول قضية الخلافة كما ذكرنا آنفاً. ودخل الصراع السياسي والثقافي معاً. ومثل موقف المتطرف وموقف المعتدل، فقد بلغ في شبابه حدّاً في التطرف تعصباً للقحطانية وانتصاراً لهم، حتى سجن في سبيل ذلك، وكتب قصيدة قوية حادة يفخر بها بمناقب فريقه، وفي الوقت نفسه ينتقص فيها من الفريق الآخر ويعدّد مثالبه.

وفي مرحلة تالية من حياته كرس نفسه لإحياء تراث اليمن واقتفاء آثاره، ورسم سماته بهدوء العالم وبصيرة العارف. بل إنه تجاوز حدود اليمن إلى موروث جزيرة العرب، وعلوم العرب والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل. وإذا كانت العصبية القحطانية المتطرفة هي (مفتاح شخصيته) كما ذكر أحد

---

(٢٣) انظر آراء القاضي محمد علي الأكوع بهذا الشأن في تحقيقه للجزأين الأول والثاني من الإكليل ومقدمة كتاب الدامغة وكذلك مقدمة صفة جزيرة العرب للشيخ حمد الجاسر، وانظر أيضاً: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، الجزء الأول ص ١٤٧.

الباحثين[٢٤] فإن ذلك إنما ينطبق على فترة الشباب وعنفوانه كما يمثلها الهمداني الشاعر في قصيدته (الدامغة)[٢٥].

إلا أن « مفتاح شخصيته» في المرحلة الثانية من حياته لا يكمن في نزعة قبلية أو إقليمية، وإنما في موقف أكثر نضجاً وأوسع مجالاً، تمثل في عنايته بإبراز موروث الجزيرة العربية ككل قبل الإسلام، وبعده، وإسهامه علمياً في رسم صورة الحضارة العربية الإسلامية كغيره من الأعلام الرواد في عصر ازدهار تلك الحضارة وأوج تألقها.

ـ السناد الفكري:

إن نقطة البداية في حدوث ذلك الازدهار الحضاري الذي كان من نتائجه أولئك العلماء الرواد مثل (الحسن بن أحمد الهمداني)، وهي تعاليم ذلك الدين الجديد، الذي ظهر في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، تلك التعاليم التي حثت على طلب العلم، وعلى التأمل في ملكوت السموات والأرض. هو ذلك الدين الإسلامي الحنيف الذي شجع على استخدام العقل والاستزادة من المعرفة. وأطلق ملكات العرب في جزيرتهم، وفجر طاقاتهم فكان حافزاً فعالاً لحركة فكرية واسعة ونشاط علمي كبير، امتدت لتشمل ديار الإسلام الأخرى التي دانت بدين الله وهَدْي كتابه وسُنة رسوله. ولقد تناولت تلك الحركة الفكرية والعلمية الناشئة شتى مناحي العلم وآفاق المعرفة، فشملت علوم الدين وعلوم العرب، وعلوم الأوائل. بدأت بجمع القرآن الكريم وتفسير الآيات، ورواية الحديث الشريف والنظر في أمور التشريع وقضايا العبادات والمعاملات.. ثم نشطت فيها الحياة الأدبية وخاصة النثر عندما اشتدت الحاجة إلى الخطابة الدينية والسياسية لنشر الدعوة ومتابعة الفتوحات، وكثرت المراسلات بين مراكز الدولة الجديدة وأطرافها. والإسلام وإن كان قد نهى عن لون معين أو موضوعات معينة من الشعر، إلا أنه من ناحية أخرى قد ساعد على تفجر طاقات الشعراء وبعث الروح فيهم وخاصة عندما انبروا للدفاع عن الدين

---

(٢٤) صفة جزيرة العرب (المقدمة ص ١٧).
(٢٥) انظر كتاب شرح الدامغة (مرجع سابق).

الجديد وعبروا عن مظاهر الحياة الجديدة التي نتجت عنه. ولقد كان الشعر دوماً ديوان العرب، وسجل أخبارهم، وشاهد معارفهم، ووسيلة تخليد آثارهم.

وتنوعت بعد ذلك أساليب الكتابة الأدبية واختلفت موضوعاتها؛ فأدى ذلك التعقيد الكتابي وانتشار اللغة العربية خارج موطنها، إلى تدوين قواعد اللغة، وتأليف كتب النحو، وإلى البحث في المفردات اللغوية ووضع معاجم لها، وقد حظيت اللغة العربية آنذاك بعناية كبيرة لما تبوأته من مكانة فائقة، فهي أولاً اللغة التي جاء بها القرآن الكريم، وهي أيضاً اللغة التي تكلم بها صاحب الدعوة وآله وصحبه، وهي لغة العرب الفاتحين ولغة الخلفاء، واللغة الرسمية للدولة العربية الإسلامية الجديدة. وقد أعقب تلك البدايات العلمية النشطة ذلك التفتح الفكري الذي ألهمَ الخلفاء في العصر العباسي بوجه خاص، أن نقلوا كل ما أُتيح لهم من علوم القدماء وفلسفاتهم في ترجمات أمينة تعد من أروع الأعمال التي تحققت في ذلك العصر بالمقاييس الأكاديمية الخالصة، وذلك إذا أخذنا في اعتبارنا أن اللغة العربية لم تكن حتى ذلك الحين قد كونت لنفسها مصطلحات علمية، تكفي للتعبير عما خلفه القدماء من معارف. وانطلاقاً من تلك الجهود العقلية والمادية والتوجهات النيرة عرف المسلمون علوم اليونان والفرس والهنود ولم يترددوا في استخدام كل الذخيرة الضخمة من المعلومات العلمية التي كدستها البشرية حتى ذلك الحين، من أجل تلبية حاجة المجتمع الإسلامي الذي كان ينمو ويزداد تعقداً يوماً بعد يوم[٢٦].

وهكذا فتحت اللغة العربية صدرها لتراث الإنسانية في القرون الأولى للهجرة واستوعبت علوم الأوائل وعلوم الأواخر؛ العلوم الإسلامية والعلوم غير الإسلامية، وكانت محصلة تلك النهضة العربية الإسلامية مادياً وعقلياً ذلك التقدم العلمي الذي شهده محيط الحضارة العربية الإسلامية في عصره الذهبي؛ فكان مثالاً رائعاً في تاريخ البشرية على التفاعل الخصب بين الحضارات[٢٧]؛ إذ انتقلت الحركة العلمية من طور الترجمة واستيعاب العلوم القديمة إلى مرحلة

---

(٢٦) د. فؤاد زكريا ،التفكير العلمي، الكويت، (١٩٧٨) ص ١٥٧ .

(٢٧) المصدر نفسه .

التأليف العلمي والابتكار الأصيل. ويعتبر القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - واسطة العقد لذلك العصر الذهبي، وفيه ظهرت نخبة من العلماء والمفكرين احتلت مكاناً بارزاً بين تلك القمم العلمية الشامخة التي عرفها العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية طوال فتراته؛ والتي أسهمَت إسهاماً وافراً في إثراء تربة الثقافة الإنسانية وإخصاب غرسها على مرّ العصور.

- الانقسام السياسي:

وكانت الأمة قد أجمعت في فجر الإسلام على الخلفاء الراشدين، وبدا كما لو كانت الأمة الإسلامية قد حلّت مشكلة الخلافة، فالعرب هم مادة الإسلام والصحابة من قريش هم الأخيار، والأمر شورى والخلافة بيعة. ولكن الخلاف بين علي ومعاوية حول أمرِ الخلافة أتاح المجال لبعضهم في إحياء عصبية دفينة بين بطون قرشية. وكما هو معروف فإن الأمر ما لبث أن حُسِمَ لصالح بني أُمية. على أن ذلك الحسم لم يكن بإجماع المسلمين، إذ استبد بنو أمية بالأمر واتخذوا الخلافة إرثاً. وكما قال ابن خلدون: «وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها..»[٢٨] فأحيوا بذلك عصبية أخرى كامنة أكبر من الأولى؛ حيث بدأ التوتر بين عرب الشمال وعرب الجنوب يظهر بوضوح، بعد استخلاف معاوية لابنه يزيد من بعده. وحيث عمل يزيد هذا على البحث عن حلفاء وأعوان له بين قبائل الشام وخاصة في قضاعة اليمانية، وكانت أمه من كلب بن وبرة من قضاعة، مما أثار حفيظة بعض القبائل. وفي عهد مروان بن الحكم وقفت القبائل القيسية ضده مع ابن الزبير المسيطر بالحجاز، فكانت موقعة (مرج راهط) عام ٦٥ هـ بين كلب (واليمنيين عامة بالشام) من ناحية وقيس تحت إمرة الضحاك الفهري من ناحية أخرى[٢٩]. واستمرت الحروب في بلاد الشام بين القبائل القيسية والقبائل اليمانية، خلال فترات الدولة الأموية واتّقد أوارها، وأذْكَت ما عُرف بالعصبية القحطانية والعصبية المعدّية (أو العدنانية).

---

(٢٨) المقدمة ص ١٢٦، طبعة كتاب الشعب القاهرة.

(٢٩) اليمانية والقحطانية في الإسلام، رضوان السيد، في كتاب الهمداني دراسات في ذكراه الألفية، صنعاء (١٩٨٦) ص ٥٥.

وهي عصبية جاهلية عملت بجد واجتهاد لتنخر في عظام كيان الأمة. ولنلك أساس الدولة الأموية وتقضي عليها[٣٠].

وكان صرح الخلافة العباسية الجديد يحمل في أساسه بذرة حية لعصبية كبرى، تعهدها الأحداث والأهواء بالسقي والرعاية، حتى نبتت غرستها واشتد عودها، وامتدت فروعها لتشمل الأمة الإسلامية كلها، وتسري في كيانها السياسي المترامي الأطراف، حيث التنافس على الخلافة لم يكن ليقتصر على عرب الشمال وعرب الجنوب وإنما احتدم الصراع ضمن دائرة أوسع ضمت العرب والعجم.

وشهدت بغداد مركز الخلافة توتراً شديداً، غذّاه خلاف مقيت مشهود، برز من خلال المواقف والأحداث على شكل عصبية عنصرية ونزعة عرقية. وهو ما عُرف بعد ذلك (بالشعوبية)، ابتداء من نزعة (أبي مسلم الخراساني) الى الاستقلال والتفرد بالأمر أيام الخليفة المنصور، ثم العصيان الذي رفع رايته سنباد الفارسي في خراسان على أثر مقتل أبي مسلم، وأخيراً وليس آخراً تلك الثورات المذهبية المضطربة في خراسان بأثوابها المختلفة كالزندقة.. والتي استغلت بقايا الديانات الفارسية القديمة كالمانوية ووظفتها لأغراضها السياسية. فكان أن أَثَّر إحياء تلك الدعوات في عقول بعض الناس تأثيراً قوياً، واستفيد من ذلك الأثر في زيادة نفوذ الشعوبيين السياسي. وقد برز ذلك في بداية الأمر على شكل نشاط مذهبي خطير أثقل كاهل الخليفة المنصور وأنقض ظهره[٣١]. وتلا ذلك ازدياد نفوذ البرامكة أيام الخليفة الرشيد وسيطرتهم على شؤون الدولة كلها تقريباً. مع ما صاحب ذلك من نعرات فارسية قومية، ثم الصراع بين الخليفتين العباسيين (الأمين والمأمون) ولم تلبث العقائد التي بشر بها أبو مسلم وتلميذه المقنّع، وهي القائلة بتناسخ الأرواح وتجسيد الذات، الإلهية، أن بعثت في (أذربيجان) على يد (بابك الخُرّمي) الذي اجتمع حوله خلق كثير [٣٢] ولقد

---

(٣٠) تاريخ الشعوب الإسلامية ،كارل بروكلمان، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي - بيروت (١٩٦٨) ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣١) المصدر نفسه ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٣٢) المصدر نفسه ص ١٩٩.

كان هذا الخلاف الذي اشتد بين العرب والفرس من الأسباب الرئيسية لانشقاق وتصدع الخلافة العباسية. وبسببه لجأ الخليفة المعتصم وخلفه الواثق بالله إلى القواد الأتراك بدلاً من العرب والفرس، وبذلك أدخل عنصر جديد في دوامة الصراع الشعوبي. وقد لعب هذا العنصر الجديد منذ ذلك الحين دوراً كبيراً في رسم خطوط قصة الخلافة على مدى طويل من مسار التاريخ الإسلامي.

- **الصراع الثقافي:**

ويمكن القول أنه ما أن أطل القرن الرابع الهجري حتى كانت الأمة قد نسيت قرار تشكيلها في قوله تعالى: ﴿**يا أيُها الناس إنّا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شعوباً وقبائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم إن الله عليمٌ خبير**﴾[٣٣] وغلَّب الناس الإعراض بدل التعارف، والتفاخر بدل التواضع، والعصبية القبلية والنزعة الشعوبية بدل الأخوة الإسلامية فانقسم الكيان السياسي الكبير إلى دول وأمم، وتمزقت الأمة إلى طوائف ومذاهب، ولم يعد للخلافة العباسية في بغداد إلا اسمها، كما سلف الذكر. ومن البديهي أن يصاحب هذا الصراع سواء على مستوى العصبية القبلية أو العصبية الشعوبية، صراع آخر على المستوى الفكري والثقافي. إذ يقتضي مثل ذلك الصراع أن تدعو كل قبيلة بدعواها، وأن تفخر بأنسابها وأحسابها، وأن يتعصب كل قوم لأصله، وأن ينتصر كل واحد منهم لبني جنسه، بل إن تنازع الناس بالسنان يصاحبه في العادة تجادلٌ بالحجا واللسان ويبدو أن التنافس على الخلافة كما ظهر بصورتيه القبلية والشعوبية كان يتكيء في أساسه على صراع ثقافي نتيجة احتكاك (ثقافة) سالفة (كامنة) بثقافة طارفة (بادية). وعندما تتداخل المصالح والأهواء لا بد أن يشتد تنازع الثقافتين، وقد يتخذ شكل خلاف سياسي حاد، ولا سيما حول أمر هام مثل قضية الخلافة. وإذا ما نظر المرء إلى صراع عرب الشمال والجنوب وصراع العرب والعجم، من هذا المَنْحى، فإنه قد يجد ما يُؤيد ذلك. فقد كان في اليمن قبل الإسلام حضارة راقية ظلت ذكراها عالقة في أذهان أهل اليمن حتى بعد أن بليت وانهارت

---

(٣٣) سورة الحجرات آية: ١٣.

ركائزها. وكان للفرس تراث عتيق وملك مغلوب قضى الفتح الإسلامي على آخر معاقله. وجاء الإسلام ليقضي على عصر الجاهلية. وليجُبَّ ما قبله من معتقدات بالية ونزعات قبلية وعنصرية. وأبدل العرب بكتاب منزل، على لسان رسول مُرسل، يهدي إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم؛ عقيدة قوامها التوحيد ودين يدعو إلى المساواة والعمل الصالح، ونبذ الوثنية وطقوسها، وترك الفرقة والعصبية، والإضرار بالناس ﴿ وإن هذه أُمتكُم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ وسارت الأمور في بداية الأمر على خير ما يرام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. وأصبح العرب والعجم أمة واحدة، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ولا فرق بين قبيلة وأخرى. ولكن نوازع الأمور اتخذت مساراً آخر، عندما بدأ الهوى يتغلب على الحق، ومال البعض إلى الاستبداد بالرأي، وتحزب الناس شيعاً، واحتاج كل فريق لأن يدعم موقفه عن طريق تعزيز شخصيته الثقافية، والنزوع إلى الإغراق في إبراز الخصوصية. فكان أن طغت على السطح كوامن الماضي، وحميّة الجاهلية، ولجأ كل فريق من المتنازعين إلى حشد جماعته، وشحذ أسلحته، وكان من أهم تلك الأسلحة سلاح العودة إلى اجترار عناصر الذاتية الثقافية القديمة، واعتماد أسلوب المفاخرة وتعداد المناقب من ناحية، والإقلال من شأن الطرف الآخر، وعد مثالبه، ونواقصه من ناحية أخرى. وتراث الماضي رصيد لا ينضب، خاصة إن هو وُظِّف لمثل هذه المفاخرات والمناظرات العقيمة، بل قد يؤدي بطريقة غير مباشرة إلى بروز مظاهر ثقافية معينة تمثل ماضي كل فريق، وتعبّر عن الحنين إليه والرغبة في تَمَثُّله؛ فتظهر على شكل موروثات ثقافية كالملاحم والأيام والأخبار والأنساب وتعكس صوراً متعددة ومتفاوتة من الماضي، تطغى عليها في الغالب صبغة المبالغة والتهويل. وتُعنى في مجملها برسم نماذج (مثالية) من الماضي، موشّاة بالمجد والفخار والملك والمال والانتصارات العسكرية. ومن أبرز تلك المظاهر الثقافية كتابة الأشعار التي تذكي الحمية وتُحيي العصبية، وهو نوع من المفاخرات الشعرية التي يحرص كل جانب فيها على تبيان مناقبه وذكر مثالب معارضه.

وكان من تلك المظاهر الثقافية أيضاً ما برز على شكل مؤلفات عامة أو

متخصصة في مجالات معلومة مثل التاريخ واللغة والأدب والعلم وغيرها. ولكنها في حقيقة الأمر تعكس في مجملها شيئاً من ذلك الصراع، وتخدم الغرض المطلوب بطريقة غير مباشرة. فمثلاً، كان من نتائج صراع العصبية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ظهور الأخبار القحطانية، التي شكلت في مجملها ملحمة يمنية، كأخبار عبيد بن شرية ووهب بن منبه، التي تمجد التراث الحضاري في اليمن قبل الإسلام، وتذكي الحنين إليه. وكان من نتائج صراع العصبية الشعوبية بين العرب والعجم على سبيل المثال كتب الأنساب العربية، وأيام العرب وأخبار جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده. وهي ترد في الوقت نفسه على تلك المؤلفات العديدة التي دبَّجتها أقلام (الشعوبيين) من العجم، وخصوصاً تلك التي وُضِعت لتعداد مثالب العرب وقبائلهم، والانتقاص من مكانتهم والحطِّ من مقامهم، أو تلك المؤلفات الكثيرة التي مُلئت بحق أو دون حق بأخبار الفرس وملوكهم وآدابهم، وغيرها من ملامح حضارتهم القديمة دون الالتفات إلى غيرهم من الشعوب الإسلامية.

الهمداني في إطار ثقافة الأمة:

وإذا ما اطرح المرء الخلاف جانباً، ونظر إلى المحصلة الثقافية لذلك الصراع لوجد رصيداً تراثياً ضخماً، هو في حقيقة الأمر جزء لا يتجزأ من موروث الثقافة الإسلامية، فالملاحم والأخبار والأنساب هي قصة الماضي كما تصورها الناس، وبعدما أعادوا صياغتها وفق (المثال)، فوشوها بالجميل والخارق لتلاقي هوى أنفسهم وتعبِّر عن فخارهم واعتزازهم وحنينهم إلى ذلك الماضي البعيد. أجل! هي ليست سوى صدى صوت الماضي البعيد. غير أنها كمحصلة ثقافية تعتبر سناداً مكيناً يسعف على ربط ماضي الأمة بحاضرها في إطار الحضارة العربية الإسلامية الكبرى؛ ولم يعد يُخشى اليوم من سلبيات هذا الموروث في الماضي إن هو قُدِّر حق قدره، وبعد أن تجاوزت الأمة خلافات الجاهلية منذ قرون كثيرة، وأضحت اليوم قادرة على توظيف موروثها إيجابياً في إذكاء الوعي الجمالي وتعزيز وحدة الوطن والأمة.

- الهوية الثقافية الجامعة:

إن ذلك الإبداع الثقافي والفكري الذي نتج في تلك العهود الإسلامية وفي إطار تلك الظروف المعينة هو عنصر عام من عناصر الموروث الثقافي كله، وما تلك العناصر جميعها بالنسبة لنا اليوم إلا أصداء لصوتٍ واحد، أو مرايا تعكس مرآة أمة واحدة، وظلال تتعدد للون واحد. هي في محصلتها تجسد شخصية واحدة، وهوية ثقافية واحدة وإن تعددت الأصداء والمرايا والظلال.

وقد كان الناس في دار الإسلام حتى في تلك الفترات العصيبة التي هي محور الحديث يشعرون حقاً بتلك الهوية الجامعة فهم على سبيل المثال، كانوا يتقبلون الدعاة، ويستمعون إلى أقوالهم، ويتبعون من يعجبهم قوله ويصادف هوىً في نفوسهم، دون أن ينظروا إلى البلاد التي يَفِدون منها. كان الداعي يخرج من بلاد العراق مثلاً، قاصداً بلاد اليمن بغرض نشر أفكاره، ولكنه لسبب ما يعدل من خطته، فيصرف النظر عن بلاد اليمن، ويتجه إلى بلاد المغرب. وعندما يجد لدعوته هنالك آذاناً صاغية يحط فيها زمناً، وما أن يستقيم له الأمر ويذعن له الناس حتى يقيم سلطاناً. وربما استدعت ظروف السلطان أن ينقل قاعدة حكمه إلى بلاد أخرى قريبة، كبلاد مصر. وما أن يستتب له الأمر فيها حتى يرى أنه من الأولى أن يمد نفوذه إلى بلاد اليمن. تلك البلاد التي كانت غرض الدعوة في أول أمره. وكان علماء المسلمين في شتى الأمصار الإسلامية يرتبطون بعرى وثيقة، فمصدر المعرفة واحد واللغة التي يتفاهمون بها واحدة.. والعلماء يتنقلون بين شتى المراكز العلمية في جميع بقاع دار الإسلام، يعلمون ويتعلمون ويتولون المناصب تارة في المغرب، وتارة في المشرق، وتارة في مكة وتارة في قرطبة، لا يمنعهم من ذلك مانع ما دام الواحد منهم يحمل دين الإسلام والولاء لدينه. ولهذا كان علماء المسلمين وحدة واحدة، ولحمة متماسكة، كل واحد يكمل الآخر سواء أكان في الأندلس أمْ في اليمن أمْ في فارس وخراسان[٣٤].

---

(٣٤) انظر (الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة) رسالة لنيل الدكتوراه، عبد الرحمن عبد الواحد محمد - جامعة الأزهر (١٩٨٦).

الذاتية الثقافية:

وكان أكثر الناس وعياً بهذه الهوية الثقافية الجامعة هم العلماء والأدباء؛ كما كانوا في الوقت نفسه هم أنفسهم أكثر الناس إحساساً بالتمزق السياسي والقبلي، وأشدهم معاناة لأخطار النزعات المذهبية والعنصرية. بل كانوا هم الأقدر على استشعار كوامن التراث والبحث عن مظانّه ثم الاستفادة منه وتوظيفه بما يتناسب ومقتضى الحال إن شاؤوا. وقد كان منهم منْ تطرف في مواقفه، وبلغ به الأمر حد الشطط. بحيث لم يكتفِ بالدفاع عن فريقه وتبيان مناقبه، وإنما لجأ إلى مهاجمة الفريق الآخر وتصغير شأنه وذمه، وهجوه وقذفه بما هو ليس فيه. وكان منهم منْ وجدَ نفسه في دوامة الصراع الذي لا مفر منه، بحكم تأثيره الثقافي ومكانته الأدبية وانتماءاته السياسية والاجتماعية. فشارك في تلك الحركة بهدوء وبصيرة ومعرفة، على قدر ما تقتضيه الظروف وما تمليه المعطيات الممكنة، منتصراً لجانب قبيلته أو قومه مدافعاً عن تراثهم، دون أن يجاوز الاعتدال. ومنهم من بدأ مغالياً في الموقف ومتعصباً في الرأي من جانب واحد، ثم ما لبث أن تجاوز ذلك إلى موقف هادىء رصين يغلب عليه العلم والبصيرة وسعة الأفق. فمن الشعراء المتطرفين على سبيل المثال (الكميت بن زيد الأسدي) الذي كان متشيعاً لبني هاشم ومتعصباً للعدنانية على القحطانية. وفاخر بمناقب مضر وهاجى شعراء اليمن وناقضهم. وقد اشتهرت قصيدته (النونية المذهبة) وناقضه شُعَراء اليمانية في قصائد مشابهة.. ومنهم الشاعر (دعبل بن علي الخزاعي) بقصيدة سمّاها (القحطانية) وكان (الحسن بن أحمد الهمداني) ممن ناقض قصيدة (الكميت) بقصيدة معروفة تسمى (الدامغة)[٣٥] وهي نونية أيضاً. وكان من المتطرفين على مستوى الصراع (الشعوبي) الشاعر (صالح بن عبد القدوس) الذي دعا في أحاديثه الدينية بالبصرة دعوة صريحة إلى ثنوية الفرس، واتُّهِمَ بالزندقة وصُلِبَ عام ٨٧٣ م. ومع أن لفظ (الزنديق) نعت من أصل فارسي كان يُطلق على منْ ينسب إلى البدعة في ذلك العصر، إلا أن

---

(٣٥) انظر (كتاب قصيدة الدامغة) تحقيق محمد الأكوع، القاهرة (١٩٧٨) ص ٤٩ - ٥٤.

الزندقة كانت تخفي في جوهرها موقفاً شعوبياً متطرفاً، يدعو إلى (ديانة الفرس القومية)، وعودة إلى معتقدات بالية كان يتعبدها الأسلاف. ولربما كان اتهام كل من (عبدالله بن المقفع) بالزندقة (واسمه الفارسي روزبه) والذي نقل إلى العربية عن الفارسية تاريخ الفرس (خداينامه) . . والترجمة الفارسية لكتاب الأمثال الهندي (كليلة ودمنة) - يومىء إلى مشاركته في نشاط الفرس السياسي والديني المتمثل (بالشعوبية) وقد يصح الأمر نفسه على الشاعر الضرير (بشار بن برد) والذي لم يتورع عن أن يصرح في شعره بعبادة النار كما كان يصنع أسلافه[٣٦]

أما جماعة المثقفين من العلماء والأدباء والرواة الذين انتصروا لفرقائهم باعتدال وبُعد نظر بحكم تواجدهم في حومة الصراع فمنهم في حال العصبية القبلية، على سبيل المثال (عبيد بن شرية) و (وهب بن منبه) من رواة أخبار اليمن[٣٧] التي تحيي ذكري الماضي المجيد، والعصبية القحطانية. ومنهم في حال (الشعوبية) الجاحظ الذي كان يسعى في عدد من كتبه للدفاع عن الهوية الثقافية العربية. ولقد كان التاريخ والأخبار والأنساب من أبرز الحجج التي استعملت للدفاع عن الهوية. وهذه النقطة التقى فيها علماء وأدباء مركز الخلافة وأطرافها. التقى فيها (ابن الكلبي مع الهمداني) في الأنساب والتقى فيها المتنبي الشاعر المفكر مع الهمداني الشاعر العالم، والتقى فيها الكِندي مع الهمداني في علوم المعادن والفلسفة والتقى فيها الجاحظ مع الهمداني في مجالات شتى من الآداب والمعارف.

كان الجاحظ مفكراً وأديباً يحاول أن يدافع عن العرب ضد (الشعوبية) من خلال نتاجه النثري الذي كان يمثل الإبداع العربي والهوية العربية الإسلامية المجروحة. ولقد بدأ الكُتّاب منذ القرن الثالث يتحدثون عن (أمة عربية). وكان الجاحظ يرى (العربية) الرابطة الأولى. . وهو يؤكد أن العرب من عدنانيين وقحطانيين على ما بين المجموعتين من اختلاف في الأنساب، هم أمة واحدة

(٣٦) بروكلمان، - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٨٣ - ١٨٤.
(٣٧) راجع (ملحمة عن الملك الحِمْيَري أسعد الكامل) م. ب. بيوتروفسكي. ت شاهر آغا، مشروع الكتاب، صنعاء، ١٩٨٤، ٤٧.

تشترك في اللغة والسكن والسجايا والأخلاق[٣٨]. وعني الجاحظ كغيره من العلماء العرب حينذاك، بإحياء التراث الثقافي العربي (القومي) في إطار الثقافة العربية الإسلامية وأكد على الاستمرار الثقافي قبل الإسلام وبعده[٣٩].

وكان المتنبي امتداداً حضارياً للحماسة والعنفوان والقوة التي عُرفت عند العرب، وكان يعكس في مفاخره ومدائحه الحماسية نزعة الحكمة عند العرب والتي عُرفت عن أهل اليمن خاصة: « الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية » كان كثير التعاظم، شديد الثقة بالنفس في عصر كان يتنازع الناس فيه الحكم أمام عينيه ويستأثرون بالسلطة ويقيمون الحروب، عرباً وعجماً، سوداً وبيضاً، مسلمين وكفاراً. وكان فوق ذلك خلاصة شعرية للإبداع العربي. والشعر ،مرة أخرى كما قيل « ديوان العرب وسجل مفاخرهم ».

وكان الكِندي نقطة تحول في الفكر العربي؛ كان جماع علوم العرب وعلوم الأوائل. ويمثل الهوية العربية الإسلامية الجديدة خير تمثيل. وكأنه بمؤلفاته الرائدة يسجل موقفا يعبّر عن تمسكه بهذه الهوية. قال (صاعد بن أحمد الأندلسي ت (٤٦٣هـ)) في كتابه طبقات الأمم: « ولا أعلم أحداً من صميم العرب اشتهر بالفلسفة، إلا أبا يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد الأشعث الكِندي الصحابي الجليل، وأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني أحد أشراف اليمن وكِلاهما يمنيان» .

ـ الدفاع عن الهوية:

وإذا كان الهمداني يحرص على إبراز الخصوصية اليمنية كما كان يصنع في استعمال بعض المفردات المحلية وإثبات بعض نصوص اللغة اليمنية القديمة، فإنه في الوقت نفسه كان أكثر الناس حرصاً على توكيد عربية أهل اليمن في ثنايا مؤلفاته. بل إنه في فصل عن لغات الجزيرة من كتاب الصفة يحاول تحديد المناطق التي لغة أهلها ليست بفصيحة أو تتشاكل لغتها لغة

---

(٣٨) رسائل الجاحظ،عبد السلام هارون (ج١) ص ١٢ - ١٣.
(٣٩) عبد العزيز الدوري في دراسات إسلامية، جامعة اليرموك (١٩٨٣) ص ١٧٥.

الإكليل، إنما هو تكملة وتصحيح في الوقت نفسه لما قام به علماء قبله ـ مثل (ابن الكلبي) الذين عنوا بأخبار وأنساب عرب الشمال، وهو يجلّهم وينقل عنهم ولكن هؤلاء العلماء قد يخطئون في أنساب اليمن وأخبارها بسبب أنهم من أهل البُعد عن اليمن. وإن ما وصفه الهمداني من المنازل والعمران في كتاب (صفة جزيرة العرب) ليس مقصوراً على بلاد قحطان وإنما هو وصف لجزيرة العرب العجم. بل إن ما جمعه وحققه من أنساب أهل اليمن وأخبارهم في موسوعته شمالها وجنوبها، ولم يطل الحديث عن الديار الشمالية خشية التطويل على حد قوله، وإسهابه في الحديث عن الديار الجنوبية إنما لكثرة معارفه عنها بحكم مقامه فيها. وتحديده لجزيرة العرب يمتد ليشمل جزيرة العراق ونهر الفرات وسوريا وفلسطين. وهو بذلك الموقف الهادىء الرصين إنما يدافع عن قومه وتراث قومه وموروثهم الثقافي والحضاري، ضد المواقف النقدية والسلبية التي تبناها بعض الكتّاب العجم.

ولا ريب أن الهمداني كان على وعي بذلك الصراع الذي شهدته بغداد من خلال ما يمليه روح العصر وثقافته. فقد كان أبوه يسافر إلى بغداد، كما أنه كان في صنعاء (جالية) فارسية كبيرة. وكان الهمداني يكنُّ احتراماً لمن لا يدخلون في العصبية منهم[٤٠]. وفي آخر الجزء الأول من كتاب الإكليل يورد الهمداني عدداً من قصائد الشاعر (عبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي) وفيها يهجو الأبناء ويحرض عليهم أيام حربهم مع الشهابيين.

وفي كتاب الإكليل الجزء الأول، باب تصحيح نسب قضاعة يروى نسب لقمان الحكيم نقلاً عن كثير من أصحاب السير والتأريخات وبعض الشعوبية، مثل ابن خرداذبة وغيره.. ويستشف من النص أنه لا يثق بأقوال الشعوبية كثيراً وإن كان ينقل عنهم أحياناً.

ويذكر الهمداني في (كتاب الدامغة)[٤١] على لسان سليمان بن عبد

---

(٤٠) ص ١٤٨، الهامش في كتاب عبد الرحمن عبد الواحد، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع، مرجع سابق.

(٤١) كتاب الدامغة ص ٧٨ - ٧٩.

الملك قوله: «يا عجباً من هذه اليمانية كان الملك فيهم فما حسبونا ولا دروا أنّا على الأرض. وصار الملك إلينا فاحتجنا إليهم فما يتم أمر إلا بمكاتفتهم لنا عليه ومشورتهم فيه. فادعت هذا القول الفرس وذكروا أنه إنما عناهم بذلك وليسوا به. والدليل على ذلك أن أحداً من بني أمية لم يستوزر أحداً من الفرس، ولم يحارب معه، ولم يطلب منه مكيدة في حرب، وكيف وقلوب الفرس يومئذ فاسدة على العرب، عند ذهاب مُلكها ونقض أسبابها وتصرفها. وكيف تصفو قلوبها للعرب بالنصيحة ولم تخمد نيران الحسائف منها»[٤٢] ويثبت الهمداني في آخر كتاب الصفة قصيدة الرداعي التي يصف فيها طريقه إلى الحج. وفي هذه القصيدة وصف لمدينة صنعاء وسكانها. يقول الرداعي:[٤٣]

إن رابها من حَدَث الزمان ريب عدو حرب الأضغان

وهي إشارة تومىء إلى كثرة (الأبناء) من بقايا الفرس في المدينة. وإذا كان القحطانيون والساسانيون يقفون صفاً واحداً للدفاع عن مدينة صنعاء فإنهم أيضاً قد يختلفون ويشتد التوتر بينهم، والأسباب كثيرة ربما كان منها ما هو امتداد (للعصبية الشعوبية). ويعتقد الهمداني أن كثيراً من أهل صنعاء ولا سيما الأبناء، قد غيروا في قصيدة الرداعي أشياء نفاسةً وحسداً. ثم يكمل فيقول: «فلم يكن بصنعاء لها نسخة على الاستواء، فلم أزل ألتمس صحتها حتى سمعتها من أحمد بن محمد بن عبيد من بني ليف من الفرس. وكان لا يدخل في عصبية ولا يَلِتُ أحداً حقه.[٤٤] ويقول الهمداني في إحدى قصائده لأحد الشعراء في صعدة معرضاً بنسبه الفارسي[٤٥]:

وأضحت وشايظ من فارس تهمهم حولي كمثل النسس
ولم أكُ معتمداً فارساً بفخرٍ يجدُّ لها ما درس

---

(٤٢) الحسائف: الحقد والبغضاء - الدامغة - الهامش ص ٧٩.
(٤٣) صفة جزيرة العرب ص ٤٠٩.
(٤٤) المصدر نفسه ص ٤٠١.
(٤٥) من مخطوطة طراز أعلام الزمن لعلي بن الحسن الخزرجي ص ١٢٠، صورة فوتوغرافية، عن دار الكتب المصرية بمعية الأستاذ عبدالله الحبشي. مصورة عن مكتبة الإمام يحيى رقم المخطوط ٤٩ تاريخ: «كاد أن تنافي» في الأصل كودنا أنافي.

ولـكـنـهـــا أشبـهـت « كـــاد أن» تُنـــافي الـيقـيـن بـبـعض الـلبس
وقـد سألهم ســائـل مَنْ أبـوك فـقال من اللوم خالي الفُـرُس

وإذا كانت هذه الأبيات قد قيلت في موقف اشتباك للهمداني مع خصومه الشعراء في إطار العصبية القحطانية والعدنانية، إلا أنها تومىء إلى تحسس الهمداني للعصبية الكبرى (الشعوبية) التي عُرفت في (المركز) ،بين الفرس والعرب. بل يمكن القول إن الهمداني في فترة حياته الثانية كان عالماً عربياً مسلماً يدافع بعلمٍ وبصيرة وأُفق واسع وبأسلوب التأليف عن تلك الهوية العربية الإسلامية التي خشي كغيره أن تضعف وتمّحي بعد تمزق الكيان السياسي الكبير. أي أن (مفتاح شخصية الهمداني) في مرحلة التأليف العلمي ربما كان في (العصبية العربية)، وليس في العصبية القبلية، إذا صح التعبير. فالعرب لديه هم العرب العاربة والعرب المستعربة معاً. وإذا كان عرب اليمن لديه هم العرب العاربة فذلك لأنهم أهل الحضارة القديمة وحضارتهم وكرم محتدهم فخار للعرب جميعاً في جزيرتهم.

ـ خاتمة الهمداني في صورة عصره:

كان روح العصر يقتضي أن يشارك مثل الهمداني علماء عصره في هموم الأمة وقضاياها، بعد أن اعترى كيانها السياسي الضعف والوهن، وأصابها التمزق والتفكك، وذلك في قمة تفوقها العلمي وازدهارها الحضاري. كان هناك في الواقع (مأزق حضاري) على حد تعبير (محمود صغيري) في كتابه عن الهمداني* لا بد من مواجهته، وانكسار داخلي في الذات العربية والإسلامية، لا مفرّ من محاولة إصلاحه. فكان ذلك الإنتاج الرائع والغزير ـ كما تمثل لدى عدد من أولئك العلماء، ومنهم الهمداني، في مجالات علوم العرب وعلوم الأوائل. وكانت تلك المحاولات لإعادة صياغة الماضي وإحيائه عن طريق وضع سلاسل النسب والعناية بالأخبار والقصص والآثار والعمور، والعودة إلى

(*) الهمداني مصادره وآفاقه العلمية، صدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء (بدون تاريخ) ص ٨.

الاستشهـــاد بالشعر والعناية بوصف جزيرة العرب وقبائلها وأماكنها، ومسالكها، وخيراتها. وفي الوقت نفسه، حرصوا على الإبداع في العلوم فألّفوا في الكيمياء والمعادن، والرياضيات والفلك والمواقيت والفلسفة. وكان الهمداني يجمع ذلك كله، فقد جمع إذا صح التعبير (ويلات) العصر و (خيراته.).

ـ الموقف الأصغر والموقف الأكبر:

كانت مرحلة الشباب لديه تمثيلاً (للموقف الأصغر) في حياة عالم كبير، انحصر فيه حينذاك ضمن نطاق ضيق من العصبية والمحلية، وكان سبيله لتعزيز ذلك الموقف، الجدل المضني لصاحبه والقول الحاد لدفع منْ يخالفه. وكان في مرحلته الأخرى يمثل (الموقف الأكبر) الذي اجتمع فيه الوعي المحلي والجماعي (القومي) معاً كوجهين متلازمين لعملة واحدة. وأضحى التأليف لديه سبيلاً للدفاع عن موقفه، بالحجة البالغة وجدال من لا يرى رأيه بالتي هي أحسن، أو دفعه بالحق الذي لا يُمارى فيه. فقد ألَّف كتاب الإكليل، بمجلداته العشرة ليكون موسوعة حضارة «عرب اليمن» قبل الإسلام، وكتاب «صفة جزيرة العرب» ما هو إلا دفاع بأسلوب غير مباشر عن تراث العرب حضراً وبدواً في جزيرتهم، ودفاع عن الصحراء والثقافة العربية القديمة ضد بعض الكتّاب في الأمصار الإسلامية، الذين حرصوا رغم تعرّبهم على إحياء التراث «الإيراني» القديم، وحاولوا تحدي الموروث العربي، وفاخروا بتراثهم وعلا صوتهم في الثقافة العربية الإسلامية. وبدأ أثرهم يظهر في حياة العرب ولغتهم، بل وبدأ بعد حين ظهور الشعر والنثر في الإمارات الفارسية الجديدة. فكان بداية انقسام في الثقافة وإحياء للهوية القومية. فتجلّت الحاجة حينئذ إلى معرفة الأصيل من ثقافة العرب وتثبيته[٤٦] قال بروكلمان في كتاب (تاريخ الشعوب الإسلامية)[٤٧] «وفي بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلي

---

(٤٦) راجع (صالح أحمد العلي) في مقدمة كتاب بلا العرب للأصفهاني ص ١٤ ـ ١٦، تأليف حمد الجاسر وصالح العلي، منشورات دار اليمامة الرياض ص ٢١.

(٤٧) راجع (بروكلمان) ص ٢٦٥ ،مرجع سابق.

على الرغم من أن العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل عن عناية خاصة بوصف البلدان، يذكيها في جنوب بلاد العرب وبخاصة، اعتزاز بالحضارة العربية التي تمت لتلك الديار قبل الإسلام، على ما نرى في (صفة جزيرة العرب) الذي وضعه الهمداني ».

إن الهمداني في اهتمامه باليمن في كتاب صفة جزيرة العرب ينطلق من عنايته بالموروث الأدبي الذي توفر له والذي حدد مسار تأليفه، وليس من تعصب وطني أو نزعة إقليمية كما قد يتبادر إلى الذهن لأوّل وهلة. فلم يكن الهمداني يهدف بالدرجة الأولى في تأليفه إلى تحقيق رغبة في نفسه كإبراز دور بلده، كما يبدو لأول وهلة من الاطار العام لأعماله، وإنما كان رائده العلم بالدرجة الأولى.
وكتابه صفة جزيرة العرب هذا مثال على اهتمامات الهمداني الواسعة التي تتخطى حدود الجغرافية الإقليمية إلى مشاهدات جمعها في رحلاته، أو معلومات غريبة متنوعة ينشرها بين دفتي كتابه، وإذا كان سلف الهمداني ومعاصروه من علماء الجغرافيا (كأبي دُلَف) و (ابن فضلان) يرون أن علمهم ينحصر في النقل المحض لما شاهدوه أو جمعوه في رحلاتهم، ولا يعنون بالتصنيف الرياضي للمكاك، بكل آفاقه أو حتى يكلفون أنفسهم مشقة الرواية عمّن سبقهم في تلك الميادين، فإن إحاطة الهمداني بعلوم زمانه قد عمّت أيضاً نظريات تتعلق بأقاليم المناخ وذكر درجات القياس، ونقل ما أتى عن بطليموس وتفسيره. وبذلك ربط الهمداني علم الجغرافية عند المسلمين بعلوم الأوائل واستطاع أن يجعل من الجغرافيا علماً مزيجاً من علوم العرب وغير العرب في عصر لم يكن علم الجغرافيا علماً قائماً بذاته(٤٨).

ويمكن اعتبار كتاب (الجوهرتين العتيقتين) كتاباً علمياً في المعادن والكيمياء، ومحاولة ناجحة من الهمداني في اتباع نهج العمل التجريبي الذي

---

(٤٨) يراجع بهذا الخصوص كتاب « أوراق في تاريخ اليمن وآثاره»د. يوسف محمد عبدالله منشورات مشروع الكتاب صنعاء (١٩٨٥) ص ١٥٥ ـ ١٧٢، وهو فصل نقله المؤلف من الألمانية عن كتاب تقويم البلدان والجغرافيا في محيط الحضارة الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي تأليف « ارنهيلد شولتن» منشورات معهد الجغرافيا بوخوم (١٩٧٦).

يسهم في (تسارع) أداء عمل الطبيعة وتطويره نحو الأرقى. وهو يحقق تقدماً علمياً في مجال المعادن والكيمياء من خلال التجربة والنتيجة، وليس من خلال النظر والفرضية.

إن الكتاب شاهد آخر بين المؤلفات العربية العديدة التي تشهد على توحد الثقافتين العربية والهلنستية في العصور الوسطى: علوم الأوائل وعلوم العرب. فقد نقل لنا في مجال التعدين وصنعة المعادن تقليداً حرفياً أصيلاً. وحين تسنى لأوروبا في عهد لاحق تلقّف مثل هذا التقليد، كان لا يزال حينذاك على حاله دون تغيُّر يُذكر[٤٩]. أي أن الكتاب مثال جيد على دور الحضارة العربية الإسلامية في تهيئة سُبُل التقدم العلمي الذي شهدته الحضارة الغربية في العصر الحديث، والذي استمر بصورته الإنسانية حتى اليوم.

ـ الخصوصية والعالم الكبير:

إن العالم الكبير في أي مكان، ومن أي زمان هو في حقيقة الأمر مُلك للعالم كله وليس لوطنه فقط. وإن توكيد دور مثل هذا العالم وربطه بمحيطه قد لا يعني بالضرورة توكيد تعصب قومي، أو انحياز إقليمي. ذلك لأنه من طبيعة الأشياء، أن ينسب عالم ما إلى وطنه، بل من المتعارف عليه أن تفخر الأقوام بعلمائها، وتحرص على ذكر ما قاموا به من منجزات، وتهتم بالإشادة بهم أكثر من غيرهم، وإذا ما ألقى المرء نظرة فاحصة على دوائر المعارف العالمية مثلاً، كالأميركية والبريطانية والفرنسية والألمانية والروسية، لوجَدَ أن كل واحدة منها تُعنى بالدرجة الأولى بالعلماء الذين ينتمون إلى البلد الذي صدرت فيه تلك الموسوعة وإلى لغته القومية. أي أنها تغفل عمداً في طبعاتها المتعددة كثيراً من الأعلام أو المنجزات التي تنتمي إلى غير لغة بلد تلك الموسوعة وأهلها. وتنتهج بقصد وإصرار سياسة محلية ووطنية تكثر فيها من ذكر شخصيات بلدانها وتؤكد فيها شخصية وطنها. وتعزز بها ذاتها الثقافية. وإن وجود الخصوصية المحلية

(٤٩) كتاب الجوهرتين العتيقتين، تحقيق كرستوفر تول، ط ٢ منشورات مشروع الكتاب صنعاء (١٩٨٥) ص ٥٥.

ضمن ثقافة الأمة الشاملة لا يعني دوماً إثارة النزعة المحلية التي تؤدي إلى تعصب « شوفيني » ضيق. وإن الاعتراف بالخاص لا يعني نكران العام. وحب الوطن لا يعني كُره ما عدا ذلك. والأصل في مثل هذه الأمور أن يبدأ المرء بالقريب قبل البعيد، وأن يحب في أول الأمر ما يعرف ويعرض عمّا يجهل. وكذلك العالم قد يسهب فيما تمكن من معرفته لسهولة الوصول إليه، وقد يقصر عن تبيان ما لم يتأتّ له اللحاق به. وقد يتحدث المرء ساعات عن نفسه حتى وإن كانت غير ذات أهمية، لأنه يعرف عنها الكثير لقربها منه ولملازمتها إياه، وفي الوقت نفسه قد يعجز عن تقديم زائر لا يعرفه حق المعرفة لصديق له رغم أن هذا الزائر أهمُّ منه، ذلك لأن الظروف لم تسنح له أن يتعرف على تلك الشخصية الهامة، وليس لأنه امروء أناني معجب بنفسه يتعصب للذات ويقلل من شأن الآخرين ليس إلا.

وهكذا كان العلامة الهمداني، يحيط بما تيسر له من معارف عصره البشرية والجغرافية، وفي الوقت نفسه كان له دراية خاصة بتلك الأمور التي تُعنى بأهله ـ أهل اليمن ـ وببلاده اليمن. وقد لا يكون له في مثل هذا الأمر خيار، أو صادر منه عن سبق إصرار، بل إن بعضهم قد تناول الأمر من وجهة نظر أخرى ويأخذ بالرأي الذي يقول إن من عوامل نبوغ الهمداني هو استفادته من موروث (محلي) غير مدون بقي تواتره قصراً على أهل اليمن أنفسهم، ولكنه يعكس مظاهر حضارة قديمة اندثرت معالمها وظلت ذكراها عالقة في أذهان الناس وبقيت روحها تسري في أعماقهم حاملة معها نُبَذاً من معارفها الأصلية وطرفاً من تجارب تلك الحضارة العريقة.

على أن أخبار تلك الحضارة القديمة كادت أن تنطمس في عصر الهمداني وأن تُضحى نسياً منسياً. فأتى « ليوقف سمعه على أبناء العصور الغابرة وتتبع المعروف من الأخبار وأيام الناس ثم نقَّر عن غامضها، وتبيَّن في مُلتبسها، وتنكَّب لمجهولها، ومحّص على صحيحها ووقف على سقيمها، وبذلك أسس علم الأخبار في اليمن على العين الجليَّة، وسلك به الجادة السوية»،[٥٠] =

(٥٠) الإكليل ج١ ص ٨٣، تحقيق الأكوع، ص ٢ بغداد (١٩٧٧).

فأَحْيَى ذكر اليمن السعيد والبلدة الطيبة المذكورة في القرآن الكريم بمؤلفات تاريخية وجغرافية واجتماعية ولغوية قيمة، وذلك في إطار الثقافة العربية الإسلامية، فكانت مُتَّكأً هاماً أسعف عبر الزمن على تزايد (الوعي القومي) للعرب بوجه عام والوعي المحلي بوجه خاص. ذلك هو فضل الهمداني عند منْ يقول بهذا الرأي ولهذا اشتهر بين قومه « بلسان اليمن ». غير أن الهمداني في حقيقة الأمر تجاوز الخصوصية المحلية في كثير من مؤلفاته. وكان رائداً في مجالات شتى، فقد كان فقيهاً وأديباً وشاعراً ولغوياً وفلكياً، وعالماً طبيعياً وفيلسوفاً، متعدد المشارب، غني بالمعارف أسهم إسهاماً بيّناً في إثراء التراث العربي الإسلامي بما يسوّغ رفعه إلى مصافّ علماء المسلمين البارزين في القرن الرابع الهجري، العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية.

= حاشية: بعد أن أعددت هذا البحث للنشر وصلني كتاب بعنوان SOUTH ARABIA IN EARLY MIDDLE AGES هدية من مؤلفه M. B. PIOTROVSKY وهو كتاب جديد يلمس فيه الجهد الكبير. وقد يختلف المرء مع بعض نتائج هذه الدراسة، إلا أنه لا يلبث أن يعترف بثراء معارفها وحسن تناول أطروحاتها. وقد أعانني مشكوراً على المطالعة الصديق محمد الشعيبي الذي يعدُّ ترجمة للكتاب من الروسية إلى العربية. وقد جاء في الكتاب بعض الآراء التي تعزز طرفاً مما ذهبت إليه في هذا المقال ففي ص ٦٧ من الطبعة الروسية، موسكو ١٩٨٥ ورد ما يلي: كان الهمداني عربياً مخلصاً ومسلماً صالحاً مثل نشوان الحِمْيَري (القرن الثاني عشر) الذي ألف القصيدة الحميرية. فلم تتعارض عند الهمداني « محليته » مع « العروبة » مثلما تعارضت مع « الشعوبية » الفارسية.. ولم تكن « محلية » الهمداني أو « حِمْيَرية » أهل اليمن هجوماً على سائر العرب أو موجهة ضد الإسلام. بل إن مناقب أهل اليمن كانت تعتبر جزءاً من مناقب العرب كلها..

المراجع الرئيسية

- القرآن الكريم .
- الهمداني الحسن بن أحمد - الإكليل الأجزاء ١، ٢، ٨، ١٠.
- الهمداني - الحسن بن أحمد - صفة جزيرة العرب - تحقيق محمد علي الأكوع - دار اليمامة ١٩٧٤ م.
- الحميري -نشوان بن سعيد-القصيدة الحميرية وشرحها- القاهرة ١٣٧٨هـ .
- المغربي - ابن سعيد - نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب - تحقيق كروب، هايدلبرج ١٩٧٥ م.
- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام
- أحمد فخري - رحلة أثرية إلى اليمن - ترجمة د. يوسف محمد عبدالله وآخرون. - مشروع الكتاب صنعاء ١٩٨٨ م.
- حسين الويسي - اليمن الكبرى - القاهرة ١٩٦٢م.
- زيد عنان - تاريخ حضارة اليمن القديم - ١٩٧٦ م
- مطهر الأرياني - في تاريخ اليمن شرح وتعليق على نقوش لم تنشر - صنعاء ١٩٧٣ م.
- مجلة ريدان - المجلدان الأول والرابع .

Die Geschichte von Saball; H. Von Wissmann, Wien (1982). -

Arabian; A. Grohmann, Munchen (1963) -

Inscrizioni Sudarabishe, vol. 1. Napoli (1974) -

Corpus Inscriptionum Semiticarum. IV, Paridiid (1889 — 1911 — 1929) -

New Ephemeris fur semitische Epigraphik -

Warfar in Ancient south Arabial - A. F. L. Beeston - London (1976) -

Sabaean Inscription from. Mahram Bilqis, A. Jamme Baltimore (1962) -

Himyaritica, dans le Museon, J. Ryckmans. -

Le Hautes - Terres du Nord « Yamen Avant L'Islam» Tome 11: Ch. Robin (1982) -

- المقالة العاشرة، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (١٩٧٩).
- الدامغة، تحقيق محمد بن علي الأكوع.
- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، بيروت (١٩١٢).
- جمال الدين القفطي، أنباء الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، القاهرة (١٩٥٠).
- الخزرجي، علي بن الحسن، طراز أعلام الزمن، مخطوط.
- يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة (١٩٦٨).
- لوفجرن، أوسكار، «مادة الهمداني» في دائرة المعارف الإسلامية النسخة الانجليزية.
- علي محمد زيد، معتزلة اليمن (فصل عن الهمداني).
- لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة العامة المصرية للكتاب (١٩٨٠).
- لانكستر هاردنج:
- HARDING, G.L.: AN INDEX AND CONCORDANCE OF PREISLAMIC ARABIAN NAMES AND INSCRIPTIONS UNIVERSITY OF TORONTO PRESS (1971).
- التوزيع السكاني، فرع تجهيز البيانات، الجهاز المركزي للتخطيط ج. ع. ي. صنعاء (١٩٧٨).
- STEFFEN, HANS: PRELIMINARY REPORT NO 5, ZURICH (1977).
- يوسف محمد عبد الله، الأعلام عند الهمداني ونظائرها في النقوش:
- ABDALLAH, Y: DIE PERSONENAMEN IN AL-HAMDANI'S ALIKLIL UND IHRE PARALLELEN IN DEN ALTSUEDARABISCHEN INSCHRIFTEN TUEBINGEN (1975).
- عبد الله الشيبة، أسماء الأماكن في النقوش:
- Al - SCHEIBA, A.H.: DIE ORTSNAMEN IN DEN ALTSUEDARABISCHEN INSCHRIFTEN MARBURG (1982).
- مجموعة النقوش السبئية:
- JAMME, ALBERT: SABAEAN INSCRIPTIONS FROM MAHRAM BILQIS (MARIB) PUBLICATIONS OF THE AMERICAN

FOUNDATION FOR THE STUDY OF MAN. VOL. III. BALTIMORE (1962).

- المدونة الفرنسية (ريبرتوار):

RES:

- REPERTOIRE DEPIGRAPHIE SEMITIQUE PUBLIE PAR LA COMMISSION DU CORPUS.

- المدونة الألمانية (افيمرس):

NESE

NEUE EPHEMERIS FUER SEMITISCHE EPIGRAPHIK

- المدونة الايطالية (جاربيني):

- GARBINI G.: ISCRIZIONI SUDARABICHE. VOL I ISCRIZIONI MINEE. NAPOL. (1974).

- شبرنجر: جغرافية بلاد العرب:

- DIE ALTE GEOGRAPHIE ARBIENS.. BERN (1975)

- فون؛ فيسمن:

- WISSMANN. H. VON, ZUR GESCHICHTE, UND LANDESK UNDE VON AL TSUEDARABIEN. WIEN (1960).

- قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، الدكتور عبد الرحمن الأنصاري، منشورات جامعة الرياض، (١٩٨٢).

- صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، ١٩٥٥.

- مجلة العرب ج ١١ و١٢ س ١١، اليمامة، الرياض (١٩٧٧).

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (عدة أجزاء)، دار اليمامة، الرياض.

- بلاد العرب للأصفهاني تحقيق حمد الجاسر ود. صالح العلي، دار اليمامة (١٩٦٨).

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- تاريخ سبأ = DIE GESCHICHTE VON SABA, II HERMAN V. WISSMANN WIEN (1982).

- في سبيل جغرافية تأريخية لليمن = ZUR GESCHICHTE UND LANDESKUNDE VON ALT SUEDARABIEN HERMAN V WISSMANN WIEN (1964).

- اليمن الكبرى، حسين بن علي الويسي، القاهرة (١٩٦٢).

- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، طبعات عدة.

- عرفان، شهيد، حملة امرىء القيس على نجران، مصادر تاريخ الجزيرة (أبحاث ندوة) الكتاب الأول، الجزء الأول، جامعة الرياض (١٩٧٩).
- برونر = ARCHAEOLOGISCHE BERICHTE AUSDEM YEMEN BAND II (DIE ERFORSCHUNG DER ANTIKEN OASE VON MARIB) UELI, BRUNNER PHILIPP VON ZABERN MAINZ (1983).
- قصة أصحاب الأخدود، دراسة لغوية تاريخية.. إبراهيم الصلوي الجامعة اللبنانية (١٩٧٩) بيروت (غير منشورة).
- موسكاتي: مدخل إلى النحو المقارن للغات السامية = AN IN TRODUCTION TO COMPARATIVE GRAMMAR OF THE SEMITIC LANGUAGES MOSCATI AND OTHERS P. 125.
- كورتلر ٢ = WALTER W, MUELLER: SABAEISCHE FELSINSCHRIFTEN (KORTLER 2), I M 'NEUE EPHEMERIS FUER SEMITISCHE EPIGRAPHIK, BAND 3, WIESBADEN (1978).
- وراجع أيضاً (مولر ٢) في الكتاب نفسه ص (١٥٥).
- دراسات يمنية، العدد ٣، مدونة النقوش اليمنية القديمة، يوسف محمد عبد الله (قبوريات بيت الأحرق).
- جروهمن (بلاد العرب) = A. GROHMANN: ARABIEN:MUENCHEN, (1963).

الفهرست

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

هذه أوراق في تاريخ اليمن وآثاره .

تغطي كثيراً من مسائل التاريخ اليمني القديم والآثار اليمنية ، على امتداد الحقب .

وتحاول رسم صورة تاريخية ، تربط الماضي بالحاضر ، والأمة بالوطن ، والإنسان بالثقافة .

وتضم ، فيما تضم ، مطالعات في اللغات الأجنبية لخيرة المشتغلين بهذا المجال ، من أهل العلم ، وخاصة ما كتب باللغة الألمانية ، ونقله المؤلف مهذباً إلى العربية .